

الأستاذ الدكتور وهيب الزحيلي

النفس المربية

في العقيدة والشرعية والمنهج



المجلد السابع

آفاق معرفة متجددة



www.fikr.com



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا نَدَاءَ الرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
الموقف ٨ / ٢٤

النفس المنيعة

في العقيدة والشرعية والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد السابع

الجزءان ١٣ - ١٤





دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

<http://www.fikr.com/>

e-mail: fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد السابع

الرقم الاصطلاحي: ٧ - ١١، ١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٠٨ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ط ٢ / ٢٠٠٣م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النفس المنيعة

في العقيدة والشرعية والمنهج

المجلد السابع
الجزءان ١٣ - ١٤

- ٢ -

النفس الأمارّة بالسوء

﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ إِنَّ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥٣)

القراءات:

﴿ نَفْسِيْ إِنَّ ﴾ ، ﴿ رَبِّيْ إِنَّ ﴾ :

وقرأ نافع، وأبو عمرو (نفسِيْ إِنَّ، رَبِّيْ إِنَّ).

البلاغة:

﴿ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أمارة: من صيغ المبالغة، على وزن «فَعَّال» مبالغة في وصف النفس بالاندفاع نحو المعاصي والمهالك.

المفردات اللغوية:

﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيْ ﴾ من الزَّلَل أو السَّوء . ﴿ إِنَّ النَّفْسَ ﴾ جنس النفس .
﴿ لَأَمَّارَةٌ ﴾ كثيرة الأمر، مائلة بالطبع إلى الشهوات . ﴿ إِلَّا مَا ﴾ بمعنى «من» .
والمعنى إلا من رحم ربِّي من النفوس فعصمه، أو إلا وقت رحمة ربِّي، وقيل:
إن الاستثناء منقطع، أي ولكن رحمة ربِّي هي التي تصرف الإساءة.

والآية على الرَّاجح حكاية قول امرأة العزيز: زليخا أو راعيل، والمستثنى نفس يوسف وأمثاله. وقيل: ذلك من قول يوسف، والمعنى: لا أنزهها، تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق.

الخاصية:

هذه الآية من تنمة كلام امرأة العزيز، متصلة بما قبلها، قال أبو حيان: الظاهر أن هذا كلام امرأة العزيز، وهو داخل تحت قوله: ﴿قَالَتْ﴾ والمعنى: ذلك الإقرار والاعتراف بالحق، ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته، والذنب عنه، وأرميه بذنب هو منه بريء، ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشهوات بقولها: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾، والنفوس مائلة إلى الشهوات، أمارة بالسوء^(١). وكذلك قال ابن كثير: هذا القول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من امرأة العزيز بحضرة الملك؛ ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك^(٢).

التفسير والبيان:

قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، وليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته، وهو سجين، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بيوسف، وأنني لم أرتكب الفاحشة، فلم يحدث مني إلا مجرد المراودة أو المغازلة، فامتنع وأبى ولاذ بالفرار، ولا أنزه نفسي من الزلل والخطأ، إن النفوس ميالة بالطبع إلى الشهوات والأهواء.

إلا من رحمه الله الخالق، فصرف عنه السوء والفحشاء كيوسف وأمثاله.

ولكني لا أياس من رحمة الله، إن ربي كثير المغفرة، رحيم بالعباد.

وفي قول مرجوح: إن هذه الآية حكاية لقول يوسف، بمعنى: ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجه أثناء غيبته، وحال ثقته بي، واثمناؤه على عرضه، وما أبرئ نفسي البشرية من خواطر القلب، فكل نفس ميالة بالطبع للشهوات

(١) البحر المحيط: ٣١٧/٥

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٨٢/٢

والأهواء، إلا النفس التي عصمها الله من الانزلاق في المعاصي، ووفقها للاستقامة، وتلك هي نفس الأنبياء، وسيرة الصُّلحاء، إِنَّ رَبِّي غَفَّارٌ لِّذُنُوبِ الْخَاطِئِينَ، رحيم بهم إذا بادروا إلى التَّوبَةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ، ليخلصهم من آثار الذُّنُوبِ، ويظهر نفوسهم من شوائب المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام:

دَلَّت الآية على أَنَّ أَكْثَرَ النَّفُوسِ نَزَاعَةٌ لِلشَّهْوَةِ، مَيَّالَةٌ لِلهَوَى، ذات نزعة شريرة، تحتاج إلى مجاهدة ومكافحة ومراقبة وتحذير. جاء في الخبر عن النَّبِيِّ ﷺ: «ما تقولون في صاحب لكم، إن أنتم أكرمتموه وأطعتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرٍّ غاية، وإن أهتمموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية؟! قالوا: يا رسول الله! هذا شرٌّ صاحب في الأرض. قال: فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

واستدلَّ أهل السُّنَّة بآية: ﴿إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي﴾ على أَنَّ الطَّاعَةَ وَالْإِيمَانَ لَا يَحْصِلَانِ إِلَّا مِنْ اللَّهِ، وعلى أَنَّ انصراف النَّفْسِ مِنَ الشَّرِّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ.

ودَلَّت الآية أيضاً على مدى فضل الله وإحسانه فهو غفور لذنوب عباده، رحيم بهم إذا هم تابوا وأنابوا وأحسنوا العمل، أي يغفر للمستغفر لذنوبه، المعترف على نفسه، ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

الفصل التاسع من قصة يوسف يوسف في رئاسة الحكم ووزارة المالية

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِذِهِ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ٥٥ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ٥٧﴾

القراءات:

﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ :

وقرأ ابن كثير (حيث نشاء).

المفردات اللغوية:

﴿اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسى دون شريك. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي فلما أتوا به فكلّمه، وشاهد منه الرشد والذهاء. ﴿مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء. ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ ذو حفظ وعلم بأمرها، وقيل: كاتب حاسب.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كإِنْعَامِنَا عَلَيْهِ بِالْخُلَاصِ مِنَ السَّجْنِ. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ينزل من بلاد مصر أي مكان أراد، فصار صاحب الأمر والحكم بعد الضيق والحبس. وفي القصة كما يقول السيوطي: أن الملك تَوَجَّه وخَتَمَهُ وولاه مكان العزيز، وعزله، ومات بعد، فزوجه امرأته، فوجدها عذراء، وولدت له ولدين، وأقام العدل بمصر، ودانت له الرقاب.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوَفِّي أجورهم عاجلاً وآجلاً. ﴿وَلَنَجْزِيَ الْآخِرَةَ خَيْرًا﴾ من أجر الدنيا. ﴿وَكَاثِبُونَ يَبْغُونَ﴾ الشُّرك والفواحش، لعظمه ودوامه.

المناسبة:

بعد أن تحقق الملك الأكبر من أمر النسوة بناءً على طلب يوسف عليه السلام، وظهرت له براءته وعفته، طلب إحضاره إليه من السجن، ليصطفيه لنفسه، فلما سمع منه تعبير رؤياه، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية، وآمنه على نفسه، واثمنه على كل شيء، وسلّمه مقاليد الحكم والسلطة، وفوض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر.

التفسير والبيان:

المراد بالملك هنا: الملك الأكبر، وليس العزيز على الرأى الراجح، لطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض، ولأنه كان قبل ذلك خالصاً للعزيز، والآن يريد الملك الأكبر (الريان بن الوليد) استخلاصه لنفسه.

والمعنى: وقال الملك: أحضروه إلي من سجنه، أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي وموضع ثقتي، فلما خاطبه الملك وتعرّفه، ورأى فضله وعلمه وبراعته، وحسن أدبه، وسموّ أخلاقه، قال له: إنك عندنا اليوم وما بعده أصبحت ذا مكانة وعزّة وأمانة تؤمّن على كل شيء في أمور الحكم، وصاحب التصرف التام في شؤون البلاد.

روي أن يوسف لما خرج من السجن اغتسل وتنظّف ولبس ثياباً جددًا، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه، ثم سلّم عليه بالعربيّة، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ فقال:

لسان عمي إسماعيل، ودعا له بالعبرية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

وكان إبراهيم وأولاده وحفدته من العرب القحطانيين، وكان ملوك مصر من العرب الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس).

قال يوسف: اجعلني أيها الملك على خزائن الأرض: وهي الخُزْن التي تخزن فيها الغلال، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، أي ولّني عليها، لأشرف عليها، وأتصرّف فيها حتى أجعل توازناً اقتصادياً بين سنوات الخصب وسني القحط، فأنقذ البلاد من المجاعة التي تهدد أهلها، بحسب الرؤيا التي رأيت؛ لأنني حفيظ عليم، أي خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وفي هذا إيماء لأهمية التخطيط والتنظيم المالي وإقامة التوازن بين الموارد المالية والنفقات.

فأجابه الملك إلى طلبه، وجعله وزير المال والخزانة، وأطلق له سلطة التصرف في شؤون الحكم، لما لمس لديه من رجاحة عقل، وخبرة وضبط وسياسة، وحسن تصرّف، وقدرة على إحكام النظام.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا على يوسف في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السّجن، مَكَّنَّا له في الأرض، أي أقدرناه على ما يريد، وجعلنا له مكانة ومنزلة في أرض مصر، فانتقل من كونه مملوكاً إلى أن أصبح مالِكاً آمراً ناهياً، ذا نفوذ وسلطة، مطاعاً بعد أن كان تابعاً لغيره مطواعاً، حرّاً طليقاً بعد أن كان سجيناً أسيراً، وذلك لما تحلّى به من صبر، وإطاعة لله عزّ وجلّ، وعفة وخلق وعقل حكيم، فإنه صبر على أذى إخوته، وعلى الحبس بسبب امرأة العزيز، وعفّ عن السّوء والفحشاء، وامتنع من اقتراف المنكر، فأعقبه الله النّصر والتأييد، وأصبح في منصب سيّده السّابق الذي اشتراه من مصر، العزيز زوج التي راودته، قال مجاهد: وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السّلام.

وما أضاعه ربّه ورحمه وصانه، والله تعالى يَخْصُّ برحمته من يشاء ورحمته وسعت كل شيء، فيعطي الملك والغنى والصحة ونحوها من يريد من عباده. وقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ أي بإحساننا، والرحمة: النعمة والإحسان.

﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب الذين يحسنون أعمالهم، فنمنحهم في الدنيا سعادةً وعزّاً ومكانة، وفي الآخرة خلوداً في الجنان.

﴿وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ﴾ أي إن ثواب الآخرة للمؤمنين الأتقياء، وهو التمتع في الجنان خير وأعظم وأكثر من خير الدنيا وما فيها من متاع العزّ والسلطان، والجاه والملك، والمال والزينة ونحو ذلك.

والله تعالى يخبر بهذا أن ما أدخره لنبيّه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ مما أنعم عليه من التصرف والتفوذ في الدنيا، كقوله في حقّ سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩) وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَکُفْلًا وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٤٠﴾ [ص: ٣٨/٣٩-٤٠].

ومن جمع له الله السعادتین في الدنيا والآخرة، كان فضل الله عليهم أكثر، وعطاؤه أتم؛ لقيامهم بواجب الطاعة، واجتنابهم المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى ما يلي:

١ - إن الحوار وسيلة التعارف والتعرف على فضائل الإنسان ومعارفه، وبه يزن العاقل مقادير الرجال.

٢ - إن المقومات العالية من علم وخلق وأدب وحسن تصرف تبوئ صاحبها المنزلة السامية والمكانة الرفيعة.

٣ - يجوز طلب الولاية وإظهار كون الشخص مستعداً لها، إذا كان من أجل التعريف للمغمور غير المعروف، وكان الشخص واثقاً من نفسه ودينه وعلمه، وأهلاً لما يطلب.

وأما النهي عن طلب الإمارة في قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرة فيما أخرجه الشيخان: «لا تسأل الإمارة» والنهي عن مدح النفس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢/٥٣] فالمراد به في الحديث لمن لا يثق بنفسه من القيام بحق الولاية لضعفه وعجزه، أو لأغراض نفسه، والمراد بالآية تركية النفس حال العلم بكونها غير متزكية، وكل من المحذورين لا ينطبق على النبي يوسف عليه السلام وأمثاله الأنبياء؛ لأنه يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان، ولأن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول، وعلم يوسف أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الحقوق إلى الفقراء، فرأى أن قيامه بهذه الأمور فرض متعين عليه، وقال يوسف عن نفسه: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ عند من لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه.

٤ - يباح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسُلطان الكافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستعانة به، وكان مفوضاً في فعله لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء. وأما إذا كان عمله بحسب مراد الفاجر وهواه، فلا يجوز.

فإن كان المولى ظالماً فللعلماء قولان: أحدهما - جواز تولي العمل له إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف عليه السلام ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار بفعله لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من إعانة الظالم على ظلمه، وتركيته ودعمه وتأنيده بتقلد أعماله. وأما فرعون يوسف فكان صالحاً، وعن مجاهد: أن

الملك أسلم على يده. وإنما الطَّاغِي فرعون موسى، ثم إنَّ يوسف نظر في مصالح الأمة والبلاد وأملاك الملك دون أعماله، فزالَت التَّبعة عنه.

٥ - للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل إذا دعت الضرورة إليه، كالكسب المعيشي ونحوه.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تُضِيعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السَّلام كان من المحسنين.

٧ - غمرت رحمة الله وفضله وإحسانه يوسف عليه السَّلام لصبره وتقواه، وإنه سبحانه ما أضاع يوسف لصبره في الحبِّ، وفي الرِّقِّ، وفي السَّجن، وعلى أذى إخوته، وصبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة.

٨ - إن ثواب الآخرة وعطاء الله فيها أجلّ وأعظم وأكثر من عطاء الدنيا لمن كان مؤمناً تقيّاً؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا منقطع، وظاهر الآية: ﴿وَلَا تُضِيعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العموم في كل مؤمن متّقٍ، وهي تدلُّ دلالة خاصة على فضل الله على يوسف عليه السَّلام، فإن ما سيعطيه الله له في الآخرة خير وأفضل مما أعطاه إياه في الدنيا من الملك والسُّلطان والمكانة والسَّمو.

ودلّت هذه الآية بخصوصها على أن يوسف عليه السَّلام من الذين آمنوا وكانوا يتّقون، وهذا تنصيب من الله عزّ وجلّ.

والخلاصة:

تضمّنت الآيات شهادتين من الله تعالى ليوسف عليه السَّلام الأولى أنه كان من المحسنين، والثانية أنه كان من المؤمنين المتّقين. ودلّت آية أخرى وهي: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ على أنه من المخلصين، فصارت الشَّهادات من الله تعالى ليوسف ثلاثة: كونه من المتّقين، ومن المحسنين، ومن المخلصين. وسبب هذه الشهادات الصَّبر على مُراد الله فيه، والطَّاعة والتَّقوى وإخلاص العمل وصفاء النّفس من الأحقاد والضَّغائن.

الفصل العاشر من قصة يوسف أولاد يعقوب يشترون القمح من أخيه يوسف ومطالبته إياهم بإحضار أخيه

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِمَّنْ أَيْبِكُمْ آلَا تَزَوَّتَ أَيُّ أَوْفَى الْكَئِيلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠﴾ قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾

القراءات:

﴿أَيُّ أَوْفَى﴾:

وقرأ نافع (أَيُّ أَوْفَى).

﴿لِفَتْيَانِهِ﴾: قرئ:

١- (لِفَتْيَانِهِ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (لِفَتْيَانِهِ) وهي قراءة الباقيين.

البلاغة:

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ بين عرف وأنكر: طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وهم أحد عشر إلا بنيامين ليمتاروا لما بلغهم أن

عزیز مصر یعطی الطعام بثمره. ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ أنهم إخوانه، والمعرفة وعرفان الشيء: التَّفَكُّرُ في أثره. ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ الإنكار: ضد المعرفة، أي إنهم لم يعرفوه لبعده عهدهم به وظنهم هلاكه. ﴿جَهَّزَهُمْ﴾ أوفى لهم كيلهم من القمح الذي جاؤوا لطلبه من عنده، أي جعله تاماً وافياً. وجهاز السَّفَر: أهبطه وحوائجه، وجهاز العروس: حوائج الزَّفاف. ﴿يَأْتِجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ أي بنيامين لأعلم صدقكم فيما قلتم. ﴿أَوْفَى الْكَيْلِ﴾ أتمه من غير بخس. ﴿الْمُزْلِينَ﴾ المضيفين الضيوف، وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أي ميرة. ﴿وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ نهي أو عطف على محل: ﴿فَلَا كَيْلَ﴾ أي تُحْرَمُوا ولا تقربوا، أي فلا تقربوني ولا تدخلوا دياري. ﴿سَتُرَوُّدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه، ونستميله لتحقيق هذه الرغبة برفق. ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك لا نتوانى فيه. ﴿لِفَتْنَيْنِهِ﴾ لغلمان الكياليين، جمع فتى. ﴿يَضَعْنَهُمْ﴾ ثمن ما أتوا به من الطعام، وكانت دراهم فضة، وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم. ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لعلهم يعرفون حق ردها، أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا أَنْقَلَبُوا﴾ انصرفوا ورجعوا إلى أهلهم، وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرَجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

اضواء من التاريخ:

قال ابن عباس وغيره^(١): لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان، بعث يعقوب عليه السلام ولده لئيمية، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، لئينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف

(١) تفسير القرطبي: ٢٢٠/٩

عليه السّلام حين نزلت الشّدّة بالنّاس يجلس عند البيع بنفسه، فيعطيه من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقاً^(١).

وذكر السُّدِّي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين: أن السّبب الذي من أجله أقدم إخوة يوسف بلاد مصر: أن يوسف عليه السّلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السّبع السّنين المخصّبة، ثمّ تلتها السّبع السّنين المجدّبة، وعم القحط بلاد مصر بكماها، ووصل إلى بلاد كنعان: وهي التي فيها يعقوب عليه السّلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السّلام للنّاس في غلاتهم، وجعلها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وهدايا متعددة، وورد عليه النّاس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرّجل أكثر من حمل بعير في السّنة، وكان عليه السّلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط التّهار، حتى يتكفأ النّاس بما في أيديهم مدّة السّبع السّنين، وكان رحمة من الله تعالى على أهل مصر^(٢).

وغير هذه الرّوايات هي من الإسرائيليات.

التفسير والبيان:

وجاء إخوة يوسف عليه السّلام من أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر، يطلبون شراء القمح؛ لأن القحط عم بلاد الشّام ومصر، لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي النّاس الطعام بثمنه.

فلما دخلوا على يوسف، وهو في منصبه الرّفيع، عرفهم حين نظر إليهم؛ لأن ملامح الكبار لا تتغيّر كثيراً، وهم له منكرون، أي لا يعرفونه؛ لأنهم

(١) الوسق: ستون صاعاً، والصّاع (٢٧٥١ غم)، وعند الحنفية (٣٩٠٠ غم).

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٨٣/٢

فارقوه، وهو صغير حَدَث، وباعوه للسَّيَّارة، والملاح في حال الصَّغر تتغيَّر كثيراً في حال الكِبَر، ولأنهم قدرُوا هلاكه، وما دار في خَلْدِهِمْ أَنَّهُ سَيَصِيرُ إِلَى ما صار إِلَيْهِ، ولنسيانهم له بطول العهد.

وزاد في الأمر أَنَّهُ - كما ذكر السُّدِّي - شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيُّها العزيز، إِنَّا قدِمْنَا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كَتَا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أَحَبَّنَا إِلَى أَبِيهِ وبقي شقيقه، فاحتبسه أبوه ليتسلَّى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

لكن يبعد من يوسف عليه السَّلام أَن يَتَّهِمَ إِخْوَتَهُ وينسبهم إِلَى أَنَّهُمْ جواسيس وعيون؛ لَأَنَّهُ يَعْرِفُ براءَتَهُمْ عن هذه التَّهمة. وعلى كل حال إِنَّهُ سؤَال لا يقتضي صحته.

ولما جَهَّزَهُمْ بِجِهازِهِمْ، أَي لما أوفى لهم كيلهم، وحل أحالهم من القمح، وهي عشرة أحمال وزادهم حلين آخرين لأبيهم وأخيهم، قال: اثْنُونِي فِي الْمِرَّةِ الْقَادِمَةِ بِأَخْ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ؟ وَهُوَ بَنِيَامِينَ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَتَمُّ لَكُمْ الْكِيلَ الَّذِي تَرِيدُونَ دُونَ بَخْسٍ، وَأَزِيدُكُمْ حَمْلَ بَعِيرٍ آخَرَ لِأَجْلِ أَخِيكُمْ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ، الْمُضِيفِينَ لِلضُّيُوفِ، وَكَانَ أَحْسَنَ ضِيافَتِهِمْ؟ وَقَصْدُهُ مِنْ ذَلِكَ تَرْغِيْبُهُمْ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ؛ وَكَانَ السَّبَبُ فِي سؤَالِ يُوسُفَ عَنْ حَالِ أَخِيهِمْ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّ لَهُمْ أَباً شَيْخاً كَبِيراً وَأَخاً بَقِيَ فِي خِدْمَةِ أَبِيهِ، وَلَا بَدَّ لَهُمَا أَيْضاً مِنْ شَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ، فَجَهَّزَ لَهُمَا أَيْضاً بَعِيرَيْنِ آخَرَيْنِ مِنَ الطَّعَامِ، فَقَالَ يُوسُفُ: فَهَذَا يَدَلُّ عَلَى أَنَّ حَبَّ أَبِيكُمْ لَهُ أَزِيدَ مِنْ حَبِّ لَكُمْ، فَجِئْتُونِي بِهِ حَتَّى أَرَاهُ.

ثم أَنذَرَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أَي إِنْ لَمْ تَقْدُمُوا بِهِ فِي الْمِرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِرَّةٌ، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أَي وَلَا تَدْخُلُونِ بِلَادِي.

﴿سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه، ونحاول إقناعه بذلك برفق، وإنّا لفاعلون ذلك لا محالة، أي سنحرص على مجيئه إليك بكل إمكاناتنا ولا نبقى مجهوداً نبذله، لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وقال لفتيانَه أي لغلمانَه، اجعلوا بضاعتهم في رحالهم أي اجعلوا البضاعة التي اشتروا بها الطعام، وقدموا بها للميرة معاوضة، في أمتعتهم التي لهم من حيث لا يشعرون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لعلمهم يعرفون حقّ ردّها وحقّ إكرامنا لهم بإعادتها إليهم، لعلمهم يرجعون إلينا، بعد عودتهم إلى أهلهم، وفتح متاعهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - قد لا يعرف الأخ أخاه بسبب طول العهد والمدة، ولا سيما إذا تبدل حال الأخ من أدنى درجات الحال إلى أعلاها، مما يبعد عن التصور في الذهن احتمال معرفته.

٢ - تحقيق الغايات قد يستعمل من أجله التّغيب والتّرهيب معاً، كما فعل يوسف من أجل إحضار أخيه بنيامين، فالترغيب هو قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، والترهيب هو قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ١٠ لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده، كان ذلك نهاية التّرهيب والتّخويف.

٣ - اتّفَق أكثر المفسّرين على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم.

٤ - السَّبَب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم: هو ترغيبهم في العود إليه، والحرص على معاملته، حينما يعلمون أن بضاعتهم ردت إليهم، كرمًا من يوسف، وسخاءً محضًا.

٥ - استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؛ لأنه يجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ أمره بذلك ابتلاءً ليعقوب، ليعظم له الثواب، فاتَّبع أمره فيه، وهذا هو الأظهر كما قال القرطبي. وربَّما كان السَّبَب تنبيه أبيه على حاله، أو لتضاعف المسرة لأبيه برجوع ولديه عليه، أو إثارة لأخيه بالاجتماع معه قبل إخوته، لميله إليه.

الفصل الحادي عشر من قصة يوسف

مفاوضة إخوة يوسف أباهم لإرسال أخيهم بنيامين معهم في المرة القادمة

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُمْ حَافِظُونَ ١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ١٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعْنَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ١٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنِّي ۖ اللَّهُ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ١٦﴾

القرءات:

﴿نَكْتَلْ﴾:

وقرأ حزة والكسائي، وخلف (يكتل).

﴿حَفِظًا﴾: قرئ:

١- (حافظاً) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (حِظًا) وهي قراءة الباقيين.

﴿تُؤْتُون﴾: قرئ:

١- (توتون) وهي قراءة ورش، وحمزة وقفاً.

٢- (تؤتوني) وهي قراءة الدوري وصلأ.

٣- (توتوني) وهي قراءة السوسي وصلأ.

٤- (تؤتوني) وهي قراءة ابن كثير.

٥- (تؤتون) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب: ﴿حَبْرٌ حَفِظًا﴾ وقرئ: حفظاً: وهما منصوبان على التمييز، مثل قولهم: لله درّه فارساً.

﴿مَا نَبَغِي﴾: ﴿مَا﴾: استفهامية في موضع نصب؛ لأنها مفعول ﴿نَبَغِي﴾ وتقديره: أي شيء نبغي. ﴿لَتَأْتِيَنَّ بِهِ﴾ اللام لام القسم.

﴿إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾ قال الزّخشي: هذا استثناء متصل، مفعول له أي لأجله، والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّ بِهِ﴾ في تأويل المنفي، ومعناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، أي لا تمتنعون منه لعلّة من العلل إلا لعلّة واحدة، وهي أن يحاط بكم.

للفردات اللغوية:

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْدُ﴾ حُكِمَ بمنعه بعد هذا إن لم ترسل أخانا بنيامين.

﴿نَكْتَلُ﴾ نتمكن من اكتيال ما نحتاج إليه. ﴿وَأَنَا لَكُمْ لَحَفُظُونَ﴾ من أن يناله مكروه. ﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ أي ما آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل، وقد قلت في: ﴿وَأَنَا لَكُمْ لَحَفُظُونَ﴾ ثم فعلتم به ما فعلتم.

﴿فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا﴾ فاتوكل عليه وأفوض أمري إليه. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع علي مصيتين. ﴿مَا نَبَغِي﴾ استفهامية، أي: أي شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا؟ وكانواذكروا له إكرامه لهم. ﴿هَذِهِ يَضَعُكُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضح لقوله: ﴿مَا نَبَغِي﴾.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نأتي بالميرة لهم وهي الطعام، وهو معطوف على محذوف، أي ردت إلينا، فنستظهر بها، ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾ لأخي، أي مكيل بعير. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل على الملك لسخائه، أو سهل لا عسر فيه لتوافر الغلال لديه.

﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْتًا﴾ حتى تعطوني عهداً. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ بأن تحلفوا به. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَاطَ بِكُمْ﴾ بأن تموتوا أو تغلبوا، فلا تطبقوا ذلك ولا تستطيعوا الإتيان به، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، والتقدير: لتأنتني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم. ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه عهدهم بذلك. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه ﴿وَكَيْلٌ﴾ شهيد، ورقيب مطلع.

المناسبة:

الكلام وثيق الصلة بما قبله، فبعد أن ذكر الله تعالى مطالبة يوسف عليه السلام إخوته بإحضار أخيه بنيامين، ذكر هنا مفاوضتهم أباهم لإنجاز المطلوب، وإبداءه مخاوفه عليه كمخاوفه القديمة التي أظهرها عندما تأمروا على أخذ يوسف عليه السلام للصحراء بقصد الرّبع واللّعب.

التفسير والبيان:

حينما رجع أولاد يعقوب إلى أبيهم قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم: إن عزيز مصر منع عنا الكيل في المستقبل إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فإن لم ترسله لا نكتل، فأرسله معنا نكتل من الطعام بقدر عددنا، وإنّا له لحافظون من كل مكروه وسوء في الذهاب والإياب، فلا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك.

قال يعقوب: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيّبونه عني وتحولون بيني وبينه، وقد فرطتم في يوسف، فكيف آمنكم على أخيه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ أي فإني أثق به وأتوكل عليه وأفوض أمري إليه، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي هو أرحم الرّاحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي وتعلقي بولدي، وأرجو الله أن يرحمي بحفظه، وأن يرده علي، ويجمع شملتي به، إنه أرحم الرّاحمين.

وهذا دليل على موافقته على إرساله معهم، للحاجة الشديدة إلى الطعام، وعدم ملاحظته وجود قرائن تدلّ على الحسد والحقد فيما بينهم وبين بنيامين، خلافاً لحال يوسف.

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وأوعية طعامهم، وجدوا فيها بضاعتهم أي ثمن الطعام، ردّت إليهم، وهي التي كان يوسف أمر غلمان به بوضعها في رحالهم.

فلما وجدوها في رواحلهم قالوا: يا أبانا، ماذا نريد زيادة على هذا الإكرام وإحسان الملك إلينا، كما حدثناك، هذه دراهمنا ردّها إلينا، وإذا ذهبنا بأخيّننا نزداد كيل بعير بسبب حضوره. وهذا إذا جعلت ﴿مَا﴾ استفهامية، فإن كانت نافية كان المعنى: لا نبغي شيئاً آخر، هذه بضاعتنا ردّت إلينا، فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني، ثم نفعل كذا وكذا من جلب الميرة وغيرها.

إننا إذا ذهبنا مع أخينا في المرة الثانية وأرسلته معنا، نأتي بالميرة إلى أهلنا من مصر.

ونحفظ أخانا بنيامين بعنايتنا ورعايتنا، فلا تخف عليه.

ونزيد مكبال بعير لأجله؛ لأن عزيز مصر كان يعطي لكل رجل حمل بعير، دون زيادة ولا نقص، اقتصاداً وحسن تدبير.

وذلك الحمل الزائد أمر يسير قليل، أو سهل لا عسر فيه على هذا الرجل السخي الرحيم في مقابلة أخذ أخينا.

قال يعقوب، وقد تذكّر ماضي يوسف: لن أرسل بنيامين معكم حتى تعاهدوني عهداً موثقاً باليمين، لتعودنّ به على أي حال كنتم، إلا في حال يمتنع ذلك عنكم بأن تمهلكوا وتموتوا أو تُغلبوا على أمركم وتقهروا كلكم، ولا تقدرّون على تخليصه. ويلاحظ أن العهد المؤكّد باليمين يسمّى يميناً، وإن أُكّد ووثّق بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به بغير اليمين يسمّى ميثاقاً.

فلما آتوه أي أعطوه موثقهم، أي عهدهم المؤكّد باليمين، قال يعقوب: الله على ما نقول جميعاً وكيل، أي شهيد رقيب حفيظ مطلق، وأفوض أمري إليه، وقد وافق على إرساله اضطراراً من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - كان أولاد يعقوب فيما أخبروا به أباهم من منع الكيل صادقين، حتى يرسل معهم أخاهم، كما وعدوا عزيز مصر.

٢ - تعهد أولاد يعقوب عليه السلام بالمحافظة على أخيهم بنيامين، وكانهم لم يريدوا تكرار مأساة يوسف عليه السلام؛ لأنهم كانوا يحملون في صدورهم الحقد والحسد عليه، خلافاً لحال بنيامين.

٣ - تعلق إخوة يوسف بزيادة الكسب والربح، وطمحوا أن يأتوا مرة أخرى بطعام لهم من مصر من غير ثمن.

٤ - كان إكرام يوسف لإخوته ورده ثمن الطعام إليهم عاملاً مرغباً قوياً في عودتهم إليه مرة أخرى، مصطحبين معهم أخاهم بنيامين.

٥ - إن يعقوب النبي عليه السلام كان في حديثه مع أولاده مطمئناً إلى حفظ الله ورحمته، فهو نعم الوكيل الحافظ، وهو أرحم الراحمين بعباده، ولا سيما حال الضعفاء وكبار السن أمثاله، فحفظ الله له خير من حفظكم إياه.

٦ - تشدد يعقوب عليه السلام هذه المرة مع أولاده أكثر مما حدث عند إذنه بإرسال يوسف عليه السلام، بعد تلك التجربة القاسية وما أعقبها من حزن شديد وألم، فطلب منهم الميثاق وهو العهد المؤكد باليمين على إحضاره إليه إلا في حال العذر القاهر والإحاطة بهم، قال مجاهد معناها: إلا أن تهلكوا أو تموتوا.

وقد دلّ قوله تعالى: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على أنه أجابهم إلى إرساله معهم.

٧ - أراد أولاد يعقوب عليه السلام تطيب نفس أبيهم بقولهم: ﴿مَا نَبِغِي هَٰذِهِ بِضَعْنَا﴾ فهم حشدوا لإقناعه وتطيب نفسه كل الأسباب والبواعث المادية واستغلوا حاجتهم الشديدة: أخذ الطعام دون ثمن، إعالة الأهل، إضافة حمل بعير، وضموا إلى ذلك كله التعهد بالحفظ والرعاية، فلم يجد بداً من الموافقة على إرسال بنيامين معهم.

٨ - قوله تعالى: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَأَأْتِيَنِي بِهِ﴾ دليل على جواز الكفالة (الحمالة) بالعين والوثيقة بالنفس (كفالة النفس) وللعلماء فيها رأيان: رأي الجمهور: هي جائزة إذا كان المكفول به مالاً. ولا تجوز الكفالة بالحدود والقصاص في رأي المذاهب الأربعة، وأجاز الشافعية

الكفالة بالقصاص، والقذف، والتعزير؛ لما فيها من حق العبد. وقال بعضهم: لا تجوز الكفالة بالنفس، لتعذر إحضار المكفول بنفسه، ولقوله تعالى على لسان العزيز في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِتْنَا إِذَا لَطَلِمُوا﴾ (٦٨)

الفصل الثاني عشر من قصة يوسف

وصية يعقوب لأولاده بالدخول

إلى مصر من أبواب متفرقة

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

الإعراب:

﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ إما مفعول وإما فاعل، والتقدير على المفعولية: ما كان يغني من قضاء الله شيئاً، وعلى الفاعلية: ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضاائه.

البلاغة:

﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ فيه طباق السلب، وفيه إطناب: وهو زيادة اللفظ على المعنى، للتأكيد والتقرير وتمكين المعنى في النفس.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر. ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال

وأبهة مشتهرين في مصر بالكرامة والحظوة عند العزيز، فخاف عليهم أن يدخلوا جماعة واحدة فتصيبهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك في المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذ. ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي وما أدفع عنكم بقولي ذلك شيئاً قدره الله عليكم وقضاه، وإنما ذلك شفقة، فإن الحذر لا يمنع القدر. ومن: صلة زائدة لتمكين النفي.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله وحده، يصيبكم لا محالة إن قضي عليكم سوء، ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ به وثقت. ﴿فَلَيْسَ تَوَكَّلَ﴾ الفاء لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم. والواو في قوله ﴿وَعَلَيْهِ﴾ للعطف، وقدم ﴿عَلَيْهِ﴾ في عطف الجملة على الجملة للاختصاص.

﴿مَنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ما كان يفيد رأي يعقوب واتباعهم له مما قضاه الله عليهم شيئاً، فحدث وضع الصواع في رحل بنيامين، وتضاعفت المصيبة على يعقوب.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ استثناء منقطع، أي ولكن حاجة في نفسه يعني شفقة عليهم وحرصه على ألا يعانون (تصيبهم العين) وقضاها أي أظهرها، ووصى بها. ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ إن يعقوب عليم بحقائق الأمور وأن العين لا توقع ضرراً إلا بإذن الله، لتعليمنا إياه بالوحي وإقامة الحجج، ولذلك قال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ولم يغتر بتدبيره.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفار. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر، وأنه لا يغني عنه الحذر، وأن الحكم لله. وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام.

لِلنَّاسِ:

بعد أن أبان الله تعالى موافقة يعقوب على إرسال بنيامين مع إخوته إلى

مصر، ذكر هنا وصيته لأولاده لما عزموا على الخروج إلى مصر، وهي الدخول من أبواب متفرقة، ليروا مدى الاهتمام والاستقبال لكل واحد منهم حين رؤية بنيامين شقيق يوسف، أو لئلا يحسدهم الحساد، وتصيبهم العين جميعاً.

التفسير والبيان:

أمر يعقوب بنيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة؛ لأنهم كانوا من أهل جمال وكمال، وذلك في رأي جمهور المفسرين لئلا تصيبهم العين، فإنه خاف من العين عليهم، والعين حق أي إنها سبب حق في الظاهر قد تؤدي إلى الضرر، ولكن بإذن الله وإرادته، بدليل قوله بعدئذ: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾. أو ليروا من العزيز فرق الاستقبال بينهم وبين أخيه بنيامين.

﴿وَمَا أَغْنَىٰ﴾ أي وما أذفع عنكم بوصيتي وتدابيري من قضاء الله شيئاً؛ إذ لا يغني حذر من قدر، أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ولكننا مأمورون باتخاذ وسائل الحيلة والحذر: ﴿وَحَذَرُوا حَذْرَكُمُ﴾ [النساء: ١٠٢/٤] أخذاً بالأسباب العادية الظاهرية التي لا تؤثر في الواقع شيئاً إلا بإذن الله، واستعانة بالله، وفراراً منه إليه، وليس دفعاً للقدر، وتحدياً للقضاء، فلا يملك الإنسان من أمره شيئاً، فما أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به من التفرق، وهو مصيكم لا محالة.

وما إنفاذ الأحكام وتدابير الأمور إلا لله وحده، عليه وحده توكلت، وبه وثقت، وإليه فوضت أمري، دون حولي وقوتي، وعليه تعالى وحده فليتوكل المتوكلون، لا على أنفسهم ولا على أمثالهم من البشر.

ولما دخلوا أي أولاد يعقوب مصر، التي كان لها أربعة أبواب، من حيث أمرهم أبوهم، أي من أبواب متفرقة، ما كان رأي يعقوب ودخولهم على هذا

النحو متفرقين يفيدهم شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم، مع تفرقهم، من نسبة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيههم فداء لوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم.

ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، أي مجرد شيء في نفسه أظهره، وهي شفقتة عليهم، وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به.

وإنه أي يعقوب لذو علم بأن الحذر لا يمنع القدر، لتعليمنا إياه بالوحي. وقال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه، وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام.

ولكن أكثر الناس وهم المشركون أو الكفار لا يعلمون ذلك أي مثل ما علم يعقوب، أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم، فإنهم لا يعلمون كيف أرشد الله أوليائه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة. ومن تلك العلوم الأخذ بالأسباب الظاهرة وتفويض الأمر لله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - قول يعقوب لأولاده: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ دليل في رأي جمهور المفسرين على التحرز من العين، والعين في الظاهر حق، ومرد النتيجة في الحقيقة إلى الله وحده، وتكون العين مجرد سبب؛ قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد بسند صحيح «العين حق» أي شيء ذو أثر موجود عند الناس، وذكر النسفي: «إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر» وكان ﷺ يتعوذ فيقول: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» وكان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» ويقول: وهكذا كان يعوذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق صلوات الله عليهم.

وروى عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار، فرأيت شديدا الوجع، ثم عُدْتُ إليه آخر النهار، فرأيت معافى، فقال: إن جبريل عليه السلام أتاني فقال فيما أخرجه أحد عن عائشة وعبادة: «بسم الله أرقبك من كل شيء يؤذيك، ومن كل عين وحاسد، الله يشفيك».

وعلى كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك، فإنه إذا دعا بالبركة، صرف المحذور لا محالة؛ لقوله ﷺ لعامر: «ألا ببركت» فدل على أن العين لا تضر إذا برِّك العائن. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار.

والعائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك، يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، وقد أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين، وأمر بالرقية.

ومن عرف بالإصابة بالعين، منع من مداخلة الناس، دفعا لضرره.

٢ - دل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على أن الحذر لا ينفع مع القدر، فدخل أولاد يعقوب مصر من أبواب متفرقة ما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء. قال ابن عباس: ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمراً قدره الله.

٣ - الحكم لله، أي الأمر والقضاء لله وحده، وعلى المؤمن الاتكال على الله، أي الاعتماد عليه والثقة به وحده؛ لأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى.

٤ - إن وصية يعقوب لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة مجرد خاطر خطر بقلبه، وتحرز ظاهري، مع أنه عليم من طريق الوحي بأمر دينه، وأكثر الناس لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أمر دينه. وقيل: المقصود بالعلم هنا العمل، أي لئلا يعمل بعلمه، فإن العلم أول أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه.

٥ - أفادت الآية أن على المسلم أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

الفصل الثالث عشر من قصة يوسف

معرفة يوسف أخاه بنيامين

واتخاذهِ التدابير لإبقائه لديه

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٨٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٨٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّي أَنَا﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إني أنا).

﴿أَنَا أَخُوكَ﴾ :

بإثبات ألف (أنا) وصلاً قرأ نافع، وحذفها الباقون.

﴿مُؤَذَّنٌ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وفقاً (موزن).

﴿مَا جِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وفقاً (ما جينا).

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾: قرئ:

١- (نرفع درجات من نشاء) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (نرفع درجات من نشاء) وهي قراءة الباقيين.

الإعواب:

﴿جَزْؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ ﴿جَزْؤُهُ﴾ مبتدأ، والهاء عائد للشرق، وتقديره: جزاء الشرق أخذ من وجد في رحله. وقوله: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ فَهُوَ جَزْؤُهُ جملة هي في موضع خبر المبتدأ، أي فالاستبعاد جزاء الشرق، وفاء: ﴿فَهُوَ﴾ متضمنة معنى الشرط أو جواب له على أن ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ شرطية، والجملة الشرطية كما هي: خبر المبتدأ الأول: ﴿جَزْؤُهُ﴾ على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير، كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله، فهو هو، إلا أنه أقام الظاهر مقام المضمحل للتأكيد والمبالغة في البيان.

﴿فَهُوَ جَزْؤُهُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر المبتدأ ﴿مَن وُجِدَ﴾ الذي هو الاسم الموصول.

البلاغة:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق. ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ فيه أيضاً جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ تحزن. ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الحسد لنا، وأمره ألا يخبرهم، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقية عنده. ﴿جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أعد لهم الطعام بسرعة. ﴿الْإِسْقَايَةَ﴾ في الأصل: المشربة أو وعاء يسقى به، والمراد به هنا المكيال الذي كان يكال به الطعام للناس، وهو صواع الملك، فهو كان مشربة، ثم جعل صاعاً يكال به، ويقدر بكيلة مصرية ١١٢ من الإردب المصري، والإردب ١٩٨ لترًا، أو ١٥٦ كغ. قيل: كان من فضة، وقيل: كان من ذهب. ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. ﴿أَذَنَ مُؤَذِّنٍ﴾ نادى مناد، أو أعلم وأخبر، وهو يفيد الكثرة والتكرار. ﴿أَيَّتَهَا الْغَيْرُ﴾ القافلة أو الجمال التي تحمل الطعام، والمراد أصحابها. ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي شيء ضاع منكم، والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه.

﴿صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ صاعه أو مكياله. ﴿جِلْدٌ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جعلاً له. ﴿وَأَنَا بِهِ﴾ بالحمل. ﴿رَعِيْمٌ﴾ كفيل وضامن، أؤديه إلى من رده.

﴿تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب. ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم، لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم، مما يدل على فرط أمانتهم، مثل ردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي قال المؤذن وأصحابه، فما جزاء السارق. ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في قولكم: ما كنا سارقين، ووجد فيكم. ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أي عقوبة السارق استعباد أو استرقاق من وجد في رحله. ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تأكيد لما سبق أي فأخذ السارق جزاء المسروق لا غير، وكان ذلك سنة آل يعقوب. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين بالسرقة، وهذا تصريح منهم ليوسف بتفتيش أوعيتهم.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِ﴾ ففتشها. ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين لئلا ينهم. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع. ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا﴾ أي مثل ذلك الكيد (أي التدبير الخفي) كدنا ليوسف، علمناه الخيلة في أخذ أخيه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ﴾ يوسف. ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رقيقاً من السرقة. ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ في قانون أو نظام أو حكم أو شرع ملك مصر؛ لأن جزاءه في ذلك النظام الضرب وتغريم مثلي المسروق، لا الاسترقاق. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، وهو أخذه بحكم أبيه، أي لم يتمكن من أخذه إلا بمشيئة الله بإلهامه سؤال إخوته، وجوابهم بنظامهم أو سنتهم. والاستثناء متصل من أعم الأحوال، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي لكن أخذه بمشيئة الله وإذنه.

﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ بالعلم كيوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من المخلوقين. ﴿عَلِيمٌ﴾ أعلم منه، حتى ينتهي إلى الله تعالى.

المناسبة:

الربط بين الآيات هنا واضح، إذ هي تعرض أجزاء ومشاهد قصة واحدة ذات حلقات متسلسلة، فبعد أن اتجه أولاد يعقوب إلى مصر لجلب الميرة، مزودين بوصية والدهم، وصلوا إلى مكان وجود العزيز الذي يتولى بيع الطعام للناس، فلما دخلوا عرف أخاه وضمه إليه.

التفسير والبيان:

حينما دخل أولاد يعقوب على يوسف في مجلسه الخاص ومزمل ضيافته، ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، بعد أن كانوا دخلوا القصر من أبواب متفرقة، ضم إليه أخاه واختلى به، وأطلععه على شأنه، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتس أي لا تأسف ولا تحزن على ما صنعوا بي، وأمره ألا يطلع إخوته على

ما أطلععه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيتخذ تدبيراً يقيه عنده معزراً مكرماً.

روي أنهم قالوا له: هذا أخونا، قد جئناك به، فقال لهم: أحستتم وأصبتهم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلستني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً، فأجلسه معه على مائدته، وجعل يواكله، وقال: أنتم عشرة، فليزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له، فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه، ويشم رائحته، حتى أصبح وسأله عن ولده، فقال: لي عشرة بنين، اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل (أمهما) فبكى يوسف وقام إليه وعانقه، وقال له: إني أنا أخوك يوسف، فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا في الماضي، فإن الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك^(١).

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ﴾ فلما أعد لهم الطعام، وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتياه أن يضع السقاية (الصواع أو المكياال، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب) في رحل أخيه بنيامين، دون علم أحد.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى منادٍ حينما عزموا على الخروج: أيتها العير أي يا أصحاب العير، إنكم قوم سارقون، فقفوا. فبهتوا وذهلوا.

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: أي: قال إخوة يوسف للمنادي ومن معه: أي شيء تفقدونه؟ فأجابوهم: نفقد صاع الملك الذي يكيل به، ولمن أتى به حمل

بعير من القمح، وهذا يدل على أن غيرهم الإبل، وأنا به زعيم أي كفيل ضامن، وهذا من باب الجعالة والضمان والكفالة.

قال إخوة يوسف بعد اتهامهم بالسرقة: والله لقد خبرتمونا وجربتمونا في المرة الأولى وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا إليكم، وتحققتم منذ عرفتمونا، وشاهدتم سيرتنا الحسنة أنا ما جئنا لنفسد في أرض بسرقة ولا غيرها من التعدي على حقوق الناس، ولم نكن يوماً ما سارقين، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة.

فقال لهم فتان يوسف: فما جزاء السارق إن كان فيكم، إن كنتم كاذبين في نفي التهمة عنكم؟ أي أيّ عقاب للسارق في شرعكم إن وجدنا فيكم من أخذه، وأنتم تدعون البراءة؟

فأجابوهم: جزاؤه أخذ من وجد في رحله، ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين للناس بسرقة أموالهم في شريعتنا أن يسترقوا، وهكذا كانت شريعة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: أن السارق يدفع إلى المسروق منه، فيصير عبداً له، وهذا هو ما أراده يوسف عليه السلام.

ولهذا بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه للتورية وحتى لا يتهم، ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بنيامين، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ويحكمون به.

قوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم السابق وتأكيده، بعد تأكيد ثقتهم وبراءتهم بأنفسهم.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ لِيُؤْصَفَ﴾ أي مثل ذلك الكيد وهو التدبير الخفي، كدنا ليوسف، أي دبرنا له في الخفاء وأوحينا إليه أن يفعله. وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وهو دليل

على جواز التوصل إلى الأغراض المشروعة بما ظاهره الحيلة إذا لم يخالف نصاً تشريعياً أو حكماً مقررأً، فهي حيلة جائزة مشروعة، لا ممنوعة محظورة، لما يترتب عليها من الخير والمصلحة، دون إلحاق ضرر بأحد، مع اطمئنان بنيامين إلى البراءة، بسبب التواطؤ السابق بينه وبين أخيه يوسف.

وسبب ذلك التدبير الخفي أن يوسف ما كان يتمكن من أخذ أخيه في حكم ملك مصر الذي لا يبيح استرقاق السارق، ولكن قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو أن يستعبد السارق، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَتِكَ مِنْ شَأْنٍ﴾ بالعلم، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَتٍ﴾ [المجادلة: ١١/٥٨].

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي ما كان ليأخذ أخاه في نظام الملك في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله، فإنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه، مما يدل على أن تلك الحيلة بإقرار الشرع، ووحى الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه، قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل. فإذا كان إخوة يوسف علماء فإن يوسف كان أعلم منهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - كانت فرحة غامرة من أفراح العمر لقاء الأخوين: يوسف وبنيامين، فضم يوسف أخاه إليه، وتعرّف عليه بعد فراق دام أكثر من ربع قرن، وتواطأ معه على خطة إبقائه لديه.

٢ - دل قول يوسف لأخيه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على

التحلي بصفة العفو والتسامح، وإظهار الحب والود لإخوته، ونسيان الماضي وتجاوز أخطائهم معه في مستقبل العمر.

٣ - كان وضع الصواع في رحل بنيامين بأمر يوسف عليه السلام تعليماً وإلهاماً ووحياً من الله، وكان إبقاء أخيه لديه عملاً بشرية إبراهيم ويعقوب، وإلزاماً لإخوته بما حكموا به.

٤ - لم يكن وصف أولاد يعقوب بأنهم سارقون كذباً من يوسف عليه السلام، وإنما المراد أيتها العير حالكم حال الشَّرَّاق، والمعنى: إن شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. أو إن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، أو إنهم سارقون باعتبار ما كان منهم حينما أخذوا يوسف من أبيه، فألقوه في الحب.

٥ - دل قوله: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ على جواز الجعالة^(١) وضمان الجُعْل قبل إنجاز العمل أو قبل إتمامه. وقد أُجيز للضرورة، فجاز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره، وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المَجْعُول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع بالعمل وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المَجْعُول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعالة حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ﴾ وبهذا قال الشافعي، وكذا المالكية والحنابلة، ولم يجز الحنفية الجعالة للجهالة.

ولم يكن قوله ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ ضمان المجهول؛ لأن حل البعير كان معيناً

(١) الجعالة: التزام بعوض على شيء معلوم أو مجهول، وهو تصرف بإرادة منفردة، مثل الإعلان عن مكافأة أو جُعْل لمن يجد شيئاً ضائعاً، أو يكشف علاجاً لمرض معين، أو لمن يتفوق في قضية علمية أو اكتشاف علمي.

معلوماً عندهم كاللَّوْثَقِ (٦٠ صاعاً) فصَحَّ ضمانه، غير أنه كان بدل مال عن المسروق، وهو كفالة بما لم يجب؛ لأنه لا يجزى للمسارق أن يأخذ شيئاً على رد السرقة، فلعله كان يصح في شرعهم، أو كان هذا جعالة.

٦ - دل قوله: «وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ» على جواز الكفالة بنوعيتها: الكفالة بالمال والكفالة بالنفس، وهذا مطابق للحديث النبوي الذي أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن حسان وصححه عن أبي أمامة الباهلي وغيره: «الزَّعِيمُ غَارِمٌ» وهو رأي المذاهب الأربعة، ولم يجز بعضهم الكفالة بالنفس لعجز الكفيل عن إحضار المكفول بنفسه.

وهل يلزم الكفيل بالنفس ضمان المال أو لا؟ قال الحنفية: لا يلزمه إن مات المكفول بنفسه؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به. وقال المالكية والليث والأوزاعي: يغرم المال، ويرجع به على المطلوب؛ لأن الكفيل يعلم أن المضمون بنفسه إنما يطلب بمال، فإذا ضمن إحضاره ولم يأت به، فكأنه فوّته عليه، فلزمه المال.

وإذا انعقدت الكفالة جاز في رأي الجمهور للدائن المكفول له أن يطالب بالمال أو الدين من شاء من المدين الأصلي أو الكفيل. ورأي مالك الأخير: ألا يطالب الكفيل إلا أن يفلس الغريم (المدين) أو يغيب؛ لأن البدء بمطالبة من عليه الحق أولى؛ إلا أن يكون معدماً، فيؤخذ الدين من الكفيل؛ لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة.

والكفالة لا تصح إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان الدين ثابتاً مستقراً، أي لازماً. فلا تصح الكفالة بنجوم (أقساط) الكتابة؛ لأنها ليست بدين لازم أو ثابت مستقر. وأما الحقوق التي لا يمكن لأحد القيام بها عن أحد كالحدود فلا كفالة فيها عند الأكثرين؛ لأن درء هذه الحدود مطلوب ما أمكن، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر في

أمره. وأجاز أبو يوسف ومحمد الكفالة في الحدود والقصاص؛ لجواز الكفالة بالنفس. وأجاز الشافعية كفالة تسليم النفس في الحدود الخالصة للآدمي كقصاص وحد قذف وتعزير؛ لأنها حق لآدمي، فصحت الكفالة، كسائر حقوق الآدميين المالية.

٥ - كان استرقاق أو استعباد السارقين دين يعقوب عليه السلام وحكمه، وقد فهم هذا من جواب أولاده: «جَزَّؤُهُ مِنْ وَجَدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَّؤُهُ» وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاء من سرق القطة، فهذا جزاؤه؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله.

وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ.

وأما قطع يد السارق في شريعتنا فهو ناسخ لما تقدم من الشرائع، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق.

٨ - يجوز التوصل إلى الأغراض أو الحقوق المشروعة إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً. وأجاز الحنفية والشافعية الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق، لفعل يوسف بوضع الصواع في رحل أخيه، ولفعل أيوب مع امرأته: «وَحَذَّ يَدَكَ صَغَةً فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ» [ص: ٤٤/٣٨] ولأمر النبي ﷺ ببيع التمر الرديء بالدراهم، ثم شراء التمر الجيد (الجنيب) بالدراهم.

وأجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة، فإذا حال الحول لا يحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرق بين مجتمع، ولا أن يجمع بين متفرق.

وقال مالك: إذا فوت من ماله شيئاً ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه، لزمته الزكاة عند الحول، أخذاً منه بقوله ﷺ: «خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ».

وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضره؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى الحديث السابق: «خشية الصدقة»^(١) إلا حينئذ.

٩ - شاء الله أن يجري على السنة أولاد يعقوب حكم بني إسرائيل في استرقاق السارق، مع أنه كان حكم الملك الضرب والتغريم ضعفي المسروق.

١٠ - الله في خلقه شؤون، يعزّ قوماً ويذلّ آخرين، ويرفع من يشاء درجات بالعلم والإيمان. قال ابن عباس: يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم. وقال أيضاً: الله العليم، وهو فوق كل عالم. والآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات.

(١) نص الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس: «ولا يجمع بين متفرّق ولا يفرّق بين مجتمع

خشية الصدقة» (سبل السلام ٣/ ٥٩١، ط بيروت).

الفصل الرابع عشر من قصة يوسف نقاش حاذ بين أولاد يعقوب وبين يوسف وبين أبيهم حول السرقة المزعومة

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (٧٥)
قَالُوا يَتَّخِذُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٦) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا نَفْسًا ﴿ ٧٧ ﴾ فَلَمَّا اسْتَمْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٧٨) أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَتَّخِذُ أَبَانَا بِكَ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٧٩) وَسَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٨٠) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨١) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسَفُ عَلَى يُونُسَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٨٢) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (٨٣) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) يَبْنَؤُ أَدْهُبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٥)

القراءات:

﴿ لِيَ أَبِي ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (لِي أَبِي).

﴿أَبِي أَوْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أَبِي أَوْ).

﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمة وقفاً (وسل القرية).

﴿وَحُزِنِي إِلَى﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (وحزني إلى).

الإعراب:

﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ بدل من أسرها . ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، حذف فعله وأضيف إلى المفعول.

﴿أَسْتَيْسِرُوا﴾ استعملوا من يسر يئس ﴿نَحِيثًا﴾ حال من ﴿خَالِصُوا﴾ و﴿نَحِيثًا﴾ لفظه لفظ المفرد، والمراد به الجمع، كعدو وصديق، فإنهما يوصف بهما الجمع على لفظ المفرد.

﴿مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ ﴿مَا﴾ إما مصدرية في موضع نصب بالعطف على قوله تعالى: ﴿أَبَاكُمْ﴾ وتقديره: ألم تعلموا أن أباكم وتفرطكم، وإما أن تكون زائدة، أي ومن قبل فرطتم، مثل ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ﴾ أي فبرحمته.

﴿يَتَأَسَفَى﴾ في موضع نصب؛ لأنه منادى مضاف، وأصله: يا أسفي، فأبدل من الكسرة فتحة، فانقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار: ﴿يَتَأَسَفَى﴾. و﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ في موضع نصب؛ لأنه من صلة المصدر.

البلاغة:

﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ بينهما طباق. ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فيه إطناب للاستعطاف. ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية أي أهل القرية. ﴿يَتَأَسَّى عَلَى يُوسُفَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق. ﴿تَأَلَّهَ تَفْتَوًا﴾ إيجاز بالحذف، أي والله لا تفتأ.

﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ استعار الروح وهو تنسيم الريح الطيبة النسيم، للفرج بعد الكرب، واليسر بعد الشدة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قيل: ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام، وكانت تحضن يوسف وتجه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها، فوجدها محزومة عليه، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل: كان لأبي أمه صنم من ذهب، فسرقه، وكسره، وألقاه في الجيف، لثلا يعبد. ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ لم يظهرها لهم، والضمير يعود للكلمة أو الجملة التي في قوله: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ أي فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾.

﴿قَالَ﴾ في نفسه. ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ أي شر منزلة من يوسف وأخيه، لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي والله عالم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تذكرون من أمره، أو وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن أو القدر، يحبه أكثر منا، ويتسل به عن ولده الهالك، ويحزنه فراقه، وهذا استعطاف له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدًا

مَكَانَهُ^ط استعبده بدلاً منه، فإن أباه مستأنس به. ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك إلينا، فأنتم إحسانك، أو من المتعودين بالإحسان، فلا تغير عادتك. ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ونلجأ إليه. ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ من أن نأخذ، ولم يقل: من سرق، نحرزاً من الكذب. ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إن أخذنا غيره مكانه ﴿لَطَلِمْوُكَ﴾ في مذهبكم، لو أخذنا غيره مكانه، كنا من الظلمة.

﴿أَسْتَيْسُوا﴾ يشسوا بأساً كثيراً من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السين والثناء للمبالغة. ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا واعتزلوا الناس. ﴿يَحْيَا﴾ متناجين متشاورين سراً، يناجي بعضهم بعضاً، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنة المصدر، كما قيل: هم صديق، وجمعه أنجية كندية وأندية.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ سنأ: روبيل أو يهوذا، أو كبيرهم في الرأي وهو شمعون. ﴿مَوْثِقًا﴾ عهداً. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ في أخيكم، وإنما جعل حلفهم بالله موثقاً منه؛ لأنه ياذن منه وتأكيده من جهته. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ هذا. ﴿مَا فَرَطْتُمْ﴾ قصرتم في شأنه، و﴿مَا﴾ زائدة أو مصدرية في موضع نصب بالعطف على مفعول: تعلموا، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، أو معطوف على اسم أن، وخبره: ﴿فِي يُوسُفَ^ط﴾. ويصح كونه مبتدأ وخبره: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ قال اليبضاوي: وفيه نظر؛ لأن ﴿قَبْلُ﴾ إذا كان خبراً، أو صلة، لا يقطع عن الإضافة، حتى لا ينقص. ويصح أن تكون موصولة، أي ما فرطتموه بمعنى: ما قدمتموه في حقه من الخيانة.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ لن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالعودة أو الرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أو يقضي الله لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعد لهم؛ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ وما شهدنا عليه إلا بما تيقنا من مشاهدة الصاع في رحله واستخراجه من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لما غاب عنا وهو

باطن الحال، حين إعطاء الموثق ﴿حَفِطِينَ﴾ أي فلا ندري أنه سرق، أو ما كنا للعواقب عالمين، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق.

﴿وَسَلِيَ الْقَرِيَةَ﴾ واسأل أهل مصر ﴿وَالْعِيرَ﴾ أصحاب الإبل ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وهم قوم من كنعان ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا، فرجعوا إليه، وقالوا له ذلك ﴿سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿أَمْرًا﴾ ففعلتموه، اتهمهم لما سبق منهم من أمر يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي صبري صبر جميل ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ يوسف وأخويه ﴿الْعَلِيْمُ﴾ بجالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم تاركاً خطابهم ﴿يَتَأَسَّفُ﴾ ياحزني ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ﴾ انفتحق سوادها وتبدل بياضاً من بكائه ﴿مِنْ الْحُزَنِ﴾ عليه ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظاً، مغموماً مكروب لا يظهر كربه ﴿تَأَلَّوْا تَفْتَوًا﴾ لا تفتأ أي لا تزال تذكره تفجعاً عليه ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مشرفاً على الهلاك، لطول مرضك، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿الْمُهْلِكِينَ﴾ الموت.

﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم ﴿بَنِي﴾ هو عظيم الحزن الذي لا يصبر عليه حتى ييئس إلى الناس من البث: وهو النشر ﴿وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره، فهو الذي تنفع الشكوى إليه، فخلوني وشكايتي ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن رؤيا يوسف صدق وهو حي، وأعلم من الله أي من صنعه ورحمته فإنه لا يخيب داعيه ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اطلبوا خبرهما ﴿وَلَا تَأْيِسُوا﴾ تقنطوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ رحمته وفرجه.

المناسبة:

هزت السرقة أعماق نفوس أولاد يعقوب، فتار النقاش الحاد والحوار الشديد بين أولاد يعقوب أنفسهم، وبينهم وبين يوسف، وبينهم وبين أبيهم، لعودتهم إليه دون ولدين آخرين: وهما أكبر أولاده «روبيل أو يهوذا» وأصغر

أولاده وهو بنيامين. ولم يجد أبناء يعقوب سبيلاً للدفاع إلا الحجة الساذجة السطحية وهو تأكيد حادثة السرقة من أخيهم كما سرق أخوه يوسف من قبل، وقالوا: هذه الواقعة عجيبة أن (راحيل) ولدت ولدين لصين، ثم قالوا: يا بني راحيل، ما أكثر البلاء علينا منكم، فقال بنيامين: ما أكثر البلاء علينا منكم، ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة، ثم تقولون لي هذا الكلام، قالوا له: فكيف خرج الصواع من رحلك؟ فقال: وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم^(١).

التفسير والبيان:

قال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من وعاء بنيامين، بعد أن نفوا السرقة نفيّاً باتاً، والتزموا على أنفسهم استعباد من وجد في رحله: إن يسرق بنيامين، فقد سرق أخوه يوسف من قبل، فهما من أصل واحد، ومرادهم التنصل إلى العزيز من التشبه بالأخوين، وتأنيب أخيهم على ما فعل.

وهذا يعني أن الطبائع والعادات والأخلاق تورث، وأن الحقد والكراهية والحسد عندهم ما يزال موجوداً لديهم.

ونسبة السرقة إلى يوسف في أصح الروايات ما روى ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً قال: سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة، فكسره وألقاه في الطريق، فعيّره بذلك إخوته. وقال سعيد بن جبّير عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه، فكسره. وروى محمد بن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء - فيما بلغني - أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وكان من

(١) تفسير الرازي: ١٨/١٨٣

اختبأها ممن وليها، كان له سِلْماً لا يَنَازِع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عُمته، وكان لها به وَلَةٌ، فلم تحب أحداً حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوَات، تآقت إليه نفس يعقوب عليه السلام، فأَتَاهَا، فقال: يَا أُخِيَّة، سَلِّمِي إِلَي يَوْسُفَ، فَوَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِّي سَاعَةً، قالت: فَوَاللَّهِ، مَا أَنَا بِتَارِكْتَهُ، ثُمَّ قَالَتْ: فَدَعِهِ عِنْدِي أَيَّاماً، أَنْظِرْ إِلَيْهِ، وَأَسْكِنْ عَنْهُ، لَعَلَّ ذَلِكَ يَسْلِينِي عَنْهُ.

فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثُمَّ قَالَتْ: فَقَدْتُ مِنْطَقَةَ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْظُرُوا مِن أَخْذِهَا وَمِنْ أَصَابِهَا؟ فَالْتَمَسَتْ ثُمَّ قَالَتْ: اكْشِفُوا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَكْشَفُوهُمْ، فَوَجَدُوهَا مَعَ يَوْسُفَ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ، إِنَّهُ لِي لَسِلْمٌ أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ، فَأَتَاهَا يَعْقُوبُ، فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبْرَ، فَقَالَ لَهَا: أَنْتِ وَذَاكَ، إِنْ كَانَ فَعَلَ ذَلِكَ، فَهُوَ سِلْمٌ لَكَ، مَا أَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَأَمْسَكْتَهُ، فَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ يَعْقُوبُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ: فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ إِخْوَةُ يَوْسُفَ، حِينَ صَنَعَ بِأَخِيهِ مَا صَنَعَ حِينَ أَخَذَهُ: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لِّمِّنْ قَبْلُ﴾.

﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي فأخفى في نفسه مقالتهُم هذه، أو أخفى الجملة أو الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ سَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ﴾ أي لم يظهر ما في نفسه من مؤاخذتهم بمقالتهم، بل صَفَحَ عَنْهُمْ.

﴿قَالَ أَنْتُمْ سَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي وقال لهم في نفسه دون إعلان لهم: أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ومنزلة ممن تتهمونه بالسُّرْقَة؛ إِذْ إِنَّكُمْ سَرَقْتُمْ مِنْ أَيْيَكُمُ أَحَاكِمَ، وَطَرَحْتُمُوهُ فِي الْبَيْرِ، بِقَصْدِ الْهَلَاكِ وَالتَّخْلِصِ مِنْهُ.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي والله عالم بما تذكرون وما تصفونه به.

وهذا من قبيل الإضمار قبل الذكر، وهو كثير في اللغة والقرآن والحديث.

ثم استعطفوه واستشفعوا لديه لعله يأخذ أحدهم مكانه، فالفداء أو العفو أيضاً جائز في شرعهم: ﴿قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ﴾ أي قالوا: يا أيها العزيز، إن له أباً شيخاً هرمًا متعلقاً به، فهو يحبه حباً شديداً، ويتسلى به عن ولده الذي فقده، أو هو كبير القدر والمقام جدير بالرعاية والمجاملة والعناية.

فخذ أحداً منا بدله، يكون عندك عوضاً عنه، إنا نراك من المحسنين لنا في ميرتنا وضيافتنا، أو من العادلين المنصفين، القابلين للخير، أو من عادتك الإحسان مطلقاً، فأحسن إلينا.

فأجابهم: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً أو نستعيز بالله أن نأخذ غير من وجدنا الصواع عنده، كما قلتم واعترفتهم، ولم يقل: إلا من سرق، تحاشياً للكذب، إنا إذا أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فهو أخذ بريء بمتهم، فلمَ تطلبون ما عرفت أنه ظلم. والمقصود الحقيقي من هذا الكلام بيان أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه، كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي. وهو رد قوي لهم، متضمن الاستعاذة من رأيهم؛ لأنه ظلم. ثم جاء دور حوارهم مع بعضهم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا﴾ أي فلما يشس إخوة يوسف من إطلاق سراح أخيه بنيامين الذي التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوا على ذلك، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ويتشاورون في أمرهم. قال كبيرهم في السن أو في العقل والرأي وهو روبيل أو يهوذا الذي أشار بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله: إن هذا الأمر عظيم، ألم تذكروا أخذ أبيكم موثقكم لتردنه إليه، إلا أن يحاط بكم، أو لم تعلموا أيضاً تفرنطكم في الماضي بأخيكم يوسف وإضاعته عن أبيكم، مما جعله رهين الحزن والأسى عليه؟!!

﴿فَلَنْ أُنَبِّحَ﴾ فلن أغادر أرض مصر أبداً، وأترك بنيامين فيها، حتى يأذن لي أبي في العودة إليه، أو يحكم الله لي بأن يمكنني من أخذ أخي أو بالخروج من مصر، وهو خير الحاكمين، فلا يحكم أبداً إلا بالحق والعدل.

هذا قراره الشخصي، وأما رأيه فيما يقولون لأبيهم فهو ﴿أَرْجِعُوا﴾ أي عودوا إلى أبيكم وقولوا له: يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك، فاسترقه العزيز القائم بأمر الحكم في مصر، على وفق شريعتنا التي أخبرناه بها، وما شهدنا عليه بالسرقه إلا بما علمناه وشاهدنا من إخراج الصواع من وعاء بنيامين، وما كنا للغيب حافطين، أي وما علمنا أنه سيسرق ويسترق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت يوسف، وفي الجملة: حقيقة الحال غير معلومة لنا، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ أي واسأل يا أبانا عما حدث أهل القرية التي كنا فيها وهي مصر، فقد اشتهر أمر هذه السرقه فيهم، واسأل أصحاب العير الذين كانوا يأتون بالميرة (الطعام) معنا. وهذا مبالغة منهم في إزالة التهمة عن أنفسهم؛ لأنهم مشكوك فيهم، وكانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام. ثم أكدوا صدقهم بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق، وأخذوه بسرقة، وهذا مقال كبيرهم، ثم ذكر تعالى مقال أبيهم:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ أجابهم أبوهم بما يدل على عدم تصديقهم فيما قالوا، كما أجابهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ بل زينت لكم أنفسكم أمراً آخر أردتموه، وكيداً جديداً فعلتموه؟ وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم!

فأمري الاعتصام بالصبر الجميل وهو الذي لا جزع فيه ولا شكاية لأحد، وإنما أرضى بقضاء الله وقدره، وأشكو إلى الله وحده، ثم ترجى أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وبنيامين، ورويل الذي أقام بمصر، ينتظر أمر الله

فيه : إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، فقال : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي لعل الله الذي أطلب منه إرجاع أولادي الثلاثة أن يعيدهم إلي جميعاً، وقد كان ملهماً أن يوسف لم يمت، إنه هو العليم بحالي من الكبر والحزن، الحكيم في أفعاله وقضائه وقدره، فما بعد الشدة إلا اليسر، وما بعد الكرب إلا الفرج.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض يعقوب عن بنيه كارهاً لما قالوا ووصفوا، وقال متذكراً حزن يوسف القديم : يا حزني ويا أسفي على يوسف، والأسف : أشد الحزن والحسرة، فجدد له حزن الابنين الحزن الدفين. وهو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأن المصاب فيه دائم متجدد لم يُنس مع تقادم العهد.

﴿وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ﴾ أي أصيبت عيناه بسبب الحزن بغشاوة بيضاء، حجبت البصر والرؤية فأصبح كظيماً أي ساكناً لا يشكو أمره إلى مخلوق، كاظماً غيظه على أولاده. قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف، إلى حين لقائه، ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

والجزع البالغ والحزن الشديد أمر إنساني عند الشدائد والمصائب، وهو غير مذموم شرعاً إذا اقترن بالصبر، وضبط النفس، حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال فيما رواه الشيخان : «إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لحزونون».

وإنما الجزع المذموم : ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب. عن النبي ﷺ «أنه بكى على ولد بعض بناته، وهو يجود بنفسه، فقيل : يا رسول الله، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال : ما نهيتكم عن البكاء، وإنما نهيتكم عن صوتين أحقن : صوت عند الفرح، وصوت عند الترح».

وقال الحسن البصري حينما بكى على ولد أو غيره: «ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب».

وعندما شاهد أولاد يعقوب ما حدث لأبيهم، رقوا له، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: والله لا تزال تذكر يوسف، حتى تصير مريضاً ضعيف القوة، أو تموت، أي إن استمر بك هذا الحال، خشناً عليك الهلاك والتلف.

فأجابهم عما قالوا: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ» أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم حزني، إنما أشكو هي الشديد وأسفي وما أنا فيه إلى الله وحده داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي، وأعلم من الله ما لا تعلمون، أي أرجو منه كل خير؛ لأنني أعلم من صنعه وإحسانه ورحمته وحسن ظني به أن يأتيني بالفرج من حيث لا أحسب. روي أنه رأى ملك الموت في منامه، فسأله، هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله، هو حي فاطلبه. وقال ابن عباس في قوله تعالى: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ» يعني رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها.

﴿يَبْنَئُ أَدْهَبُوا﴾ يا أولادي اذهبوا إلى مصر، وتعرفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتجسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، فهو قد نذبهم على الذهاب إلى مصر للتعرف على أخبار إخوتهم، وأمرهم ألا يأسوا من روح الله أي من فرجه وتفتيسه الكرب، ولا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون أي الذين يحقدون قدرته ورحمته، ويجهلون حكمة الله في عباده. أما المؤمنون فلا يأسون من رحمة الله وتفريجه الكرب، وإزالته الشدائد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن المؤمن من الله على خير، يرجوه في البلاء، ويمجده في الرخاء».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - لم يتغير موقف أولاد يعقوب العشرة في حال الصغر والكبر معاً، وظلوا على حقدهم وحسدهم وكرهيتهم لأخويهما: يوسف وبنيامين، وقد فهم هذا من محاولة تبرئة أنفسهم بأنهم على منهج وطريقة وسيرة تختلف عن منهج وسيرة أخويهم، فأخواهما مختصان بهذه الطريقة واحتراف السرقة؛ لأنهما من أم أخرى.

والحق أن سرقة يوسف كانت رضىً لله، وكانت على ما يبدو في حال الصغر، والصغير غير مكلف، ولم يكن وضع الصواع في رحل بنيامين منه وإنما كان من غيره.

٢ - لم يقابلهم يوسف بالإساءة والتصريح عما في نفسه، وإنما أسر في نفسه مقاتلتهم، وقولهم هو: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ» وقيل: إنه أسر في نفسه على طريقة الإضمار قبل الذكر قوله: «أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّائِ» ثم جهر فقال: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ».

٣ - استعطفوه لإطلاق سراح أخيه بنيامين أو قبول الفداء عنه بأخذ أحدهم بدله، بحال أبيه الشيخ الكبير أي كبير القدر، ولم يريدوا كبير السن؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ، واستعطفوه أيضاً بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم.

وأما عرضهم أخذ البديل عنه فهو إما مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حريستهم بدل المتهم، وإنما هو مبالغة في استنزاله، كما تقول لمن تكره فعله: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في استنزاله.

وإما أن يكون قولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ حقيقة، من طريق الكفالة بالنفس، ليصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف جليلة الأمر، والكفالة بالنفس جائزة على التحقيق في المذاهب الإسلامية الأربعة، حتى عند الشافعي على الراجح. وعلى كل حال كما أن الاستعباد للسارق في شرع إسحاق ويعقوب جائز، كذلك العفو وأخذ الفداء كان جائزاً أيضاً.

٤ - رفض يوسف عليه السلام أخذ البذل، ووصف ذلك بأنه ظلم.

٥ - تشاور أولاد يعقوب فيما يفعلون أمام الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم مؤكداً باليمين بالله، وتذكروا تفريطهم السابق بيوسف، فقرروا أكبرهم في السن أو في الرأي والعقل وهو شمعون أو يهوذا أو روبيل البقاء في مصر، حتى يأذن له أبوه بالرجوع إليه؛ لا استحيائه منه، أو يحكم الله له بالمضي مع أخيه إلى أبيهما. وهذا دليل على أن التناجي والمشاورة في أمر ما مطلوب شرعاً.

وقد ذكر القاضي عياض في «الشفاء» أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَمْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. إذ إن هذه الجملة تضمنت معاني كثيرة، يعبر عنها اليوم بجمل كثيرة لعقد اجتماع سري، وتشاور فيه، ومداولة فيما يجابهون به أباهم، وكيفية بيان الحادث له.

٦ - اتفق أولاد يعقوب بمشورة كبيرهم الذي بقي في مصر على مصارحة أبيهم بما حدث من واقعة السرقة، وشهادتهم في الظاهر عليها، حيث أخرج الصواع من متاع بنيامين، وجهلهم بالمغيب، فلم يعلموا وقت أخذ الميثاق عليهم أنه يسرق، ويصير أمرهم إلى ما آل إليه، من الاستعباد أو الاسترقاق، عملاً بما هو المقرر من جزاء في شريعتهم.

وعلى كل حال فإنهم لما تفكروا في الأصوب ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على نحو ما حدثت.

٧ - تضمنت آية ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها، فتصح شهادة المستمع والمعاين والأعمى والأخرس إذا فهمت إشارته، وكذلك تصح الشهادة على الخط إذا تيقن الشاهد أن الخط خط الكاتب أو خط فلان، فكل من حصل له العلم بشيء، جاز أن يشهد به، وإن لم يشهده المشهود عليه، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨٦] وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم عن زيد بن خالد الجهني: «ألا أخبركم بخير الشهداء: خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها».

وقد شهد أولاد يعقوب بما رأوه حين إخراج الصواع من رحل أخيه، فغلب على ظنهم أنه هو الذي أخذ الصواع.

وأما شهادة المرور بأن يقول: مررت بفلان فسمعتة يقول كذا، فالصحيح أنه إذا استوعب القول، جاز أداء الشهادة عليه.

وإذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره، ردّت؛ لأنه ادعى باطلاً، فأكذبه العيان ظاهراً.

والخلاصة: إن الشهادة تكون بالاعتماد على الحواس الظاهرة، أما حقيقة الغيب فلا يعلمها إلا الله تعالى.

٨ - استعان أولاد يعقوب لإقناع أبيهم بصدق قولهم بسؤال أناس من أهل مصر، وسؤال قوافل الطعام التي كانت معهم من قوم من الكنعانيين، وهذا يدل على أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يُظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم: أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه، ويصرح بالحق الذي هو

عليه، حتى لا يبقى لأحد كلام، وقد فعل هذا نبينا ﷺ - فيما رواه البخاري ومسلم - بقوله للرجلين اللذين مرّا، وهو مع صفة يردها من المسجد: «على رسلكما، إنما هي صفة بنت حبي». فقالا: سبحان الله! وكُبر عليهما، فقال: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً».

ثم إنهم بالغوا في التأكيد والتقرير فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة، أو لم تنسبنا إليها، فنحن صادقون.

٩ - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين عليهم السلام. قال يعقوب في واقعتي يوسف وبنيامين: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إلا أنه قال في واقعة يوسف: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وقال في واقعة بنيامين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

١٠ - قول يعقوب ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ صادر عن علمه بالوحي أو بالإلهام أو بسؤال ملك الموت أن يوسف عليه السلام لم يمت، وإنما غاب عنه خبره. والذين تمنى إحضارهم ثلاثة: كبير أولاده ويوسف وبنيامين.

١١ - تجدد مصاب يعقوب وحزنه على يوسف بغياب ولدين آخرين هما أكبر أولاده وأصغرهم، فأسف أسفاً شديداً، والأسف: شدة الحزن على ما فات، وعمي فلم يعد يبصر بعينه ست سنين من البكاء، الذي كان سببه الحزن.

ولكن الله العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة هيأ لجمع الأسرة كلها.

١٢ - إن الحزن ليس بمحظور إذا اقترن بالصبر والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، فذلك من طبع الإنسان وعاطفته، وإنما المحظور هو السخط على القضاء والقدر، والولولة، وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي، قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخط الرب».

وبناء عليه لما سمع يعقوب عليه السلام كلام أبنائه، ضاق قلبه جداً، وأعرض عنهم، وفارقهم، ثم طلبهم أخيراً وعاد إليهم.

١٣ - أشفق أولاد يعقوب على أبيهم، ورقوا، وذكروا له مخاطر الاستمرار في حال الحزن، وهي إما المرض المضعف القوة، وإما الهلاك والموت، وهذا أمر واقعي مطابق لأحوال الناس.

١٤ - كانت شكاية يعقوب وحزنه ولجوءه بالدعاء إلى الله وحده، لا إلى أحد من الخلق، وهذا هو المطلوب شرعاً في كل شاك حزين.

١٥ - إن نبي الله يعقوب يعلم ما لا يعلم غيره من الناس بما عند الله من رحمة وإحسان وتفريج كرب، ويعلم أيضاً أن رؤيا يوسف صادقة، وأنه وزوجته وأبنائه سيسجدون له، تصديقاً لرؤياه السابقة وهو صغير.

١٦ - تيقن يعقوب عليه السلام حياة ابنه يوسف إما بالرؤيا، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه، وهو أظهر، فعاد يكلم أولاده باللطف، وطلب منهم الذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

١٧ - لا يقنط من فرج الله إلا القوم الكافرون، وهذا دليل على أن الكافر يقنط في حال الشدة، وعلى أن القنوط من الكبائر، أما المؤمن فيرجو دائماً فرج الله تعالى.

قال الرازي: واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد

الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً^(١).

الفصل الخامس عشر من قصة يوسف

تعرف أولاد يعقوب بيوسف في المرة الثالثة واعترافهم بخطئهم وعفوه عنهم

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِنَا بِالْكِيلِ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَ لَكِ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِمِصْصَى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنْتُمْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

القرءات:

﴿وَجِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمة وقفاً (وجينا).

﴿أَوَ لَكِ﴾:

(١) تفسير الرازي: ١٨ / ١٩٩

وقرأ ابن كثير (إنك).

﴿يَتَّقِ﴾ :

وقرأ قبل (يتقي).

الإعراب:

﴿لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ اللام: لام الابتداء، وأنت: مبتدأ، و﴿يُوسُفُ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر: في موضع رفع خبر «إن» ويجوز أن تكون ﴿لَأَنْتَ﴾ ضمير فصل على قول البصريين، أو عماداً على قول الكوفيين.

﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ ﴿مَنْ﴾ شرطية مبتدأ، وخبره: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكان الأصل أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم، ليعود من الجملة إلى المبتدأ ذكرًا، إلا أنه أقام المظهر مقام المضمَر، كقول الشاعر: لا أرى الموت يسبق الموت شيء. أي يسبقه شيء. وهو كثير في كلام العرب. والجملة من المبتدأ والخبر خبر (إن) الأولى، والهاء فيها: ضمير الشأن والحديث. و﴿وَيَصِيرَ﴾: مجزوم بالعطف على ﴿يَتَّقِ﴾. ومن قرأ «يتقي» على جعل ﴿مَنْ﴾ بمعنى «الذي» وإذا كانت بمعنى الذي، ففيها معنى الشرط، ولهذا تأتي الفاء في خبرها في الأكثر، مثل: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠/٦٣].

﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿لَا﴾: نافية للجنس، و﴿تَثْرِبَ﴾: اسمها، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بالخبر المحذوف، وتقديره: لا تثريب مستقر عليكم، واليوم منصوب بالخبر المحذوف. ولا يجوز أن يتعلق أحدهما بتثريب؛ لأنه لو كان متعلقاً به، لوجب أن يكون منوناً، كقولهم: لا خيراً من زيد.

المفردات اللغوية:

﴿الْفُرُّ﴾ أي شدة الجوع ﴿بِضَعَعَهُ مُرْجَلَهُ﴾ أي بدراهم رديئة أو زيوف،

يدفعها التجار، من أزجى الشيء: إذا دفعه برفق، كما في قوله تعالى: ﴿يُرْجَى سَعَابًا﴾ [النور: ٤٣/٢٤].

﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي فاتم لنا الكيل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالمساحة عن رداءة بضاعتنا، أو برد أخينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يشيهم أحسن الجزاء، والتصدق: التفضل مطلقاً، ولكنه اختص عرفاً بما يتغنى به ثواب من الله تعالى.

(ثم قال لهم) توبيخاً: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ﴾ من الضرب والبيع وغير ذلك ﴿وَأَخِيهِ﴾ فعلهم بأخيه: إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبح أو عاقبة فعلكم، فأقدمتم عليه. وإنما قال ذلك تحريضاً لهم على التوبة وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكهم، لا معاتبة وتثريباً.

﴿قَالُوا﴾ بعد أن عرفوه، لما ظهر من شمائله ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ يُّوسُفَ﴾ استفهام تقرير وإثبات، وحقق بأن ودخول اللام عليه ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ من أبي وأمي، ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أنعم علينا بالاجتماع والسلامة والكرامة ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ يخف الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على ما يناله من البليات، أو على الطاعات وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع الظاهر ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ موضع الضمير (أجرهم) للتنبيه على أن المحسن: من جمع بين التقوى والصبر.

﴿ءَاثَرُكَ﴾ فضلك، واختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وبالمملك والسلطة وغيرها ﴿وَأِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ إن مخففة من الثقيلة، أي إنا كنا، أي والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك، وآثمين في أمرك. والخطاىء: الذي يتعمد الخطيئة، والمخطىء: الذي يريد الصواب فيخطئه ويصير إلى غيره. والخطء: الذنب.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا لوم ولا تأنيب عليكم ﴿أَلْيَوْمَ﴾ خصه بالذكر؛ لأنه مظنة التثريب، فغيره أولى. وهو متعلق بالتثريب، أو بالخبر المحذوف وتقديره: لا تثريب كائن أو حاصل عليكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفع عن جرعتهم التي اعترفوا بها حينئذ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويفضل على التائب.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ هو قميص إبراهيم الذي لبسه، حين ألقى في النار، كان في عنقه في الجب، فهو القميص المتوارث، أو القميص الذي كان عليه. ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾ بصر مبصراً ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي اتوني أنتم وأبي وزوجته بنسائكم وذرائكم ومواليكم.

المناسبة:

الكلام مرتبط بما قبله، بتقدير محذوف، وهو أن يعقوب لما قال لبيه: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قبلوا من أبيهم هذه النصيحة، وعادوا إلى مصر للمرة الثالثة، يبحثون عن يوسف وأخيه، بلا بأس، وإنما بأمل وجد في البحث، فلما التقوا مع يوسف العزيز، ورق قلبه لاستعطافهم، عرفهم بنفسه، وتم اجتماع الإخوة الاثني عشر.

التفسير والبيان:

فلما ذهبوا في المرة الثالثة، فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف عليه السلام، فقالوا مختبرين بذكر حالهم، واستعطافهم، وشكواهم إليه رقة الحال وقلة المال مما يرقق القلب: يا أيها العزيز - وكان أبوهم يرى أن هذا العزيز هو يوسف - قد أصابنا وأهلنا الضرر الشديد من الجذب والقحط والجوع وقلة الطعام، وأتينا إليك بثمر الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل أو رديء زيوف لا يروج بين التجار في الأسواق، فأتم لنا الكيل كما عودتنا من

إحسانك، وتصدّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتسامح فيها بعد أن تغاضى عن قتلها أو رداؤها، إن الله يجزي المتصدقين أحسن الجزاء، فيخلف لهم ما ينفقون، ويضاعف الثواب لهم.

وكان القصد من هذا الكلام الرقيق والتضرع والتذلل اختبار حال العزيز، هل يرق قلبه، ويظهر نفسه، ويعلن عن شخصه؟ بعد أن ذكروا له ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام، وما لدى أبيه من الحزن لفقد ولديه.

وقد نجحوا في هذا الاستعطاف، فأخذته رقة ورأفة ورحمة على أبيه وإخوته، وهو في حال الملك والتصرف والسعة، فأجابهم بقوله، مستفهماً عن مدى استقباح فعلهم السابق بيوسف: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين؟ حيث ألقيتم يوسف في الحبّ، وعرضتموه للهلاك، وفرقتم بينه وبين أخيه، وما عاملتم به أخاه من معاملة جافة قاسية، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتموه، من عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم والقراية، وذلك كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ﴾ [النحل: ١٦/١١٩].

والمراد بهذا الاستفهام التقريع والتوبيخ، ومراد يوسف تعظيم الواقعة، أي ما أعظم ما ارتكبتم بيوسف، كما يقال: هل تدري من عصيت؟ والصحيح أنه قال ﴿جَنِّهُلُوكَ﴾ تأنيساً لقلوبهم وبياناً لعذرهم، كأنه قال: إنما دفعكم لهذا الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور، وكأنه لقنهم الحجة، كقوله تعالى: ﴿مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٨٢/٦]^(١).

وهذا تذكير رقيق بذنوبهم، تمهيداً لتعريفهم بنفسه، لا معاتبة ولوماً وتوبيخاً، بعد أن حان الوقت في هذه المرة الثالثة من لقاء يوسف مع إخوته،

وكان قد أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بتقدير الله وأمره، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥/١٢].

فاغتنموا فرصة هذا التذكير وتساؤل العارف الخبير بأحوالهم، فسألوه سؤال المتعجب المستغرب المقرر المثبت أنه أخوهم يوسف: ﴿أَأَنْتَ لَا تُوسُفُ﴾ أي إنهم استفهموا استفهام تعجب من موقفه أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكنم نفسه، ولكنهم في هذه المرة عرفوه بقولهم ذلك، وتوسموا أنه يوسف، واستفهموه استفهام استخبار، وقيل: استفهام تقرير، وهو أولى في تقديري؛ لأنهم كانوا عرفوه بعلامات.

قال ابن عباس: إن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُّوسُفُ﴾ رفع التاج عنه، فعرفوه، فقالوا: ﴿أَأَنْتَ لَا تُوسُفُ﴾ أي إنهم قالوا: من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ قال: نعم أنا يوسف المظلوم العاجز، الذي نصرني الله وقواني وصرت إلى ما ترون، وهذا أخي بنيامين الذي فرقتم بيني وبينه، ومقصوده: أن هذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت، ثم صار منعماً عليه من قبل الله تعالى، كما ترون.

﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي قد أنعم الله علينا بالاجتماع بعد الفقرة وبعد طول المدة، وأعزنا في الدنيا والآخرة. وفيه إشارة إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين؛ لأنه أخي.

﴿إِنَّكُمْ مَنْ يَتَّقِي﴾ أي إن كل من يتقي الله حق التقوى فيما أمر به ونهى، ويصبر على طاعة الله وعلى الحن التي يتعرض لها، فإن الله حسبه وكافيه من كل

سوء، ومنجيه من كل مكروه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً في الدنيا والآخرة. وهذه شهادة من الله بأن يوسف من المتقين الصابرين المحسنين.

﴿قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ﴾ أجابوه إعلاناً للحق واعترافاً له بالفضل، والله لقد فضلك الله علينا، وأثرك بالعلم، والحلم، والخلق، والملك والسعة والتصرف، والنبوة أيضاً، وأقروا له بأنهم أسأؤوا إليه، وأخطؤوا في حقه، وأعلنوا بأنهم المذنبون الخاطئون، الذين لا يعذرون.

وبعد اعتذارهم وإعلان توبتهم صفح عنهم فقال: لا لوم ولا تعيير ولا توبيخ ولا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم، وكذا فيما قبله من الأيام، وخص اليوم بالذكر؛ لأنه مظنة التريب والعتاب.

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: يغفر الله لكم ذنوبكم وظلمكم، وهو أرحم الراحمين لمن تاب إليه وأناب إلى طاعته.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ لما عرف يوسف نفسه إخوته، سأهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره، أي عمي من كثرة البكاء، فقال لهم بما عرف بالوحي: اذهبوا بقميصي هذا الذي على بدني، أو المتوارث عن أجدادي وآبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فألحقوه على وجه أبي فور وصولكم إليه، يأت مبصراً (ذا بصر) كما كان، فإن الغشاوة التي أملت به تزول بالفرح والبشرى، وذلك بفضل الله وكرمه، وأتوني بجميع أهليكم من الرجال والنساء والأولاد، روي أن أهله كانوا سبعين رجلاً وامراً وولداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع، بل يجب على الإنسان إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره، أن يبدي حاله إلى من يرجو منه

النفع، كما يجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك معارضاً للتوكل.

وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط. ويظل الصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده.

أما الشكوى لمن لا يؤمل منه إزالتها فهو عبث وسفه، إلا أن يكون على وجه البث والتسلي.

٢ - جواز طلب الزيادة على الحق على سبيل الصدقة، والصدقة كما ذكر مجاهد لم تحرم إلا على نبينا محمد ﷺ. وروى ابن جرير أن سفيان بن عيينة سئل: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَنَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٣ - استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع؛ لأن إخوة يوسف قالوا له: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فكان يوسف هو الذي يكيل. وكذلك الوزان والعداد وغيرهم؛ لأن على البائع تسليم المبيع وتمييزه عما عداه، إلا إذا باع شيئاً معيناً أو ما لا يحتاج إلى الكيل أو الوزن أو العدد، ولأن البائع لا يستحق الثمن إلا بعد إيفاء الحق بالكيل أو الوزن.

وكذلك أجرة النقد (فحص الدراهم التي هي الثمن) على البائع أيضاً؛ لأنه هو الذي يدعي الرداء، ولأن النفع يقع له، فصار الأجر عليه.

ويكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدق علي؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يتبغي الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم، لا رب غيره.

٤ - استنباط الأحكام من فحوى الكلام وما يصحبه من إشارات، فإن يوسف وجه لإخوته استفهاماً بمعنى التذكير والتوبيخ بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ففهموا منه أنه يوسف، فقالوا على سبيل استفهام التقرير والإثبات: ﴿أَوَنتَ لَا تَعْرِفُ يُوْسُفَ﴾.

ودل قوله ﴿إِذْ أَنتَمَّ جَاهِلُونَ﴾ على أنهم كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، وليسوا أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدل على أنه حسنت حالهم الآن، أي فعلتم فعلكم إذ أنتم صغار جهال. وتعرف إخوة يوسف عليه، فتجاوب معهم وعرفهم بنفسه قائلاً: ﴿أَنَا يُوْسُفُ﴾ أي أنا المظلوم.

قال ابن عباس: كتب يعقوب إلى يوسف بطلب ردّ ابنه، وفي الكتاب: من يعقوب صفي الله ابن إسحاق ذبيح^(١) الله؛ ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر:

أما بعد، فإننا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّي إبراهيم بنمرود وناره، ثم ابتلى أبي إسحاق بالذبح، ثم ابتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إلي، حتى كُفْتُ بصري من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألد سارقاً، والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله، واقتعر جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعيل صبره، فباح بالسرّ.

وأعلن يوسف عن مزيد فضل الله عليه بقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بالاجتماع بعد الفرقة، وبالعز بعد الذل، وبالنجاة والملك.

٥ - إن من اتقى الله بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى، وصبر على المصائب وعن المعاصي، فإن الله يدخر له ثواب إحسانه العمل، ولا يضيع منه شيئاً.

(١) وهذا مؤيد لرأي القائلين بأن الذبيح إسحاق، والراجع أنه إسماعيل.

٦ - الاعتراف بالذنب أو الخطأ سبيل الخطوة بالعفو والصفح، فإن قول إخوة يوسف: «وإن كُنَّا لَخَاطِئِينَ» أي مذنبين، متضمن سؤال العفو، وقد ظفروا به.

ولا مانع من العفو عن الخطأ وإن كان عمدياً، فهو يتجاوز للحق، أياً كانت صفته، وكل من اقترف ذنباً متجاوز لمنهاج الحق، واقع في الشبهة والمعصية.

٧ - شهد الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام بصفات المتقين الصابرين المحسنين، وكفى بشهادة الحق فخراً، وهذا تعليم وتدريب ومثل عملي لنا.

٨ - كانت عبارة يوسف: «لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» مثلاً رائعاً في السماحة والعفو والصفح، فهو عفو لا لوم فيه ولا تعيير، وهو صفح في حال المقدرة على العقاب، وهو تنازل عن أي حق دون أي حقد أو كراهية، وأضيف إليه الدعاء بالمغفرة على الذنب والستر، والرحمة في عالم الآخرة بين يدي أرحم الراحمين. وهو لا يكون إلا عن وحي، فكان مرد الفضل في النهاية إلى الله تعالى.

واحتذى نبينا عليه الصلاة والسلام حذو أخيه يوسف عليه السلام في هذا القول العظيم يوم فتح مكة بإعلان العفو عن قريش، روى ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بعُضَادِي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ الناس بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: ماذا تظنون يامعشر قريش؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قَدَرْتُ؛ قال: وأنا أقول كما قال أخي يوسف: «لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» فخرجوا كأنما نُشِروا من القبور».

وقال عطاء الخراساني: طلب الخوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف: «لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» وقال يعقوب: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي».

٩ - حدثت الفرحة الصغرى بعودة البصر إلى يعقوب حينما ألقى عليه قميص يوسف. وهو - في القول الأصح المروي مرفوعاً عن أنس عن النبي ﷺ، فيما ذكر القشيري - قميص إبراهيم الذي ألبسه الله أثناء إلقائه في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحاق، وكان إسحاق كساه يعقوب، ويعقوب علقه في عنق يوسف؛ لما كان يخاف عليه من العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا غوفي. وهذا بإعلام الله يوسف به. وقيل: إنه قميص يوسف الذي خلعه من على بدنه، فإنه إذا ألقى على أبيه انشرح صدره، وحصل في قلبه الفرح الشديد، والفرح يقوي الروح، ويزيل الضعف عن القوى الحسية، فيقوى بصره، ويزول عنه ما غشيه بسبب البكاء، والطب يؤيد ذلك.

١٠ - تمت الفرحة الكبرى بطلب يوسف عليه السلام من إخوته إحضار جميع أسرته إلى مصر لاتخاذها داراً، وكان عددهم سبعين أو ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة.

الفصل السادس عشر من قصة يوسف

إخبار يعقوب بريح يوسف وتأيينه ببشارة البشير

﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعَبْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ۚ﴾
 ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

القرءات:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إِنِّي أَعْلَم).

﴿رَبِّي إِنَّهُ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (رَبِّي إِنَّهُ).

الإعراب:

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ﴾ أن لتأكيد الربط بين شرط «لَمَّا» وهو «جَاءَ» وجوابها وهو «أَلْقَنَهُ».

البلاغة:

﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ هذا استنكار من القوم الحاضرين مجلس يعقوب الذين أخبرهم بأن يوسف حي، وأكدوا كلامه بمؤكدات ثلاثة: القسم وإن واللام.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ انفصلت عن بلد مصر وجاوزت حدودها وخرجت من العريش ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره من ولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لأحس برائحة يوسف، أشعره الله برائحة القميص حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً^(١) أي حملته إليه ريح الصبا بإذنه تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر ﴿تَقْدُونِ﴾ تنسبوني إلى القند: وهو ضعف العقل الحادث بسبب الهرم، أو الخرف، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، تقديره: لصدقتُموني، أو لقلت: إنه قريب.

﴿قَالُوا﴾ أي الحاضرون ﴿لَفِي ضَلَالِكَ﴾ خطئك، أو في إفراطك في حبه،

وإكثار ذكره، وتوقع لقائه بعد طول العهد ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يهوذا، روي أنه قال: كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه، فأفرحه بحمل هذا إليه، وأن: زائدة ﴿الْقَنُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام. ﴿فَازْتَدَّ﴾ رجع بصيراً؛ لما انتعش فيه من القوة، بسبب الفرح والبهجة.

المناسبة:

عمت الفرحة أولاد يعقوب في أرجاء مصر، بعد تعارفهم، وانتقل أثر الفرح إلى أرض كنعان في أسعد عودة من رحلتهم الثالثة إلى مصر، وأظهر الله المعجزة على يد يعقوب عليه السلام بإحساسه برائحة يوسف، وأيد الله ذلك الشعور بيشارة البشير ابنه الأكبر الذي اعتصم في مصر، حتى يأذن له أبوه بالرجوع بعد إبقاء أخيه بنيامين.

روي الواحدي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: أما قوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فإن عمروذ الجبار، لما ألقي إبراهيم في النار، نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة، وطنفسة من الجنة، فألبسه القميص، وأجلسه على الطنفسة، وقعد معه يحدثه، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فجعله في قسبة من فضة، وعلقها في عنقه، فألقي في الحب، والقميص في عنقه.

التفسير والبيان:

ولما خرجت إبل أولاد يعقوب من حدود مصر عائدة إلى أرض كنعان (فلسطين) من بلاد الشام، قال يعقوب النبي عليه السلام لمن حضره من حفدته وقومه: إني لأشم رائحة يوسف وقميصه، لولا أن تنسبوني إلى القنَد (الخرف وضعف العقل) والكبر.

أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال: لما خرجت العير، هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون﴾ فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

قال الرازي: والتحقيق أن يقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة ليعقوب عليه السلام على الأظهر أو الأقرب^(١).

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قال الحاضرون في مجلس يعقوب له: والله، إنك لفي خطئك القديم الذي طال أمدك بظنك أن يوسف حي يرزق يرجى لقاءه. قال فتادة: أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ فحينما وصل البريد، وهو ابنه يهوذا يحمل قميص يوسف، مبشراً له ببقائه حياً هو وأخوه بنيامين، ألقاه على وجه يعقوب، فانقلب فوراً بصيراً كما كان، من شدة الفرح.

قال السُّدِّي: إنما جاء به (أي يهوذا بن يعقوب) لأنه هو الذي جاء بالقميص، وهو ملطّخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص، فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيراً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾ قال يعقوب لأولاده وحفدته ومن حوله: ألم أقول لكم حين طلبت منكم أثناء ذهابكم إلى مصر: اجتثوا عن يوسف، ولا تيأسوا من روح الله ورحمته: إني أعلم من الله تعالى بوحي منه أشياء لا تعلمونها، وأعلم أن الله سيرد يوسف إلي. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ كلام مستأنف مبتدأ

لم يقع عليه القول، ويجوز إيقاع القول عليه وهو ما قاله لهم سابقاً: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فعندئذ قالوا لأبيهم مترفقين معظمين متوسلين: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فإننا كنا مذنبين عاصين لله، فقد تبنا وأنبنا وندمنا على ما فعلنا معك ومع أخويننا: يوسف وبنيامين.

أجابهم والدهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في المستقبل؛ لأنَّ ربي غفور سائر للذنوب، رحيم بالعباد.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - يمتاز الأنبياء عن غيرهم بأن الله تعالى يظهر على أيديهم معجزات خارقة للعادة، خارجة عن المألوف، وهذا هو الذي مكَّن يعقوب من الإخبار برائحة يوسف وقميصه، قبل وصول أولاده إليه، حاملين البشارة بلقائهم الحارَّ مع أخيه يوسف عليه السَّلام.

وقال ابن عباس: هاجت ريح، فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وعلى هذا القول أيضاً يكون الإحساس بالرائحة محتاجاً إلى عناية ربَّانية، وتأيد روحاني عميق الإدراك.

٢ - وظهرت معجزة أخرى بشفاء يعقوب عليه السَّلام بوضع القميص على وجهه، بإرادة الله تعالى وعونه، فهو إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

٣ - كان كلام الحاضرين في مجلس يعقوب عليه السَّلام مشوباً بالغلظة والتَّهْكُم، مما لا يليق توجيهه لنبي إطلاقاً، وهو من بنيه زيادة في العقوق.

٤ - لم يجد يعقوب عليه السَّلام عنده شيئاً يعطيه مكافأة للبشير، وإنَّما دعا

له قائلاً: هوّن الله عليك سكرات الموت. وهذا الدُّعاء من أعظم الجوائز وأفضل العطايا والهبات. والآية دالّة على جواز البذل والهبات عند البشارة. جاء في حديث كعب بن مالك: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني، نزع ثوبي، فكسوتهما إتياء ببشارته».

وتدلّ الآية أيضاً على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترّج، بتفريح الصّبيان وإطعام الطّعام ونحوهما، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة البقرة جَزُوراً.

هـ - نصر الله نبيّه يعقوب عليه السّلام على أولاده وكل من حوله، كما ينصر أنبياءه الكرام في نهاية المطاف وفي عاقبة الأمور، وتبيّن أنّ الناس مع الأنبياء كالأقزام مع العمالقة، فلم يجد أولاد يعقوب عليه السّلام بداً من الاعتذار من أبيهم، وطلب الدُّعاء منه أن يغفر الله لهم؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يرتفع الإثم عنه أو يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله وتسامحه وعفوه عنهم، كما عفا عنهم أخوهم يوسف.

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له، فإنه يجب عليه أن يتحلّل منه ويطلب صفحه عنه ومسامحته عليه، ويخبره بالمظلمة وقدرها، والصّحيح أنه لا ينفعه التحليل المطلق دون بيان السّبب، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبآل، ربّما لم تطب نفس المظلوم في التحليل منها. روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مَظْلَمَةٌ لأخيه من عِرْضِهِ أو شَيْءٍ، فليحلّله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أخذ منه بقدر مَظْلَمَتِهِ، وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيّئات صاحبه، فُحْمِلَ عليه»، فقوله ﷺ: «أخذ منه بقدر مَظْلَمَتِهِ» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر، مشاراً إليها مبيّنة^(١).

٦ - لم يستعجل يعقوب عليه السّلام بطلب المغفرة لأولاده والدّعاء لهم، وإنّما أخّر ذلك - كما قال ابن عباس - إلى السّحر، قال طاوس: سحر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وهذا رأي الأكثرين.

وهذا الموقف من يعقوب يختلف عن موقف يوسف عليهما السّلام، لأنّ دعاء الأول كان مؤجّلاً، ودعاء الثّاني كان في الحال. والسبب أن حال الأب حال المرنّ، فهو يريد تعظيم الذّنْب في أنفسهم، ولأنّ ذنبهم لم يكن موجّهاً إليه مباشرة، وإنّما إلى يوسف عليه السّلام وأخيه، ولأنّ خطأهم ذنب كبير حدثت منه أضرار كثيرة، فيحتاج إلى توبة نصوح، وندم شديد، ولا يحى بمجرد طلب الاستغفار، ثم إن يوسف عليه السّلام كان قادراً على عقابهم وهم ضعاف، فأراد المبادرة إلى تأمينهم من خوف الانتقام منهم، وتهدئة نفوسهم، وإظهاراً للشرور عقب المفاجأة بأنه أخوهم، وليرى الناس فضل العفو عند المقدرة، ويصبح للناس أسوة حسنة.

الفصل السابع عشر من قصة يوسف

لقاء أسرة يعقوب عليه السّلام في مصر

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ هُمُ الْعَالِمُ الْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾

القرءات:

﴿يَأْتِي﴾:

وقرأ ابن عامر (يا أبت).

﴿رُءْيَى﴾:

وقرأ السوسي (روياي).

﴿بِي إِذْ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو: (بِي إِذ).

﴿إِخْوَتِي إِنْ﴾:

وقرأ ورش (إخوتي إن).

الإعراب:

﴿سُجِّدًا﴾ جمع ساجد، كشَّهَدَ جمع شاهد، وهو حال من واو ﴿وَحَرُّوا﴾ وهي حال مُقَدَّرَةٌ.

البلاغة:

﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ جملة دعائية للتبرك وجعل الأمان بمشيئة الله تعالى، وهي متقدمة على قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾، والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَحَرُّوا لَمْ سُجِّدًا﴾ المراد بأبويه أبوه وأمه أو خالته من باب التغليب للأب، والسجود متقدم على الرفع على الشرير، لكن قدم الرفع لفظاً للاهتمام بتعظيمه أبويه.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ في الكلام حذف، تقديره: فرحل يعقوب عليه السلام

بأهله أجمعين، وساروا حتى تلقوا يوسف عليه السّلام. ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضَمَّ إِلَيْهِ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، أَوْ خَالَتَهُ، نَزَلَتْ مَنْزِلَةُ الْأُمِّ تَنْزِيلَ الْعَمِّ مَنْزِلَةُ الْأَبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣/٢] وَإِسْمَاعِيلُ كَانَ عَمًّا لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَقَالَ﴾ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ سَرِيرِ الْمَلِكِ. ﴿وَحَرَّوْا لَهُمْ﴾ أَي أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْأَحَدُ عَشَرَ. ﴿سُجَّدًا﴾ سَجُودَ تَحِيَّةٍ وَتَكْرِمَةٍ لَهُ، وَسَجُودَ انْخِئَاءٍ لَا سَجُودَ عِبَادَةٍ، وَلَا وَضَعَ جَبْهَةً عَلَى الْأَرْضِ، فَإِنْ ذَلِكَ كَانَ تَحِيَّتَهُمْ فِي زَمَانِهِمْ. ﴿تَأْوِيلُ رُءُوسِي﴾ مَا هِيَ وَعَاقِبَتُهَا. ﴿إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لَمْ يَقُلْ مِنَ الْجَبِّ تَكْرَمًا، لِنَلَا يَخْجَلُ إِخْوَتُهُ. ﴿الْبَدْوُ﴾ الْبَادِيَةُ. ﴿نَزَعٌ﴾ أَفْسَدَ وَوَسَّوَسَ، يُقَالُ: نَزَعَ بَيْنَ النَّاسِ: أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ بِالْحُثِّ عَلَى الشَّرِّ، وَأَصْلُ النَّزَعِ: النَّخْسُ، يُقَالُ: نَزَعَ الرَّائِضُ الدَّابَّةَ: إِذَا نَخَسَهَا وَحَمَلَهَا عَلَى الْجَرِيِّ، وَنَزَغَهُ الشَّيْطَانُ: نَخَسَهُ، لِيَحُثَّهُ عَلَى الْمَعَاصِي. ﴿لَطِيفٌ﴾ لَطِيفُ التَّدْبِيرِ لَمَّا يَشَاءُ؛ إِذَا مَا مِنْ صَعْبٍ إِلَّا وَتَفَذَّ فِيهِ مَشِيئَتَهُ. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِخَلْقِهِ وَبُوجُوهِ الْمَصَالِحِ وَالتَّدَابِيرِ. ﴿الْمُحْكِمُ﴾ فِي صَنْعِهِ، الَّذِي يَفْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ فِي وَقْتِهِ، وَعَلَى وَجْهِهِ يَقْتَضِي الْحِكْمَةَ.

المخاسبة:

بعد أن طلب يوسف عليه السّلام من إخوته أن يأتوه بأهله أجمعين، أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان إلى مصر، فخرج يوسف عليه السّلام للقائهم، ومعه بأمر الملك أكابر دولته.

فتم لقاء الأسرة في المرّة الرّابعة من رحلات أولاد يعقوب عليه السّلام إلى مصر، ورأوا يوسف عليه السّلام في عَزٍّ وَأَهْبَةٍ، وَتَحَقَّقَتْ رُؤْيَا يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَجُودِ إِخْوَتِهِ الْأَحَدِ عَشَرَ مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ أَوْ خَالَتِهِ، فَتَمَّ الْاجْتِمَاعُ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَالْأَنْسُ بَعْدَ الْكُدْرِ.

روي أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازاً ومثي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر للقاء يعقوب نبي الله عليه السلام.

قيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى، والمقاتلون منهم ست مئة ألف وخمس مئة، وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشيوخ.

وأقام يعقوب عليه السلام عند ابنه يوسف عليه السلام أربعاً وعشرين سنة، أو سبع عشرة سنة، وكانت مدة فراقه ثمانى عشرة، أو أربعين أو ثمانين سنة، وحضره الموت، فوصى يوسف عليه السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه، فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وأقام بعده ثلاثاً وعشرين سنة.

التفسير والبيان:

بناءً على طلب يوسف عليه السلام من إخوته إحضار أهله أجمعين إليه من بلاد كنعان إلى مصر، للإقامة معه فيها، حضر أبوه وخالته وإخوته وأسرهم، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراء وأكابر الناس بالخروج مع يوسف عليه السلام، لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، فلما دخلوا على يوسف عليه السلام في أبيه سلطانه، بعد أن استقبلهم في الطريق مع جموع غفيرة، ضم إليه أبويه وعانقهما: وهما أبوه وأمه على القول الذي رجحه ابن جرير، بأنها كانت حية، أو أبوه وخالته؛ لأن أمه قد ماتت، فتزوج أبوه خالته.

وقال لأسرته جميعاً: ادخلوا مصر إن شاء الله آمين على أنفسكم وأموالكم وأهلكم، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ورفع أبويه على سرير ملكه بأن أجلسهما معه، تكريماً لهما، وسجد له

الإخوة الأحد عشر والأبوان سجود تحية وإكرام له، لا سجود عبادة وتقديس، وكان سجود الانحناء هو تحية الملوك والعظماء في زمنهم.

ويلاحظ أن في الآية حذفاً في مطلعها تقديره: فجاء يعقوب وأسرته حتى وصلوا إلى مصر، وفيها تقديم المشيئة «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» على قوله: «ءَامِنِينَ» لأن القصد اصطحاب الدُخُول بالأمان والسلامة والغنمة، وكذلك فيها تقديم وتأخير بين الرفع على العرش وبين السجود، فالسجود متقدم على الرفع على الشرير الملكي، لكن قدم الرفع، اهتماماً بتعظيم أبويه.

وحينئذ أعادت الذاكرة إلى ذهن يوسف عليه السلام رؤياه السابقة في عهد الصغر، فقال لما رأى سجود أبويه وإخوته: يا أبت، هذا السجود تأويل رؤياي القديمة حال صغري، وهي: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» وتأويل رؤياي: ما آل إليه الأمر.

إن تلك الرؤيا أصبحت حقيقة واقعة وصحيحة صدقاً؛ فإن رؤيا الأنبياء حق ثابت، كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده، صار سبباً لوجوب ذلك الذبح عليه في البقعة، فكذاك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، وحكاها ليعقوب من قبل، سبباً لوجوب ذلك السجود.

وقد أحسن الله تعالى إلي وأفاض علي من نعمه، إذ أطلق سراحني من السجن، ورزقني الملك، وجاء بكم من البادية، وكانوا أهل بادية وماشية وشظف عيش، فنقلكم إلى الحضر وترف المدينة.

ولم يذكر إخراجه من البئر، ترفعاً عن لوم إخوته، وتكريماً لهم، وحفاظاً على حياتهم، ولأن السجن كان آخر المحن، وأخطر من السقوط في الحب؛ لما فيه من اتهام بالنساء، ولأنه بعد خروجه من البئر صار عبداً لا ملكاً، وصار بعد السجن ملكاً، فكان الإخراج منه أقرب إلى الإنعام الكامل.

حدث هذا كله من بعد أن نزع الشيطان، أي أفسد وأغوى بيني وبين إخوتي، وقد أضاف الترغ إلى الشيطان؛ لأنه سبب الإفساد، وتكريماً لإخوته. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - إن العاطفة بين الولد وأبويه طبيعية فطرية، لذا كان إكرام يوسف عليه السلام لأبويه أشد من إكرام إخوته، فعانقهما وضمهما إليه، وأجلسهما على سرير الملك معه، واكتفى بأن قال لجميع الأسرة: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

٢ - دلّ قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ على تأمين الحاكم الداخلين إلى بلاده من قطر آخر، وهو أمان يشمل الأنفس والأهل والأموال.

والمراد بقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾ كما ذكر ابن عباس: أقيموا بها آمينين، سمي الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر.

والأمان الحقيقي لا يكون إلا بمشيئة الله، لذا علقه بقوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧/٤٨].

٣ - أجمع المفسرون على أن سجود أسرة يوسف عليه السلام له كان سجود تحية وانحناء على عاداتهم المألوفة في التحية، لا سجود عبادة ولا على الأرض. وقد نسخ الله تعالى ذلك كله في شرعنا.

وبالرغم من نسخ الانحناء في التحية، فإن بعض المسلمين مع الأسف، لا يتبنهون لذلك، وينحنون في التحية والسلام، كما يفعل الغربيون الآن. روى ابن عبد البر في التمهيد عن أنس بن مالك قال: قلنا: يا رسول الله، أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: «لا»، قلنا: أفيعتق بعضنا بعضاً؟ قال: «لا»، قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: «نعم».

وأما القيام للقادم، كما أمر النبي ﷺ جماعة الأوس بقوله في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود عن أبي سعيد: «قوموا إلى سيديكم وخيركم» يعني سعد بن معاذ، فهو جائز إذا لم يؤثر ذلك في نفسه، فإن أثر فيه، وأعجب به، ورأى لنفسه حظاً، لم يجوز إعانته على ذلك؛ لقوله ﷺ: «من سره أن يتمثل له الناس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

وتجوز الإشارة بالإصبع للبعيد عنك، دون الداني القريب، وإذا سلم لا ينحني، ولا أن يقبل مع السلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم.

ولا بأس بالمصافحة، فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال فيما أخرجه ابن عدي عن ابن عمر، وهو ضعيف: «تصافحوا يذهب الغل».

وروى غالب الثمار عن الشعبي أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا.

٤ - عَدَّد يوسف عليه السلام بعض النعم عليه وعلى آله، منها الخروج من السجن، ومجيء أهله من البادية في أرض كنعان، واللفظ أو الرِّفْق الإلهي بالعباد حيث جمع الأسرة هذا الجمع الكريم الحافل السار، بعد إيقاع الشيطان الحسد بينه وبين إخوته، وتم ذلك كله بفعل الله تعالى وفضله.

٥ - تحققت رؤيا يوسف التي رآها في عهد الصغر، واختلف العلماء في مقدار المدة بين تحقق الرؤيا وبين حدوثها، فقليل: ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون، وهو قول الأكثرين، ولذلك يقولون: إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة.

٦ - إذا أراد الله تعالى شيئاً هياً أسبابه وبشراً، فحصول الاجتماع بين يوسف عليه السلام وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة، وطيب العيش، وفراغ البال، كان في غاية البعد، إلا أنه تعالى لطيف بعباده؛ لأنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها، وحكيم محكم في فعله، حاكم في قضائه، حكيم في أفعاله، مبرأ عن العبث والباطل.

الفصل الثامن عشر من قصة يوسف

دعاء جامع يتضمن تحدث يوسف بنعم الله
عليه وطلبه من ربه حسن الخاتمة

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقِّقِي بِالصَّلَاحِينَ ﴾ (١١١)

الإعراب:

﴿ فَاِطَّرَ السَّمَوَاتِ ﴾ منصوب على أنه صفة المنادى أو منادى مستقل.

المفردات اللغوية:

﴿ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر. ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ تأويل الكتب الإلهية، وتعبير الرؤيا، و﴿ مِنْ ﴾ أيضاً للتبويض لأنه لم يؤت كل التأويل. ﴿ فَاِطَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالفهما ومبدعهما. ﴿ أَنْتَ ﴾

وَلِيٍّ» ناصري أو متوليّ أمري أو منعم علي. ﴿وَالْحَقِّي بِالصَّلَاحِينَ﴾ من آبائي، أو بعامّة الصالحين في الرتبة، فعاش بعد ذلك أسبوعاً أو أكثر، ومات وله مئة وعشرون سنة، أو مئة وسبعة أعوام.

فتنازع المصريون في مدفنه، فجعلوه في صندوق من مرمر، ودفنوه في أعلى النيل، لتعمّ البركة جانييه، ثم نقله موسى عليه السّلام إلى مدفن آبائه في فلسطين. أما يعقوب عليه السّلام فأقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به، ودفنه ثمة، وعاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة.

للناسية:

بعد أن حمد يوسف عليه السّلام ربّه على لطفه ونعمه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من الثبوة والملك، دعا هذا الدّعاء، وسأل ربّه عزّ وجلّ، كما أتمّ نعمته عليه في الدّنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً، وأن يلحقه بالصّالحين.

التفسير والبيان:

قال يوسف بعد اجتماعه بأبويه وإخوته: ربّ قد أعطيتني ملك مصر، وجعلتني حاكماً مطلقاً التصرف فيها دون منازع ولا معارض ولا حاسد. روي أن يوسف عليه السّلام أخذ بيد يعقوب عليه السّلام، وطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذهب والفضة، وخزائن الحلي، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، فلما أدخله خزائن القراطيس، قال: يا بني ما أغفلك! عندك هذه القراطيس، وما كتبت إلي على ثمان مراحل، قال: نهاني جبريل عليه السّلام عنه، قال: سلّه عن السّبب، قال: أنت أبسط إليه، فسأله، فقال جبريل عليه السّلام: أمرني الله تعالى بذلك؛ لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّهْبُ﴾ فهلا خفتني؟!!

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي الكتب السماوية وأسرار كلامك، وتعبير الرؤيا ومصداقيتها، فتقع كما ذكرت.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ﴾ للتبويض؛ لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا وهو ملك مصر، وبعض التأويل.

﴿فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنت خالق السماوات والأرض ومبدعهما.

﴿أَنْتَ وَلِيُّ﴾ أنت ناصري ومتولي أموري وشأني كله في الدنيا والآخرة، فإن نعمك غمرتني في الدنيا، وأملني فيها في الآخرة.

﴿تَوْفَنِي مُسْلِمًا﴾ أمتني على الإسلام منقاداً خاضعاً طائعاً وأمرتك. قال ابن عباس: «ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام».

﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ اجعلني ملحقاً بالأنبياء والمرسلين، على العموم، وبآبائه على الخصوص وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فتوفاه الله طيباً طاهراً بمصر، ودفن في النيل في صندوق من رخام، ثم نقل موسى عليه السلام تابوته بعد أربع مئة سنة إلى بيت المقدس، فدفن مع آبائه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى أن سيرة الأنبياء عليهم السلام مثل أعلى في القدوة، فإن نعم الله تعالى على يوسف عليه السلام في الدنيا من إيتاء الملك وتعبير الرؤيا، لم تحجبه عن طلب مرضاة الله تعالى في الآخرة؛ لأن العبرة بحسن الخاتمة، وبما يلقاه المؤمن من نعيم خالد في الآخرة، ولأن الآخرة خير وأبقى. وبما أنه نبي لم يطلب أقل من مرتبة الأنبياء وكرامتهم، فسأل الله أن يجعله مع الصالحين، وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم.

أما تمنى الموت فلم يكن مطلقاً، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام، أي إذا جاء أجلي توفني مسلماً، وهذا قول الجمهور، فاللهم اجعل وفاتنا على الإيمان.

ولا يجوز في شريعتنا تمّني الموت، بدليل ما ثبت عند الإمام أحد وفي الصّحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لا بدّ متمنياً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحد ومسلم: «لا يتمنّ أحدكم الموت، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عُمره إلا خيراً».

الفصل التاسع عشر من قصة يوسف

إثبات نبوة محمد ﷺ

الإخبار عن المغيّبات والإعراض عن التّامل
في الآيات ودعوة النّبي إلى التّوحيد

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٢٩﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٣٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣١﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿لَدَيْهِمْ﴾:

وقرأ حمزة (لديهم).

﴿وَكَايِّنْ﴾:

وقرأ ابن كثير (وكائن).

﴿سَبِيلِي أَدْعُوا﴾ :

وقرأ نافع (سبيلي أَدعو).

الإعراب:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ «ذَلِكَ» : مبتدأ، و﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ : خبران له.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ «وَمَا» : نافية حجازية، و﴿أَكْثَرُ﴾ : اسمها، و﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ : متعلق بخبرها. و﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضية. «بَعْتَهُ» منصوب على الحال، وأصله المصدر.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ «أَنَا» : تأكيد للضمير المستتر في ﴿أَدْعُوا﴾ وفي ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ لأنه حال من ﴿أَدْعُوا﴾ و﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه، يريد: أَدعو إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعني. ويجوز أن يكون «أَنَا» مبتدأ وخبره ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبر مقدم، أي على حجة وبرهان، لا على هوى. ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضية بين اسم «وَمَا» الحجازية وخبرها، للدلالة على أن الهداية بيد الله وحده.

﴿وَمَا نَشَأُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على حذف مضاف، أي وما تسألهم على تبليغ القرآن الكريم من أجر.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ و﴿مُتَّكِئُونَ﴾ سجع: وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

للفردات اللغوية:

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه السلام، والخطاب للرّسول ﷺ. ﴿مَنْ أَنْبَأَ الْغَيْبَ﴾ أخبار ما غاب عنك يا محمد. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف عليه السلام. ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ في كيد، أي إلقائه في الحب، و﴿أَجْمَعُوا﴾: عزموا عليه. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، أي لم تحضرهم، فتعرف قضيتهم، فتخبر بها، وإنما ذلك من تعليم الله تعالى لك، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ إلخ الآية دليل على صدق الإخبار بالمغيّب عنك، والمعنى: هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الحب، وهم يَمْكُرُونَ به وبأبيه، ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذّبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك، فتعلّمت منه. وإنما حذف هذا الكلام استغناءً بذكره في غير هذه القصة مثل: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩/١١].

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أي أهل مكة. ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات لهم. ﴿يَمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر. ﴿وَمَا تَنْتَلِهْمُ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن الكريم. ﴿مِنْ أَجَرٍ﴾ من جعل تأخذه كما يفعل حملة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما هو أي القرآن الكريم إلا عظة للعالمين من الإنس والجن. ﴿وَكَايْنٍ﴾ وكم من آية، والمراد بها كثير من الآيات الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده، فالآية هنا: دليل على وجود الصانع ووحدانيته. ﴿يَمْرُوتَ عَلَيْهَا﴾ يَمْرُونَ على الآيات، أي يشاهدونها. ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ حيث يقرّون بوجوده وخالقيته، أي إنه الخالق الرّازق. ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ به بعبادة الأصنام، فكانوا يقولون في تلييتهم: «لييك لاشريك لك لييك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، أو

يشركون باتخاذ الأحرار أرباباً من دون الله، ونسبة التَّيْنِي إليه، أو القول بالنور والظلمة. قيل: الآية في مشركي مكة، وقيل: في المنافقين، وقيل: في أهل الكتاب، والأولى حملها على العموم.

﴿عَشِيَّةٌ﴾ نقمة تغشاهم أو عقوبة تحيط بهم وتعمهم أو تشملهم. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانها. ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ طريقي. ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى دين الله. ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ حجة واضحة ومعرفة تامة. ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ ومن آمن بي. ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهِ﴾ أنزهه تنزيهاً عن الشركاء. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وما أنا من جملة المشركين، وهو من جملة سبيله أيضاً.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة يوسف عليه السلام، أراد الحق تعالى أن يثبت بها نبوة النبي محمد ﷺ، عن طريق أنها إخبار بالغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، ولم يشاهده النبي ﷺ ولا قومه، مما يدل على كون القرآن كلام الله تعالى، وكون نبوة الرسول ﷺ حقاً وصدقاً.

ثم ندد الله تعالى بموقف المشركين من الإيمان بالله تعالى، فذكر أن هناك كثيراً من الآيات الدالة على وجود الصانع ووحدانيته، ولكن لا يلتفت إليها أولئك المشركون، وإنما يعرضون عنها.

وحسم الحق تعالى الموقف، فأبان أن سبيل دعوة النبي ﷺ هو الدعوة إلى التوحيد، ورفض الشرك بمختلف أشكاله وأنواعه.

التفسير والبيان:

ذلك المذكور من قصة يوسف بدءاً من رؤياه الرؤيا وإلقائه في الجب إلى أن أصبح حاكم مصر الفعلي، وبيان موقف إخوته منه، وحال أبيهم يعقوب عليه السلام، هو من أخبار الغيب التي لم يطلع عليها النبي ﷺ ولم يرها هو وقومه،

والخطاب له، وهي وحي من الله تعالى إليه، لتثبيت فؤاده، وصبره على أذى قومه وإعراضهم عن دعوته.

والمقصد الإخبار عن الغيب، فيكون معجزاً؛ لأنه ﷺ ما طالع الكتب، ولم يتلمذ لأحد، ولم يكن حاضراً معهم، فأخبره بهذه القصة الطويلة من غير تحريف ولا غلط إعجاز.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ بمثابة الدليل على كونه من الغيب، أي وما كنت حاضراً عندهم، ولا مشاهداً لهم، حين عزموا على إلقائه في الحب، وهم يمكرون به وبأبيه، ولكننا أعلمناك به وحيّاً إليك، وإنزالاً عليك، كقوله تعالى في قصة مريم: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهِمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤/٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٤٤] وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٤-٤٦] .

وبالرغم من هذه الأخبار المعجزة التي فيها عبرة وعظة لم يؤمن أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أي وليس أكثر الناس بمصدقين بدعوتك ورسالتك، ولو حرصت وتهاكت على إيمانهم، لتصميمهم على الكفر وعنادهم. والمراد بالآية العموم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١/١٣] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أهل مكة. ووجه اتصال الآية بما قبلها على قول ابن عباس: إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعت، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها، فربما آمنوا، فلما ذكرها أصروا على كفرهم، فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦/٢٨]^(١).

ومعنى الحرص: طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف؛ لأن جواب ﴿وَلَوْ﴾ لا يكون مقدماً عليها، فلا يجوز أن يقال: قمت لو قمت.

ثم نفى تعالى أن يكون للمشركين عذر بعدم الإيمان بدعوتك فقال: ﴿وَمَا تَنْتَلِهِمْ عَلَيْهِ مِنْ آجِرٍ﴾ أي ما تسأل منكري نبوتك يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي من جُعل ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، فما عليهم إلا الاستجابة لدعوتك؛ لأنك لا تقصد إلا اتباع أمر ربك ونصحهم الخالص.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن الذي أرسلك به ربك إلا تذكير وموعظة لكل العالمين من الإنس والجن، به يتذكرون وبه يهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة. وهذا دلّ على عموم رسالته ﷺ.

والسبب في أن أكثر الناس لا يؤمنون أنهم في غفلة عن التفكر في الدلائل الدالة على وجود الصانع وتوحيده، فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتٍ﴾ أي وكم من آية دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته في السماوات والأرض من كواكب ثابتة وسيارة وجبال وبحار، ونبات وشجر، وحيوان وحي وميت، وثمار متشابهة ومختلفة في الطعوم والروائح والألوان والصفات، يمرّ على تلك الآيات ويشاهدها أكثرهم، وهم غافلون عنها، لا يتفكرون بما فيها من عبر وعظمت، وكلها تشهد على وجود الله تعالى ووحدانيته.

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه واحد

والآية هنا: الدليل على وجود الله تعالى وتوحيده.

وأما علماء الفضاء والفلك فدأبهم الرصد المادي كرصدها الحركة أو الثبات، واستنباط القوانين العلمية، لكنهم لا يفكرون غالباً في الخالق الموجد، وفي عظمة المدبر والمقدر.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ أي وما يكاد يقرّ أكثر المشركين بوجود الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥/٣١] إلا وتراهم يقعون في الشرك، لإشراكهم مع الله الأصنام والأوثان في العبادة.

فكل عبادة أو تقديس وتعظيم لغير الله شرك، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله الله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وروى الترمذي وحسنه ابن عمر: «من حلف بغير الله فقد أشرك» أي حلف بغير الله قاصداً تعظيمه مثل الله فقد أشرك.

وروى أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جاز الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، فانظروا، هل تجدون عندهم جزاء؟».

وروى أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل» ثم بيّن للصحابه كيف يُتَقَى الشرك الخفي، فقال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه».

ثم هدد الله تعالى المشركين بالعقاب فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ أي أفأمن

هؤلاء المشركون بالله أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتشملمهم، أو يأتيهم يوم القيامة فجأة، وهم لا يحسون ولا هم يشعرون بذلك، وهذا كالتأكيد لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٧) [النحل: ٤٥-٤٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩) [الاعراف: ٩٧-٩٩].

وإيهام الساعة مبعث الهيبة والخوف من الله دون وازع مشاهد أو قريب.

ثم أبان الله تعالى بعد كل تلك الأدلة هدف دعوة النبي ﷺ وثقته بها، فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل يا محمد للثقلين: الإنس والجن: إن هذه الطريقة التي أتبعها، والدعوة التي أدعو إليها وهي شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أدعو إلى دين الله بها، على يقين، وحجة واضحة قاطعة، وبرهان، أدعو أنا، ويدعو إليها كل من اتبعني أي آمن بي وصدق برسالتني. وسبحان الله أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدس من أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس الله عن ذلك علواً كبيراً: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤) [الإسراء: ٤٤].

ويعد أن أثبت الوجدانية لله نفى الشرك نفيًا قاطعاً للرد على المشركين الذين

كانوا يقرون بوجوده ثم يشركون به في العبادة إلهاً آخر فقال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي أنا بريء من جميع المشركين على مختلف أنواعهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - الإخبار بقصة يوسف وغيرها من قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم من أنباء الغيب الدالة على المعجزة: وهي كون القرآن كلام الله، وصدق النبي ﷺ في دعوته، فذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

٢ - نزلت آية ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٣) تسلياً للنبي ﷺ، أي حتى لو أخبرتهم بقصة يوسف، لما آمنوا، أي لست تقدر على هداية من أردت هدايته.

٣ - مهمة كل نبي تبليغ الوحي المنزل عليه بإخلاص وقصد الثواب عند الله عز وجل، دون تكليف الناس بشيء من الأجر أو المقابل.

٤ - القرآن والوحي عظة وتذكرة للعالمين قاطبة، لا للعرب خاصة، إنه تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة، والمعاد والقصص، والتكاليف والعبادات، ففيه منافع عظيمة.

٥ - ما أكثر الآيات، أي الدلائل الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته، في السماوات والأرضين من نجوم وكواكب وبحار وأنهار وجبال ونباتات وأشجار، وصحارٍ شاسعات، وأحياء وأموات، وحيوان وثمرات مختلفة الطعوم والروائح والألوان والصفات. وهذه كلها أدلة محسوسة.

٦ - إيمان المشركين مزيف باطل، فهم يقرون بوجود الله خالقهم وخالق

الأشياء كلها، وهم يعبدون الأوثان. قال ابن عباس: نزلت في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضاً أنهم النصاري. وعنه أيضاً أنهم المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، آمنوا مجملًا وأشركوا مُفَصَّلًا. وقيل: نزلت في المنافقين، والأولى حملها على العموم، والمعنى كما قال الحسن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه.

٧ - عذاب الله وعقابه، وإتيان الساعة (يوم القيامة) يأتيان فجأة، من حيث لا يشعر الناس بهما.

٨ - طريقة النبي ﷺ وسنته ومنهاجه، ومنهاج أتباعه المؤمنين به الدعوة إلى ما يؤدي إلى الجنة، على يقين وحق، وشعار المؤمن دائماً: سبحان الله وما أنا من المشركين، أي أنزه الله عن أي شريك، ولست من الذين يتخذون من دون الله أنداداً أي نظراء لله.

وسمي الدين سبيلاً؛ لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥].

الفصل العشرون من قصة يوسف العبرة من القصص القرآني

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾ حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتَنَجَّى مِنْ نَشَاءِ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَا عَنِ الْقَوَمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾﴾

القراءات:

﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ : قرئ:

١- (نُوحِيَ إِلَيْهِمْ) وهي قراءة حفص.

٢- (يُوحَى إِلَيْهِمْ) وهي قراءة حمزة.

٣- (يُوحَى إِلَيْهِمْ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تَعْقِلُونَ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمزة، وأبو عمرو، والكسائي، وخلف (يعقلون).

﴿كُذِّبُوا﴾ : قرئ:

١- (كُذِّبُوا)، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (كُذِبُوا) وهي قراءة الباقيين.

﴿فَنُجِّيَ﴾: قرئ:

١- (فَنُجِّيَ) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم.

٢- (فَنُنَجِّي) وهي قراءة الباقيين.

﴿بِأَسْنَأَ﴾:

وقرأ السوسي، وحزة وفقاً (باسنا).

﴿تَصْدِيقَ﴾:

ياشمام الصاد صوت الزاي، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الباقيون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهذا إضافة الصفة بعد حذف الموصوف، وتقديره: ولدار الساعة أو الحال الآخرة، وهذه الإضافة في نية الانفصال، ولهذا لا يستفيد المضاف التعريف من المضاف إليه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ متعلّقة بمحذوف، دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النصر.

﴿وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ﴾ خبر كان المقدرة، أي ولكن كان ذلك تصديق الذي بين يديه وتفصيلاً، و﴿وَهَذَىٰ وَرَحْمَةً﴾ منصوبان بالعطف عليه.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ الأمصار؛ لأنهم أعلم

وأحلم، بخلاف أهل البوادي لجفائهم وجهلهم. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أهل مكة. ﴿عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي آخر أمرهم من إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي ولددار الحال القادمة أو الساعة الأخرى أو الحياة الآخرة وهي الجنة. ﴿اتَّقُوا﴾ الله واتقوا الشرك والمعاصي، أي خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أهل مكة، فيؤمنوا.

﴿حَتَّى﴾ غاية محذوف، دلّ عليه الكلام، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فتراخى نصرهم. ﴿أَسْتَيْسَسَ﴾ يش، أي لا يغرهم تماذي أيامهم، فإن من قبلهم أمهلوا، حتى آيس الرُّسل من النصر عليهم في الدنيا أو من إيمانهم، لانهمآكلهم في الكفر. ﴿وَطَنُوا﴾ أيقنوا. ﴿كُذِّبُوا﴾ أي ظن الأمم أن الرُّسل أخلفوا ما وعدوا به من النصر، وعلى قراءة التشديد، أي وظن الرُّسل أن القوم قد كذبوهم تكديباً لا إيمان بعده فيما أوعدوهم. ﴿فَنُجِيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم النبي والمؤمنون. ﴿بِأَسْنَاءٍ﴾ عذابنا. ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين. ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي الرُّسل. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي اعتبار من حال إلى حال. ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول. ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن. ﴿يُفْتَرَى﴾ يختلق. ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب. ﴿وَتَفْصِيلٌ﴾ تبين. ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ينال بها خير الدارين. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقونه، خصوا بالذكر لانفعاعهم به دون غيرهم.

للناسية:

بعد أن أثبت القرآن الكريم نبوة النبي محمد ﷺ بدليل إخباره عن المغيبات، ردّ الله على منكري النبوة، فقد كان من شبه منكري نبوته ﷺ أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكاً، كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤/٤١].

ثم أنذر الله كفار قريش وأمثالهم بالعقاب والعذاب إن لم يؤمنوا، فإن سئة الله في عباده واحدة أنهم إن لم يؤمنوا، حلّ بهم العذاب.

ثم ذكر تعالى أن قصة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوي العقول والأفكار.

التفسير والبيان:

ختمت سورة يوسف بهذه الخاتمة الدالة على وجوب الاتعاظ والاعتبار بقصته المؤثرة الحادثة بين كنعان ومصر، وفي ألوان متعددة، تبتدئ بإلقائه في الحب، ثم صيرورته في بيت العزيز، ثم في السجن، ثم في أعلى مناصب الحكم، وصف فيها كيد الإخوة وحسدكم، ومكر النساء وكيدهن، وصبر يوسف عليه السلام وحكمته ومهارته في إدارة الحكم، وأخلاقه وتسامحه مع إخوته، وتعظيمه أبويه.

والمعنى: وما أرسلنا يا محمد من قبلك رسلاً إلا رجالاً، لا ملائكة ولا إنثاء، وكانوا من أهل المدن لا من البوادي، وكنا نزل عليهم الوحي والتشريع.

وهذا يدل على أن الله أرسل الرُّسل من الرِّجال، لا من النساء، فلم تكن امرأة قط نبيّاً ولا رسولاً، وعلى اختيار الرُّسل من أهل المدينة، فلم يبعث الله رسولاً من أهل البادية؛ لتبعضهم المدن الأخرى، ولأن أهل البادية فيهم الجهل والجفاء، وأن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧/٩].

قال ابن كثير: وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنَّ أَزْوَاجَهُ﴾ [القصص: ٢٨/٧] وبأن الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمَلَأِكِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُكُمْ أَفْتَنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل

عمران: ٤٢/٣-٤٣] وهذا القدر حاصل لمن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك^(١).

ثم هدد الله المشركين على تكذيبهم بالرسول ﷺ فقال متعجباً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون لك يا محمد في الأرض، فينظروا ويروا كيف كان مصير الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وللكافرين أمثالها، فإن عاقبة الكافرين الهلاك، وعاقبة المؤمنين النجاة.

ثم حض الله تعالى على العمل لدار الآخرة والاستعداد لها واتقاء المهلكات فقال: ﴿وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي إن الدار الآخرة خير للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه، فهي أفضل من هذه الدار للمشركين المكذبين بالرسل، أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير؛ فإن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا، وأبقى وأخلد.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أجهلتم؟ فلا تعقلون أيها المكذبون بالآخرة، فإنكم لو عقلتم ذلك لآمتتم.

ثم بشر الله نبيه بالنصر بإخباره أن نصره تعالى ينزل على رسله عليهم السلام عند ضيق الحال واشتداد الأزمة وانتظار الفرج من الله تعالى في أخرج الأوقات إليه، فقال: ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ فيه محذوف، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم، فبلغوا أقوامهم رسالتهم الداعية إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فكذبوهم وتمادى أقوامهم في الطغيان والكفر والعناد، فتراخى نصرهم، حتى آيس الرسل من إيمانهم أو من النصر عليهم،

(١) تفسير ابن كثير: ٤٩٦/٢

لانهما كهم في الكفر، وظنت (أيقنت) الأمم أن الرُّسل أخلفوا فيما وعدوهم به من النصر، وكذبوهم فيما أخبروهم به عن الله من وعد النصر، فجاءهم نصرنا، أي أتاهم نصر الله فجأة، فنُجِّي من نشاء وهم النَّبي والمؤمنون، وحلَّ العقاب بالْمُكذِّبين الكافرين، ولا يردُّ بأسنا، أي لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله وكذبوا رسله.

والمعنى على قراءة (كذبوا) بالتشديد: وظنَّ الرُّسل أن القوم قد كذبوهم تكذيباً لا إيمان بعده فيما أوعدوهم.

وهذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم لعدم إيمانهم بالنبي ﷺ.

وللآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها ما اشتمل على وعد الله الرُّسل بالنصر: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٤٠/٥١]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢١] ﴿[المجادلة: ٢١/٥٨]، ومنها استنجاز النصر: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤/٢].

ومنها بيان سبب العقاب وهو الظلم والكفر: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٧٠] ﴿[التوبة: ٧٠/٩].

ومنها تقرير سنة الله الواحدة في عباده وإلحاق النظائر والأشياء بأمثالها، وأنه لا ظلم فيها ولا محاباة، فكفار قريش مثل الكفار السابقين في استحقاقهم العذاب لارتكابهم سببه وهو الكفر: ﴿أَكْفَرُكُمْ حَبِيرٌ مِّنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القم: ٤٣/٥٤].

ونقل تفسير الآية على قراءة التشديد: (كذبوا) على النحو السابق عن

عائشة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروة ابن الزبير، وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ الآية: «معاذ الله لم تكن الرُّسل تظن ذلك برَبِّها، هم أتباع الرُّسل الذين آمنوا برَبِّهم وصدَّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرُّسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرُّسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك». وأنكرت عائشة المعنى على قراءة التخفيف. وقال الرازي عن تأويل عائشة: وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية.

ونقل تفسير الآية على قراءة التخفيف ﴿كُذِّبُوا﴾ عن ابن عباس وابن مسعود، قال ابن عباس: «لما أيسر الرُّسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرُّسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك»، وقال ابن مسعود في آية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾: من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا، بالتخفيف. وهذا هو المشهور عن الجمهور^(١).

والخلاصة: على قراءة التخفيف، الضمير في ﴿وَضَلُّوا﴾ عائد على المرسل إليهم، لتقدمهم في الذكر في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرُّسل، والظن هاهنا بمعنى التوهم والحسبان. والمعنى: وظن المرسل إليهم أنهم قد كذبهم الرُّسل فيما ادَّعوه من التوبة وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العذاب، وهذا مشهور قول ابن عباس وتأويل عبد الله ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد. ولا يجوز أن تكون الضمائر في هذه القراءة على الرُّسل؛ لأنهم معصومون، فلا يمكن أن يظن أحد منهم أنه قد كذبه من جاءه بالوحي عن الله^(٢).

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨، تفسير القرطبي: ٩/ ٢٧٥

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٣٥٤

وعلى قراءة التشديد وجهان:

الأول - أَنَّ الظَّنَّ بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فحيثُ دُعُوا عليهم، فهناك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال، وورود الظَّنَّ بمعنى العلم كثير في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦/٢]، أي يتيقنون ذلك.

والثاني - أن يكون الظَّنَّ بمعنى الحسبان، والتقدير: حتى إذا استيأس الرُّسل من إيمان قومهم، فظَنَّ الرُّسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها، قال الرازي: وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية^(١).

وقال الزمخشري في قراءة التخفيف: ﴿وَزُفُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو وظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم كقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله وتأمله قد تطاولت عليهم، وتمادت، حتى استشعروا القنوط، وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب^(٢).

ثم ذكر الله تعالى الهدف العام من قصص القرآن، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ أي لقد كان في سرد أخبار الأنبياء المرسلين مع قومهم، وكيف نحينا المؤمنين، وأهلكنا الكافرين عبرة وعظة وذكرى لأولي العقول والأفكار الصحيحة. والاعتبار والعبرة: الانتقال والعبور من جهة إلى جهة. أما المهملون عقولهم فلا ينظرون في الأحداث ولا يستفيدون من دروس التاريخ، فلا يفيدهم النصيح.

(١) تفسير الرازي: ٢٢٦/١٨ وما بعدها.

(٢) الكشف: ١٥٧/٢

ثم ذكر الله تعالى مشتملات القرآن فقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَحُ﴾ أي ما كان هذا القرآن الشامل للقصة وغيرها، أو ما كان هذا القصص والحديث الذي اشتمل عليه القرآن حديثاً يختلق ويكذب من دون الله؛ لأنه كلام أعجز رواة الأخبار وحملة الحديث، وإنما هو كلام الله من طريق الوحي والتنزيل وتصديق ما تقدّمه من الكتب السماوية كال்தوراة والإنجيل والزبور، أي تصديق ما جاء فيها من الصّحيح والحق، ونفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، فهو مصدّق أصولها الصّحيحة، لا كل ما جاء فيها بعد من حكايات وأساطير لا يتقبّلها العقل السليم، وهو أيضاً مهيمن عليها وحارس لها.

والقرآن أيضاً فيه تفصيل كل شيء من الحلال والحرام والمحبوب والمكروه، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وصفات الله الحسنى، وقصص الأنبياء على النحو الثابت الواقع الذي لا تحريف فيه ولا تزويق. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨/٦].

والقرآن أيضاً هدى للعالمين، يهدي الناس إلى طريق الاستقامة والسّداد، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من الغي إلى الرّشاد، ومن الضلال إلى السّداد، ويرشدهم إلى الحق والخير والصّلاح في الدّنيا والدّين.

وهو كذلك رحمة عامّة من ربّ العالمين للمؤمنين في الدّنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الاحكام:

تضمّنت الآيات الأحكام التالية:

١ - الأنبياء دائماً من الرّجال، ولم يكن فيهم امرأة ولا جيّ ولا ملك. وهذا ردّ على ما يروى عن النّبي ﷺ أنه قال في حديث غير ثابت: «إنّ في النّساء أربع نبيّات: حوّاء، وآسية، وأم موسى، ومريم».

٢ - الأنبياء من أهل المدن، ولم يبعث الله نبيّاً من أهل البادية؛ لغلبة الجفاء

والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار والقرى أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن البصري: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن. وقال العلماء: من شرط الرسول: أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً؛ وإنما قالوا: آدمياً، تحرّزاً من قوله: «يُؤْتِنَا بِرِجَالٍ مِّنَ الْغَيْنِ» [الجن: ٦/٧٢].

٣ - على الناس قاطبة أن ينظروا بمصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم، فيعتبروا.

٤ - آية «حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم.

والمعنى أو الحكم على قراءة التخفيف «كُذِّبُوا» في رأي الجمهور: ظنّ القوم أنّ الرسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب، ولم يصدّقوا. أو ظنّ الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم.

والمعنى أو الحكم، على قراءة التشديد (كُذِّبُوا) أيقنوا أن قومهم كذبوهم، أو حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذبوهم، لا أن القوم كذبوا، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يكذبونهم.

٥ - في قصص الأمم الغابرة ومنها قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته عبرة، أي فكرة وتذكرة وعظة، لأولي العقول.

٦ - ما كان القرآن حديثاً يفترى ويختلق ويكذب من دون الله، فهو كلام معجز لا يستطيع بشر ولو كان نبياً أن يأتي بمثله. وكذلك ما كانت قصة يوسف حديثاً يفترى من دون الله تعالى.

٧ - القرآن الكريم مصدّق لما تقدّمه من الكتب السماوية من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى، ومهيمن عليها وحارس لها.

٨ - القرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء مما يحتاج إليه العباد من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام.

وهو أيضاً هداية ورحمة من الله تعالى لعباده وللمؤمنين بالغيب، وإنقاذ للبشرية من الضلالة إلى التور، ومن الفساد إلى النظام والصلاح: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢] .

٩ - يمكن توجيه الكلام إلى قصّة يوسف عليه السلام وحدها، فيكون تعالى وصفها بصفات خمس هي:

أ - كونها عبرة لأولي الألباب.

ب - ما كان حديثاً يفترى، أي ليس لمحمد ﷺ أن يفترى؛ لأنه لم يقرأ الكتب، ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء، وليس يكذب في نفسه؛ لأنه لا يصحّ الكذب منه، وأكّد تعالى كونه غير مفترى فقال: ﴿وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي إن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية.

ج - وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته.

د - كونها هدى في الدنيا.

هـ - كونها سبباً لحصول الرحمة في القيامة لقوم يؤمنون. خصّهم بالذكر؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الرَّعْدِ

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة الرّعد، للكلام فيها عن الرّعد والبرق والصّواعق وإنزال المطر من السّحاب: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الْمُنْقَلَبَ ۗ﴾ وَيَسْمِعُ الرّعدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الرّعدُ ﴿الرعد: ١٣-١٢﴾ والمطر أو الماء سبب للحياة: حياة الأنفس البشريّة والحيوان والنبات، والصّواعق قد تكون سبباً للإفناء، وذلك مناقض للماء الذي هو رحمة، والجمع بين التّقيضين من العجائب.

مناسبتها لما قبلها:

هناك تناسب بين سورة الرّعد وسورة يوسف في الموضوع والمقاصد ووصف القرآن، أما الموضوع فكلتاها تضمّنتا الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم، وكيف نجّى الله المؤمنين المتّقين وأهلك الكافرين، وأما المقاصد فكل من السّورتين لإثبات توحيد الإله ووجوده، ففي سورة يوسف: ﴿يَصْدَحِي السِّجْنَءُ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۚ﴾. وفي سورة الرّعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ١٣/٢]. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴿الرعد: ١٣/١٦﴾ ، وفيهما من الأدلة على وجود الصانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه ووحدانيته الشيء الكثير، ففي سورة يوسف: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٠﴾﴾. وفي سورة الرعد آيات دالة على قدرة الله تعالى وألوهيته مثل الآيات [٢ - ٤]، والآيات [٨ - ١١]، والآيات [١٢ - ١٦]، والآيات [٣٠ و ٣٣].

وأما وصف القرآن فختمت به سورة يوسف: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وبدئت سورة الرعد بقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

تحدثت سورة الرعد عن مقاصد السور المدنية التي تشبه مقاصد السور المكية، وهي التوحيد وإثبات الرسالة النبوية، والبعث والجزاء، والرد على شبهات المشركين. وأهم ما اشتملت عليه هو ما يأتي:

١ - بدئت السورة بإقامة الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته، من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال والأنهار، والزروع والثمار المختلفة الطعوم والروائح والألوان، وأن الله تعالى منفرد بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضر.

٢ - إثبات البعث والجزاء في عالم القيامة، وتقرير إيقاع العذاب بالكفار في الدنيا.

٣ - الإخبار عن وجود ملائكة تحفظ الإنسان وتحرسه بأمر الله تعالى.

٤ - إيراد الأمثال للحق والباطل، ولمن يعبد الله وحده ولمن يعبد

الأصنام، بالسَّيل والزَّيد الذي لا فائدة فيه، وبالمعدن المذاب، فيبقى النقي الصَّافي ويطرح الخبث الذي يطفو.

٥ - تشبيه حال المتقين أهل السَّعادة الصَّابرين المقيمي الصَّلَاة بالبصير، وحال العصاة الذين ينقضون العهد والميثاق، ويفسدون في الأرض بالأعمى.

٦ - البشارة بجنان عدن للمتقين، والإنذار بالنار لناقضي العهد المفسدين في الأرض.

٧ - بيان مهمّة الرّسول وهي الدَّعوة إلى عبادة الله وحده، وعدم الشّرك به، وتحذيره من مجاملة المشركين في دعوتهم.

٨ - الرّسل بشر كغيرهم من الناس، لهم أزواج وذرية، وليست المعجزات رهن مشيئتهم، وإنما هي بإذن الله تعالى، ومهمّتهم مقصورة على التّبليغ، أما الجزاء فإلى الله تعالى.

٩ - إثبات ظاهرة التّغير في الدُّنيا، مع ثبوت الأصل العام لمقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

١٠ - الإعلام بأن الأرض ليست كاملة التّكوين، وإنما هي بيضاوية ناقصة في أحد جوانبها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

١١ - إحباط مكر الكافرين بأنبيائهم في كل زمان.

١٢ - ختمت السورة بشهادة الله لرسوله ﷺ بالنبوة والرّسالة، وكذا شهادة المؤمنين من أهل الكتاب بوجود أمارات النّبي ﷺ في كتبهم. وكان في السّورة بيان مدى فرح هؤلاء بما ينزل من القرآن مصدّقاً لما عرفوه من الكتب الإلهية.

القرآن حق

﴿الْمَرْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

الإعراب:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: ﴿الْحَقُّ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ﴾ خبر مقدم، ويجوز أن يكون ﴿وَالَّذِي﴾ مبتدأ وخبره ﴿الْحَقُّ﴾. ويجوز أن يكون ﴿وَالَّذِي﴾ في موضع جر عطفاً على ﴿الْكِتَابِ﴾ أو وصفاً للكتاب، والواو زائدة.

البلاغة:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ إشارة بالبعيد عن القريب، للدلالة على علو شأن الكتاب. وأل في ﴿الْكِتَابِ﴾ للتفخيم والتعظيم، أي الكتاب الكامل في بيانه، السامي في إعجازه.

المفردات اللغوية:

﴿الْمَرْ﴾ البدء بهذه الحروف الهجائية المقطعة للتشبيه على إعجاز القرآن الكريم وبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه، بالرغم من كونه بلغة العرب ويتكون من حروف الكلمات التي ينطقون بها.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه الآيات آيات القرآن، والإضافة بمعنى من، أو إن الكتاب بمعنى السورة، وتلك إشارة إلى آياتها، أي تلك الآيات آيات

السورة الكاملة. ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن المنزل إليك من ربك عطف عام على خاص، أو عطف صفة على صفة، أو مبتدأ، وخبره ﴿الْحَقُّ﴾. ﴿الْحَقُّ﴾ لا شك فيه، والجملة كالحجة على الجملة الأولى، وتعريف ﴿الْحَقُّ﴾ أعم من أن يكون المنزل صريحاً أو ضمناً كالمثبت بالقياس وغيره مما أقر القرآن بحسن اتباعه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ إما أهل مكة، أو على العموم. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه من عند الله؛ لإخلاهم بالنظر والتأمل فيه.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى القرآن في آخر سورة يوسف بخمس صفات، أضاف هنا صفة أخرى وهي كونه حقاً من عند الله تعالى.

التفسير والبيان:

آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال، أو تلك الآيات العظام القدر والشأن آيات الكتاب وهو القرآن الكريم.

وكل القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك حق لا شك فيه، وهو على التفسير الأول بأن الآيات هي السورة إجمال بعد تفصيل، أو عموم بعد خصوص، فبعد أن أثبت تعالى لهذه السورة وصف الكمال والرفعة، عمم هذا الحكم على القرآن جميعه.

ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالمنزل إليك من ربك، ولا يقدرّون ما في القرآن من سمو التشريع والأحكام ورعاية المصالح المناسبة لكل عصر وزمان. وهذا كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣]، أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والنفاق والعناد.

وإذا كان واقع البشرية اليوم أن أكثر سكان العالم لا يؤمنون بالقرآن

الكريم، وأن المسلمين بالنسبة إلى غيرهم هم الخمس، فيكون ذلك معجزة للقرآن الكريم الذي أخبر عن حال أكثر الناس في الماضي كأهل مكة، وفي مسيرة التاريخ، وفي الوقت الحاضر والمستقبل.

فقه الحياة أو الاحكام:

دلت الآية على أن آيات القرآن بالغة حد الكمال في الإعجاز والبيان، وأن القرآن الكريم حق منزل من عند الله تعالى لا شك فيه ولا ريب، باقٍ على وجه الدهر، ولكن مع الأسف حجب العناد والكفر كثيراً من الناس عن الإيمان بما جاء فيه من حكم بالغة، وأحكام رصينة، وتشريعات محكمة. وهذا ليس إقراراً لهم، وإنما هو على سبيل الزجر والتهديد.

وقد تمسك نفاة القياس بهذه الآية، وقالوا: الحكم المستنبط بالقياس غير نازلٍ من عند الله تعالى، فهو ليس حقاً؛ لأنه لا حق إلا ما أنزله الله تعالى.

ومثبو القياس أجابوا عن ذلك بأن الحكم الثابت بالقياس نازل أيضاً من عند الله تعالى؛ لأنه تعالى لما أمر بالعمل بالقياس، كان الحكم الذي دلّ عليه القياس نازلاً من عند الله تعالى. وقد بينّا أن تعريف «الْحَقِّ» وإن دلّ على اختصاص المنزل بكونه حقاً، فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره، مما نطق المنزل بحسن اتّباعه.

بعض مظاهر قدرة الله في السماوات والأرض

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٍ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانٍ زَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

القراءات:

﴿يُغْشَىٰ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يُغْشَى).

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ﴾: قرئ:

١- (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ غيرٌ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٍ وغيرٍ) وهي قراءة الباقيين.

﴿يُسْقَىٰ﴾: قرئ:

١- (يُسْقَى) وهي قراءة ابن عامر، وحفص.

٢- (تُسْقَى) وهي قراءة الباقيين.

﴿وَنُفِضِلُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ويُفضل).

﴿فِي الْأَكْلِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (في الأكل).

الإعراب:

﴿يَغْيِرُ عَمِدَ تَرَوْنَهَا﴾ الباء متعلّقة برفع، أو بـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾. و﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿السَّمَوَاتِ﴾، أي إنه ليس ثم عمدة ألبتة، ويجوز أن تكون في موضع جر؛ لأنها صفة لـ ﴿عَمِدَ﴾ أي إن ثمَّ عَمَدًا، ولكن لا ترى.

﴿وَزَرَعَ﴾ معطوف على ﴿وَجَعَلَتْ﴾، وتقديره: وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات وزرع ونخيل صنوان مجتمعة من أصل واحد، ﴿وَعَبَّرَ صِنَوَانٍ﴾ غير مجتمعة من أصل واحد، وعلى قراءة الجر. (وزروع) معطوف على ﴿أَعْتَبَ﴾، فتجعل الجنات من الزرع، وهو قليل.

البلاغة:

﴿يُغْيِي أَلْبَلَّ النَّهَارَ﴾ شبه إزالة نور النهار بظلمة الليل بالغطاء الكثيف، واستعار لفظ ﴿يُغْيِي﴾ من الغطاء الحسي للأمر المعنوية.

المفردات اللغوية:

﴿عَمِدَ﴾ جمع عماد، وهو الأسطوانة، والآية تحتل ألا عمدة أصلاً، أو هناك عمدة غير مرئية. ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق به، أو المراد منه المجاز، أي بالحفظ والتدبير. ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلّل بالحركة المستمرة والسرعة المعينة ونحو ذلك. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كل منهما يسير في فلكه إلى يوم القيامة. ﴿يُذَبِّرُ الْآمَرَ﴾ يصرف الأمر على وجه الحكمة. ﴿يُقَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يبين

دلالات قدرته، وهي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتوقنوا وتحققوا كمال قدرته بالبعث، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها قادر على الإعادة والجزاء. واليقين: العلم الثابت الذي لا شك فيه.

﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بسطها طولاً وعرضاً ليتمكن الإنسان والحيوان من السير عليها والانتفاع بمنافعها. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وخلق فيها جبلاً ثوابت. ﴿وَأَنْهَارًا﴾ عطفها على الجبال مباشرة؛ لأنها أسباب تولدها ونبعها. ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾. ﴿رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الشمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والذكر والأنثى.

﴿يُغْشَى﴾ يغطي الليل بظلمته ضوء النهار فيطمسه، ويصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على وحدانية الله تعالى. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تلك الآيات وفي صنع الله تعالى، فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم، دبر أمرها، وهما أسبابها.

﴿قَطَعَ﴾ أي بقاع مختلفة. ﴿مُتَجَوِّرَاتٍ﴾ متلاصقات، فمنها طيب ومنها سيخ، ومنها رخو ومنها صلب، وبعضها صالح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس، وذلك التخصيص مع التجاور والطبيعة الأرضية من دلائل قدرة الله تعالى. ﴿وَجَعَلَتْ﴾ بساتين. ﴿صِنَاوًا﴾ جمع صنو، أي ونخلات يجمعها أصل واحد، وتشعب فروعها. ﴿وَعِزُّ صِنَاوٍ﴾ أي ومتفرقات مختلفة الأصول، وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي «عم الرجل صنو أبيه». ﴿يُسْقَى﴾ أي الجئات وما فيها. ﴿الْأَكْلِ﴾ ما يؤكل، فمنها الحلو ومنها الحامض، ومنها الثمر ومنها الحب، وغير ذلك من الاختلاف شكلاً وقدرًا

ورائحة وطعماً؛ وهو من دلائل قدرته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَاتٍ﴾
لدلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون ويستعملون عقولهم بالتفكير.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون، أعقبه ببيان ما يدل على
التوحيد والمعاد، بالاستدلال بأحوال السماوات وأحوال الشمس والقمر،
وبأحوال الأرض: جبالها وأنهارها، وبأحوال النبات من زروع وثمار
وأشجار مختلفة الطعوم والروائح والألوان.

وبعد أن بين الله تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال،
فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي خلق السماوات
بغير أعمدة، لا نشاهدها بالعين، فهي لا عمد لها أصلاً، وقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾
مؤكد معنى كونها بغير عمد؛ لأن المراد إثبات وجود الله تعالى وقدرته، فلو
كان لها أعمدة، فلا يكون في الآية دلالة على وجود الله تعالى، فهي تقوم
بقدره الله تعالى وحفظه وتديبره، وتقوم في الفضاء بإبقائه تعالى، حتى لو قيل
بتوازن قانون الجاذبية بين النجوم والكواكب، فإن ذلك بخلق الله تعالى.

ثم استوى الله تعالى على عرشه استواء يليق به، والعرش شيء مخلوق، نؤمن
به كما أخبر القرآن، وهو أعظم من السماوات والأرض، جاء في الحديث:
«ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض
فلاة، والكرسي في العرش المجيد كذلك الحلقة في تلك الفلاة»، وفي رواية:
«والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل».

وسخر الشمس والقمر، أي ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع

خلقه، من دوران وضياء، وظهور واختفاء، جاء في آيات أخرى ما يبين دورة الشمس حول نفسها، وحركة القمر حول الأرض، فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ٢٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

وكل من الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب السيارة يجري لأجل مسمى، أي لمدة معينة هي نهاية الدنيا ومجيء القيامة، أو لمدة محددة يتم فيها دورانه، فالشمس تتم دورتها في سنة، والقمر يتم دورته في شهر.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي إن الله تعالى يدبّر أمر الكون ويصرفه على وفق إرادته ومقتضى حكمته، فيحيي ويميت، ويعزّ ويذلّ، ويغني ويفقر، ويهيئ الأسباب للنتائج والمسببات، ويُسَيِّرُ الأفلاك في نظام دقيق ثابت لا يخطئ ولا يتغير. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي يبين الدلائل الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته.

﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْفِيقُونَ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه قادر على أن يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه أول مرة، رجاء أن تتيقنوا وتحققوا، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شك فيه أن الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا في البر أو البحر أو في أجواف الحيوان.

فالذي قدر على خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، ودبّر نظام الكون والحياة وأمور الخلق بدقة فائقة، لا يبعد عليه ولا يعجزه البعث الجديد، وإعادة الأرواح إلى أجسادها، ثم حساب أصحابها على ما قدموا في دار الدنيا.

هذه هي الأدلة السماوية على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، أتبعها بالأدلة الأرضية، وهي: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي والله تعالى هو الذي جعل الأرض متسعة، منبسطة للحياة، ممتدة في الطول والعرض، ليتمكن الإنسان والحيوان من التنقل فيها بسهولة، والانتفاع بخيراتها النباتية والمعدنية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦/٧٨]. ولا يمنع انبساط الأرض للحياة في أجزائها أنها غير كروية أو مسطحة في حجمها الكلي، فقد أشار القرآن الكريم لكرويتها في آيات أخرى منها: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥/٣٩] والتكوير: اللف على الجسم المستدير، فهي مبسوطة ممدودة في نظرنا لنعيش عليها.

وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، لسقاية ما فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح.

وجعل فيها من كل صنف من أصناف الثمار زوجين اثنين أي ذكراً وأنثى، فالشجر والزروع لا يتجان الثمر والحب إلا من عضوين: ذكر وأنثى، وجعل أيضاً من كل ثمر صنفين، إما من حيث الطعم كالحلو والحامض، أو من حيث اللون كالأسود والأبيض، أو الطبيعة كالحر والبارد.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦/٧٨-٨].

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ أي يغطي الله ضوء النهار بظلمة الليل، ويطرده ظلام الليل بنور النهار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩/٧٨-١١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾ [النمل: ٨٦/٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣/٣٠].

ثم نبّه الله تعالى في ختام الآية إلى وجوب التفكر في تلك الآيات السماوية والأرضية، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في مخلوقات الله وعجائب خلقه وآلائه وحججه لدلائل وبراهين لمن يتفكر فيها ويعتبر بعظمتها، فيستدل بها على وجود الله تعالى، وقدرته، وكمال علمه، وإرادته، مما لا يوجد له مثل في الكون، وذلك يستوجب تخصيصه بالعبادة، والخضوع لسلطانه، والتزام أوامره.

ومن الآيات الأرضية اختلاف أجزاء الأرض بالطبيعة والماهية، وهي مع ذلك متجاورة فقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾، أي وفي الأرض أجزاء مجاور بعضها بعضاً، ويقرب بعضها من بعض، وهي مع تجاورها مختلفة متغايرة الخواص، فمنها طيب ينبت ما ينفع الناس، ومنها سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، ومنها صالح للزرع دون الشجر وبالعكس، ومنها الرخوة ومنها الصلبة، وتختلف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه صفراء، وهذه بيضاء، وهذه سوداء، وهذه ثخيرة، وهذه مرملة، وهذه سمكية، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، وهي مختلفة الصفات، مما يدل على وجود الخالق المختار، الذي لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وفيهما بساتين من أعناب، وزروع متفاوتة من حبوب مختلفة لتوفير غذاء الإنسان والحيوان، ونخيل صنوان وغير صنوان، والصنوان: ذواأصول أو الجذوع المجتمعة في منبت واحد كالزمان والتين وبعض النخيل، وغير الصنوان: ما كان على أصل أو جذع واحد كسائر الأشجار. جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه». وقال البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات.

ويظهر التفاوت العجيب في بقاع الأرض وأصناف النبات في أن الأرض

المنبتة لها واحدة، وتسقى من ماء واحد، وتتفاوت طعومها، وتتفاضل مأكليها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في هذا التفاوت مع وجود مصادر التشابه لأدلة باهرة على وجود الله ووحدانيته، لقوم يتدبرون ويفكرون فيها، فهذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها، حلاوة وحموضة ومرارة وعذوبة وتلونا، وهذا الاختلاف في الأزهار في ألوانها وروائحها وإبداع ورقاتها وزهرها، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء والأرض، في كل مذكر آيات لمن كان واعياً، ومن أعظم الأدلة على وجود الخالق الفاعل المختار القادر على كل شيء، ومن قدر على الإيجاد والخلق أول مرة فهو قادر على الإعادة والتكوين مرة ثانية، بل هو أهون عليه.

وختم الآيات الثلاث بما ذكر: ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ تَوْفِئُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على وجوب استخدام النظر والعقل والفكر، للتوصل إلى الاقتناع الذاتي الحر بوجود الخالق ووحدانيته، وهذا الإعمال للعقل من مقاصد الإسلام، وفرائض القرآن، وأصول الدين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - من لطف الله بعباده ورحمته بهم وإرشاده لهم أنه أوضح لهم الأدلة، ولفت نظرهم إلى ما يدل على وجوده وكمال قدرته، وعلمه، وإرادته، فتخصيص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس إلا من الله تعالى.

٢ - الأدلة متنوعة: سماوية وأرضية، فالسماوية ثلاثة: رفع السماوات بغير أعمدة، والاستواء على العرش، وتسخير الشمس والقمر وتذليلهما وتطويعهما لغايات معينة في مدة معينة لمنافع الخلق ومصالح العباد ما داموا في الدنيا وحتى تقوم الساعة، يدبر الله فيها الأمر، أي يصرفه على ما يريد بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار، وإنزال الوحي وبعثه الرسل وتكليف العباد، وبيّن الآيات، فمن قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة، لذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْفَئُونَ﴾ وهذا إثبات للالوهية والربوبية والمعاد يوم القيامة، فمن كان يمكنه تدبير من فوق العرش إلى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن.

وأما الأدلة الأرضية فهي ستة: بسط الأرض بالنسبة للنّاظر ليتمكن العيش عليها، وتثبيتها بالجبال الراسيات الشّاحات، وإجراء الأنهار وتفجير الينابيع، وجعل الثمار ذات وجهين اثنين، أي من صنفين متعارضين كالذكر والأنثى، والحلو والحامض، والحر والبارد، والأبيض والأسود، وتغطية الليل النّهار، وتبديد ظلمة الليل بضوء النّهار، وتفاوت ما تنتجه الأرض من حبوب وزروع وثمار وأشجار، مجتمعة ذات جذوع متعددة من منبت واحد، ومتفرقة ذات جذع مستقلّ بكل واحدة منها.

فكل ما ذكر يدلّ دلالة قطعية على أنّ الكل بتدبير الله الفاعل المؤثر المختار، لا بالطبيعة ولا بالمصادفة.

٣ - لا يفهم من آية: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾، وآية: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النّازعات: ٣٠/٧٩] أنّ الأرض غير كروية، فقد ثبتت كرويتها بالأدلة العلمية العقلية والحسية، ودلت أقمار الفضاء الدّائرة حول الأرض بما لا يقبل أي شك أو جدل على أنّ الأرض كروية، وقد صرح بكرويتها

علماؤنا كالرّازي^(١)، فإن المقصود أن كل قطعة من الأرض تشاهد كالسطح، وأما مجموعها وحجمها العظيم فهو كرة بدليل تثبيتها في الآية هنا بالجبال الرّواسي، وكذلك في آية أخرى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧٨/٧]. وبدليل تكوير الليل على النهار، والنّهار على الليل، والتكوير: اللف على الجسم المستدير.

٤ - قال القرطبي عن آية ﴿وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ﴾: في هذا أدلّ دليل على وحدانيته تعالى وعِظَم صمديته، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته؛ فإنه سبحانه تَبَّه بقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطّبع (الطّبيعة)؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطّبيعة، لما وقع الاختلاف^(٢).

٥ - الدّعوة القويّة، بل الفريضة والإيجاب لإعمال الفكر والعقل، والاسترشاد بما في الكون من دلائل وعلامات واضحة على وجود الله تعالى، وكمال قدرته، وعلمه، ووحدانيته.

٦ - قال الحسن البصري في آية: ﴿وَنَفْضُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشرّ والإيمان والكفر، كاختلاف الثّمار التي تسقى بماء واحد.

(١) تفسير الرّازي: ١٩/٢ - ٣

(٢) تفسير القرطبي: ٢٨١/٩

إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب ومطالبتهم بإنزال آية مادية على النبي ﷺ

﴿ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَخْلُقْ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَسَنَعْلُوكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

القراءات:

﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ﴾ : قرئ:

١- (أئنذا كنا تراباً إنا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٢- (إذا كنا تراباً أئنا) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (أئنذا كنا تراباً أئنا) وهي قراءة الباقرين.

﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ : قرئ:

١- (من قبلهم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (من قبلهم) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (من قبلهم) وهي قراءة الباقرين.

الإعراب:

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، ولا بد فيه من تقدير صفة لتمكن المعنى أي فعجب أي عجب أو فعجب غريب.

﴿أَءَدَا﴾ عامل (إذا): فعل مقدر دل عليه معنى الكلام، أي: أنبعث إذا كنا تراباً؛ لأن في قوله: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ دليلاً عليه، ولا يجوز أن يعمل فيه: ﴿كُنَّا﴾؛ لأن «إذا» مضافة إليها، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولأنهم لم ينكروا كونهم تراباً، وإنما أنكروا البعث بعد كونهم تراباً.

وقوله ﴿أَءَدَا كُنَّا﴾ إلى آخر قولهم: إما بدل مرفوع من ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وإما منصوب بالقول. والاستفهامان: ﴿أَءَدَا﴾ و﴿أَءَنَّا﴾ للتأكيد وشدة الحرص على البيان.

﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ محله النصب على الحال.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿أَنْتَ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿مُنذِرٌ﴾. و﴿هَادٍ﴾: معطوف على ﴿مُنذِرٌ﴾، فتكون اللام في ﴿وَلِكُلِّ﴾ متعلقة بمنذر أو بهاد، وقد فصل بين الواو والمعطوف بالجار والمجرور، وتقديره: إنما أنت منذر وهاد لكل قوم. ويجوز أن يكون ﴿هَادٍ﴾ مبتدأ، و﴿وَلِكُلِّ﴾: الخبر، واللام متعلقة باستقر.

البلاغة:

بين ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ و﴿الْحَسَنَةِ﴾ وبين ﴿مُنذِرٌ﴾ و﴿هَادٍ﴾ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِنْ تَعَجَّبْ﴾ يا محمد من تكذيب الكفار لك وعبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فأعجب منه، أو فعجب غريب أو فحقيق بالعجب تكذيبهم بالبعث وإنكارهم له. والعجب: تغير النفس واندھاشها حين رؤية ما يُستبعد في العادة. ﴿أَءَدَا كُنَّا تَرَابًا أَءَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا استفهام إنكاري، ينكرون فيه إمكان إعادة الخلق بالبعث، وفاتهم أن القادر على إنشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على إعادتهم.

﴿الْأَعْلَلُ﴾ جمع عُلٍّ: وهو طوق حديدي تشد به اليدان إلى العنق. ﴿بِالسِّنَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعذاب قبل السلامة. ﴿الْمُثَلَّثُ﴾ جمع مثلة بوزن سمره: وهي العقوبة، أي مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا. وسميت مثلة لما بين العقاب والجريمة من المماثلة، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٤٠] ومنه سمي عقاب القتاتل قصاصاً، لما فيه من المماثلة. ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ الغفر والمغفرة: الستر، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة. ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي مع ظلمهم، وإلا لم يترك على ظهرها دابة. ﴿لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه.

﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ﴾ هلا أنزل على محمد. ﴿آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ آية حسية كقلب عصا موسى حية، وجعل يده بيضاء مشعة كالشمس، وناقة صالح. ﴿مُنْذِرٌ﴾ مخوف الكافرين، وليس عليك إتيان الآيات، والإنذار: التخويف. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الهادي: الذي يرشد الناس إلى الخير والحق والصواب كالأنبياء والحكماء والعلماء، أي لكل قوم نبي يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه إياهم من الآيات، لا بما يقترحون، وهو مدعم عادة بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم.

المناسبة:

أقام الله تعالى في الآيات السابقة الأدلة السماوية والأرضية على قدرته، ليثبت للناس أن من كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة، كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته؛ لأن القادر على الأقوى الأكمل، فإنه قادر بالأولى على الأقل الأضعف: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئْيَ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [الاحقاف: ٤٦/٣٣].

ثم حكى هنا إنكار المشركين للبعث والقيامة، وأتبعه بحكاية حماقة أخرى وهي استعجالهم العذاب، وأردفه بطلباتهم إنزال آيات حسية للتعجيز.

التفسير والبيان:

وإن تعجب أيها الرسول من تكذيب هؤلاء المشركين لك، وعبادتهم ما لا يضر وما لا ينفع من الأصنام، مع ما يشاهدونه من آيات الله تعالى ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع اعترافهم من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، إن تعجب من ذلك، فالأعجب منه والأغرب تكذيبهم بالبعث والقيامة، وقولهم: هل تمكن الإعادة بعد الفناء والبلى والصيرورة تراباً؟ وقد تكرر منهم هذا الاستفهام الإنكاري في أحد عشر موضعاً، في تسع سور من القرآن: في الرعد، والإسراء، والمؤمنون، والنحل، والعنكبوت، والسجدة، والصفات، والواقعة، والنازعات.

مع أن كل عالم وعاقل يعلم أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَ﴾ [الأحاف: ٤٦/٣٣].

ثم حكم الله تعالى حكمه عليهم بأحكام ثلاثة بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الكافرون الذين جحدوا بربهم، وكذبوا رسوله، وتمادوا في عنادهم وضلالهم؛ لأن إنكار قدرة الله تعالى إنكار له. وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة، فهو كافر.

وأولئك المقيدون بالسلاسل والأغلال يسحبون بها، قال أبو حيان: والظاهر أن الأغلال تكون حقيقية في أعناقهم كأغلال^(١)، كما قال: ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ اعْتَنَقَهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١/٤٠] وهذا حقيقة، وحل الكلام على الحقيقة أولى.

وهم أصحاب النار الخالدون فيها في الآخرة بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي وأولئك أهل النار الملازمون لها، المستحقون دخولها، الماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤/٨٣] والمراد بذلك التهديد بالعذاب المخلد المؤبد. وهذا يدل على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية.

ولم يقتصر تكذيبهم الرسول على إنكار عذاب الآخرة، وإنما أنكروا أيضاً عذاب الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي ويستعجلوك هؤلاء المكذبون بالعقوبة قبل السلامة منها والعافية من بلائها، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١/٧٠] قال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢/٨] وقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا فَبَلَّ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦/٣٨] أي عجل لنا عقابنا وحسابنا.

﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الحالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم، وبعبارة أخرى: ويستعجلونك بالعقاب مستهزئين بإنذارك، والحال أنه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين، كالرجفة والخسف والظوفان ونحوها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس على ذنوبهم، مع أنهم يظلمون، ويخطئون بالليل والنهار، ولولا حلمه وعفوه لعجل لهم العذاب فور ارتكاب الذنب، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِّنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥/٣٥] وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨/١٨].

والخلاصة: إن الله يغفر للناس مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب، أي ظالمين أنفسهم، قال ابن عباس: ليس في القرآن آية أرجى من هذه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي وإنه تعالى شديد العقاب للعصاة.

ويلاحظ أنه تعالى قرن حكم المغفرة والرحمة بأنه شديد العقاب، كما هو شأن القرآن كثيراً، ليعتدل الرجاء والخوف، وليكون الإنسان بين الأمل والحذر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَبْرِئُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧/٦] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ اتَّقَاةٍ لَهُ أَنْ يَكُونَ لِلدُّنْيَا نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلْيَرْجُوا يَوْمَ لَا يَكْفُرُ لَكُمْ وَالَّذِينَ ضَلَّوْا سَبِيلَهُمْ هُمْ يَرْجُوا يَوْمَ لَا يَكْفُرُ لَكُمْ وَالَّذِينَ ضَلَّوْا سَبِيلَهُمْ هُمْ يَرْجُوا يَوْمَ لَا يَكْفُرُ لَكُمْ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧/٧] ونحو ذلك من الآيات التي تجمع بين الرجاء والخوف.

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه، ما هتأ أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكلم كل أحد».

ثم ذكر الله تعالى ما طالب به المشركون النبي ﷺ من معجزة حسية كالأنبياء السابقين بقصد التعجيز والإصرار على الكفر والطعن في النبوة والتشكيك في صحتها فقال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يقول المشركون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، مثل عصا موسى، وناقة صالح، ومائدة عيسى، فيجعل لنا الصفا ذهباً، وأن يزيح عنا الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً.

فرد الله عليهم الشبهة بآية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩/١٧].

أي نخشى تطبيق العقاب على المكذبين، فإن سئنا أن من لم يؤمن بالآيات المنزلة بعد طلبها، أهلكناهم ودمرناهم بذنوبهم.

وهنا أعرض البيان عن الجواب عن قول المشركين، إلى توضيح مهمة الرسول التي أرسل بها وهي الهداية والإنذار، لا تلبية الطلبات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي إنما أنت رسول عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، وأما الآيات فأمرها إلى الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٢].

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي ولكل أمة أو قوم داع من الأنبياء، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى الدين الحق، وسبيل الخير والرشاد، كما في آية أخرى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤/٣٥].

ويصح أن يكون ﴿هَادٍ﴾ معطوفاً على ﴿مُنذِرٌ﴾ وفصل بينهما بقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ أي أنت منذر وهاد لكل قوم، وبه قال عكرمة وأبو الضحى.

والخلاصة: إن الآية نزلت في المشركين والكفار الذين لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، وانقلاب العصا سيفاً، ونبع الماء من بين الأصابع، وأمثال هذه، فاقترحوا عناداً آيات، كالمذكورة في الإسراء والفرقان كتفجير ينبوع والرقى في السماء والملئ والكتز، فقال الله لنبيه ﷺ: إنما أنت منذر تخوفهم من سوء العاقبة، وناصح كغيرك من الرسل، ليس لك الإتيان بما اقترحوا، فالاقترح إنما هو عناد، ولم ينزل الآيات إلا إذا تحتم العذاب والاستئصال^(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - إنكار البعث والقيامة مدعاة للعجب الشديد، والله تعالى لا يتعجب،

ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغير في النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذكر تعالى ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون.

٢ - من أنكر البعث والقيامة، فهو كافر، لإنكاره القدرة الإلهية والعلم والصدق في الخبر، ويساق إلى جهنم بالأغلال والسلاسل، وهو خالد في النار. فهذه أوصاف ثلاثة لمنكري البعث: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣ - العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم، أما أهل الكبائر من المسلمين الذين يرتكبون الجرائم العظام، كالقتل وشهادة الزور وعقوق الوالدين، فلا يخلدون في النار.

٤ - طلب المشركين إنزال العقوبة لفرط إنكارهم وتكذيبهم نوع من الطيش والحماقة، وكفاهم الاعتبار بعقوبات أمثالهم المكذبين، فالمثلثات أي العقوبات كثيرة. وقد تبين من هذه الآية: أن عذاب الاستئصال لا ينزل بهم إلا بالإصرار على الكفر والمعاصي.

٥ - حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

٦ - إن الله تعالى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا، وقد يعفو تعالى عن صاحب الكبيرة قبل التوبة في رأي أهل السنة؛ لأن قوله تعالى ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي حال اشتغالهم بالظلم، وحال الاشتغال بالظلم لا يكون المرء فيها تائباً.

قال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

٧ - وإن الله أيضاً شديد العقاب للكافرين إذا أصرروا على الكفر.

٨ - ليست مهمة النبي ﷺ تلبية طلبات المشركين واقتراحاتهم، إنما مهمته الإنذار، أي التعليم، فهو منذر لقومه مبين لهم، ولكل قوم من قبله هادٍ ومنذر وداع.

٩ - لكل قوم هادٍ، أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

١٠ - اجتمع من المشركين كما تحكي هذه الآية ثلاثة طعون: وهي أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة.

وسبب كل هذه الطعون: أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات، وقالوا: هذا كتاب مثل سائر الكتب. والإتيان بكتاب معين، لا يكون معجزاً ألبتة، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، كفلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعباناً.

ولا تعني هذه الآية أنه لم تظهر معجزة تصدق النبي عليه الصلاة والسلام سوى القرآن، ولعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات، أو إنهم طلبوا منه معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع، وانشقاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل.

ويظل القرآن هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، فهو المناسب لزمته، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة، وهو إحياء الموتى، وإبراء الأكمه (الأعمى الذي ولد فاقد البصر) والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول ﷺ

الفصاحة والبلاغة، جعل معجزته ما كان لاثقاً بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن.

فإذا لم يؤمن العرب بهذه المعجزة، مع كونها أليق بطباعهم، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى.

بعض مظاهر علم الله المحيط بكل شيء

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَمْ تُعَفِّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾﴾

للقرءات:

﴿الْمُتَعَالِ﴾:

وقرأ ابن كثير: (المتعال).

الإعراب:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا﴾ ﴿مَا﴾ هنا وفي بقية الآية: اسم موصول، مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ والجملة الفعلية التي بعدها هي الصلات، والعائد منها كلها محذوف. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية منصوبة بـيعلم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿مَنْ أَسَرَ﴾ ﴿مَنْ﴾: مبتدأ مرفوع، و﴿سَوَاءٌ﴾: خبر مقدم، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، فهو مستو.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ الْعَامِلَ فِي﴾ ﴿وَإِذَا﴾ ما دل عليه الجواب.

البلاغة:

يوجد طباق في ﴿تَغِيضُ﴾ و﴿تَزْدَادُ﴾ وفي ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وفي ﴿أَسْرَ﴾ و﴿جَهَرَ﴾ وفي ﴿بِالْئِيلِ﴾ و﴿بِالنَّهَارِ﴾ وفي ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ و﴿وَسَارِبٍ﴾ أي ظاهر.

المفردات اللغوية:

﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ أي حملها أو ما تحمله من كون الجنين ذكراً أو أنثى، واحداً أو متعدداً، وصفات كل، وغير ذلك ﴿تَغِيضُ﴾ تنقص من زمن أو جسم. ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما تنقصه وما تزداده من الجثة والمدة والعدد. ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر واحد لا يتجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩/٥٤] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين، وهما له أسباباً مسوقة إليه، تقتضي ذلك.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب، وما حضر أو شهود. والغائب: ما غاب عن الحس، والشاهد: الحاضر المشاهد. ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بالقهر أو بقدرته. ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾ أي في علمه تعالى. ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ مستتر. ﴿بِالْئِيلِ﴾ بظلامه. ﴿وَسَارِبٍ﴾ ظاهر بارز بالنهار، بذهابه في سره أي طريقه.

﴿لَمْ يُعْصِبْ﴾ له ملائكة تعتقب في حفظه ورعايته، أو تتعاقب على كتابة أقواله وأفعاله، جمع معقبة، من عقبه: جاء عقبه، والتاء للمبالغة، لا للتأنيث، والمراد: ملائكة يتعاقبون على الإنسان بالليل والنهار. ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قدامه. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ورائه أي من جوانبه. ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ أي بأمره وإعانتة، أو يحفظونه من بأس الله متى أذن بالاستمهال أو الاستغفار له، أو

يحفظونه من المضار. ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ﴾ من العافية والنعمة أي لا يسلبهم نعمته. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة والمعاصي. ﴿سُوءًا﴾ عذاباً. ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُمْ﴾ من المعقبات ولا غيرها. ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ لمن أراد الله بهم سوءاً. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي غير الله. ﴿مِنْ وَآلٍ﴾ ناصر يمنعه عنهم، و﴿مِنْ﴾: زائدة، وهذا دليل على أن خلاف مراده محال.

المناسبة:

بعد أن حكى الله سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له، أورد الأدلة على قدرته على ذلك بعلمه المحيط بكل شيء، فهو يعلم ما في الأجنة التي في البطون، ويعلم الغائب عنا والمشاهد لنا، ويعلم السر وأخفى، ويعلم جميع أجزاء الإنسان المتناثرة ومواقعها في البر والبحر وأجواف الحيوان، فيعيدنها مرة أخرى.

وبعد أن حكى عن المشركين أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول ﷺ، بيّن أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، فيعلم من حالهم أنهم: هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد، أو لأجل التعنت والعناد؟ وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات، أو يزداد إصرارهم على الكفر واستكبارهم؟.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، فهو يعلم بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، أهو ذكر أو أنثى، واحد أو متعدد، حسن أو قبيح، ذو خصائص وأوصاف، طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١] وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ بِطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢/٥٣] وقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦/٣٩].

وإذا أمكن معرفة نوع الجنين علمياً بالتحليل مثلاً من كونه ذكراً أو أنثى، فلا يكون ذلك معارضاً الآية؛ لأن علم الله لا ينحصر به، وإنما علمه واسع محيط بكل شيء من الخواص والصفات الأخرى.

﴿وَمَا تَعْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي والله يعلم ما تنقصه الأرحام وما تزداده من الجثة (سِقْطاً أو تماماً) والمدة (أقل من تسعة أشهر أو تسعة أو أكثر إلى عشرة) والعدد (واحد أو متعدداً) والدم (إراقة حتى يَخْسَ الولد، وعدم إراقة حتى يتم الولد ويعظم).

والإحصاء العلمي دل على أن الجنين لا يزيد بقاؤه في بطن أمه عن ٣٠٥ أو ٣٠٨ أيام، وهناك رأي في المذهب المالكي أن عدة المطلقة سنة قمرية (٣٥٤ يوماً).

وأما ما يذكر في المذاهب لأقصى مدة الحمل (أربع سنين عند الشافعية والحنابلة، وخمس سنين عند المالكية، وستان عند أبي حنيفة) فمستنده الاستقراء وأخبار الناس، والناس قد يخطئون أو يتوهمون وجود الحمل في فترة زمنية ما، وليس في ذلك أي نص شرعي ثابت.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي وكل شيء عنده تعالى بأجل معين، أو بقدر واحد، لا يزيد عنه ولا ينقص، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩/٥٤]. وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه الجماعة عن أسامة بن زيد: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن الله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب».

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم كل شيء غائب عن العباد لا تدركه أبصارهم، ومشاهد لهم مرئي، ولا يخفى عليه منه شيء، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، المتعال على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، أي شمل علمه كل شيء، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب، ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

ويلاحظ أن هذه الآية استوفت بيان كمال علم الله تعالى، ففي مطلع الآية الذي هو كلام مستأنف أوضح تعالى أنه عالم بالجزئيات والمفردات، ثم ذكر أنه عالم بمقادير الأشياء وحدودها لا تتجاوزها ولا تقتصر عليها، وخصص كل حادث بوقته بعينه وبحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية، ثم أضاف أنه عالم بأشياء خفية لا يعلمها إلا هو، وهي أشياء جزئية من خفايا علمه، فهو يعلم الباطن والظاهر، والغائب: وهو ما غاب عن الحس، والشاهد: وهو ما حضر للحس، ثم ذكر أن علمه محيط بجميع الأشياء، لا فرق فيه بين الخفي السر أو الظاهر المعلن فقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ﴾ أي إنه تعالى محيط بعلمه بجميع خلقه، وإنه سواء منهم من أسر قوله وأخفاه أو جهر به وأعلنه، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كما قال: ﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه: ٧/٢٠) وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (النمل: ٢٧/٢٥).

وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة، تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفي علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١/٥٨).

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ أي يعلم أيضاً ما هو مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل، والتنصيص على هذه الحالة تنبيه على رقابة الله في كل مكان قد يظن صاحبه أنه بتواريه عن أنظار الناس، لا يطلع عليه أحد.

﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ظاهر ماش في ضوء النهار، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١/١٠).

ثم ذكر الله تعالى وسيلة إثبات المعلومات وخزائن المعارف والوقائع لمواجهة أصحابها بها مع علمه تعالى بكل شيء، وهي: ﴿لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ﴾ أي للإنسان ملائكة حفظة، ملائكة في الليل تعقب ملائكة النهار، وبالعكس فهم يتعاقبون على حراسته وحفظه من المضار ومراقبة أحواله، ويتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والتدوين أو الكتابة، سواء خيراً أو شراً. فالضمير عائد إلى ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ وقيل: الضمير يعود على اسم الله في عالم الغيب والشهادة.

فلهؤلاء الملائكة الحفظة وظائف، منها: حفظ الإنسان في الليل والنهار من المضار والحوادث بإذن الله وأمره ورعايته، ويقوم به ملائكة معينون وعددهم اثنان يحرسه أحدهما من ورائه والآخر من قدامه، ومنها حفظ الأعمال من خير أو شر، ويقوم به ملائكة آخرون، وهما اثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧/٥٠-١٨] فصار مجموع ملائكة كل إنسان أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، وهم حافظان وكاتبان، كما جاء في الحديث الصحيح عند البخاري: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون» وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء، وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم».

قال ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

ومن علم أن الملائكة الحفظة ترصد عليه أعماله وتحصي أقواله وأفعاله،

تهيب من مخالفة أوامر ربه، وكان حذراً من المعاصي، حتى لا تسجل عليه، ويفاجأ بها يوم القيامة، كأنه شريط مسجل من وقت التكليف (البلوغ والعقل) إلى الوفاة.

وقوله ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي يحفظونه بأمر الله وبإذنه، فحفظهم إياه متسبب عن أمر الله لهم بذلك. أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له، وسؤالهم ربه أن يمهلهم، رجاء أن يتوب وينيب، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْذِبُكُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٢].

ثم بين الله تعالى مزيد فضله وعدله بأنه لا عقاب بدون جريمة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ﴾ أي إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم ويستقم منهم إلا بتغيير ما بأنفسهم بأن يكون منهم الظلم والمعاصي والفساد وارتكاب الشرور والآثام التي تهدم بنية المجتمع وتدمر كيان الأمم.

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، يوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وهذا مؤكد للآية: ﴿وَأَنذَرُوا فِتْنَةً لِّأَنصَارِ اللَّهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥/٨].

وواقع التاريخ الإسلامي في القرون الماضية يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لم يغير ما كان عليه حال الأمة الإسلامية من عزة ومنعة، ورفاه واستقلال، وعلم وتفوق في السياسة والاقتصاد والاجتماع، إلا بعد أن غيروا ما بأنفسهم، فحكموا بغير القرآن، وأهملوا دينهم، وتركوا سنة نبيهم، وقتلوا غيرهم، وضعفت روابط التعاون بينهم، وساءت أخلاقهم، وانتشرت الموبقات بينهم، وقد وعد الله الأرض من يصلحها بقوله: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥] أي الصالحون لعمارتها،

وقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٨] .

ثم وصف تعالى قدرته المطلقة على العذاب فقال: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي وإذا أراد الله بقوم سوءاً من فقر أو مرض أو احتلال ونحوها من أنواع البلاء، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم، وما لهم من غير الله تعالى ناصر يلي أمورهم، ويدفع عنهم، أي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضرر، فتلك الآلهة المزعومة لا تستحق الألوهية لعجزها عن فعل شيء نافع أو دفع أذى ضار.

وهذا يدل على أن الله قادر في أي وقت على إيقاع العذاب بالناس، فليس من العقل والحكمة في شيء استعجالهم ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن الله تعالى عالم بالجزئيات وبالكليّات، وبالماضي والحاضر والمستقبل، وبالباطن والظاهر أو السر الخفي والمعلن المجاهر به، وبالغائب عن مسامعنا وأبصارنا والشاهد الحاضر.

٢ - استدل مالك والشافعي بآية: ﴿وَمَا يَنْبَغُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ على أن الحامل تحيض، قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حيضن أن يتركن الصلاة. وقال عطاء والشعبي وغيرهما، وأبو حنيفة: لا تحيض؛ لأنه لو كانت الحامل تحيض، وكان ما تراه من الدم حيضاً، لما صح استبراء الأمة بحيض، وهو إجماع، فتماسك الحيض علامة على شغل الرحم، واسترساله علامة على براءة الرحم، فمحال أن يجتمع مع الشغل؛ لأنه لا يكون دليلاً على البراءة لو اجتمعاً.

٣ - وفي هذه الآية دليل أيضاً على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر، وله أمثال كثيرون.

وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة.

واختلف العلماء في أكثر الحمل، فقال مالك في المشهور عنه: خمس سنين، وقال الشافعي وأحمد: أربع سنين، وقال أبو حنيفة: سنتان. ولا أصل لهذه المسألة إلا الاجتهاد والرد إلى ما عُرف من أحوال النساء.

قال ابن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر مدة الحمل تسعة أشهر^(١).

٤ - تخصيص الممكنات بخواص وأوصاف معينة دليل على كمال القدرة الإلهية، والدليل: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ بِمَقْدَارٍ» أي بقدر واحد لا يجاوز ولا ينقص عنه، فكلمة بمقدار تعني عدم النقصان والزيادة، وقال قتادة: في الرزق والأجل، والمقدار: القدر، ويقال: «بِمَقْدَارٍ»: قدر خروج الولد من بطن أمه، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه. قال القرطبي: وعموم الآية يتناول كل ذلك.

٥ - الله عالم الغيب والشهادة، أي هو عالم بما غاب عن الخلق وبما شاهدوه، فالغيب: مصدر بمعنى الغائب، والشهادة: مصدر بمعنى الشاهد. وهذا تنبيه على انفراده تعالى بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد.

والله سبحانه الكبير أي الذي كل شيء دونه، المتعال عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره.

(١) أحكام القرآن: ١٠٩٧/٣

والله تعالى يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر، ويستوي في علم الله المستخفي بالليل والشارب بالنهار، أي يستوي في علم الله السر والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات.

٦ - للإنسان بتخصيص الله ملائكة أربعة في الليل، وأربعة في النهار، حافظان وكتابان، وهي تتعاقب عليه ليلاً ونهاراً، وتتعقب أعماله وتتبعها بالحفظ والكتابة. قال الحسن البصري: المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر.

والمراد من قوله «مَنْ أَمَرَ اللَّهُ» أي بأمر الله وبإذنه، وتكون «مِنْ» بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله، من بين يديه ومن خلفه يحفظونه.

وفائدة جعل الملائكة موكلين علينا بالحفظ: أنها تدعونا إلى الخيرات والطاعات، وليكون الإنسان حذراً من المعاصي.

وفائدة كتابة أعمال العباد: قال المتكلمون: الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة، وإن كان بالضد فبالضد.

٧ - لا يغير الله ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب، كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم.

والمراد بالآية عند المفسرين: أنه تعالى لا يغير ما بالناس من النعم بإنزال الانتقال إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد^(١).

وهذا المعنى موجه للجماعة، أما الفرد فقد يتعرض للمصائب بذنوب غيره، ولا يشترط أن يتقدم منه ذنب، كما قال ﷺ، وقد سئل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال فيما رواه البخاري في المناقب: «نعم إذا كثرت الخبث» أي الفسق والفجور. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥/٨].

٨ - إذا أراد الله بالناس بلاء من أمراض وأسقام، فلا مرد لبلائه وقيل: إن معنى الآية: إذا أراد الله بقوم سوءاً، أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ولا ملجأ ولا ناصر لأحد من مراد الله وعذابه.

والأولى تفسير الآية بأنه ليس للبشرية من يلي أمورها غير الله، الذي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، أما الآلهة المزعومة من أصنام وأوثان ونحوها فلا تستطيع أن تفعل شيئاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٢٢/٧٣].

مظاهر الوهية الله وربوبيته وقدرته

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَافَكُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢١ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۝١٢٢ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغٍ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٢٣ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمُ الْغُودُ وَالْأَصَالُ ۝١٢٤﴾

الإعراب:

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مفعولان لأجله بتقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع، أو حال من البرق أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «وَالَّذِينَ»: اسم موصول، و﴿يَدْعُونَ﴾: صلته، وعائده محذوف أي يدعونهم، كما حذف من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٩٤/٧] أي تدعونهم. ﴿كَبِشْطٍ كَفَّيْهِ﴾ الكاف: متعلقة بصفة مصدر محذوف، أي الاستجابة كاستجابة باسط كفَّيه، ويكون على هذا التقدير حرفاً فيه ضمير انتقل إليه من: كائنه. ويجوز أن يجعل الكاف اسماً، أي الاستجابة مثل استجابة باسط كفَّيه، ولا يكون في الكاف ضمير. ويجوز الاستثناء من الفعل المصدر والظرف والحال. ولام ﴿لِيُلْقِيَ فَأَ﴾ متعلقة بياسط.

البلاغة:

يوجد طباق بين ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وبين ﴿طَوَعًا وَكَرْهًا﴾.

﴿إِلَّا كَبِشْطٍ كَفَّيْهِ﴾ تشبيه تمثيلي، شبه حال الكافرين في دعاء الأصنام بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه بكف مبسوط. أو شبه عدم استجابة الأصنام لمن يدعونها بعدم استجابة الماء لباسط كفَّيه إليه من بعيد.

المفردات اللغوية:

﴿الْبَرْقُ﴾ شرارة ضوئية تظهر في السماء بسبب تصادم السحب السماوية ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي من أجل الإخافة من الصواعق، والطمع في المطر، وفيها مضاف محذوف، أي إرادة خوف وطمع، أو إخافة وإطماعاً، أو حال أي خائفين وطامعين، وإطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث.

﴿السَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء ﴿الْثَّقَالَ﴾ بالمطر، وهو جمع ثقيلة، وإنما وصف به السحاب؛ لأنه اسم جنس في معنى الجمع ﴿الرَّعْدُ﴾ الصوت المسموع خلال السحاب بسبب احتكاك السحب السماوية، أي إنه ينشأ عن احتراق الهواء بالشرارة ظهور البرق، الذي يحدث من تصادم سحبتين مختلفتي الشحنة الكهربائية، ثم ينشأ عن تفريغ جزء من الهواء الذي يحدثه البرق احتكاك الهواء الذي يطرده البرق وظهور الرعد.

﴿الصَّوَاعِقَ﴾ جمع صاعقة وهي التي تحدث بسبب الاحتكاك الكهربائي بين كهربية السحب وكهربية الأرض عند تقارب السحب من الأرض، فتنشأ عنه صاعقة تحرق ما تقع عليه ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ﴾ أي الكفار يخاصمون النبي ﷺ في الله تعالى، والجدل: شدة الخصومة ﴿لِلْحَالِ﴾ القوة أو الأخذ للأعداء.

﴿لَهُمْ﴾ تعالى ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي كلمته وهي لا إله إلا الله أو الدعاء الحق، فإنه الذي يحق أن يعبد ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من غيره وهم الأصنام ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ مما يطلبونه ﴿إِلَّا كَبْسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء على حافة البئر، يطلب منه أن يبلغه، ليبلغ فاه بارتفاعه من البئر إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَلِّغٍ﴾ أي بالغ فاه أبداً، فكذلك ما هم بمستجيبين لهم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياع وخسار وبطلان.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين (الإنس والجن) طوعاً حالتي الشدة والرخاء، ويسجد له الكفار كرهاً حالة الشدة والضرورة. والمنافقون من الكفار، إذ يسجدون كرهاً. ويحتمل أن يكون المراد: ينقادون لإحداث ما أَرَادَهُ اللهُ فيهم من أفعاله، شاؤوا أو أبوا، لا يقدرُونَ أن يمتنعوا عليه.

﴿وَلَنُلْهِمُ﴾ جمع ظل وهو الخيال المقابل للشمس الذي يظهر للشيء المادي القائم أي ويسجد ظلهم، أو تنقاد أيضاً حيث تخضع لمشيئة الله في الامتداد والتقلص والفيء والزوال ﴿بِالْفُتُو﴾ جمع غداة: وهي أول النهار ﴿وَالْأَصَالُ﴾ جمع أصيل: وهو ما بعد العصر إلى المغرب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٣):

﴿وَبُرْسِلَ الصَّوْعُ﴾: ذكر الرواة سببين لنزول هذه الآية، أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس: أن أُرَيْدَ بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ فقال عامر: يا محمد: ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذلك لك ولا لقومك، فخرجا، فقال عامر: إني أشغل عنك وجه محمد بالحديث، فاضربه بالسيف، فرجعا، فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك، فقام معه، ووقف يكلمه، وسلَّ (أُرَيْدَ) السيف، فلما وضع يده على قائم السيف، ييست، والتفت رسول الله ﷺ، فرآه، فانصرف عنهما، فخرجا، حتى إذا كانا بالرَّقْمِ (موضع) أرسل الله على أريد صاعقة، فقتلته، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ إلى قوله ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾. وأما عامر فأرسل الطاعون عليه، فخرجت فيه غُدَّة كغدة الجمل، ومات في بيت سلولية.

وذكر الواحدي ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده والنسائي والبخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: اذهب فادعه لي، فقال: يا رسول الله، إنه أعنى من ذلك، قال: اذهب فادعه لي، قال: فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله، قال: وما الله، أمن ذهب هو، أو من فضة أو من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، وقال: وقد أخبرتك أنه أعنى من ذلك، فقال: ارجع إليه الثانية

فادعه، فرجع إليه، فعاد عليه مثل الكلام الأول، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع إليه، فرجع الثالثة، فأعاد عليه ذلك الكلام، فيينا هو يكلمني، إذ بعثت إليه سحابة حيال رأسه، فرعدت، فوقعت منها صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^(١).

الخاصة:

بعد أن خوّف الله تعالى عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا مردّ له، أتبعه بهذه الآيات المشتملة على أمور ثلاثة، فهي دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته، وتشبه النعم والإحسان حيناً، وتشبه العذاب والفهر والنقمة حيناً آخر.

التفسير والبيان:

الله تعالى هو الذي يسخر البرق: وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلال السحاب، بسبب تقارب سحابتين مختلفتين في الشحنة الكهربائية، ويريكهم إياه تخويفاً، فيخاف منه المسافر والمزارع الذي جمع حبوه في البيدر (الجرين) ويحذر عواقبه كل إنسان من خطف البصر، أو مجيء السيول الجارفة، وطمعاً، أي يرجو نفع المطر من كان بحاجة إليه لسقي زرعه وشجره وغسل الجو من الأتربة والرمال والدخان والميكروبات. فالتناس في الظواهر العامة قسماً: إما فرح طامع بالخير بالنسبة إليه، وإما متشائم متبرم عابس لما يصيبه من شر أو ضرر بالنسبة إليه.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي والله سبحانه هو الذي يوجد السحب

(١) أسباب النزول للواحدي ١٥٦، تفسير ابن كثير: ٥٠٥/٢، تفسير القرطبي: ٢٩٦/٩ -

المحملة المترعة بالماء، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: السحاب الثقيل: الذي فيه الماء.

﴿وَيَسِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أي إن الرعد بلسان الحال لا بلسان المقال ينزه الخالق عن الشريك والعجز، ويعلن خضوعه له، وانقياده لقدرته وحكمته، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنما كان حليماً غفوراً﴾ [الإسراء: ٤٤/١٧].

وتسبح الملائكة ربهم وتنزهه عن الصاحبة والولد، من هيئته وإجلاله. ويرسل الله الصواعق نعمة، ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم، فيقول: من صقع قبلكم الغداة، فيقولون: صقع فلان وفلان وفلان».

وكل من الرعد والبرق إما بشير خير أو نذير شر، لذا أمرنا النبي ﷺ بالدعاء حين رؤيتهما، روى البخاري وأحمد عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

ويسن عند رؤية البرق والرعد أن يقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ١٢ ﴿وَيَسِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ روى مالك في موطئه عن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد، ترك الحديث، وقال: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته». وروى أحمد عن أبي هريرة أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده». وروى أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عز وجل». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة، فعلي دينه».

﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ وبالرغم من هذه الأدلة الدالة على قدرة الله وألوهيته، يجادل الكفار ويشكون في عظمة الله تعالى وأنه لا إله إلا هو، قال مجاهد: جادل يهودي النبي ﷺ، وسأله عن الله تعالى: من أي شيء هو؟

وهو سبحانه شديد المحال أي شديد القوة والأخذ، والمماحلة: وهي شدة المماكرة والمكايدة لأعدائه، فيدبر لهم الحيلة لإنزال العقاب الشديد بهم من حيث لا يشعرون، يقال: تمحل لكذا: إذا تكلف استعمال الحيلة، واجتهد فيه.

وهو القادر على إنزال العذاب من فوقكم ومن تحت أرجلكم: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١/٢٧] ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢/١١].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، فإنهم لم يقتصروا على إنكار نبوته، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهية.

﴿لَمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي الله تعالى دعوة الصدق والدعاء والتضرع، لا لغيره من الأصنام والأوثان والملائكة والبشر الذين اتخذوا آلهة. وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما: دعوة الحق: كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، أي الله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له.

وذكر في الكشف وجهان للآية: الأول - إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو تقيض الباطل، أي إن دعوة الإسلام دعوة الحق المختصة به. والثاني - إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو الله عز وعلا أي إن الدعاء لله الحق الذي يسمع فيجيب^(١).

(١) الكشف: ١٦٢/٢ قال أبو حيان: وهذا الوجه الثاني الذي ذكره الزغشري لا يظهر؛ لأن مآله إلى تقدير: لله دعوة الله وهذا التركيب لا يصح.

وهذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلته رسول الله ﷺ في شأن الوعيد بالعقاب الذي هددهم به. قال أبو حيان عن ﴿لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ﴾: والذي يظهر أن هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، كقوله: (ولدار الآخرة) والتقدير: لله الدعوة الحق، بخلاف غيره، فإن دعوتهم باطلة، والمعنى أن الله تعالى، الدعوة له هي الدعوة الحق، وهو رد على الكفار في إثبات آلهة مع الله، فمن يدعُ الله فدعوته هي الحق، بخلاف أصنامهم التي جادلوا في الله لأجلها، فإن دعاءها باطل لا يتحصل منه شيء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي إن الذين يدعون من دون الله الأصنام والأوثان والمعبودات الباطلة وهم المشركون، لا يجيئونهم إطلاقاً، ولا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء، ولا يحققون لهم نفعاً ولا يدفعون عنهم ضرراً، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد، طالباً وصوله إلى فمه، وهو عطشان، والماء سائل لا يعقل دعاء، ولا يلي نداء، ولا يشعر به. ويلاحظ ما عليه هذا التشبيه من واقعية ومن بسط الكفين كما يسطها الداعي إلى الله.

فهذا مثل ضربه الله ليأس عبدة غير الله من الإجابة لدعائهم، لتنبية عقولهم وحواسهم، والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد. قال الشاعر:

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها من الودِّ مثل القابض الماء باليد

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسار وضياح وبطلان، فإن دعاءهم لهم غير مجاب، كما أن دعاءهم الله تعالى بما يتعلق بالآخرة غير مجاب أيضاً. أما في الدنيا فقد يستجاب دعاء الكافر بدليل استجابة دعاء إبليس وهو رأس الكفار^(٢)..

(١) البحر المحيط: ٣٧٦/٥

(٢) تفسير الألوسي: ١٢٥/١٣-١٢٦

ثم بين الله تعالى كمال قدرته وعظمته وسلطانه فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي ولله يخضع ويتقاد كل شيء طوعاً من المؤمنين والملائكة في حال الشدة والرخاء، وكرهاً من الكافرين في حال الشدة، بل كل شيء من مخلوقات الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد خاضع متقاد للخالق الذي خلقهم وأوجدهم. وكذلك تسجد لله وتخضع ظلال كل من له ظل مما ذكر في الصباح الباكر وفي آخر النهار، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص، أو لإرادة الدوام، كما هو الشأن في استعمالات العرب. والسجود لله دال على الربوبية، فلا يستحق العبادة سوى الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى مايلي:

أ - بيان كمال قدرة الله تعالى، وأن تأخير العقوبة عن العصاة ليس عن عجز، وكل ماذكر في الآية من البرق والسحاب والرعد والصواعق دلائل ملموسة على قدرة الله عز وجل، وأنه شديد القوة والأخذ، والمحال أو المباحلة: وهي المماكرة والمغالبة.

فحدوث البرق مثلاً دليل عجيب على قدرة الله تعالى؛ لأن السحاب مركب من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية ونارية، والغالب عليه الأجزاء المائية، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار يابس، فتغليب النار على الماء المتضادين، لا بد له من صانع مختار، يظهر الضد من الضد.

والأجزاء المائية من السحاب، سواء قيل: إنها حدثت في جو الهواء أو تصاعدت من أبخرة البحار، لا بد أن يكون حدوثها بإحداث حكيم قادر يحدث.

وصوت الرعد المرعب بسبب تصادم كتل الهواء نتيجة تفريغ جزء منه بالبرق دليل آخر على القدرة الإلهية.

والصواعق المخيفة المدمرة المتولدة من السحاب والتي تحدث بسبب احتكاك كهربية السحب بكهربية الأرض برهان واضح على الألوهية، ووجود موجود متعال عن النقص والإمكان.

٢ - كل شيء في الوجود من إنسان وحيوان ونبات وجماد وجرّ وملائكة يسبح بحمده، فالرعد يسبح بحمد الله، والملائكة تسبح أيضاً بحمد الله من هيئته وإجلاله، والتسبيح: التنزيه عن الشريك والوالد والولد والصاحبة، والتقديس لله تعالى، ولكن الناس لا يفقهون تسبيح من سواهم.

٣ - هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل الدالة على كمال قدرة الله، يجادلون في الله، ويشككون في وجوده وألوهيته، والله شديد القوة والأخذ، والعقاب، ومغالبة هؤلاء المشككين المجادلين بالباطل.

٤ - لله الدعوة الحق، فمن يدعوهُ فدعوته هي الحق، أما دعاء الأصنام وأمثالها من الآلهة المزعومة دون الله فهو باطل لا يفيد شيئاً.

٥ - الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لا يحققون لأحد مطلباً، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لباسط كفيه إلى الماء، والماء سائل لا يشعر بأحد ولا بحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاء داعيه، فكذلك ما يدعوهُ جاد لا يحس بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم.

٦ - دل قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ على أنه يجب على كل من في السماوات والأرض أن يسجد لله إما طوعاً أو كرهاً، فعبّر عن الوجوب بالوقوع والحصول، أو أن كل من السماوات والأرض يعترفون بعبودية الله تعالى، على ما قال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥/٣١].

وقيل: إن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع، وكل من

في السماوات والأرض ساجد لله بهذا المعنى؛ لأن قدرته ومشيتته نافذة في الكل.

٧ - دل قوله: ﴿وَلَا يُلْهِهُمُ الْغُذُو وَالْأَصَالُ﴾ على أن كل شخص، سواء كان مؤمناً أو كافراً، فإن ظله يسجد لله. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً، وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهاً، وهو كاره. وقيل: إن المراد من سجود الظلال أي ظلال الخلق: ميلانها من جانب إلى جانب، وتختلف طولاً وقصراً بسبب انحناء الشمس وارتفاعها، فهي متقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب. وإنما خصص الغدو والأصال بالذكر؛ لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

وحدانية الله

ومثل المؤمن والمشرک تجاه الوحدانية

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَعْمَ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

القراءات:

﴿تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يستوي الظلمات).

البلاغة:

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي الله خالق السماوات والأرض.

﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ و﴿الْظُّلُمْتُ وَالنُّورُ﴾ فيهما طباق.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمْتُ وَالنُّورُ﴾ فيهما استعارتان، استعار لفظ الأعمى للمشرك، والبصير للمؤمن، واستعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي بل أجعلوا، والهمزة للإنكار.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومتولي أمرهما ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ إن لم يجيبوا فلا جواب غير أن تقول: الله الخالق؛ إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه الجواب البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو إنه لقنهم الجواب ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي كيف اتخذتم من غيره أصناماً تعبدونها؟ والمراد أنه ألزمهم بذلك أن اتخذهم منكر بعيد على مقتضى العقل، والاستفهام للتوبيخ ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدرُونَ على جلب نفع إليها أو دفع ضرر عنها، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضرر عنه؟ وكيف تركتم مالك السماوات والأرض؟ وهو دليل ثانٍ على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء، رجاء أن يشفعوا لهم.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الكافر الجاهل، والمؤمن العالم العاقل ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمْتُ وَالنُّورُ﴾ الكفر والإيمان؟ لا.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ بل أجعلوا، والهمزة للإنكار ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفة لشركاء داخله في حكم الإنكار ﴿فَتَشَبَّهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي خلق الله بخلق الشركاء، أي ما اتخذوا الله شركاء خالقين مثله، حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرُونَ على ما يقدر عليه الناس، فضلاً عما يقدر عليه الخالق.

وهو استفهام إنكاري، أي ليس الأمر كذلك، ولا يستحق العبادة إلا الخالق ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالق غيره، فيشاركه في العبادة، فهو لا شريك له في الخلق، فلا شريك له في العبادة، أي إنه جعل الخلق يستوجب العبادة ويلزم منه ذلك، ثم نفاه عما سواه ليتوصل إلى الآتي وهو قوله: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي هو المتوحد بالألوهية، الغالب على كل شيء.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى أن كل من في السماوات والأرض ساجد له، خاضع لقدرته وعظمته، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام، لإثبات الوحدانية، وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية، حتى لا يجدوا مناصاً من الاعتراف بها.

التفسير والبيان:

قل للمشركين أيها الرسول: من خالق السماوات والأرض؟ ثم أجب عنهم الجواب المتعين الذي لا مناص منه، وهو الذي يقرون به؛ لأنهم كانوا يقرون بأن الله هو الخالق، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [قصص: ٢٥/٣١] وقل لهم إذن: الله خالقهما وربهما ومديرهما.

قال الزمخشري: وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيده عليه؛ لأنه إذا قال لهم: من رب السماوات والأرض؟ لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله.

ثم قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم: فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هي جمادات، وإذا كنتم مقرين بوجود الله، فما بالكم اتخذتم من دونه نصراء عاجزين وأولياء تعبدونهم، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا؟ وإذا كانت تلك الآلهة لا تملك لنفسها النفع والضرر، فهي لا تملك لعبادها

بطريق الأولى نفعاً ولا ضرراً. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟ لهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾.

أي قل لهم مبيناً لهم سوء اعتقادهم: هل يتساوى الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يدرك الحق ويهدي الأعمى إليه؟ أم هل تتساوى الظلمات والنور؟ جمع الظلمات وأفرد النور؛ لأن طريق الحق واحدة، وطرق الباطل والكفر متعددة.

والمراد: هل يمكن لأحد الحكم بتساوي الكافر والمؤمن، وتساوي الكفر والإيمان، فالكافر كالأعمى، والكفر كالظلمات، والمؤمن كالْبَصِير، والإيمان كالنور؟

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ بل جعلوا أي جعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله في الخلق، وحيث تشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم، فحينما جعلوا لله شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق الله، تشابه ذلك عليهم، فيعبدونهم، مع أنهم لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، فكيف يشركون في العبادة، أفسن يخلق كمن لا يخلق؟! وهذا بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٢٢/٧٣].

والمراد: ليس الأمر على هذا النحو، فإنه تعالى لا يشابه شيئاً، ولا يمثله شيء، ولا ند له، ولا وزير له، ولا ولد له ولا صاحبة، وهؤلاء المشركون عبدوا آلهة، وهم معترفون أنها مخلوقة لله، وهم عبيد له، كما صرحوا في تليبتهم: «لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» وكما أخبر القرآن عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣/٣٩]. وتضمن هذا الاستفهام التعجب منهم والإنكار عليهم والتهكم بهم.

وبعد أن ناقشهم تعالى في فساد اعتقادهم، وأبان عدم وجود المسوغات

لاتخاذ غير الله إلهاً معه، لعجزه وضعفه، قرر الحكم النهائي بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي قل لهم يا محمد مبيناً وجه الحق: الله خالق كل شيء، خالقكم وخالق أصنامكم وخالق جميع المخلوقات، فإذا فكرتم تفكيراً سويّاً وجدتم أن الله هو المتفرد بالخلق والإيجاد وهو المتوحد بالألوهية، المستحق للعبادة وحده، الغالب على كل شيء، فكيف تعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

أ - تثبت الحقيقة الأبدية الخالدة وهي أن الله تعالى وحده هو خالق السماوات والأرض وجميع مخلوقات الكون.

ومن له صفة الخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والتقديس.

٢ - دل قوله: ﴿قُلِ أَتَأْتِدْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وهو معنى آية أخرى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [المنكوت: ٦١/٢٩] أي فإذا اعترفتم بأن الله هو الخالق فلم تعبدون غيره؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر، وهو إلزام صحيح بالحجة القاطعة التي لا مجال لردّها أو الطعن فيها.

٣ - ضرب الله مثلاً للمشركين بالأعمى للكافر والبصير للمؤمن، وإذا كان مسلماً لدى كل البشر ألا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق والمشرِك الذي لا يبصر الحق.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للشرك والإيمان بالظلمات والنور.

٤ - طمس الله على عقول المشركين، فلم يقتنعوا بما سبق، بل جعلوا الله

شركاء فاقدة أهم مقومات الألوهية وهو الخلق والإبداع، فهي عاجزة عن خلق أي شيء، فلا يمكن بعدئذ أن تنافس مخلوقات الله، ولو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟! والمشركون حينما اتخذوا آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله، التبس الأمر عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. وهو تهكم بهم، فإنهم في الحقيقة يرون كل شيء من خلق الله، وأن هذه الآلهة لم تخلق شيئاً، ومع هذا فإنهم يعبدونها من دون الله.

٥ - الله خالق كل شيء، فلزم لذلك أن يعبد كل شيء. والآية رد على المشركين والقدريّة الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. والله تعالى هو الواحد قبل كل شيء، والقهار الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد، فكيف يصح بعد هذا القول بشريك لله؟!

٦ - استدل أهل السنة بهذه الآية على خلق الأفعال، أي إن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وإن العبد لا يخلق فعل نفسه؛ لأن فعله شيء والله خالق كل شيء، وإنما يحصل منه الكسب والتوجيه واختيار ما خلق الله له.

أما المعتزلة فقالوا: إن العبد يفعل ويحدث، ولا نقول: إنه يخلق كخلق الله تعالى، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة، والله تعالى منزّه عن ذلك كله، فلا يلزمهم أنهم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه.

وقال المجبرة: عين ما هو خلق الله تعالى هو كسب العبد وفعل له. وهذا عين الشرك؛ لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين، وكل شريك له حق في فعل الآخر.

مثل الحق والباطل ومآل السعداء والأشقياء

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَلَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثٍّ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَبُذْهُ فِي الْآرِضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَلْهَوْنَ ۝٨﴾ أَفَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعَمَّ إِلَّا يَنْذَرُ ۝٩﴾ أُولَٰئِكَ الْأَنْبِيَاءُ ۝١٠﴾

القراءات:

﴿يُوقِدُونَ﴾ قرئ:

١- (يوقدون) وهي قراءة: حفص، وحمة، والكسائي، وخلف.

٢- (توقدون) وهي قراءة الباقيين.

﴿لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ﴾ : قرئ:

١- (لربهم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (لربهم) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (لربهم) وهي قراءة الباقيين.

﴿وَمَاوَاهُمْ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمة وفقاً (وماواهم).

﴿وَيْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحزة وقفاً (ويس).

الإعراب:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ جار ومجرور، في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِ﴾ وتقديره: ومما يوقدون عليه كائناً أو مستقراً في النار.

﴿أَبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال من ضمير ﴿يُوقِدُونَ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلقاً بيوقدون؛ لأنهم لا يوقدون في النار، وإنما يوقدون على الذهب، كائناً في النار.

﴿زَيْدٌ مِّثْلُهُ﴾ مبتدأ، و﴿مِثْلُهُ﴾: صفة له، وخبره إما ﴿يُوقِدُونَ﴾ أو ﴿فِي النَّارِ﴾.

﴿جُفَاءً﴾ حال من ضمير ﴿فَيَذْهَبُ﴾ عائد على الزيد ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ آلْحُسْنَى﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لَوْ أَن﴾.

البلاغة:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تشبيه تمثيلي، وجه الشبه منتزع من متعدد، شبه فيه الحق بالماء المستقر على الأرض، وبالجوهر الصافي من المعادن، وشبهه الباطل برغوة الماء وخبث المعدن الطافي عليه لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي فسالت مياه الأودية، فهو مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه.

﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي أمثال الحق وأمثال الباطل.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿كَمَنْ هُوَ أَشَقُّ﴾ شبه الكافر الجاهل بالأعمى على سبيل الاستعارة.

المفردات اللغوية:

﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً من السحاب أو من جانب السماء ﴿أَوْدِيَةً﴾ أنهار، جمع واد: وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، ثم استعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها؛ لإتيان المطر على التناوب بين البقاع ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع، أو بمقدار مثلها في الصغر والكبر ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رفعه، والزبد: ما يعلو وجه الماء من رغوة وقذر ونحوه ﴿رَابِيًا﴾ عالياً عليه مرتفعاً فوقه ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من جواهر الأرض وفلزاتها كالذهب والفضة والنحاس والحديد ومن: للابتداء، أو للتبعيض، والضمير للناس، وإضماره للعلم به ﴿أَتَيْغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ طلب زينة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ ينتفع به كالأواني إذا أذيت، وآلات الحرب والحراث، والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿زَبَدٌ مِّثْلُ نَضَلٍّ﴾ أي مثل زبد السيل، وهو خبثه وهو الذي ينفيه الكبر ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي المذكور مثل الحق والباطل وأهل كلي.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ من السيل وما أوقد عليه من المعادن ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يزول باطلاً مرمياً به، فالجفاء: ما يرميه الوادي من الزبد إلى جوانبه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الماء والمعادن ﴿فَيَمْكُتُ﴾ يبقى وينتفع به أهلها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ زماناً، كذلك الباطل يضمحل وينمحق، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، والحق ثابت باق، أي إن الحق في إفادته وثباته كالماء النافع الذي يستقر في

الأرض، وكالمعدن الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة؛ والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله كزبد الماء أو غثائه ورغوته، وخبت المعدن وشوائبه ﴿كَذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ يبين، لإيضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أطاعوه، أي للمؤمنين الذين استجابوا بالطاعة لله، واللام متعلقة بيضرب ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنة ﴿وَالذَّرِبَ﴾ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِقَوْلِهِمْ وهم الكفار ﴿لَا تَقْدَرُوا يَوْمَئِذٍ﴾ من العذاب ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ المواخذ بكل ما عملوه، لا يغفر منه شيء، أو المناقشة في الحساب، بأن يحاسب الإنسان بذنبه، لا يغفر منه شيء ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِمَعْرِضٍ﴾ مرجعهم النار ﴿وَيُسْأَلُنَّ أَلْهَادُهُمْ﴾ المستقر والفراش هي، والمخصوص بالذم محذوف.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ الهمزة للإنكار، أي فيؤمن ويستجيب كالحزمة ﴿كَانَ هُوَ أَعْمَى﴾ عمى القلب لا يؤمن بالنبي ﷺ كأبي جهل، والمراد لا يستويان، ولا يتشابهان ﴿يَنْذَرُ﴾ يتعظ ﴿أُولَئِكَ أَكُتِّبُ﴾ أصحاب العقول.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى وجود دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وأن دعوة الله هي دعوة الحق ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل، ولما شبه تعالى المؤمن والكافر والإيمان والكفر، بالبصير والأعمى، والنور والظلمات، ذكر مثلاً آخر للإيمان والكفر، وأبان مثلاً للحق وأهله، والباطل وحزبه، فجعل مثل الحق وأهله في ثباته وبقائه بالماء النازل من السماء فينتفع الأرض والناس، وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، وجعل مثل الباطل في اضمحلاله وفنائه وسرعة زواله وانعدام منفعته بزبد السيل الذي يرمي به، وزبد المعدن الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

التفسير والبيان:

اشتملت الآية الأولى على مثلين للحق وهو القرآن أو الإيمان في ثباته وبقاؤه ونفعه، والباطل وهو الكفر في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

أي أنزل الله تعالى من السحاب مطراً، فأخذ كل واحدٍ بحسبه صغراً وكبراً، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها في استيعاب الإيمان سعة وضيقاً، فحمل السيل المتجمع من ذلك المطر زبدًا عاليًا طافياً فوقه، وهذا هو المثل الأول للحق والباطل أو الإيمان والكفر.

ثم ذكر تعالى المثل الثاني: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ أي ومثل الحق أو الإيمان كالمعدن النافع من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ونحوها الذي يستخلص من التراب والشوائب، بوساطة السبك في النار، ليجعل حلية أو آنية أو سلاحاً أو متاعاً ينتفع به، ويعلوه الخبث والشوائب الطافية عند الانصهار، وهو مثل الباطل.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي المذكور مثل الحق والباطل إذا اجتمعا، فالحق في استقراره ونفعه كالماء المستقر النافع والمعدن النقي الصافي، والباطل في زواله وعدم نفعه كالرغوة التي يقذفها السيل على جوانبه، وخبث المعدن عند انصهاره، فالباطل لا دوام له أمام الحق.

ثم ذكر الله تعالى اضمحلال الباطل وذهابه بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ أي أن الزبد الطافي فوق الماء يتبدد ويزول ويذهب في جانبي السيل، ويعلق على حافته، فتتسفه الرياح، وأما النافع من الماء والمعدن فيبقى مستقراً في الأرض، أما الماء فنشره ونسقي به الزرع، وأما المعدن فنستفيد منه إما بالحلي أو بصناعة الأواني والأسلحة والأمتعة، كما قال تعالى عن الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥/٥٧].

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي إنه تعالى كما بيّن لكم هذه الأمثال، فكذلك يضربها بيّنات، لإيضاح الفوارق بين أصول الاعتقاد الجوهريّة من الإيمان والكفر، والحق والباطل.

والخلاصة: إن القرآن الكريم الذي تجسّد فيه الحق ونور الإيمان مثله في إحياء القلوب به مثل الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها، ومثل المعدن النقي الصافي الذي يحقق منافع كثيرة للناس. وأما الكفر وضلالات الشرك وباطل اعتقاد المشركين، فهو عديم النفع سريع الزوال، يتبدد فوراً، فهو كرجوة الماء وغشاء السيل الذي يضمحل وتعصف به الرياح، وخبث المعدن الذي يستبعد ويلقى جانباً.

وما ضرب هذا المثل الرائع إلا لخير الإنسان، الذي عليه أن يقدر مآل أمره، وما ينتظره من سعادة وشقاوة في المعاد، فإذا كان يوم القيامة وعرض الناس وأعمالهم على ربهم، فيزيغ الباطل ويتلاشى، ويتنفع أهل الحق بالحق.

وقد ضرب الله تعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين من النار والماء، فقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ﴾ [البقرة: ١٧/٢] ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩/٢].

وضرب سبحانه للكافرين في سورة النور مثلين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِفِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩/٢٤] والسراب يكون في شدة الحر، ثم قال: ﴿أَوْ كَظُلُمٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠/٢٤].

وجاء في السنة أمثال مشابهة، فشبه النبي ﷺ أحوال المتنفعين بسنته بأحوال أراضٍ ثلاث سقط عليها الماء، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ

والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تُمسك ماء، ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» وهذا مثل مائي يشبه المثل الذي ضربه الله تعالى للمنافقين.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ، يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبُهُنَّ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَذَلِكَ مَثَلِي ومَثَلُكُمْ أَنَا أَخَذَ بِحِجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا» وهذا مثل ناري أبان فيه النبي ﷺ حرصه على إبعاد أمته من النار، وتساقط بعضهم فيها كتساقط الفراش، وهو كالمثل الذي ضربه الله للمنافقين.

ثم أبان الله تعالى مستأنفاً الكلام مصير أهل الحق وأهل الباطل، ومآل السعداء والأشقياء، ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي الجنة للذين أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم الجزاء الحسن ونعيم الجنة والثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦/١٠] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ وَنَسْفُلُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ إِسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨/١٨] .

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ أي والذين لم يطيعوا الله ورسوله، لا ينفعهم في الآخرة الفداء بجميع ما في الدنيا وضيعف ما فيها، أي لا يمكنهم في الدار الآخرة أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ومثله معه. ولو كان لهم ذلك لافتدوا به، ولكن لا يتقبل الله منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، أي فداء وتوبة.

أولئك الذين لم يطيعوا الله لهم سوء العذاب في الدار الآخرة، ويناقشون على كل ما قدموه، لا يغفر منه شيء، ومن نوقش الحساب عذب، ومرجعهم إلى النار ويُس المستقر مستقرهم. وفي هذا تهويل شديد، وتخويف عظيم، لغفلتهم من اتباع أوامر ربهم، وتقربهم إليه، وانغماسهم في شهواتهم.

ثم نزل في حمزة رضي الله عنه وأبي جهل، كما ذكر ابن عباس قوله تعالى: ﴿أَفَنُيَعِّلُ أَي لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنْ النَّاسِ أَنْ الْمَنْزِلَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا لِبَسَ فِيهِ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥/٦] أَي صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْطَلَبِ، لَا يَسْتَوِي مَنْ صَدَّقَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَنْ لَمْ يَصْدُقْ بِهِ، وَكَانَ أَعْمَى لَا يَسْتَبْصِرُ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ، وَلَا يَفْهَمُهُ، وَلَوْ فَهَمَهُ، مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَقَهُ، وَلَا اتَّبَعَهُ.

إنما الذي ينتفع بهذه الأمثال ويعتبر بها ويتعظ ويعقل هم أولو العقول السليمة، والأفكار الصحيحة، والآراء الرشيدة.

ونظير الآية: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠/٥٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات أموراً ثلاثة:

أ - تشبيه الحق والإيمان بالماء المستقر والمعدن النقي الصافي، وتشبيه الباطل والكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بمجنيات الأودية، وتنسفه الرياح، أو تشبيهه بالطافي فوق المعدن المذاب فكذلك الكفر وشبهاته وخيالاته تذهب وتضمحل، ويبقى الجوهر الصافي من الماء، والمعدن النقي.

وهذان المثلان اللذان ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، يلفتان النظر إلى عواقب الأمور.

وقيل وهو ما يروى عن ابن عباس: المراد تشبيه القرآن وما يدخل منه القلوب بالمطر، لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثلما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها.

٢ - للطائعين أهل السعادة الذين أجابوا إلى ما دعا الله من التوحيد والنبوات الجزاء الحسن، وهو النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غداً في الآخرة.

وللعصاة أهل الشقاوة الذين لم ينجبوا إلى الإيمان بنبو محمد ﷺ، لا يتمكنون من فداء أنفسهم في الآخرة بملء الأرض ذهباً، ومثله معه، ولهم سوء العذاب، فلا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة، ومسكنهم ومقامهم النار، وبئس الفراش الذي مهدوا لأنفسهم، فهذه أربعة أنواع من العذاب والعقوبة: عدم قبول الفداء، والتعرض لسوء الحساب، ومأواهم جهنم، وبئس المهاد مهادهم أي بش المستقر هي.

٣ - مثل آخر للمؤمن والكافر، روي أنه نزل في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل أخزاه الله، فالمؤمن بالمنزل من الله على نبيه، المتحقق بصدقه، العامل بما بلغه إليه منه هو المستبصر الواعي العاقل، والكافر هو الجاهل بالدين أعمى القلب، وأولو العقول هم المتعظون المعبرون بذلك.

أوصاف أولي الأبواب السعداء وجزاؤهم

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ۖ﴾ (٢٠) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ﴾ (٢١) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۚ﴾ (٢٢) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ﴾ (٢٣) ﴿سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا ۖ فَيَعْمُ غُفَى الدَّارِ ۚ﴾ (٢٤)

الإعراب:

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ﴾ إما صفة لأولي الألباب، ولما مبتدأ، خبره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقَبَى الدَّارِ﴾.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ مرفوع بالعطف على ضمير ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ المرفوع، وحسن العطف لوجود الفصل بضمير المفعول. ويجوز نصبه على أنه مفعول معه. ولا يجوز عطفه بالجر على ﴿لَهُمْ عُقَبَى﴾ لأن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة حرف الجر. وأجاز الكوفيون ذلك من غير إعادة حرف الخفض.

﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾ بدل من ﴿عُقَبَى الدَّارِ﴾، أو مبتدأ، خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بعلیکم، أو بمحذوف، أي هذا بما صبرتم، ولا يتعلق بسلام؛ فإن الخبر فاصل، والباء: للسببية أو البدلية.

البلاغة:

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ و﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ و﴿السَّيِّئَةِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ المأخوذ عليهم، وهم في عالم الذر أو كل عهد، وهو ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا: بلى، أو ما عهده الله تعالى عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْتَهُ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، والنقض: الفك بترك الإيمان أو الفرائض، وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام، والرحم وموالاته المؤمنين، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تمتلئ قلوبهم مهابة منه وجلالاً له. والخشية: الخوف مع العلم بمن تخشاه.

﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ويخشون خطر الحساب. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الطاعة والبلاء وعن المعصية. ﴿أَتَيْفَةً﴾ طلب. ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلب رضاه، لا غيره من أغراض الدنيا، كالفخر أو السمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا﴾ في الطاعة بعض ما رزقهم الله. ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون السيئة بالحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان كالأذى بالصبر، والجهل بالحلم، أو يتبعون السيئة الحسنة، فتمحوها. ﴿عُقُبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة الحمودة في الدار الآخرة، وهي ﴿جَنَّتُ عَيْنٍ﴾ إقامة يقيمون فيها. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي ومن صلح، وإن لم يعملوا بعملهم، يكونون في درجاتهم تكرمة لهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة، والتقيد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنة أو من أبواب المنازل، أول دخولهم للتهنئة. ﴿سَلَامٌ﴾ قائلين: سلام عليكم، بشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بصبركم في الدنيا. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عقباكم.

المناسبة:

هذه الآية متعلقة بما قبلها، فهي تذكر الصفات الحميدة لأولي الأبواب، أو الصفات المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ ومن اتصف بهذه الصفات لهم سعادة الدنيا والآخرة.

التفسير والبيان:

يصف الله تعالى أولي الأبواب من المؤمنين الذين تحققوا من نبوة النبي محمد ﷺ واعتقدوا أن ما أنزل إليه هو الحق، يصفهم بالصفات التالية:

أ - الوفاء بالعهد:

الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف ببرؤية الله تعالى،

وبالمواثيق بينهم وبين ربهم، وبينهم وبين العباد. وعهد الله: كل ما قام الدليل على صحته من الأدلة العقلية والسمعية، والعهد: اسم للجنس، أي بجميع فروض الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده، ويدخل فيه التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي.

٢ - عدم نقض الميثاق:

أي لا يُحْلُونَ بواجبات العهد والتزاماته، ولا ينقضون عهد الإيمان مع ربهم، ولا بالعقود التي يرمونها مع الناس من بيع وشراء وسائر المعاملات، حتى لا يكونوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اتّمن خان، روى الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفي رواية أربع ومنها: «إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

فعدم نقض الميثاق في رأي الأكثرين قريب من الوفاء بالعهد، وهما مفهومان متلازمان، وإن كانا متغايرين، ونص على منع النقض لتأكيدهما. أو إنه تعميم بعد تخصيص. قال قتادة: إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعاً في القرآن، عناية بأمره، واهتماماً بشأنه.

٣ - صلة الرحم ورعاية جميع الحقوق الواجبة لله وللعباد:

الذين يصلون كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله، ومنها مؤازرة النبي ﷺ ونصرته في الجهاد، وحقوق العباد، ومنها صلة الرحم. جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يُيسر له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه» ومنها الإحسان إلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف. ونص على هذا الوصف مع دخوله في الوصفين

السابقين للتأكيد، ولئلا يظن ظان أن الوفاء بالعهد مقصور على ما بين الإنسان وبين الله تعالى.

٤ - الخوف من الله:

و يخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك. والخشية: خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن يخشاه، لذا خص الله العلماء بمزيد الخشية، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥].

٥ - الخوف من العذاب:

ويحذرون سوء الحساب في الدار الآخرة، فيخافون المناقشة في الحساب؛ لأن من نوقش الحساب عُدِّبَ، ويحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا؛ لأن الحساب يشمل كل صغير وكبير، ومن خاف الحساب أقبل على الطاعة، وتجنب المعصية. ويلاحظ أن الوصف الرابع إشارة إلى الخشية من الله، وهذا يقتضي خوف الجلال والمهابة والعظمة، وهذا الوصف إشارة إلى الخوف من سوء الحساب.

٦ - الصبر:

وهو حبس النفس على ما تكره: والذين صبروا على الطاعة وعن المعصية، وحال البلاء، ففعلوا الطاعات والتكاليف، وامتنعوا من المعاصي والسيئات أو المنكرات، ورضوا بالقضاء والقدر عند التعرض للمصائب، وكان صبرهم بقصد مرضاة الله عز وجل ونيل ثوابه، لا رياء ولا سمعة.

٧ - إقامة الصلاة:

والذين أقاموا الصلاة أي أدّوها مستكملة أركانها وشروطها التامة، مع خشوع القلب لله تعالى على الوجه المرضي.

أ - الإنفاق في وجوه الخير:

وأنفقوا بعض ما رزقناهم في السر والجهر بحسب مقتضى الحال، فيسرون النفقة بينهم وبين ربهم حتى لا يكون قصدهم الرياء والسمعة، ويعلنونها أحياناً للناس إذا كانت بقصد التشجيع والتعليم والقدوة، سواء كان إنفاقاً واجباً كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء، أو مندوباً كالإنفاق على الفقراء والمساكين الأبعد.

ب - مقابلة السيئة بالإحسان:

ويدفعون الإساءة بالإحسان كالجهل بالحلم، والأذى بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٣] ﴿وَإِذَا مَرَأُوا كَرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٢] ، ويتبعون السيئة بالحسنة لحوها، لقوله ﷺ فيما يرويه أحمد عن أبي ذر: «إذا عملت سيئة، فاعمل بمجنبها حسنة تمحها» وفي رواية أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن».

والثابت أن المعاملة الكريمة مع المسيء وغيره أفضل وأجدى وأوقع أثراً؛ لأنها تهون الأمر، وتستل الأحقاد، وتكون عاقبتها أسلم.

وبعد أن وصف الله المؤمنين العقلاء بتلك الصفات الحميدة، ذكر جزاءهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عِقَابُ الدَّارِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم العقبي الحسنة والسعادة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو النصر على الأعداء، وأما في الآخرة فهو الجنة.

ثم أوضح هذه العقبي فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي تلك العقبي هي الجنات التي يقيمون فيها إقامة دائمة.

يدخلونها هم والصالحون المؤمنون من أزواجهم وأصولهم وفروعهم، وهو

دليل على أن سمو الدرجة يكون بالشفاعة، وأن التقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الأنساب لا تنفع، فلا تفيده الأنساب شيئاً إذا لم تقرن بالعمل الصالح، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٠١] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩/٢٦] وقال النبي ﷺ لفاطمة في مرض موته فيما رواه الترمذي: «يا فاطمة بنت محمد، سَلِّيني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً».

وتأتيهم الملائكة عند دخولهم الجنة من أبواب مختلفة قائلين لهم: سلام عليكم بصبركم، أي أمن دائم عليكم، ورحمة من ربكم، فنعم عقي الدنيا الجنة. فقله ﴿سَلَامٌ﴾ مشتمل على محذوف تقديره: ويقولون: سلام عليكم.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿١٢﴾ وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - وجوب الوفاء بالعهد: وهو يشمل كل حقوق الله وفرائضه وحقوق العباد.

٢ - تحريم نقض المواثيق الإلهية والبشرية: فإذا عقد الإنسان عهداً في طاعة الله، أو مع الناس، لم يجوز نقضه.

٣ - وجوب صلة الأرحام ورعاية جميع حقوق الله وحقوق العباد، وذلك يتناول جميع الطاعات والإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم.

٤ - الخوف من سوء الحساب: وهو الاستقصاء فيه والمناقشة، ومن نوقش الحساب عُذِّبَ، كما روى الشيخان عن عائشة.

٥ - الصبر بإخلاص لله تعالى على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب.

٦ - إقامة الصلاة: وهو أدائها بفروضها وخشوعها في مواقيتها.

٧ - الإنفاق من بعض المال سراً وجهراً، بأداء الزكاة المفروضة والتطوع بالصدقات المندوبة في سبيل الله تعالى.

٨ - درء السيئة بالحسنة، أي الدفع بالعمل الصالح السيئ من الأعمال، كالخلق بالأخلاق الطيبة في مواجهة أذى الناس، كالحلم في وجه الجهل، والصبر في وجه الأذى، ودفع الشر بالخير، والمنكر بالمعروف، وإتباع السيئة بالحسنة لمحو أثرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾ [هود: ١١/ ١١٤] وقوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

٩ - للسعداء الطائعين عاقبة الآخرة: وهي الجنة بدل النار، والدار غداً داران: الجنة للمطيع، والنار للعاصي.

وجنان عدن: وسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن، جاء في صحيح البخاري «إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفْجَرُ أنهار الجنة».

١٠ - يدخل الجنة مع المؤمن الصالح أبائهم وأزواجهم وأبنائهم إن صدقوا وصلحت أعمالهم، وإن لم يعملوا مثل أعمالهم، واشتراط العمل الصالح كاشتراط الإيمان، ولكن من فضل الله تعالى وإكرام المؤمن وثواب المطيع: سروره واجتماعه مع قريباته في الجنة، وحضور أهله معه فيها، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه من زاوية العدل، وبرحمة الله تعالى من ناحية الفضل.

١١ - التقييد بالصلاح بقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ دليل على أن مجرد الأنساب لا تنفع، فلا تفيد الأنساب شيئاً إذا لم تقرن بالعمل الصالح.

١٢ - تدخل أفواج الملائكة من مختلف أبواب الجنة مهتة المؤمنين، ومبشرة لهم بالسلامة، قائلين لهم: ﴿عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي قد سلمتم من الآفات والحن، أو هو خبر بمعنى الدعاء، أي ندعو لكم بدوام السلامة، سلمكم الله، وهذا يتضمن الاعتراف بالعبودية. والسلام عليكم كان بصبركم على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية، فنعم عاقبة الدار التي كنتم فيها، عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه، فالعقبى على هذا اسم، وهو قول ابن سلام. أو فنعم عقبى الجنة عن النار أو عن الدنيا، وهو قول أبي عمران الجوني.

١٣ - استدلل بعض العلماء بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال: إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم، فكانوا به أجل مرتبة من البشر، ولو كانوا أقل مرتبة من البشر، لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجباً علو درجاتهم وشرف مراتبهم^(١).

صفات الأشقياء وجزاؤهم

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

للفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ ذكر في مقابلة الأولين الذين يوفون بعهد الله.

﴿وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم والمعاصي وإثارة الفتن. ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الطرد أو البعد من رحمة الله. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ العاقبة السيئة في الدار الآخرة، وهي جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبي الدار للسعداء.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى صفات السعداء وجزاءهم الذي أعده لهم في دار الكرامة، ذكر حال الأشقياء وما هياهم من عذاب النار، وأتبع الوعد بالوعيد، والثواب بالعقاب، على ما هي عليه عادة القرآن للموازنة والمقابلة، وليكون البيان كاملاً فيكون أدعى للامثال والزجر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾.

التفسير والبيان:

وصف الله تعالى الأشقياء بصفات ثلاث هي:

أ - نقض العهد: والذين ينقضون عهد الله الذي ألزمه عباده وأمر به، سواء ما يتعلق به سبحانه من الإيمان بوحدانيته وقدرته وإرادته، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وما أوحى لهم به، أو ما يتعلق بحقوق الناس.

ونقض العهد: ألا ينظر في الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده أصلاً، أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند، فلا يعمل بعلمه، أو بأن ينظر في الشبهة، فيعتقد خلاف الحق.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد الإقرار بصحته والالتزام به.

ب - قطع ما أمر الله به أن يوصل، أي قطع كل ما أوجب الله وصله، من الإيمان به وبرسله، وقطع الرحم والقربات، وعدم صلة المؤمنين وسائر أصحاب الحقوق وعدم التعاون معهم.

٣ - الإفساد في الأرض، أي ويفسدون في الأرض بأعمالهم الخبيثة، فيظلمون أنفسهم وغيرهم، ويدعون إلى غير دين الله، ويلحقون الظلم بالنفوس والأموال، ويرتكبون كل ما يؤدي إلى تخريب البلاد، وإثارة الفتن، وتأجيج نار الحرب والدمار.

ثم أبان تعالى ما يستحق هؤلاء من عقاب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر يستحقون اللعنة، أي الطرد من رحمة الله والإبعاد من خيرى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾ أي ولهم سوء العاقبة والمآل، وهو عذاب جهنم، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها، كما قال سبحانه سابقاً: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ إِلَّا فِي حَقٍّ وَأُولَٰئِكَ سَاءُ مَا يَصْنَعُونَ﴾ [الرعد: ١٨/١٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى الأحكام التالية:

١ - تحريم نقض العهد الإلهي بالإيمان وإيتاء الحقوق، الذي أقام عليه تعالى الأدلة العقلية والسمعية، وأوجب الوفاء به في قرآنه وكتبه المنزلة على أنبيائه.

٢ - تحريم قطع ما أمر الله بوصله من صلة الأرحام والإيمان بجميع الأنبياء، والتعاون مع المؤمنين.

٣ - تحريم الإفساد في الأرض بالكفر وارتكاب المعاصي والظلم وإثارة الفتن، وارتكاب كل ما يؤدي إلى دمار البلاد وتخريبها، وإتلاف الأموال والحقوق واغتصابها والاعتداء عليها.

٤ - المرتكبون لهذه المنكرات والفواحش لهم اللعنة، أي الطرد والإبعاد من الرحمة، ولهم سوء الدار، أي سوء المقلب، وهو جهنم.

الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله لمن آمن بالله

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ
اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ
اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُ ﴿٢٩﴾﴾

الإعراب:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف.
﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ معطوف على ﴿وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وفي الآية تقديم
وتأخير، وما سبق ذلك اعتراض.

﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُ﴾ ﴿طُوبَى﴾ مبتدأ، وخبره ﴿لَهُمْ﴾، والجملة
خبر المبتدأ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ﴿وَحَسُنَ مَا أَجْرُ﴾: معطوف
مرفوع على ﴿طُوبَى﴾. وقرئ: ﴿وَحُسْنَ مَا أَجْرُ﴾ بالنصب، على أنه منادى
مضاف، حذف منه حرف النداء، أي يا حسن ما أَجْرُ، ويجوز أن يكون
﴿طُوبَى﴾ منصوباً بفعل مقدر، أي أعطاهم طوبى لهم، وأعطاهم حسن ما أَجْرُ،
فهذا معطوف بالنصب على ما سبقه.

البلاغة:

﴿يَسْطُرُ﴾ و﴿يَقْدِرُ﴾ و﴿يُصْلِحُ﴾ و﴿يَهْدِي﴾ بينهما طباق.
﴿إِلَّا مَتَعٌ﴾ تشبيه بليغ، حذف منه أداة الشبه ووجه التشبيه، أي ما الحياة

الدنيا إلا مثل الذي يتمتع به الإنسان في منزله كالقُصعة ونحوها، في حقارته وسرعة زواله.

المفردات اللغوية:

﴿يَسُطُّ الرِّقُّ﴾ يوسعه ﴿وَقَدَّرُ﴾ يضيقه أو يعطي بقدر الكفاية فقط ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة فرح بطر ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا وما نالوه فيها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا مَتَّعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم، وشيء قليل يتمتع به ويذهب، والمعنى: أن الكفار بطروا بما نالوا من الدنيا، ولم يستخدموه فيما يوصلهم إلى نعيم الآخرة، واغتروا بما هو قليل النفع سريع الزوال.

﴿وَقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كعصا موسى ويده، وناقاة صالح ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله، فلا تغني عنه الآيات شيئاً؛ لأنه عاند وأعرض عن الحق ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ يرشد إلى دينه من رجع عن العناد وأقبل إلى الحق. والمعنى: هذا جواب فيه تعجب من قولهم، كأنه قال لهم: ما أعظم عنادكم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائهم، وإن أنزلت كل آية؛ ويهدي إليه من أناب، أي من رجع عن العناد.

﴿وَنَظْمَيْنِ﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بتوحيده ووعدته ﴿وَنَظْمَيْنِ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب المؤمنين، والمعنى أن قلوب المؤمنين تسكن وتستأنس بتوحيد الله وتذكر وعده، وتعتمد عليه وترجو منه، فتطمئن.

﴿طُوبَى﴾ مصدر من الطيب، أي لهم العيش الطيب والنعمة والخير والسرور، والحسنى والكرامة. وقيل: هي شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلها مئة عام ﴿مَنَابٍ﴾ مرجع ومنقلب.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك، بيّن أنه تعالى الذي ييسط الرزق ويقدر في الدنيا؛ لأنها دار امتحان، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتفتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم، فلا تعلق للرزق بالكفر والإيمان، فربما وسع على الكافر دون المؤمن استدراجاً له، وضيق على المؤمن دون الكافر زيادة في أجره وثوابه.

ثم ذكر تعالى مقالة للمشركين، كثر في القرآن حكايتها وهي طلب آية مادية حسية تدل على نبوة محمد ﷺ؛ لإنكارهم أن القرآن آية دالة على النبوة، فرد الله عليهم أن اقتراح الآيات على الرسل جهل.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين المتقين وثوابهم عند الله تعالى. والتحدث عن المشركين والمؤمنين هنا مناسب لما ذكر سابقاً من بيان عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك.

التفسير والبيان:

لما ذكر الله تعالى أن للمشركين سوء الدار، ناسب ذكر حكم الرزق في الدنيا، وأنه لا تعلق له بالإيمان والكفر، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ﴾ أي إن الله تعالى هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتصر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، بصرف النظر عن كون الإنسان مؤمناً أو كافراً، فقد يضيق الله الرزق على المؤمن ابتلاء واختباراً، وزيادة في أجره، وقد يوسع الله الرزق على الكافر استدراجاً له وحرماناً منه في الآخرة، عدالة، فليست سعة الرزق للكافر دليلاً على الكرامة والرضا، وليس التفتير على المؤمن دليلاً على الإهانة والسخط. كما قال تعالى في شأن رزق الكافر: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ ۖ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦/٢٣] وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ

ثم ذكر الله تعالى حال المشركين في حال الغنى فقال: ﴿وَفِرْحًا﴾ أي وفرح مشركو مكة بالدنيا فرح بطر، ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله. لكن ما نعيم الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع زائل، وشيء قليل ذاهب، يزول بسرعة.

أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر به ترجع» وأشار بالسبابة.

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك، فقال: مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها».

ولما أوضح تعالى أن المشركين اغتروا بمتع الحياة الدنيا، وطمست المادة على مشاعرهم وقلوبهم، ذكر ما ترتب على الغرور والتأثر بالمادة، فطلبوا من النبي ﷺ آية واحدة مادية تدل على صدق نبوته، لعدم إيمانهم بكون القرآن معجزة مصدقة، وبرهاناً قاطعاً على ذلك؛ لأنهم قوم ماديون، لا مجال لمخاطبة العقل لديهم، والقائل: عبد الله بن أبي أمية وأصحابه، فقال تعالى حاكياً اقتراحهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي ويطلب أهل مكة المشركون قائلين: هلا أنزل على محمد آية أو معجزة فاهرة ظاهرة مادية مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ مِّمَّا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥/٢١].

والله قادر على إجابة ما سألوا، لكن جاء في الحديث: «إن الله أوحى إلى رسوله، لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن

شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة».

ورد الله عليهم بأن إنزال الآيات لا يؤثر في هداية ولا ضلال، بل الأمر كله بيد الله: ﴿قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُضِلُّ﴾ أي ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم، فلا فائدة لكم في نزول الآيات، إن لم يرد الله هدايتكم، فمن كان على صفتكم من التصميم والعناد في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائكم، وإن أنزلت كل آية، فإن الضلال والهداية بيد الله، والله يضل من يشاء، أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات، وحرّمكم الاستدلال بها، يضلّكم عند نزول غيرها، ويهدي إليه من أناب، أي رجع عن العناد وأقبل على الحق أو الإسلام أو الله عز وجل، فهاء ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى واحد من المذكورات؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه.

وللآية نظائر كثيرة منها: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١/٦] ﴿وَمَا تَنْفَعِي الْآلِئْتُ وَالْتَذُرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١/١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦/١٠-٩٧].

ثم ذكر الله تعالى من يستحقون الهداية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يهدي الله الذين صدّقوا بالله ورسله، وسكنت قلوبهم إلى توحيد الله ووعده، أنساً به، واعتماداً عليه، ورجاء منه، ألا بتذكر الله، وتأمل آياته، ومعرفة كمال قدرته عن بصيرة، تطمئن قلوب المؤمنين، ويذهب القلق والاضطرب عنهم، بما وقر في تلك القلوب من نور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣/٣٩] والمؤمن إذا تذكر عقاب الله، خاف،

كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢/٨]
 وإذا تذكر المؤمن وعده تعالى بالثواب والرحمة، اطمأن قلبه وهدأت نفسه:
 ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢/٨].
 ثم أبان الله تعالى جزاء المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي للذين آمنوا
 وعملوا الصالحات العيش الطيب والنعمة والخير وحسن الثواب، وحسن
 المرجع.

والطوبى في رأي ابن عباس: الجنة، وروي عنه أنها شجرة في الجنة،
 ورجح القرطبي أنها شجرة في الجنة، فقال: والصحيح أنها شجرة^(١)؛
 للحديث المرفوع عن عتبة بن عبد السلمي وهو صحيح على ما ذكره السهيلي:
 «نعم شجرة تدعى طوبى».

وللحديث المرفوع أيضاً عن أبي سعيد الخدري فيما رواه الإمام أحمد:
 «طوبى: شجرة في الجنة، مسيرة مئة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»
 وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في
 الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام، لا يقطعها» ولا حرج على فضل
 الله ولا على قدرته، ففي الجنة كما ثبت في الحديث الذي أخرجه الجماعة إلا
 النسائي عن أبي هريرة: «فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على
 قلب بشر».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الآتي:

أ - الله تعالى مصدر الرزق، يوسع فيه على من يشاء، ويقتره على من
 يشاء، على وفق حكمته وعدله.

(١) تفسير القرطبي: ١٧/٩، تفسير ابن كثير: ٥١٢/٢

٢ - الكفار وكل أصحاب النزعات المادية يفرحون في الدنيا، ولا يعرفون غيرها، ويجهلون ما عند الله من أفضال ونعم وخيرات كثيرة.

٣ - ليست الدنيا في جانب الآخرة إلا متاع من الأمتعة، وشيء قليل سريع الزوال.

٤ - اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تغني عن كل آية، هي القرآن، تدل على الصدق، وصحة النبوة والوحي، وكونه كلام الله.

٥ - لا تعلق للرزق بالإيمان والكفر، فقد يرزق الله الكافر، ويحرم المؤمن، استدراجاً للأول، وابتلاء واختباراً للثاني.

٦ - الإضلال والهداية من الله، وللإنسان دور فيهما، فالكافر هو الذي عاند وعارض ولم يؤمن، فلم يهده الله، والمؤمن هو الذي آمن وعمل الصالحات، فزاده الله هدى.

٧ - للمؤمنين الذين يعملون الصالحات الجنة والخير والنعمة والفرح وحسن المرجع، وفي هذا ترغيب في الطاعة، وتحذير من المعصية، ومن سوء العقاب والمصير.

محمد صاحب الرسالة والرسول وبيان عظمة القرآن وقدره الله شاملة

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِسَتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣١﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمْ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ ﴿٣٣﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنْعِفُهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُهُرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٤﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿قُرْآنًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً (قرآنًا).

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ﴾: قرئ:

١- (ولقد استهزئ) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمة.

٢- (ولقد استهزئ) وهي قراءة الباقيين.

﴿وَصُدُّوا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (وَصَدَّوْا).

الإعراب:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾: جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، أي لكان هذا القرآن. وما بعده جمل فعلية في موضع نصب؛ لأنها صفة قرآن. وجاء ﴿سُيِّرَتْ﴾ و﴿قُطِعَتْ﴾ بلفظ التأنيث لتأنيث الجبال والأرض، وجاء ﴿كُلِّمَ بِهِ الْمَوْفِقُ﴾ على التذكير، لوجود الفصل الذي ينتزل منزلة إلحاق التأنيث.

﴿أَوْ تَحُلَّ قَرْيَا مِّن دَارِهِمْ﴾ ﴿تَحُلَّ﴾: إما للتأنيث، أي قارعة تحل قريباً من دارهم، وهي جملة فعلية في موضع رفع صفة: قارعة، وتقديره: قارعة حالة، وإما للخطاب، أي أو تحل أنت قريباً من دارهم، وهو معطوف على خبر ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ أي: ولا يزال الكافرون تصيبهم بصنيعهم قارعة، أو حالاً أنت قريباً من دارهم.

البلاغة:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾: تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك وهو إرسال الرسل، أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك ﴿فَدَّ خَلَّتْ مِّن قَبْلِهَا﴾ مضت وتقدمتها أمم ﴿لِئْتَلُوا﴾ تقرأ ﴿الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ حيث قالوا لما أمروا بالسجود له: وما الرحمن؟ أي وهم يحسدون بيلغ الرحمة، فلم يشكروا نعمه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم ﴿وَالِإِلَهِ مَتَابٍ﴾ مرجعي ومرجعكم.

﴿سُيِّرَتْ بِهَ الْجِبَالُ﴾ أي نقلت عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ﴾ شققت فجعلت

عيوناً وأنهاراً، أو تصدعت من خشية الله عند قراءته ﴿أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ بأن يحيا لما آمنوا ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ أي الله القدرة على كل شيء، لا غيره، فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره، إن أوتوا ما اقترحوا، وهو إضراب عما تضمنته ﴿لَوْ﴾ من معنى النفي، أي بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأن قلوبهم لا تلين له.

﴿يَأْفِسُ﴾ المراد يعلم، وهو لغة هوازن، وهو رأي الأكثر، وقيل: هو يأس على الحقيقة، أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم، مع ما رأوا من أحوالهم، علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ ﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة، أي إنه لو شاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان من غير آية، ومعناه: نفي هدى بعض الناس، لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿يَمَّا صَنَعُوا﴾ بصنعهم أي كفرهم ﴿قَارِعَةً﴾ داهية تفرعهم بصنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجذب، وتفرعهم وتقلقهم ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ أي القارعة، ويجوز أن يكون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية، أو إنه حل مكة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بالنصر عليهم، أو الموت أو القيامة أو فتح مكة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لا متناع الكذب في كلامه، وقد حل بالحديبية حتى أتى فتح مكة.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ﴾ أي كما استهزئ بك، وهذه تسلية للنبي ﷺ ﴿فَأَمَلَيْتُمْ﴾ أمهلت مدة طويلة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ﴾ بالعقوبة، أي هو واقع موقعه، فكذاك أفعّل بمن استهزأ بك. وهذه تسلية للنبي ﷺ ﴿فَأَيُّكُمْ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب وحافظ عليها ﴿يَمَّا كَسَبْتُمْ﴾ بما عملت من خير وشر، وهو الله، كمن ليس كذلك من الأصنام، لا ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ له من هم، أي صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ﴿تَتَّبِعُونَهُ﴾ بل تخبرون الله ﴿يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي

الْأَرْضِ» أي بشريك، والاستفهام إنكار، أي لا شريك له، إذ لو كان لعلمه
 «أَمْ» بل تسموهم شركاء «أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ» بظن باطل لا حقيقة له في
 الواقع «مَكْرُهُمْ» كفرهم «عَنِ السَّبِيلِ» طريق الهدى «لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا» بالقتل والأسر «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ» أشد وأنكى منه «وَمَا لَهُمْ مِنَ
 اللَّهِ» من عذابه «مَنْ وَاقٍ» مانع أو حافظ.

سبب النزول:

نزول الآية (٣١):

«وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا»: أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس، قال: قالوا للنبي
 ﷺ: إن كان كما تقول، فأرنا أشياخنا الأول، نكلمهم من الموق، وافسح لنا
 هذه الجبال - جبال مكة التي قد ضمتنا، فنزلت: «وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سُرِّتَ بِهِ
 الْجِبَالُ» الآية. ورواية ابن جرير وأبي الشيخ بن حيان الأنصاري عن ابن
 عباس أنهم قالوا: سِيرَ بالقرآن الجبال، قَطَّعَ بالقرآن الأرض، أخرج به
 موتانا، فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي قال: قالوا للنبي ﷺ:
 لو سيرت لنا جبال مكة، حتى تتسع، فنحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض،
 كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموق، كما كان عيسى
 يحيي الموق لقومه، فأنزل الله: «وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا» الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: قالت قريش
 لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً كما تزعم، فباعد جبلي مكة أخشبيها (جبلين
 فيها) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها ونرعى،
 وابعث لنا آبائنا من الموق، حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى
 الشام أو اليمن أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونحيي في ليلة، كما زعمت أنك
 فعلته، فنزلت هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن قص الله علينا ما طلبه المشركون من آيات تثبت نبوة محمد ﷺ، أوضح أن محمداً كغيره من الرسل مع أقوامهم، طلبوا الآيات من أنبيائهم، وأجابهم الله إلى مطلبهم، ولكنهم لم يؤمنوا، فعذبوا بعذاب الاستئصال.

ولو أرادوا آية، فقد أعطيناك هذا الكتاب، وأنت تتلوه، والله قادر على كل شيء من الإنيان بما اقترحوه، ولكنه لا يحقق المقصود. ثم هددهم الله بداهية تحل بهم، ثم أتبع ذلك بتسليية النبي ﷺ على استهزائهم به.

التفسير والبيان:

مثلما أرسلنا رسلاً في الأمم الماضية، أرسلناك يا محمد في هذه الأمة لتبلغهم رسالة الله إليهم، وما أوحيناك إليك، وقد كُذِّبَ الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [النحل: ١٦/٦٣] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنظَرْتُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِّن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤/٦].

والخلاصة: إننا أرسلناك بكتاب تبلغه للناس وتقرؤه عليهم، كما أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك، ولما كُذِّبَ الرسل، انظر كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي والحال أن هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، لا يقرون به، ولا يشكرون نعمه وفضله، وقالوا: إن له شريكاً.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي قل لهم: إن الرحمن الذي تكفرون به،

أنا مؤمن به معترف، مقرّ له بالربوبية والألوهية، فهو متولي أمري وخالقي، وهو ربي لا إله إلا هو، لا رب غيره ولا معبود سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي توكلت عليه في جميع أموري، وفوضتها إليه، ووثقت به.

﴿وَالَيْهِ مَتَابِ﴾ أي إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه، أو إليه توبتي، بمعنى قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ [غافر: ٤٠/٥٥].

ثم بين الله تعالى عظمة القرآن وشأنه وتفضيله على سائر الكتب المنزلة قبله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ [الرعد: ٣١/١٣] أي لو كان هناك في الكتب الماضية كتاب تسير بتلاوته الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتشقق وتجعل أنهاراً وعيوناً، أو تكلم به الموتى في قبورها بإحيائهم بقراءته، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، بل هو الأولى لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ولأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا شتماله على الأدلة الكونية الدالة على وجود الصانع، والأحكام والأنظمة التي تصلح البشر وتسعدهم في الدارين. والآية مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيْعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥٩/٢١].

﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فماله من مضل، فهو سبحانه صاحب الإرادة والأمر في إنزال الآيات، وهو القادر على كل شيء، فلو كان تحقيق طلب ما اقترحوه مناسباً مشتملاً على الحكمة والمصلحة، لأنجزه تعالى، ولكن كفى بالقرآن آية لأولي الألباب، والإرادة الإلهية لم تتعلق بغير ذلك؛ لعلمه تعالى ألا فائدة في مجاراتهم، وأن قلوبهم لا تلين، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فكان الإضلال والهداية مرتبطاً بنظام

السبية، أي إن الله أنزل في القرآن آيات كافية للهداية، فمن أعرض عنها ضل، فكان ترك الآيات سبباً في ضلاله.

﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسْ﴾ أي ألم يعلم المؤمنون أن الله قادر لو شاء على هداية الناس أجمعين إلى الإيمان بالقرآن.

أو ألم ييأس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أو يتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى دينه، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ، ولا أنجح في العقول والنفوس من هذا القرآن. ثبت في الصحيح الذي رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «مامن نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». والمراد: أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الأباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿وَلَا يَرَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تزال القوارع والبلايا من القتل والأسر، والسلب تصيب الكافرين في الدنيا بسبب تكذيبهم لك وتماديهم في الكفر، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَايَتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧/٤٦].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١/١٣] حتى ينجز الله وعده لك فيهم، بنصرك عليهم، وهو فتح مكة كما قال ابن عباس وآخرون، أو حتى ينتهي هذا العالم بالنسبة إلى كفار آخرين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إن الله ينجز وعده الذي وعدك به، من النصر عليهم، ولا ينقض وعده لرسله بالنصر لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧/١٤].

ثم أنزل الله تسلياً لنيبه عن استهزائهم بطلب هذه الآيات، وتخفيفاً عما كان يشق عليه من ذلك، وعن تكذيب بعض قومه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَشْهَرِيْ بِرُسُلٍ﴾ أي إن كذبك بعض قومك واستهزأ بك المشركون منهم، وطلبوا آيات منك عناداً ومكابرة، فاصبر على أذاهم، فلك في الرسل المتقدمين أسوة، ثم بين تعالى شأنه معهم فقال: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم مدة من الزمان، ثم أوفعت بهم العذاب، فانظر كيف عقابي لهم حين عاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيْرِ ۝٤٨﴾ [الحج: ٤٨/٢٢] وجاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٦﴾». والمراد بالآية أني سأنتقم من هؤلاء الكفار، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

ثم ذكر الله تعالى ما يكون توبيخاً لهم على موقفهم وعقلهم، وما يدعو إلى التعجب منهم فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي إن الله مطلع على كل نفس، عالم بما يكسبونه من أعمال الخير أو الشر، ولا يخفى عليه خافية، قادر على كل شيء كما قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١/١٠] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩/٦] ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [مود: ٦/١١].

وبما أن الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء، فكيف يعملون القادر العالم كمن لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، وكيف يتخذونه رباً يطلبون منه النفع ودفع الضرر؟! والمراد نفي المماثلة.

ثم أكد تعالى ما سبق بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي واتخذوا شركاء لله، عبدوها معه، من أصنام وأوثان وأنداد.

ثم وبخهم مرة أخرى بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي صفوهم لنا، وأعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، وليسوا أهلاً للعبادة لعدم نفعهم وضرهم.

﴿أَمْ تَتُوبُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بل أخبرونه بشركاء معبودين لا وجود لهم؛ لأنه لو كان لهم وجود في الأرض، لعلمهم؛ لأنه لا تخفى عليه خافية. وهذا نفي لوجودهم. والاستفهام: استفهام توبيخ.

﴿أَمْ يَظُنُّوْنَ أَنَّ الْقَوْلَ﴾ أي بل أنسمونهم شركاء بظن من القول أنهم ينفعون ويضرون، أم يباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتوها آلهة كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٥٣/٢٣].

والخلاصة: إن آية ﴿أَفَنْ هُوَ فَأَيُّ﴾ حجاج للمشركين وتوبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، ويقصد منه نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على استحقاق تلك الشركاء للعبادة.

﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي لا فائدة من هذا النقاش أو الحجاج معهم، فإنهم قوم زَيْن لهم كفرهم وكيدهم: وهو ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١/٢٥].

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي وصرفوا عن سبيل الحق وسبيل الله والدين القويم، بما زين لهم من صحة ما هم عليه.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ أي ومن يخذله الله لكفره وعصيانه، فماله من أحد يوفقه إلى الهداية وسلوك طريق النجاة والسعادة، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ﴾

فَتَنَّتُمْ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا ﴿[المائدة: ٤١/٥] وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ٣٧/١٦] .

ثم ذكر الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿هَمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لهم عقاب شديد في الدنيا بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر والذلة والحرب، أو البلاء في أجسامهم ونحو ذلك من المصائب.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي والعذاب المدخر في الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين فيما رواه مسلم عن ابن عمر: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» لأن عذاب الدنيا مؤقت، وذاك دائم أبداً في نار، هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي وما لهم ساتر يقيهم ويحفظهم من العذاب ويحميهم، ولا شفاعة لأحد عند الله إلا بإذنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إرسال الرسل قبل إرسال محمد ﷺ كان ظاهرة عامة، قد يؤمن بهم بعض أقوامهم، وقد يكذبهم الأكثرون، ويكفرون بالرحمن.

٢ - كما أرسل الله رسلاً إلى أمم وأعطاهم كتباً تتلى عليهم، كذلك أعطى الله نبيه محمداً ﷺ هذا الكتاب (القرآن) وهو يتلوه عليهم، فلماذا اقترحوا غيره.

٣ - الله هو الإله بحق الذي لا إله غيره، ولا معبود سواه، وهو واحد بذاته، وإن اختلفت صفاته، عليه يتوكل العبد ويعتمد ويشق، وإليه مرجع

العباد غداً، وعليه يتوكل المؤمن اليوم وفي كل وقت، رضى بقضائه، وتسليماً لأمره.

٤ - لو كان هناك كتاب سماوي يقوم بنقل الجبال من أماكنها، وتفجير الأنهار والعيون وشق الأرض، وتكليم الموت لإحيائها، لكان هذا القرآن، ولو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم.

٥ - ليعلم البشر أن الله لو يشاء لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات، ويروا المعجزات، وينظروا في دلائل الكون. ولكن ما شاء تعالى هداية جميع الناس.

٦ - لا يزال الكافرون في كل زمان تصيهم داهية مهلكة من صاعقة، أو أسر أو جذب أو زلزال أو بركان، أو غيرها من العذاب والبلاء كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء قريش.

وقد تصيب من حولهم ممن هو قريب منهم، فيتأثرون بالعذاب.

٧ - دلت آية ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ على تسليية النبي ﷺ والتبصير له على سفاهة قومه، فإن أقوام سائر الأنبياء استهزؤوا بهم، كما أن قومك يستهزئون بك. ودلت أيضاً على تهديدهم، فإنه تعالى يعلمهم مدة ليؤمن من علم الله أنه يؤمن منهم، ثم لما حق القضاء أخذهم بالعقوبة، وكما صنع بمن قبلهم يصنع بمشركي مكة، وبكل الكفار في كل زمان.

٨ - لا مماثلة إطلاقاً بين الله تعالى النافع والضارّ بسبب فعل العبد وبين الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، فالله تعالى هو القادر على كل شيء، وهو العالم بكل شيء، وتقدير الآية: أأمن هو قائم على كل نفس بالرقابة والحفظ بما كسبت كشركاتهم التي لا تضر ولا تنفع؟!!

٩ - ليس للأصنام حقيقة تذكر، فلا وجود للشركاء مع الله، وما يعتمد

عليه المشركون إن هو إلا مجرد ظن لا يغني من الحق شيئاً، وباطل من القول لا يفيد شيئاً، وكل ما في الأمر أن الشيطان زين لهم سوء اعتقادهم وصدهم عن سبيل الله ودينه الحق، أو زين لهم ضلالهم وكفرهم.

١٠ - من يخذله الله ويعلم أنه لا يهتدي، فماله من هادٍ يقدر على هدايته وتوفيقه والأخذ بيده إلى طريق النجاة والسعادة.

١١ - للمشركين الصادقين عن الحق ودين التوحيد العذاب في الدنيا بالقتل والسبي والأسر والذم والإهانة، وغير ذلك من الأسقام والأمراض والمصائب، والعذاب الأشد في الآخرة، وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله، ولا دافع يدفعه عنهم.

ففي الآية إخبار بأنه تعالى جمع لهم بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق، وأنه لا دافع لهم عنه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

صفة الجنة وموقف أهل الكتاب

من نبوة النبي ﷺ

وشبهات المشركين حولها

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۖ ﴾ (٣٥) وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ۖ ﴾ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۖ ﴾ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَابَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۖ ﴾ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۖ ﴾ (٣٩)

القراءات:

﴿أَكُلْهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أَكُلْهَا).

﴿وَيُثْبِتُ﴾: قرئ:

١- (وَيُثْبِتُ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم.

٢- (ويُثْبِتُ) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ مرفوع، وخبره إما محذوف، تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، وهو قول سيويه، وإما قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو قول الفراء.

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال.

البلاغة:

﴿وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي وظلُّها دائم، حذف منه الخبر بدليل السابق.

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوَّا وِعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى المقابلة.

﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ فيهما جناس اشتقاق.

﴿يَمَحْوُا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ بينهما طباق.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ فيه قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة، أي ليس لك إلا الأمر بعبادة الله.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ من باب التَّهْيِيج والإلهاب والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتَّصْلُب فيه، وعدم التأثر بالشبهة بعد التمسك بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان.

المفردات اللغوية:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي صفتها التي هي مثل في الغرابة. ﴿أَكُلُهَا﴾ ما يؤكل فيها. ﴿دَائِرٌ﴾ لا ينقطع ثمرها ولا يفنى. ﴿وِظْلُهَا﴾ واحد الظلال، فيه خبر محذوف، أي دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها. ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي الجنة عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ومآلهم ومنتهم أمرهم. ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ لا غير، وفي ترتيب التنظيم إطماع للمتقين وإقناط للكافرين. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وأصحابه من مؤمني اليهود، ومن آمن من التصاري، وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة، أو عامتهم، فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم.

﴿الْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب: وهو الطائفة المنحزبة، أي المجتمعة لشأن من الشؤون كحرب أو مكيدة ونحوهما، وهم الذين تحزَّبوا عليك من المشركين واليهود، مثل كعب بن الأشرف اليهودي وأصحابه. ﴿مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم أو ما يوافق ما حرّفوه منها، وكذكر الرحمن وما عدا القصص. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ جواب للمنكرين، أي قل لهم: إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحده، ولا سبيل إلى إنكاره؛ وأما ما تنكرونه مما يخالف شرائعكم فليس ببدع اختلاف الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ لا إلى غيره. ﴿وَالْيَهُودُ مَثَابٌ﴾ وإليه مرجعي

للجزاء، لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فما يختلف بالأعصار والأمم، فلا معنى لإنكارهم الاختلاف فيه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي مثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي أنزلنا القرآن يحكم بين الناس في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة. ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ليسهل لهم حفظه وفهمه. ﴿وَلَيْنِ أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي الكفار فيما يدعونك إليه من ملتهم على سبيل الافتراض، كالصلاة إلى قبلتهم بعدما حوّلت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلٍ﴾ ينسخ ذلك. ﴿وَلِيٍّ﴾ ناصر. ﴿وَاقٍ﴾ حافظ أو مانع من عذابه، أي مالك من أحد ينصرك، ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم، وتوبيج للمؤمنين على الثبات على دينهم.

﴿أَنْزَجْنَا﴾ نساء. ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أولاداً، كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما صح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتَةٍ﴾ تقترح عليه، وحكم يلتمس منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمشيئته وإرادته، فإنهم عبيد مربوبون لله تعالى. ﴿أَجَلٍ﴾ مدة أو وقت. ﴿كِتَابٍ﴾ مكتوب فيه تحديده، أي لكل وقت وأمد تحديد أو حكم معين يكتب على العباد، على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يبقي ما يشاء من الأحكام حسبما تقتضي حكمته، وقيل: يمحو سيئات الثائب، ويثبت الحسنات مكانها. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصل الكتب، وهو اللوح المحفوظ، وهو الذي لا يتغير منه شيء، وهو ما كتبه في الأزل، فما من كائن إلا وهو مكتوب فيه، أو العلم الإلهي.

سبب النزول:

نزل الآية (٣٨):

قال الكلبي: عثرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والتكاح، ولو كان نبياً كما زعم، لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قریش حين أنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شيء، لقد فرغ من الأمر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^(٢).

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة، أتبعه بذكر ثواب المتقين وما أعدّه للمؤمنين من جنات التعيم، وذلك هو شأن القرآن الكريم، إذا وصف النار وعذابها، ذكر الجنة ونعيمها، مثل المذكور في سورة الفرقان: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾^(١) إذا رأته من مكان بعيد سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا^(٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَنَا ضَيْقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^(٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا^(٤) قُلْ أَدْلَاكَ خَيْرٌ أَمَ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا^(٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا^(٦) [الفرقان: ١١-١٦].

ثم ذكر تعالى فرح مؤمني أهل الكتاب بتوافق القرآن مع المنزل إليهم من ربهم، وإنكار فئة آخرين لذلك.

(١) أسباب النزول للواحي ١٥٨

(٢) لباب القول في أسباب النزول بهامش تفسير الجلالين للسيوطي ٣٣٤

ثم أورد الله تعالى شبهات المشركين لإبطال نبوة النبي ﷺ، كالظن بتعدد الزوجات، وعجزه عن الإتيان بالمعجزات، فرد الله عليهم بأن محمداً ﷺ كسائر الأنبياء له أزواج وأولاد، وأن أمر المعجزات مفوض إلى الله تعالى، لا إلى أحد سواه، وأن إنزال العذاب محدد بأجل معين، ولكل أجل كتاب، أي لكل حادث وقت معين.

التفسير والبيان:

فيما نقصه عليك، أو فيما يتلى عليك صفة الجنة ونعتها الذي يشبه المثل في الغرابة، تلك الجنة التي وعداها الله للمتقين، ذات أنهار تجري في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، ويوجهونها حيث أرادوا، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۖ﴾ [محمد: ٤٧/١٥].

﴿أَكُلُوهَا دَائِماً وظِلُّهَا﴾ أي ما يؤكل فيها من الفواكه والمطاعم والمشارب لا ينقطع، ولا يفنى، وكذلك ظلُّها دائم لا ينسخ ولا يزول، فليس فيها شمس ولا حر ولا برد: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ [الإنسان: ٧٦/١٣]. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكت، فقال: «إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقوداً، ولوأخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

وبعد وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث، قال تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي تلك الجنة هي عاقبة ومصير أهل التقوى، وعاقبة الكافرين النار، بسبب كفرهم وذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/٢٠].

والمراد أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام. والآية إطماع للمؤمنين المتقين، وإقناط للكافرين.

ثم ذكر الله تعالى انقسام أهل الكتاب فثنين من القرآن، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى قسمان: فالقائمون بمقتضاه يفرحون بما أنزل إليك من القرآن الكريم؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلِكُتُبِ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١/٢] ، وهم جماعة من اليهود كعبد الله ابن سلام وأصحابه، وجماعة من النصارى وهم ثمانون رجلاً من الحبشة واليمن ونجران.

ومن الأحزاب، أي ومن جماعة أهل الكتاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، مثل كعب بن الأشرف اليهودي، والسيد والعاقب أسقفَي نجران وأتباعهم، من ينكر بعض ما جاءك من الحق، وهو ما لم يوافق شرائعهم أو ما حَرَفوه منها.

وأمام هذا الانقسام في الرأي بين اليهود والنصارى بالنسبة إلى القرآن الكريم ذكر تعالى طريق النجاة والسعادة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ أي قل يا محمد: إِنَّمَا بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، فإلى سبيله وطاعته وعبادته أدعو الناس، وإليه وحده مرجعي ومصيري ومصيركم للجزاء والحساب.

وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ٦٤/٣] .

والآية تشير إلى مبدأ التوحيد ورفض الشرك، كما تشير إلى مبدأ البعث والحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب، كذلك أنزلنا عليك القرآن الكريم محكماً لا زيغ فيه، معرباً بلسان قومك، ليسهل عليهم فهمه وحفظه. وهذا دليل على أن كل رسول أرسل بلغة قومه، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤/١٤] .

وأراد بالحكم: أنه يفصل بين الحق والباطل، ويحكم في الأمور، مبيّناً الحلال والحرام، والشرائع والأنظمة المؤدية إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى على سبيل الافتراض: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ولئن اتبعت آراءهم وجاملتهم، كالتوجه إلى قبلتهم في بيت المقدس بعد تحويلها إلى البيت الحرام، فليس لك ناصر ينصرك من الله، ولا حافظ ولا مانع يمنع عنك العقاب، وينقذك من العذاب. وهذا تعريض بهم على طريقة: (إياك أعني واسمعي يا جارة) وهو وعيد شديد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة، بعدما عرفوا الدين الحق، وهو أيضاً حسم وقطع لأطماع الكفار، وتوبيخ للمؤمنين على الثبات في دينهم. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد: الأمة.

ثم ردّ الله تعالى على طعن المشركين على النبي ﷺ بتعدد الزوجات، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ أي وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشراً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ولهم ذرية وأولاد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١٨/١١٠] ، وفي الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّي فليس منّي»، وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التّطهر، والنكاح، والسواك، والحناء».

أما تعدد زوجات النبي بعد سن الأربع والخمسين - وهي سن تضعف فيه عادة الرغبة إلى النساء - فكان من أجل نشر الدعوة الإسلامية، وما تقتضيه المصلحة في التأليف بين القبائل العربية، وضرب المثل في الأخلاق والعدل بين الزوجات والرفاة ببعض النساء تعويضاً عن زوجها الذي فقدته في الجهاد أو غيره.

ثم رد الله على طعنهم بعجزه عن تلبية ما اقترحوه من آيات فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾.

أي وما صح لرسول ولم يكن في وسعه أن يأتي قومه بمعجزة أو خارق للعادة، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقد جاءكم القرآن الكريم معجزة خالدة على ممر الزمان، فيه تحد وإفحام يثبت كونه من عند الله تعالى.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ لكل حادث وقت معين وزمن محدد، فالآيات تأتي في وقتها لحكمة وفي زمن يعلمه الله، وكل شيء عنده بمقدار: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الفر: ٤٩/٥٤)، فقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة كتاب مكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسَقَّرٌ﴾ [الأنعام: ٦٧/٦]. وقال الزمخشري: لكل وقت حكم يكتب على العباد، أي يفرض عليهم ما يقتضيه صلاحهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات. فشرائع الأنبياء السابقين كموسى وعيسى عليهما السلام، ثم شريعة محمد ﷺ جاءت فيما يناسب عصورها، وأعمار الناس وآجالهم وأرزاقهم وحديث أعمالهم لها أوقات محددة لا تتقدم ولا تتأخر كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤/٧].

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي ينسخ الله ما شاء وما يستصوب نسخه من الشرائع، ويثبت بدله ما أراد إثباته وما رأى المصلحة في إثباته، وهو

القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، أو يتركه غير منسوخ.

أو يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل كل كتاب، وهو اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه، أو عنده الذي لا يتغير منه شيء، أو علم الله وجميع ما يقع في صحف الملائكة لا يكون إلا موافقاً لما ثبت فيه، فهو الأُم لذلك.

قال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت». وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء: الخلق والخلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة.

قال ابن كثير: ومعنى الآية أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء^(١)، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» وفي رواية الحاكم «الدعاء يرد القضاء، وإن البر يزيد في الرزق، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض».

والخلاصة: إن الآية عامة في جميع الأشياء، والمحو والإثبات وارد فيها، وأصل الكتاب لا يتغير، واستثناء السعادة والشقاوة والخلق والرزق؛ لأنها أمور لا تتغير، وهي مما لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ عن النبي ﷺ، فإن صح فالقول به يجب^(٢).

(١) تفسير ابن كثير: ٥١٩/٢

(٢) تفسير القرطبي: ٣٢٩/٩

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - الجنة مخلوقة أعدّها الله للمتّقين، وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

٢ - ثمر الجنة لا ينقطع، وظلّها لا يزول، وهذا ردّ على الجهميّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى.

٣ - النار أيضاً مخلوقة أعدّها الله للكافرين المكذّبين، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤/٢] .

٤ - بعض اليهود والنصارى كابن سلام وسلمان الفارسي، والذين جاؤوا من الحبشة يفرح بالقرآن الكريم، لتصديقه كتبهم. ويفرح بذكر الرحمن لكثرة ذكره في التوراة.

قال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أول ما نزل، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه، ساءهم قلّة ذكر الرحمن في القرآن، مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد، فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيِّلَةَ الْكَذَّابِ؛ فنزلت: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٥ - ومن الأحزاب يعني مشركي مكّة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس، أو هم العرب المتحرّبون على النبي ﷺ، من ينكر بعض ما في القرآن

الكريم؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السماوات والأرض.

٦ - دعوة النبي ﷺ الناس مقصورة على الدَّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى الإيمان بالبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس، وأرجع في أموري كلها.

٧ - كما أنزل الله تعالى الكتب على الرُّسل بلغاتهم، كذلك أنزل القرآن الكريم إلى النبي ﷺ عربيًّا، أي بلسان العرب. والمراد بالحكم: ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي: القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم.

٨ - من اتَّبَعَ أهواء المشركين في عبادة ما دون الله تعالى، وفي الاتجاه إلى غير الكعبة، بعد أن قام الدَّلِيل العلمي القاطع على صدق رسالة القرآن الكريم والنبي ﷺ، ليس له ناصر ينصره، ولا واقٍ يمنع من عذابه.

٩ - الأنبياء قاطبة بشر، يقضون ما أحلَّ الله من شهوات الدُّنيا، ولهم زوجات وأولاد، وإنما التخصيص بالوحي.

١٠ - آية ﴿وَحَمَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ تدلُّ على التَّرجيب في النِّكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبَتُّل، وهو ترك النِّكاح، وهذه سنة المرسلين، كما نصَّت عليه هذه الآية، والسُّنة واردة بمعناها، قال ﷺ فيما رواه البيهقي وهو ضعيف: «تزوَّجوا فَإِنَّي مَكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمِ» وقال فيما رواه الطبراني عن أنس، وهو ضعيف: «من تزوَّج فقد استكمل نصف الإيمان، فليَتَّقِ الله في النِّصْف الباقي». ومعنى ذلك أَنَّ النِّكاح يُعْفُ عن الزَّنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله ﷺ عليهما الجنة، فقال فيما رواه الموطأ وغيره: «من وقاه الله شرَّ اثنتين، وَلَجَّ الجنة: ما بين لحييه، وما بين رجليه»، وتقدم حديث الصَّحَّاحين عن أنس: «إِنِّي لَا خَشَاكُمَ لِلَّهِ، وَأَتَقَاكُمَ لَهُ، لَكُنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي».

١١ - ليس للرّسول بإرادته أن يأتي بمعجزة خارقة للعادة، وإنّما ذلك بإذن الله ومشيئته.

١٢ - لكل أجل كتاب، أي لكل أمر قضاء الله كتاب عند الله تعالى. يحو الله من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به، ويثبت ما يشاء، أي يؤخّره إلى وقته. وعنده أصل الكتاب الذي لا يتغيّر منه شيء، فتزول العذاب على الكفار، ونصر المؤمنين لهما وقت معيّن مخصوص.

والحو يشمل الأقدار، والدُّعاء يفيد في ردّ القدر، وقد يحرم الإنسان الرّزق بسبب ذنب يرتكبه، وقد يزداد عمره بصلة الرّحم وبرّ الأقارب. وقد تقدّم في الصّحيحين عن أبي هريرة حديث: «من سرّه أن يُيسّط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه».

وأصول الأشياء لا تتغيّر: وهي الخلق والخلق، والأجل والرّزق، والسّعادة والشّقاوة. والذي في علم الله ثابت لا يتبدّل، مثل قيام السّاعة، وأجل بقاء النّاس في القبور وكل ما كتب من الآجال وغيرها.

سئل ابن عباس عن أمّ الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلّقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبدّل في علم الله تعالى.

وقال عكرمة: يحو ما يشاء بالتوبة جميع الذّنوب، ويثبت الذّنوب حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٠].

والخلاصة: عقيدتنا هي أنه لا تبدّل لقضاء الله تعالى، وهذا الحو والإثبات مما سبق به القضاء. والقضاء منه ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثّابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو المحو. ويكون الحو إما بالدُّعاء أو بصلة الرّحم وبرّ الأقارب، أو بالذّنوب المقترف. ويشمل الحو نسخ

الشَّرائع، فقد تنسخ شريعة بأخرى، كالنسخ بالقرآن لما عداه، لمصلحة وحكمة تقتضيها، ونسخ التوجه إلى بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة، ونحو ذلك.

والكل بقضاء الله وقدره، والأمور مرهونة بأوقاتها.

مهمة الرّسول تبليغ الشريعة

والله شاهد له ومحاسب وحاكم بين
العباد ومحبط مكر الكفار

﴿وَإِنْ مَا زُرَيْتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلْمُ الْكَفَرِ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ ۝٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ الْكِتَابِ ۝٤٣﴾

القراءات:

﴿وَسِعِلْمُ الْكَفَرِ﴾: قرئ:

١- (وسيعلم الكافر) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (وسيعلم الكفار) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ الْكِتَابِ﴾: ﴿وَمَنْ﴾: إما اسم موصول، و﴿عِنْدُ﴾: صلته، وإما نكرة موصوفة، و﴿عِنْدُ﴾: الصفة. ومحله: إما الجرّ عطفاً على

لفظ المجرور في قوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾، وإما الرِّفْع عطفاً على موضعه؛ لأن موضعه الرِّفْع؛ لأن تقديره: كفى الله. وذلك مثل: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣/٣٥] إما بالجرّ حملاً على اللفظ، أو بالرِّفْع حملاً على الموضع. ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ مرفوع بالظرف ﴿عِنْدَهُ﴾ لأن الظرف إذا وقع صلة أو صفة فإنه يرفع كما يرفع الفعل. ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ محل ذلك النصب على الحال، أي يحكم نافذاً حكمه.

البلاغة:

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة، أي ليس لك إلا صفة التبليغ.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِنْ مَا﴾ فيه إدغام نون. «إن» الشرطية في «ما» المزيدة. ﴿نُرِيَتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب في حياتك، وهو فعل الشرط، وجوابه محذوف، أي فذاك. ﴿أَوْ نَتُوفِّيَتَكَ﴾ قبل تعذيبهم. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ ما عليك إلا البلاغ. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ إذا صاروا إلينا، فنجازيهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أهل مكة. ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي أرض الحياة التي يعيشون فيها. ﴿أَطْرَافَهَا﴾ جوانبها، والنقص منها بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ في خلقه بما يشاء. ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد ولا مبطل له، والمعقب: الذي يتعقب الشيء فيطله بالتقد، ويقال لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يتابع غريمه المدين بالطلب، والمعنى: أنه حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره. ﴿وَهُوَ سَكْرِعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسبهم عما قريب في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم بأنبيائهم، كما مكروا بك. والمكر: إرادة الشيء في خفية. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي لا يؤبه بتدبير دون تدبيره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعدّ جزاءها، وهذا هو المكر «التدبير» كله؛ لأنه يأتيهم به من حيث لا يشعرون. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ المراد به كل كافر. ﴿لَمَنْ عُقِبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة، أ لهم، أم للنبي ﷺ وأصحابه.

﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي. ﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ الْكِتَابِ﴾ أي المطلع على حقيقة الكتاب الإلهي من مؤمني اليهود والنصارى. ومن هاهنا: لا ابتداء الغاية.

للمناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى اقتراح المشركين إنزال آيات واستعجال العذاب، ذكر هنا احتمال وقوع ما تُوعَدُوا به، وبيان أن وظيفة الرسول ﷺ التبليغ، وأن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت، بفتح المسلمين جوانب الأرض، وأن الله يحكم في خلقه ما يريد.

ثم أبان أن مكر هؤلاء المشركين ومن تقدّمهم لا يضرّ المسلمين شيئاً، فالتصرّ سيكون لهم، والهزيمة والعذاب لغيرهم.

ثم ردّ الله على اليهود الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ بأنه شاهد له بالصدق، وحسبه شهادة الله ومن آمن من أهل الكتاب.

التفسير والبيان:

إن أريناك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد أعداءك المشركين وغيرهم من الحزبي والكنال في الدنيا، أو توفيئك قبل أن نريك ذلك، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك، وإنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به،

وليس عليك التوصل إلى صلاحهم، فإنما علينا حسابهم وجزاءهم على الخير والشر، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦] .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي أنسي هؤلاء المشركون في مكة أو شكوا أنا نأتي الأرض، ففتحتها لك أرضاً بعد أرض، وتنتصر عليهم، وتمتد رقعة الإسلام، وتتقلص رقعة الكفر، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٤] .

وتدل الآية في نطاق العلم الحديث على كون الأرض مفلطحة بيضاوية، ليست كرة تامة التدوير، بل هي ناقصة الأطراف.

وأما في الماضي فيراد بالآية كما أوضحت ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ [الأحقاف: ٤٦/٢٧] . وقال ابن عباس: المراد موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والأخيار. ولكن اللائق الرأي الأول، كما قال الواحدي.

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي والله يقضي القضاء المبرم، ولا يرد حكمه التافذ، فلا راد لقضائه، ولا يستطيع أحد أن يطعن فيه أو يبطله أو ينقضه، ومن حكم الله تعالى أن الأرض يرثها عباده الصالحون بالعدل والإصلاح والعمران.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي والله محاسب عباده قريبا في الآخرة، وعقابه آتٍ لا محالة، فلا تستعجل عقابهم، فإن الله معذبهم في الآخرة بعد أن عذبهم في الدنيا بالقتل والأسر والخزي والذل والنكال.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ على مكائد قومه، وتصيير له على أذاهم، فإن النصر له في النهاية حتماً، أي لقد مكر الكفار السابقون برسلمهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، وعذبوهم، كما فعل التمرود بإبراهيم، وفرعون بموسى، واليهود بعبسى، وكما فعلت عاد وثمود وإخوان لوط، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، أي دبر لهم ما أوقعهم في الهلاك بسبب ظلمهم وفسادهم.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي لا يؤبه بتدبير دون تدبيره، ولا يضر مكر الماكرين إلا بإذنه تعالى، ولا يؤثر إلا بمشيئته وتقديره، فلا خوف إلا منه.

وهذا كقوله تعالى في مكر المشركين بالنبي ﷺ قبيل الهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠/٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٠-٥١/٢٧].

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي إنه تعالى عالم بجميع الشرائر والضمائر، وسيجزى كل عامل بعمله، فينصر أوليائه، ويعاقب الماكرين.

وهذا وعيد شديد وتهديد لكل كافر ماكر، وتسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ أي وسيحقق الكفار يوم القيامة لمن العاقبة الحمودة من الفريقين: المؤمنين والكافرين، حيث تكون العاقبة لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا النصر، وفي الآخرة الجنة.

ثم رد الله على منكري نبوة النبي ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ

كَفَرُوا» أي يقول الكافرون الجاحدون نبوتك: لست رسولا مرسلًا من عند الله، تدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتنفذهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة الله الواحد الأحد، ومن الظلم والفساد إلى العدل والصلاح.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هل تجدون في الإنجيل رسولا؟»، قال: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ الآية.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ قل يا محمد لهم: حسبي وكفايتي أن الله شاهد لي بصدق رسالتي، ومؤيد دعوتي، بما أنزله علي من القرآن المعجز، ومن الآيات البينات الدالة على صدقي، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (التفح: ٤٨/٢٨).

وكفاني أيضاً بعد شهادة الله شهادة علماء أهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنصارى، بما وجدوه لديهم في التوراة والإنجيل من بشارة برسالي، وعلامات لا تنطبق على من سواي، وهم عبد الله بن سلام - اليهودي الأصل - وأصحابه.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه، منهم عبد الله بن سلام، والجارود، وغميم الداري، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

وذلك كما دلت آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ رَبِّنَا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦/٢).

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إنّ مهمّة الرّسول مقصورة على إبلاغ الرّسالة للأمة، وليس عليه هداهم وصلاحهم.

٢ - الله تعالى هو الذي يحقّق الأحداث. والوقائع، فينجز الوعد والوعد، وينزل العقاب الشّديد متى شاء، وقد يكون ذلك في حال حياة النّبي ﷺ أو بعد وفاته.

٣ - الله تعالى هو المتكفل القائم بحساب العباد على ما قدّموا من خير أو شرّ.

٤ - إنّ امتداد رقعة الإسلام واتّساع الفتوحات الإسلامية، وانحسار الكفر وتضييق رقعة بلاد الكافرين بيد الله تعالى وحده.

٥ - إنّ الأرض ليست تامة الكروية، وإنّما هي مفلطحة بيضاوية ناقصة الأطراف والتكوير.

٦ - لا رادّ لقضاء الله تعالى ولا معقّب لحكمه، ولا يستطيع أحد تعقيب حكمه بنقص أو نقض أو إبطال أو تغيير.

٧ - الله تعالى سريع الحساب من العباد، أي الانتقام من الكافرين، سريع الثّواب للمؤمن.

٨ - تخيب أو تفشل كل مخططات الأعداء الكافرين ومكائدهم أمام تدبير الله تعالى، ولا يضرّ مكرهم إلا بإذنه تعالى، وفي هذا تسليّة للنّبي ﷺ، وشدّ من عزيمته، ويبيّن أنّ التصرّ في النهاية له، وأنّ الدائرة ستدور على الكفار.

٩ - يعلم الله ما تعمل به كل نفس من خير وشرّ، فيجازي عليه.

٦٠ - سيتحقق الكفار لمن العاقبة المحمودة، أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة، وهذا تهديد ووعد.

٦١ - إن إنكار مشركي العرب واليهود رسالة النبي ﷺ وقولهم له: لست بنبي ولا رسول، وإنما أنت متقول، لما لم يأتهم بما اقترحوا من الآيات، إن إنكارهم لا يغض من الحقيقة شيئاً، ولا يغير من الواقع، وكفى بالله شهيداً على صدقه، وحسبه شهادة مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وغميم الداري، والتجاشي وأصحابه.

لكن قال ابن جبير: السورة مكية، وابن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة، فلا يجوز أن تحمل الآية على ابن سلام، فمن عنده علم الكتاب جبريل، وهو قول ابن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضحاك: هو الله تعالى.

وأما من قال: إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبي ﷺ بصدقه. والكتاب على هذا هو القرآن الكريم^(١).

ويجوز أن يكون المراد به: الذي حصل عنده علم التوراة والإنجيل، يعني: أن كل من كان عالماً بهذين الكتابين، علم اشتماهما على البشارة بمقدم محمد ﷺ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب، كان شاهداً على أن محمداً ﷺ رسول حق من عند الله تعالى^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٣٣٦/٩ - ٣٣٧

(٢) تفسير الرازي: ٧٠/١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة إبراهيم لاشتمالها على جزء من قصة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، يتعلّق بحياته في مكّة، وصلته بالعرب وإسماعيل، وأنّ إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت الحرام، وأنهما كانا يدعوان الله تعالى بالهداية، وأن إبراهيم دعا أن يحبّه وبنيه عبادة الأصنام، وأن يرزق زوجته وابنه إسماعيل اللذين أسكنهما في مكّة من الثمرات، وأن يجعله هو وذريته مقيمي الصلاة، وذلك في الآيات [٣٥ - ٤١].

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة امتداد لما ذكر في سورة الرعد، وتوضيح لما أجمل فيها، فكل منهما تحدّث عن القرآن، ففي سورة الرعد ذكر تعالى أنه أنزل القرآن حكماً عربياً [الآية ٣٧]، وهنا ذكر حكمة ذلك والغاية من تنزيل القرآن، وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله [الآية: ١].

وكل منهما ذكر فيه تفويض إنزال الآيات الكونية إلى الله وبإذنه، فقال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد:

[٣٨/١٣] ، وهنا ذكر ذلك على لسان الرسل: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١/١٤] .

وفي كليهما ذكرت الآيات الكونية من رفع السماء بغير عمد ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر، وجعل الرّواصي في الأرض، وخلق الثمرات المختلفة الطعوم والألوان.

وتعرضت الشورتان لإثبات البعث، وضرب الأمثال للحقّ والباطل، والكلام على مكر الكفار وكيدهم وعاقبته، والأمر بالتوكل على الله تعالى.

ما اشتملت عليه هذه السورة:

اشتملت سورة إبراهيم على ما يأتي:

١ - إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله وبالرسل وبالبعث والجزاء، وإقرار التوحيد، والتعريف بالإله الحقّ خالق السماوات والأرض، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، واتحاد مهمة الرسل ودعوتهم في أصول الاعتقاد والفضائل وعبادة الله والإنقاذ من الضلال.

٢ - الوعد والوعيد: ذم الكافرين ووعيدهم على كفرهم وتهديدهم بالعذاب الشديد، ووعد المؤمنين على أعمالهم الطيبة بالجنان [الآية ٢]، والآية ٢٣، والآيات ٢٨ - ٣١].

٣ - الحديث عن إرسال الرسل بلغات أقوامهم، لتسهيل البيان والتفاهم [الآية ٤].

٤ - تسلية الرسول ﷺ ببيان ما حدث للرسل السابقين مع أقوامهم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، والتذكير بعقابهم، كما في الآيات [٩ - ١٢]، والآيات [١٣ - ١٨].

٥ - ابتدأ من بين قصص بعض الأنبياء المتقدمين عليهم السلام بمحاورة موسى لقومه ودعوته إياهم لعبادة الله تعالى [الآيات ٥ - ٨].

٦ - دعوات إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام لأهل مكة بالأمان والرزق وتعلق القلوب بالبيت الحرام، وتجنبيه وذريته عبادة الأصنام، وشكره ربه على ما وهبه من الأولاد بعد الكبر، وتوفيقه وذريته لإقامة الصلاة، وطلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين [الآيات ٣٥ - ٤١].

٧ - بيان مشهد من مشاهد الحوار بين أهل النار في عالم الآخرة [الآيات ١٩ - ٢٣].

٨ - ضرب الأمثال لكلمة الحق والإيمان وكلمة الباطل والضلال بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة [الآيات ٢٤ - ٢٧].

٩ - التذكير بأحوال القيامة وتهديد الظالمين وبيان ألوان عذابهم [الآيات: ٤٢ - ٥٢].

١٠ - بيان الحكمة من تأخير العذاب ليوم القيامة، وهو ما ختمت به السورة [الآيتان: ٥١ - ٥٢].

الغاية من إنزال القرآن ودم الكافرين وكون الرسول بلسان قومه

﴿الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

القراءات:

﴿صِرَاطٍ﴾:

وقرأ قبل (سراط).

﴿الْحَمِيدِ ، اللَّهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (الحميد، الله).

الإعراب:

﴿الرَّ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الر، وإما في موضع نصب على تقدير: الزم أو اقرأ الر، وتكون جملة: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ مفسرة.

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ﴿كَتَبَ﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا كتاب. و﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾: جملة فعلية في موضع رفع صفة ﴿كَتَبَ﴾. ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ بدل من قوله ﴿إِلَى النُّورِ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ بالجر بدل من قوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ ويقرأ بالرفع، فيكون مبتدأ، وما بعده خبره، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو الله الذي له ما في السماوات. ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ نعت للكافرين.

﴿عَوَجًا﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال. وقيل: إنه مفعول (يبغون) واللام محذوفة من المفعول الأول، تقديره: ويبغون لها عوجاً.

﴿فِيضُلُّ اللَّهُ﴾ مرفوع على الاستئناف والاقتطاع من الأول.

البلاغة:

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعارة، استعار الظلمات للكفر والضلال، والنور للهدى والإيمان. ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ جناس اشتقاق.

﴿فِيضُلُّ﴾ و﴿يَهْدِي﴾ بينهما طباق.

(الحَمِيد) و(شَدِيد) و(بَعِيد) فيها سجع.

المفردات اللغوية:

﴿الرَّ﴾ الابتداء بالحروف الهجائية في بعض السور لبيان طبيعة تكوين القرآن وأنه من جنس الحروف التي ينطق بها العرب، فهي للتحدي وبيان إعجاز القرآن، وأنه من كلام الله، بدليل العجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، بالرغم من تكوينه من حروف اللغة العربية. ﴿كَتَبْتُ﴾ أي هو كتاب. ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من أنواع الضلال والكفر. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى والإيمان. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره وتيسيره وتسهيله وتوفيقه. ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الغالب، المحمود المثني عليه من نفسه ومن عباده. وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له. والتخصيص بالوصفين المذكورين للتنبيه على أنه لا يذل سالكه، ولا يخيب سابله.

﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً. ﴿وَوَيْلٌ﴾ هلاك وعذاب. ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان، واعتناق دين الإسلام. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون السبيل معوجة، أو يطلبون لها زيفاً واعوجاجاً وانحرافاً عن الحق ليقدحوا فيه. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي الكافرون ضلوا عن الحق وانحرفوا عنه. ﴿بِلِسَانٍ﴾ بلغة. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ليفهمهم ما أتى به، ويوضح لهم ما أمروا به، فيفقهوه عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوه لغيرهم، فإنهم أولى الناس بالدعوة، وأحق بالإنذار.

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ فيخذله عن الإيمان. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق له. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، فلا يغلب على مشيئته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، فلا يهدي ولا يضل إلا لحكمة.

التفسير والبيان:

هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، لتخرج الناس به مما هم فيه من ظلمات الكفر والضلال والغي والجهل، إلى نور الإيمان والهدى والرشد، بما اشتمل عليه من أصول الحكم السديد، والدعوة إلى الحياة الكريمة والمدنية والحضارة السامقة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩/٥٧].

وقد دلت الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلاً من عند الله تعالى.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه وتيسيره، فهو الهادي بإرسال نور الهداية إلى قلوبهم. لكن أسند الفعل ﴿لِنُخْرِجَ﴾ إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمبلغ.

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى الطريق المستقيم، طريق الله العزيز الذي لا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه، وأمره ونهيه، والصادق في خبره.

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ أي الإله الذي له كل ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبداً وتصريفاً وتديباً. وتكرار هذه الصفة كثيراً في القرآن للتنبيه على عظمة الخالق، ولإعمال النظر في المخلوقات، والإفادة منها.

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هلاك وعذاب شديد يوم القيامة لمن كفر برسالتك وجحد بوحدانية الله. وهذا وعيد شديد لهم.

ثم وصفهم الله تعالى بصفات ثلاث بقوله:

١ - ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ أي الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة، ويقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها.

٢ - ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ويمنعون من اتباع الرسل، ويعوقون عن الإيمان بالله، ويصرفون عن الإسلام كل من أراد.

٣ - ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة، منحرفة عن الحق، لتوافق أهواءهم وأغراضهم، وهي في واقعها مستقيمة في نفسها لا تقبل الانحراف عن الحق. والسبيل: تذكر وتؤنث.

قال في الكشف: الأصل في الكلام أن يقال: ويبغون لها عوجاً، فحذف الجار وأوصل الفعل.

ومن أمثلة ذلك في العصر الحديث الانصراف عن تطبيق الحدود الشرعية والقصاص، بحجة قسوتها، وعدم ملاءمتها لروح العصر، ومنافاتها للإنسانية: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

[الكهف: ٥/١٨] . وقد أدى هذا الاتجاه إلى كثرة الجرائم، حتى إنه في كل ثانية يقع في بريطانيا مثلاً خمسة عشر ألف جريمة، وأما في أمريكا فأكثر من ذلك.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك الكفار الموصوفون بتلك الصفات السابقة في ضلال بعيد كل البعد عن الحق، وفي جهل سحيق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح ولا فلاح.

وبعد أن بين تعالى مقاصد القرآن وأثره في الهداية، بيّن أنه سبيل ميسر للاهتمام به، لكونه بلغة قوم الرسول، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ﴾ هذا من لطفه تعالى أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤/٤١] وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه».

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي إنه بعد البيان وإقامة الحجة على الناس يكون الناس فريقين: فريق يضلّه الله عن وجه الهدى، لإيغاله في الكفر واجترأحه السيئات والآثام، وعناده، وفريق يهديه الله إلى الحق، ويشرح صدره للإسلام، فيتبع سبيل الرشاد. وهذا كلام مستأنف وليس بمعطوف على ﴿يُضِلُّ﴾ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين، لا للإضلال.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله سبحانه القوي الذي لا يغلب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والحكيم في صنعه وأفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، فلا يفعل شيئاً إلا على وفق الحكمة والعلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ﴾ دليل على أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وأن مهمته إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والهدى والعلم، وذلك بتوفيق الله إياهم ولطفه بهم. وفيه إنعام على الرسول بتفويضه هذا المنصب العظيم، وعلى الناس لإرساله لهم من خلصهم من ظلمات الكفر، وأرشدهم إلى نور الإيمان.

٢ - قال المعتزلة: في هذه الآية دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات ثلاث:

أحدها - إخراج الكفر من الكافر بالكتاب.

وثانيها - أنه أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ.

وثالثها - الإخراج من الكفر بالكتاب بتلاوته عليهم ليتدبروه وينظروا فيه، فيتوصلوا إلى كونه تعالى عالماً قادراً حكيماً، وإلى أن القرآن معجزة صدق الرسول ﷺ، فيقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع، باختيارهم.

قال أهل السنة: إن المؤثر الأول في صدور الفعل من العبد وترجيح جانب الوجود على جانب العدم هو الله تعالى.

وفعل العبد مخلوق لله تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾ أي بمشيئته وتخليقه.

٣ - طرق الكفر والجهل والبدعة كثيرة، وطريق الخير واحد؛ لأنه تعالى قال: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فعبّر عن الجهل والكفر بالظلمات وهو جمع، وعبّر عن الإيمان والهداية بالنور، وهو لفظ مفرد.

٤ - قدم ذكر العزيز على الحميد؛ لأن الواجب أولاً في العلم بالله: العلم بكونه تعالى قادراً، ثم العلم بكونه عالماً، ثم العلم بكونه غنياً عن الحاجات، والعزيز: هو القادر، والحميد: هو العالم الغني.

٥ - الله ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً، وهذا يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو البتة؛ لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء، وبما أن كل ما في السماوات فهو ملكه، فهو منزّه عن الحصول في جهة فوقية. وأما قوله تعالى: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦/٦٧] فالمراد به سلطانه وقدرته.

وتدل الآية أيضاً على الحصر، أي كل ما في السماوات والأرض له، لا غيره، وهو يدل على أنه لا مالك إلا الله، ولا حاكم إلا الله عز وجل.

ولهذا عطف عليه وعيد الكفار بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لأنهم تركوا عبادة الله تعالى الذي هو مالك السماوات والأرض وما فيهما، إلى عبادة ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، ويخلق ولا يخلق، ولا إدراك لها ولا فعل.

٦ - استحقاق الكافرين الهلاك والعذاب في نار جهنم لصفات ثلاث: هي تفضيلهم أو إثارة الدنيا على الآخرة، ومنعهم الناس من الوصول إلى سبيل الله ودينه، وهو المنهج القويم والطريق المستقيم، وطلبهم لسبيل الله زيفاً وميلاً وأعوجاجاً، لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، فهم في ضلال بعيد عن الحق.

٧ - من فضل الله وتيسيره الاهتداء بهدأته إرسال كل رسول إلى قومه بلغتهم، ليسين لهم أمر دينهم، ليفهموا منه شرائع الله، ويفقهوها عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوها لغيرهم.

وإرسال جميع الرسل بلغة قومهم يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل، وهو يدل على أن اللغات حاصلة بالاصطلاح، وليست توقيفية، كما ذكر الرازي.

٨ - قوله: ﴿فِيضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ رد على القَدَرِيَّة في نفوذ المشيئة، وإخبار بأن الضلال والهداية من الله تعالى، فهو تعالى يضل من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته حسبما يعلم من استعداد العبد واختياره، وليس على ذلك الرسول غير التبليغ والتبيين، ولم يكلف أن يهدي، بل الهدى بيد الله على ما سبق قضاؤه.

وقال الزمخشري على طريقة الاعتزال: والمراد بالإضلال: التخليه ومنع الألفاف، وبإلهادية: التوفيق واللفظ، وكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان^(١).

ويؤكد الرأي الأول لأهل السنة ما روي: أن أبا بكر وعمر أقبلًا في جماعة من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فقال ﷺ: «ما هذا؟» فقال بعضهم: يا رسول الله، يقول أبو بكر: الحسنات من الله، والسيئات من أنفسنا، ويقول عمر: كلاهما من الله، وتبع بعضهم أبا بكر، وبعضهم عمر، فتعرف الرسول ﷺ ما قاله أبو بكر، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه، ثم أقبل على عمر، فتعرف ما قاله، وعُرف البشر في وجهه. ثم قال: «أقضي بينكما كما قضى به إسرائيل بين جبريل وميكائيل، قال جبريل مثل مقاتلك يا عمر، وقال ميكائيل مثل مقاتلك يا أبا بكر، فقضاء إسرائيل: أن القدر كله خيرته وشره من الله تعالى، وهذا قضائي بينكما»^(٢).

ثم ذكر الرازي تأويلات ثلاثة للآية، بعد أن قال: لا يمكن حمل الآية على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد^(٣):

(١) الكشف: ١٧١/٢

(٢) تفسير الرازي: ٨٠/١٩

(٣) المرجع السابق ٨١

الأول - أن المراد بالإضلال: هو الحكم بكونه كافراً ضالاً، كما يقال: فلان يكفر فلاناً ويضله، أي يحكم بكونه كافراً ضالاً.

والثاني - أن يكون الإضلال: عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار، والهداية: عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة.

والثالث - أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله، ولم يتعرض له، صار كأنه أضله، والمهتدي لما أعانه بالألطف، صار كأنه هو الذي هداه.

والخلاصة: إنه لا إيجاب على الإيمان والكفر، ولا يخلق العبد كافراً أو لا يخلق الكفر في العبد، وإنما المراد بالإضلال والهداية بيان طريقي الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البند: ٩٠/١٠).

مهمة الرسول موسى عليه السلام ونصائحه لقومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنْبِئِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ أَنْفُسَكُمْ وَيَسَاءَلُكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لَمِنَ شَكْرَتِكُمْ لَا زَيْدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾

الإعراب:

﴿أَنْتَ أَخْرِجْ﴾ ﴿أَنْتَ﴾: إما أن يكون لها موضع من الإعراب، وهو النصب، وتقديره: بأن أخرج قومك، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به، وإما ألا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مفسرة بمعنى أي، مثل ﴿أَنْ أَمْسُوا وَأَصْبِرُوا﴾ (ص: ٢٨/٦).

﴿وَيَذِخُّكَ أَيْنَاءُكَ﴾ أُنْى بالواو هنا، ليدل على أن الثاني غير الأول، وحذفت في غير هذا الموضع في سورة البقرة، ليدل على البدل، وأن الثاني بعض الأول، أي أنه في سورة البقرة تفسير لما سبق، وهنا غير تفسير، وإنما التذبيح نوع آخر من العذاب غير الأول.

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ الجملة واقعة في جواب القسم لتقدمه على الشرط.

البلاغة:

﴿شَكَرْتُمْ﴾ ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صيغة مبالغة فيهما.

﴿لَشَدِيدٌ﴾ ﴿حَمِيدٌ﴾ فيهما سجع.

المفردات اللغوية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الجمهور على أنها الآيات التسع التي أجزاها الله على يد موسى عليه السلام، يعني

اليد والعصا وسائر معجزاته. وقيل: هي الجراد والقمل والضفادع ونحوها. ﴿أَنْتَ أَخْرَجْتَ﴾ أي بأن أخرج، أو بمعنى أي كأن في الإرسال معنى القول. ﴿قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل. ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الكفر والجهالات. ﴿إِلَى السُّورِ﴾ الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به ﴿وَذَكَّرَهُمْ﴾ عظمهم. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وقائمه التي وقعت على الأمم السابقة، وأيام العرب: حروبها. وقيل: بنعمائه وبلائه. ﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على البلاء والطاعة. ﴿شَكُورٍ﴾ أي كثير الشكر للنعم.

وأمرناه قائلين له : أخرج قومك من الظلمات إلى النور، أي ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

وعظمهم بأيام الله، أي بوقائعه التي مرت على أمم الأنبياء السابقين، وكيف نجا المؤمنون، وهلك الكافرون!!

أو ذكرهم بنعم الله عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره، وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، وغير ذلك من النعم.

روى الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ قال: بنعم الله تعالى.

وأيام الله في عهد موسى: إما محنة وبلاء: وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده، وإما نعمة كإنجائهم من عدوهم، وقلق البحر لهم، وإنزال المن والسلوى عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في ذلك التذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته، وإن فيما صنعنا ببني إسرائيل حين أنقذناهم من بطش فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيئ لعبرة، لكل كثير الصبر على الطاعة والبلاء أو الضراء، شكور في حال النعمة والرفاه والسرور. قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وجاء في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء، شكر، فكان خيراً له».

فعلى المسلم أن يكون صابراً شكوراً، يصبر عند البلاء والمحنة، ويشكر عند الرخاء والنعمة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ واذكر حين قال موسى لقومه: يا قوم، تذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون، وما كانوا يذيقونكم من العذاب والإذلال، ويكلفونكم من الأعمال ما لا تطيقون، وكانوا يذبحون أبناءكم المولودين الصغار، خوفاً من ظهور ولد يكون سبباً في تدمير ملك فرعون، كما فسرت الرؤيا لفرعون مصر، وكانوا يتركون الإناث أحياء ذليلاً مستضعفات، وذلك من أعظم البلاء، فأنقذكم الله من عذابهم، وهذه نعمة عظيمة.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفيما ذكرت لكم اختبار عظيم من ربكم، سواء في حال النعمة، أو في حال النعمة، ليعرف الإنسان أشكر أم يكفر؟! كما قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥/٢١] وقال سبحانه: ﴿وَبَلَّوْهُمْ بِالْهَيْبَةِ وَالنَّسِيئَةِ لَعَلَّهُمْ يَُرْجَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨/٧].

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُهُمْ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل حين آذنتكم ربكم وأعلمكم بوعده لكم، وهو قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها.

أخرج البخاري عن أنس حديثاً فيه: «ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة».

ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وألى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُهُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/١٦٧].

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي ولئن جحدتم النعم وسترتموها، فلم تؤدوا حقها من الشكر. ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي إن عقابي أليم وقعه، شديد تأثيره وألمه، في الدنيا بزوال تلك النعم، وسلبها عنهم، وفي الآخرة بالعقاب على كفرانهم والمراد بالكفر هنا: الكفران. جاء في الحديث الثابت الذي رواه الحاكم عن ثوبان: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه».

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ أي وأعلن موسى مبدأ أساسياً في الدين، حينما لاحظ منهم أمارات الكفر والعناد، وهو أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الإنسان، أما الله فهو غني عن عباده، فقال: إن تجحدوا نعمة الله عليكم أنتم وجميع من في الأرض من الثقلين: الإنس والجن، فإن الله غني عن شكر عباده. وهو المحمود، وإن كفر به من كفر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنَّا﴾ [الزمر: ٣٩/٧] وقال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦٤/٦] وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩/٧].

جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل - أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص الخيط إذا دخل البحر».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

أ - إن المقصود من بعثة الأنبياء واحد، وهو أن يسعوا في إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلالات إلى أنوار الإيمان والهدايات.

ب - على الناس الاعتبار والاتعاظ بأيام الله تعالى، أي الوقائع العظيمة التي وقعت فيها، وتذكر نعم الله عليهم.

وذلك جمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فالترغيب والوعد:

أن يذكرهم النبي موسى أو غيره ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسول، في سائر ما سلف من الأيام. والترهيب والوعيد: أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل، ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا، ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

٣ - إن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صباراً شكوراً. ففي حال المحنة والبلية يصبر، وفي حال المنحة والعطية يشكر، وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب ألا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين: الصبر أو الشكر. روي عن النبي ﷺ أنه قال فيما رواه البيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «الإيمان نصفان: نصف في الصبر، ونصف في الشكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٤ - لقد تعرض بنو إسرائيل في زمن فرعون للحالتين: المحنة والنعمة، ولكنهم لم يقدروا النعمة ولم يشكروها، ولم يصبروا عند المحنة، وذلك ملحوظ من نصح موسى عليه السلام لهم حينما رأى أمارات الكفر والعناد فيهم.

٥ - إن شكر النعمة سبب لزيادتها، وكفرانها سبب لزوالها، فالآية نص واضح في أن الشكر سبب المزيد، وأن جحود النعمة سبب النقص والزوال، فمن اشتغل بشكر نعم الله، زاده الله من نعمه، ومن كفر بنعمة الله فهو جاهل، والجهل بالله سبب لأعظم أنواع العقاب والعذاب، فالمراد بقوله: ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ الكفران، لا الكفر.

والشكر: هو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم، مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة.

والخلاصة: الاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، والاشتغال بشكر النعمة يستوجب زيادتها.

٦ - إن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران. أما المعبود المشكور فإنه متعال عن أن يتنفع بالشكر أو يستنصر بالكفران.

والمراد من قول موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ﴾ بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات، لمنافع عائدة إلى العابد، لا لمنافع عائدة إلى المعبود، بدليل قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ﴾ أي لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغني، وهو المحمود في جميع الأحوال.

بعض أخبار الرسل السابقين مع أممهم

﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُم بِنُوحٍ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٤﴾﴾

القرءات:

﴿رُسُلُهُمْ﴾:

وقرأ أبو عمرو: (رُسُلُهُم).

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ :

وقرأ ورش، وحمة وقفاً (ويؤخركم).

﴿سُبُلَنَا﴾ :

وقرأ أبو عمرو (سُبُلنا).

الإعراب:

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَنُوكِلَ﴾ ﴿وَمَا﴾ : استفهامية في موضع رفع مبتدأ، وخبره ﴿لَنَا﴾ وأن في ﴿إِلَّا﴾ في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، تقديره: وما لنا في ألا نتوكل على الله، وهو في موضع نصب على الحال، والتقدير: أي شيء ثبت لنا غير متوكلين.

البلاغة:

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿الَّذِي يَأْتِيَكُمْ بُرْءًا﴾ استفهام تقرير، وهذا من كلام موسى عليه السلام، أو كلام مستأنف أو مبتدأ من الله. ﴿بُرْءًا﴾ خبر. ﴿وَتَمُودُ﴾ قوم صالح. ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة اعتراضية، والمعنى: أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله، لذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: كذب النسابون. ﴿يَأْتِيَنِي﴾ الحجج الواضحة على صدقهم. ﴿فَرْدُورًا﴾ أي الأمم. ﴿أَيُّدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي فعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. ﴿بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي في زعمكم. ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، أي الاضطراب والقلق. ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام إنكاري، أي لا شك في توحيده، للدلائل الظاهرة عليه. ﴿فَاطِرٍ﴾

خالق ومبدع على أكمل نظام. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى طاعته. ﴿مَنْ دُتُّوبِكُمْ﴾ ﴿مَنْ﴾: صلة زائدة، أو تبعيضية، والمراد على الأول: أن الإيمان أو الإسلام يغفر به ما قبله، وعلى الثاني يكون القصد هو إخراج حقوق العباد.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ بلا عذاب ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أجل الموت. ﴿قَالُوا إِنْ﴾ أي ما. ﴿عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام. ﴿يَسْأَلُنِي مُبِينٌ﴾ أي برهان أو حجة ظاهرة قوية على صدقكم. ﴿إِنْ نَحْنُ﴾ أي ما نحن. ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالنبوة. ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا﴾ وما ينبغي. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمره؛ لأننا عبيد مربيون لله تعالى، فليس في قدرتنا الإتيان بالآيات. وفيه دليل على أن النبوة عطائية، وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى. ﴿فَلْيَسْتَوِ كَلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يثقوا به، في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عموماً الأمر للإشعار بما يوجب التوكل، وقصدوا به أنفسهم أولاً.

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلُ﴾ أي لا مانع لنا من ذلك، ولا عذر لنا في ألا نتوكل عليه. ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ التي نعرفه بها ونعلم أن الأمور كلها بيده. ﴿وَلَنُصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذِيْتُمُونَا﴾ على أذاكم، وهو جواب قسم محذوف، أكدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم الناشئ عن إيمانهم.

المناسبة:

هذا تذكير بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسول، بعد تذكير موسى لقومه بما أنعم الله عليهم من نعم، ودفع عنهم من نقم، وبما وعد به تعالى الشاكرين بالزيادة، والجاحدين بالعذاب، وبأن الكفران لا يضر إلا أهله.

ويحتمل أن يكون المذكور هنا من تنمة كلام موسى وخطاباً منه لقومه، ليخوفهم بمثل هلاك من تقدم، وهذا رأي ابن جرير، ويحتمل أن يكون ذلك خطاباً جديداً مستأنفاً من الله لقوم موسى وغيرهم، لتذكيرهم أمر القرون

الأولى. والمقصود إنما هو العبرة بأحوال المتقدمين، وهذا حاصل على التقديرين.

إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ، وهذا قول الرازي، وقال ابن كثير: والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه، وقصصه عليهم، لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة^(١).

التفسير والبيان:

ألم يأتكم خبر أقوام من قبلكم: وهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول، مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل. وضمير الخطاب في ﴿يَأْتِكُمْ﴾ لأمة النبي ﷺ، وضمائر: جاءتهم رسلهم، فردوا أيديهم في أفواههم للكفار.

جاءت هؤلاء رسلهم بالمعجزات والحجج والدلائل الواضحة الباهرة القاطعة، التي تثبت صدقهم ودعواهم الرسالة عن الله، لإخراجهم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والهداية.

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي إلا أن هؤلاء القوم عضوا أناملهم من شدة الغيظ، لما جاءهم به الرسول، أي اغتاظوا منهم وعادوهم ونفروا منهم، كما فعل العرب مع النبي ﷺ بدليل قوله سبحانه: ﴿عَصَوْا عَنْكَ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩/٣]. والمراد أنهم كذبوا واستهزؤوا ولم يؤمنوا. فهو - كما قال أبو عبيدة والأخفش - مثل.

(١) تفسير الرازي: ٨٨/١٩، تفسير ابن كثير: ٥٢٤/٢

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي وقالوا للرسول: إنا كفرنا بما أرسلتم به من الآيات، أي كفرنا بدلائلها على صدق رسالتكم.

وإنا لفي شك موقع في الريبة والقلق والاضطراب مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده، وترك ما سواه.

وتساءل الرازي بقوله: فإن قيل: كيف تنازلوا إلى الشك في صحة قولهم بعد تصريحهم بالكفر برسالتهم؟ ثم أجاب بأنهم أرادوا أنهم كافرون في الواقع وينحو جازم متيقن بدعوتهم، فإن لم تكن جازمين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أفى وجود الله شك؟! فإن الفطرة تقرّ بوجوده، ومجبولة على الإقرار به. وهل في تفرده بالآلوهية ووجوب عبادته شك وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له؟! فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تقرّبهم من الله زلفى.

وأما دليل الفطرة فثابت كما أخبر النبي ﷺ بقوله فيما رواه ابن عدي والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه».

وأما دليل الخلق فهو أمر حسي مشاهد، وهو ما نبّه إليه بقوله مباشرة: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كيف تشكون في الله، وهو خالق السماوات والأرض ومبدعهما على غير مثال سبق، وعلى هذا النظام المحكم البديع؟!!

وهو تعالى عدا كونه خالقاً وهو دليل وجوده، هو كامل الرحمة لقوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان الكامل به، من أجل أن يغفر لكم في الدار الآخرة ذنوبكم - على أن من صلة زائدة - أو

بعض ذنوبكم - على أن من تبعية - فهو يغفر الذنوب المتعلقة به، لا الذنوب التي لها صلة بحقوق العباد. وهذا هو الغرض الأول من الدعوة إلى الإيمان.

ويلاحظ أنه تعالى في كل موضع ذكر فيه مغفرة ذنوب الكفار، جاء بلفظ (من) وفي كل موضع ذكر فيه مغفرة ذنوب المؤمنين، جاء بغير لفظ (من). مثال الحالة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوهُ وَأَطِيعُوا، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣١-٣٢/٧١] وقوله سبحانه: ﴿يَقُومَنَّ أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحاف: ٣١/٤٦] لأنه يدعوهم إلى الإيمان الذي هو أصل الدين.

ومثال الحالة الثانية: قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١/٣] وقوله عزت أسماؤه: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١١-١٢/٦١] لأنه بعد توافر الإيمان لا تكون المغفرة إلا إلى المعاصي.

﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنَ الْإِلَهِ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا هو الغرض الثاني من الدعوة إلى الإيمان، وهو الإمهال والتأخير إلى وقت محدد معين في علم الله تعالى، وهو منتهى العمر، إن حدث الإيمان، وإلا عاجلكم الهلاك والعذاب بسبب الكفر.

فالإيمان يتحقق به رحمتان أو نعمتان وهما مغفرة الذنوب والإمهال إلى نهاية الأعمار.

ثم ذكر الله تعالى ردّ تلك الأمم على رسلها من نواح ثلاث هي:

أ - ﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نرّ منكم معجزة، فما أنتم إلا مثلنا في البشرية، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصصون بالنبوة دوننا، ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً، لبعث من جنس أفضل.

٢ - ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي وأنتم تريدون أن تترك ما وجدنا عليه آبائنا، بهذه الدعوى التي لا دليل على صحتها.

٣ - ﴿فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي فأتونا بأمر خارق نقترحه عليكم، أو بحجة ظاهرة تدلّ على صحة ادعائكم النبوة، فنحن لا نؤمن إلا بالحقّيات، أما خلق السماوات والأرض وما فيهما من عجائب، فلا نعقلهما، ولا يصلح دليلاً على صحة ما تقولون.

ثم ذكر الله ما ردّ به الأنبياء على شبهاتهم الثلاث، وهو المصادقة والتسليم للشبهتين الأولى والثانية، وإسناد الأمر إلى الله في الثالثة، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ أي قالت الرسل للأمم: ما نحن إلا بشر مثلكم كما ذكرتم، نأكل ونشرب وننام ونمشي في الأسواق ونبحث عن الرزق، ولكن الله سبحانه يتفضل على من يشاء من عباده بالرسالة والنبوة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤/٦] وقد منّ الله علينا بالرسالة.

وأما تقليدكم الآباء لمجرد كونهم آباء فهذا شيء لا يقبله العقل.

وأما طلبكم الحجة والبرهان على صدق رسالتنا، والإتيان بسلطان على وفق ما سألتم، بالرغم من المعجزات التي ظهرت لنا، فأمره إلى الله، ولا تتمكن من الإتيان بسلطان إلا بمشيئة الله وإرادته، ولا تقدر عليه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على جميع المؤمنين أن يتكلوا على الله في جميع أمورهم، لدفع شرّ عدوهم، والصبر على معاداتهم.

ثم أكدوا اعتمادهم على الله فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ أي وكيف لا نتوكل على الله الذي هدانا إلى سبيل المعرفة، وأرشدنا إلى طريق النجاة؟! وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ أي ولنصبرن على إيدائكم لنا بالكلام السيئ والأفعال السخيفة.

ثم مدحوا التوكل فقالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليستمر وليثبت المتوكلون من المؤمنين على توكلهم على الله، وليثقوا به، وليتحملوا كل أذى في سبيله، ولا يبالوا بشيء صعب مهما كان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - على الناس الاعتبار بأحوال المتقدمين الذين كذبوا رسلهم، وسخروا منهم، واستهزؤوا بهم، فكان عاقبتهم الدمار والهلاك.

٢ - كانت مواقف الكفار من أنبيائهم على مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى - أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام، وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى.

والمرتبة الثانية - أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

والمرتبة الثالثة - أنهم أخيراً وعلى الأقل صاروا شاكين مرتابين في صحة النبوة.

وكل ذلك دليل منهم على عدم الاعتراف بالنبوة.

٣ - أقام الأنبياء الأدلة على وجود الله ووحدانيته بأن الفطرة السليمة شاهدة على ذلك، وبأن خلق السماوات والأرض على غير مثال سبق الدال على معنى الحدوث والإبداع والتسخير للمخلوقات دليل قاطع على وجود الخالق وألوهيته وتفرد بوجوب العبادة له، فلا يبقى شك لدى عاقل بوحدانية الله تعالى، بعد أن تبين وأقرت الأمم بأنه الخالق لجميع الموجودات، وبأنه يستحيل وجود شيء كدار مثلاً يتميز بالإبداع والترتيب والنظام والنقش الجميل من دون موجد عالم حكيم، وإذا كان الله هو الخالق، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له.

٤ - الله تعالى فاطر السماوات والأرض متصف أيضاً بكمال الرحمة والكرم والجود، بدليل أن الغرض من دعوة الناس إلى الإيمان به وبتوحيده أمران: الأول - مغفرة الذنوب والخطايا والآثام، وفيها تطهير للنفس يوتئها لدخول الجنان التي لا يستحقها إلا الأطهار. والثاني - تأخير الناس إلى نهاية أعمارهم وهو الموت، فلا يعذبهم في الدنيا.

٥ - كانت أجوبة الكفار واهية مشتملة على شبهات ثلاث:

الأولى - التساوي في الإنسانية يمنع وجود التفاضل بينهم، بأن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله، مطلعاً على الغيب، مخالطاً لزمرة الملائكة، والباقيون غافلون عن كل هذه الأحوال، وهذا معنى قولهم: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

والثانية - التمسك بطريق التقليد: وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم متفقين على عبادة الأوثان، ويبعد أنهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وهذا معنى قولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

والثالثة - المعجز لا يدل على الصدق أصلاً، وإن سلم أنه يدل على الصدق، فإن ما جاء به الرسل أمور معتادة، وليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر، وهذا معنى قولهم: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

٦ - كان ردّ الأنبياء على تلك الشبهات الثلاث ما يأتي:

أما الشبهة الأولى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فجوابها أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأنه منصب يمنّه الله به على من يشاء من عباده.

وأما الشبهة الثانية: وهي توافق السلف على ذلك الدين، مما يدل على كونه حقاً، فجوابها: أن التمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب عطية

من الله تعالى وفضل منه، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية، وأن يحرم الجمع العظيم منها.

وأما الشبهة الثالثة: وهي أنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتت بها، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية، فالجواب عنها أن الأشياء التي طلبتموها أمور زائدة، والحكم فيها لله تعالى، فإن أظهرها فله الفضل، وإن لم يخلقها فله العدل، ولا يطلب منه شيء بعد توافر قدر الكفاية.

٥ - لا سبيل أمام الأنبياء إلا الصبر على الأذى والاعتصام بالله وتفويض الأمر إليه والتوكل التام عليه، فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والتوكل على الله والاعتماد على فضله محقق للنصر والفتوح.

وفائدة تكرار الأمر بالتوكل: أمر أنفسهم به أولاً ثم أمر أتباعهم به، فبعد أن أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهو يدل على أن الأمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً.

تهديد الكفار لرسولهم بالطرد

أو الردة والوحي بأن العاقبة للأنبياء

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَسَخَنَّاكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَرُسُقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيَّتٍ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿الرَّيْحُ﴾:

وقرأ نافع (الرَّيَّاح).

الإعراب:

﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ الهاء: إما عائدة على الكافر، ويكون معنى ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ أي قدامه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ﴾ [الكهف: ١٨/٧٩] أي قدامهم؛ وإما عائدة على العذاب، ويكون المعنى: إن وراء هذا العذاب عذاباً غليظاً.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ في إعرابه أربعة أوجه:

الأول - أنه مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا.

الثاني - أنه مبتدأ على تقدير حذف مضاف، والخبر: ﴿كَرَّمَادٍ﴾، تقديره: مثل أعمال الذين كفروا مثل رماد.

الثالث - أنه مبتدأ أول، و﴿أَعْمَلُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ، و﴿كَرَّمَادٍ﴾: خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول.

الرابع - أنه مبتدأ، و﴿أَعْمَلُهُمْ﴾: بدل منه، و﴿كَرَّمَادٍ﴾: خبره.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ﴿عَاصِفٍ﴾ في تقديره وجهان: إما في يوم ذي عُصُوف، كقولهم: رجل نابل ورامح أي ذو نَبَلٍ ورمح، وإما في يوم عاصف ريحه، كقولك: مررت برجل حسن وجهه، ثم يحذف الوجه إذا علم المعنى.

البلاغة:

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ استعارة لما يغشاه من كرب وشدة، فقد يوصف المغموم بأنه في حالة موت.

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾ «أَوْ لَنَعُودَنَّ﴾ بينهما طباق.

(وَعِيد) و(عَيْد) و(صَدِيد) و(الْبَعِيد) فيها سجع ﴿أَعْمَلْتُمْ كَرَمًا أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ تشبيه تمثيلي، وجه الشبه فيه: متزع من متعدد.

للفردات اللغوية:

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم للرسول أو عودتهم إلى ملتهم ﴿أَوْ لَنَعُودَنَّ﴾ لتصيرن، وتستعمل عاد بمعنى صار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولن آمن معه، فغلبوا الجماعة على الواحد. ﴿فِي مَلَّتِنَا﴾ الملة: الشريعة والدين ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي أوحى إلى الرسل ﴿لَنُهْلِكََنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، على إضمار القول، أو على إجراء الإيحاء مجراه؛ لأنه نوع منه.

﴿الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِفَ الْأَرْضِ وَمَفَازَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧/٧]. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي وقيامي للحساب أو مقامه بين يدي ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء أي استنصر الرسل بالله على قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق. ﴿وَحَابَ﴾ خسر وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كل متعظم متكبر عن طاعة الله، معاند للحق المخالف له، بجانب له.

﴿مَنْ وَرَّاهُ﴾ أي أمامه، ومن بين يديه، وبعد ذلك ينتظره ﴿جَهَنَّمَ﴾ يدخلها ﴿وَسُقَىٰ﴾ فيها ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ هو ما يسيل من جلود أو جوف أهل النار، مختلطاً بالقبح والدم ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ سقيته جرعة بعد جرعة، بالشدة والقهر ﴿يُسِغُّهُ﴾ يستطيه أو يزدرده، لقبحه وكرهته ﴿وَيَأْتِيهِ

الْمَوْتُ) أي تأتبه أسبابه وتحيط به من كل جانب، وتغشاه أنواع الكروب والعذاب (وَمِنْ وَرَائِهِ) بعد ذلك العذاب (عَذَابٌ غَلِيظٌ) قوي متصل، وشديد غير منقطع.

(مَثَلٌ) صفة (أَعْمَلُهُمْ) الصالحات كصلة الرحم والصدقة على الفقراء في عدم الانتفاع بها (كِرْمَادٌ) أثر النار بعد احتراقها (عَاصِفٌ) شديد الريح، أي أعمالهم كالرماد الذي عصفت به الرياح العاتية، فجعلته هباءً منثوراً، لا يقدر عليه (لَا يَقْدِرُونَ) أي الكفار (يَمَتًّا كَسَبُوا) عملوا في الدنيا (عَلَى شَيْءٍ) لا يجدون له ثواباً، لعدم توافر شرطه: وهو الإيمان. (ذَلِكَ) إشارة إلى ضلالهم مع حساباتهم أنهم محسنون (هُوَ الضَّلَالُ) الهلاك (الْبُعِيدُ) الغاية في البعد عن الحق.

المناسبة:

بعد أن أرشد الله تعالى الأنبياء إلى التوكل عليه والاعتماد على حفظه وصيانيته، في دفع شرور أعدائهم، ذكر موقف الكفار العصبي المبالغ في السفاهة، وهو التهديد بأحد أمرين: الإخراج والطرده من البلاد، أو العودة إلى الملة الوثنية القديمة المتوارثة، وهذا هو الشأن في كل زمان، يعتمد فيه أهل الباطل والفسق والظلم على القوة والبطش لقوتهم، ويستغلون ضعف أهل الحق لقتلتهم. ولكن قدرة الله فوق كل شيء، والله غالب على أمره، فجعل العاقبة والنصر في النهاية للمتقين وأن الهزيمة للكافرين، وأعلمهم بالعذاب في الآخرة، وتلك سنة الله في خلقه مع كل الأمم والرسل.

ثم ضرب الله مثلاً لأعمال الكافرين، بالرماد الذي عصفت به الرياح الهوج، فجعلته هباءً منثوراً، لعدم توافر شرطه وهو الإيمان.

التفسير والبيان:

هذا تطور طبيعي للحوار والصراع بين الرسل والأمم الكافرة، فبعد أن أفلست الأمم في مناقشتها، وهزمت حجتها أمام حجة الرسل وبيانهم، لم يجدوا سبيلاً إلا تأزم الوضع والدخول في صدام وعمل عدواني، فتوعدوا رسلهم بأحد أمرين:

إما الطرد والإخراج والتفني من البلاد، وإما العودة إلى ملتهم وشرعهم الموروث عن الآباء والأجداد، كما قال قوم شعيب له ولبن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف: ٨٨/٧] وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧٦] وقال سبحانه في إلقاء النبي إلى الهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠/٨] .

والسبب في هذا التهديد والوعيد: اغترار الكفار بقوتهم وكثرتهم، وقلة عدد المؤمنين وضعف عددهم. وأما قولهم ﴿لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فلا يعني أن الرسل كانوا وثنيين، وإنما كانوا في ظاهر الأمر معهم، من غير إظهار مخالفة، فظن القوم أنهم كانوا على دينهم.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فأوحى الله إلى رسله قائلاً لهم: لنهلكن الظالمين المشركين، ولنسكنكنكم أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم، عقوبة لهم على تهديدهم وإنذارهم بالطرد والإبعاد.

وهذا تهديد ووعد من الله للمشركين في مقابل تهديدهم الرسل، وشتان بين التهديدين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجِئَانَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧١] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [٧٢] ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [٧٣] [الصافات: ٣٧/١٧١-١٧٣] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]

٢١/٥٨ وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١٥٠] ﴿[الأنبياء: ١٠٥/٢١] وآيات كثيرة أخرى في المعنى.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي ذلك الموحى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك الأمر حق، لمن خاف موقفى للحساب أو مقامه بين يدي، وخاف وعيدي بالعذاب والعقاب، فخشي لقائي، واتقاني بطاعتي، وتجنب سخطي وغضبي. وهذا هو سبب النصر والوحي المذكور.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي واستنصرت الرسل بالله على أممهم أو أقوامهم، أي على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩/٨] والمراد أنهم سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩/٧] والضمير يعود للرسل أو الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: يعود الضمير على الكفار، أي واستفتح الكفار على الرسل، ظناً منهم بأنهم على الحق، والرسل على الباطل. وقيل: للفريقين، فإنهم كلهم سألوه أن ينصر الحق، ويهلك المبطل، كما قال تعالى في شأن استفتاح الأمم على أنفسها: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢/٨] .

ولكن كانت النتيجة أن النصر للمتقين والخيبة والخسارة والهلاك للمشركين، فقال سبحانه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي وخسر وهلك كل متكبر متعاطم عن طاعة الله، معاند للحق، منحرف عنه، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [٢٤] ﴿مَنَعَ لِلنَّحِيرِ مُعْتَدٍ مُرِبٍ﴾ [٢٥] ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [٢٦] [ق: ٢٤/٥٠-٢٦] .

﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ أي أمام هذا الجبار العنيد جهنم له بالمرصاد تنتظره،

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ١٨/٧٩] أي أمامهم.

﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي ليس له في النار شراب إلا ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم من ماء مختلط بالقيح والدم، كما قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٥٧-٥٨] وهذا أي الحميم حار في غاية الحرارة، وهذا أي الغساق بارد في غاية البرد والنتن.

﴿يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ أي يتحساه جُرعة بعد جُرعة، ولا يكاد يزدرده، لكرهته، وسوء طعمه ولونه وريحه، مما يدل على التألم حين ابتلاعه، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١٥] وقال: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٩] .

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي وتأتيه أسباب الموت من الشدائد وألوان العذاب من كل جهة، ولكنه لا يموت، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦] .

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهو دائم غير منقطع، كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤَانُ الشَّيْطَانِ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَائِلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوًّا مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الصافات: ٢٧/٦٤-٦٨] .

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿١٤﴾ طَعَامُ الْإِثْمِ ﴿١٥﴾ كَالْمُهْلِ ﴿١٦﴾ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٧﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿١٨﴾ حَذُوهُ فَأَعْيَتُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ [الدخان: ٤٣/٤٤-٥٠] .. وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُجُودٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمِهِمْ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ [الواقعة: ٤١/٥٦-٤٤] ، وقال تعالى: ﴿هَذَا جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُصَلِّونَهَا فِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥١﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٢﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٣﴾﴾ [ص: ٥٥/٥٨-٥٥] .

وبالرغم مما سيلاقه الكفار من العذاب في نار جهنم، فإنهم يأسفون على أعمالهم الصالحة في الدنيا التي ضاعت هدرًا، ولم تنفعهم في الآخرة، ف ضرب الله المثل لأعمالهم فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾.

أي مثل أعمالهم الصالحة كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين، يوم القيامة، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، كمثل الرماد الذي اشتدت به الريح العاصفة، في يوم عاصف أي ذي ربح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدرُوا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يقدرُون على جمع هذا الرماد، في هذا اليوم، ذلك هو الضلال البعيد، أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، فهو مغرق في البعد عن الحق، حتى فقدوا ثوابه، لفقدهم شرط قبوله وهو الإيمان.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣/٢٥] وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٧/٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دللتنا الآيات على الفوائد التالية:

١ - لا قيمة لتهديد الكفار رسلهم بالطرد من البلاد أو الإكراه على العودة إلى الملة القديمة، أمام تهديد الله، فالأول يتبدد، والثاني يتحقق، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده.

٢ - استحقاق النصر على الأعداء منوط بالخوف من جلال الله وهيبته وموقفه للحساب في الآخرة، وخشيته من عذابه وبأسه ونقمته.

٣ - سواء استفتح الرسل أو الكفار أو الفريقان، أي طلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم، فإن النصر في النهاية للمتقين والرسل؛ لأنهم المؤمنون حق الإيمان بالله ربهم الذي يطلبون منه النصر، وتكون الخيبة والخسارة والهلاك للكافرين المتجبرين المتعاضمين عن طاعة الله، المعاندين للحق، والمجانين له؛ لأنهم كفروا بالله، وتنكروا لطاعة الله، وانحازوا عن منهج الحق وسبيله.

٤ - وكما يكون الهلاك للكافرين في الدنيا، يكون أمامهم العذاب في نار جهنم تنتظرهم، فمن بعد الهلاك في الدنيا، يأتي أيضاً العذاب في الآخرة.

٥ - ماء أهل جهنم هو صديد أهل النار الذي يسيل من أجسامهم من البقيح والدم، والكافر يتحساه جرعة بعد جرعة، لا مرة واحدة، لمرارته وحرارته، ويؤلم إساغته، فهو لا يكاد يسيغه، ولكن تحصل الإساغة بصعوبة، لقوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٢١) ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (٢٢) [الحج: ٢٢/٢٠-٢١].

وتأتي أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحتة ومن قدامه وخلفه، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦/٣٩].

ومن أمامه عذاب شديد متواصل الآلام من غير فتور.

هذه أوصاف عذاب الكفار، في الظاهر والباطن، أولها - ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ

جَهَنَّمَ» ثانيها - «وَسَقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ»
وثالثها - «وَبَيَّاتِهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» ورابعها -
«وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ».

٦ - لا جدوى ولا فائدة في الآخرة لأعمال الكفار الطيبة التي عملوها في الدنيا، مثل إطعام الطعام، وإغاثة الملهوف، وفعل المعروف، والصدقة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، ولا ثواب على عمل البر في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر، وذلك هو الخسران الكبير.

فقد ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار، في أنه يحققها كما تحقق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف: شدة الريح، وإنما كان ذلك؛ لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى، فلم يتوافر فيها أساس القبول وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له.

دليل وحدانية الله ووجوده وقدرته على معاد الأبدان

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

القرءات:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (خالق السماوات والأرض).

البلاغة:

﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بينهما طباق.

للفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر أي تعلم يا مخاطب، وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته، وهو استفهام تقرير، والرؤية هنا: رؤية القلب؛ لأن المعنى: ألم يتتبع علمك إليه؟ ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بخلق، أي بالحكمة والوجه الذي يحق أن يخلق عليه ﴿بُدْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلکم أي يخلق خلقاً آخر مكانكم، وهو مرتب على كونه خالقاً للسموات والأرض، استدلالاً به عليه، فإن من خلق أصولهم، ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع، قادر أن يبدلهم بخلق آخر، ولم يمتنع ذلك عليه، كما قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ٢٠ بممتنع أو متعسر، فإنه قادر لذاته، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن هذا شأنه كان حقيقة بأن يؤمن به ويعبد، رجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى أن أعمال الكفار تصير باطلة ضائعة، بين أن الإبطال والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية، فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك، وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لحكمة وصواب؟!!

التفسير والبيان:

ينجز الله تعالى عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثابتة والسيارة، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها المخاطب أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقا عليه، ومن قدر على خلقهما على هذا النحو البديع، فهو قادر على إفنائكم إذا خالفتم أوامره، والإتيان بخلق جديد سواكم على غير صفتكم، وما ذلك بممتنع أو متعذر عليه، بل هو سهل عليه.

ونظير الآية كثير في القرآن منها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ يَخْلُقْهُمْ يَفْقَدِرْ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣/٤٦].

ومنها: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۖ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۚ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

الآية للاستدلال بها على قدرته تعالى، فمن خلق السماوات والأرض على ما يوافق الحكمة والصواب، قادر على إعادة الخلق بعد الموت، فالله هو القادر على الإفناء، كما هو قادر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه يعدمكم، ويأت بخلق جديد أفضل وأطوع منكم، إذ لو كانوا مثل الأولين، فلا فائدة في الإبدال، وما ذلك على الله بمتنع متعذر.

والمقصود أن الكفار أغرقوا في الكفر بالله، مع قيام الأدلة على قدرته وحكمته تعالى، وأنه الحقيق بالطاعة، الذي يرجى ثوابه ويخاف عقابه في دار الجزاء.

الحوار بين الأشقياء يوم العذاب والمناظرة بين الشيطان وأتباعه وظفر السعداء بالجنة

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْبُوسٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿لِي عَلَيْكُمْ﴾:

وقرأ باقي السبعة (لي عليكم).

﴿بُصْرِخِي﴾:

وقرأ حمزة (بمصرخي).

الإعراب:

﴿بُصْرِخِي﴾ فتحت الياء لإدغام ياء الجمع في ياء الإضافة، بعد حذف نون الإضافة، على لغة من يفتحها، وبقيت الفتحة على حالها، أو أن فتحها لالتقاء الساكنين على لغة من أسكنها، فياء الإضافة فيها لغتان: الفتح والإسكان. وعلى قراءة كسر الياء فهو عدول إلى الأصل، وهو الكسر، ليكون مطابقاً لكسر همزة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾.

﴿أَنْ دَعَوْتُمْ﴾ أن وصلتها: في موضع نصب على الاستثناء المنقطع. ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمْ﴾ ما: مصدرية أي يشارككم.

﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا﴾ جملة فعلية في موضع نصب صفة جنات. ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من ﴿الَّذِينَ﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ﴿الَّذِينَ﴾ وهي حال مقدرة، أو حال من الضمير في ﴿خَالِدِينَ﴾ فلا تكون حالاً مقدرة. أو في موضع نصب على الوصف لجنات.

والهاء والميم في ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ إما تأويل فاعل، أضيف المصدر إليه، أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وإما في موضع مفعول لم يسم فاعله (نائب فاعل) أي يُحيون بالسلام، على معنى: تُحييهم الملائكة بالسلام.

البلاغة:

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ طباق السلب.

﴿أَجْزَعَنَا﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي الخلائق، أي ظهوروا بالبراز: وهي الأرض المتسعة، أي مجتمع الناس في ذلك اليوم، ومنه امرأة برزة أي تظهر للرجال، والتعبير فيه وفيما بعده بالماضي لتحقيق وقوعه. ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ الأتباع، أي ضعاف الرأي والفكر. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ المتبوعين، وهم الرؤساء الأقوياء الذين استنفروهم. ﴿بَعَاءٌ﴾ جمع تابع. ﴿مُفْنُونَ﴾ دافعون. ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأولى: للتبيين، والثانية: للتبعض. ﴿لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ لدعوناكم إلى الهدى. ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ «من»: زائدة، و﴿مَّحِيصٍ﴾: ملجأ ومنجى ومهرب.

﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس . ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لما أحكم وفرغ منه ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز ، أو وعداً أنجزه ، وهو الوعد بالبعث والجزاء ، فصدقكم الوعد . ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل وهو ألا بعث ولا حساب . ﴿فَاخْلَفْتُكُمْ﴾ قدر إبليس تبين خُلف وعده كالإخلاف منه . ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من : زائدة ، والسلطان : القوة والقدرة والتسلط ، فألجئكم على الكفر والمعاصي ، وأفهركم على متابعتي . ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ لكن . ﴿فَأَسْتَجِبْتُ لِي﴾ أسرعتني إجابتي . ﴿وَلَوْ مَوْأً أَنْفُسَكُمْ﴾ على إجابتي وإطاعتي ، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم .

﴿بِمَقَرِّكُمْ﴾ بمغيثكم ، والمستصرخ : المستغيث . ﴿يَمَّا أَشْرَكْتُمْ﴾ بإشراككم إياي مع الله . ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا . ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ، وهو قول الله تعالى . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم . ﴿يَحْيِيهِمْ فِيهَا﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ألوان عذاب الكفار في الآخرة ، ثم ذكر عقبيه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ، ذكر هنا مدى خجلهم أمام أتباعهم وافتضاحهم عندهم ، وأبان هذا بصورة محاورة بين السادة والأتباع ، ومناظرة بين الشيطان وأتباعه الإنس ، ثم ذكر جزاء المؤمنين السعداء وظفرهم بجنان الخلد .

التفسير والبيان :

وبرزت الخلائق كلها برُّها وفاجرها لله الواحد القهار في موقف الحساب ، واجتمعوا له في مكان متسع لا سائر فيه ، خلافاً لحال الدنيا حيث يظن الكفار والعصاة أن الله لا يراهم .

فقال الضعفاء ، أي الأتباع للقادة والسادة والكبراء في العقل والتفكير ،

أولئك القادة الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع الرسل : إنا كنا تابعين لكم، مقلدين في الأعمال، نأتمر بأمركم ونفعل فعلكم، فكفرنا بالله، وكذبنا الرسل متابعة لكم، فهل أنتم تدفعون عنا اليوم بعض عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا.

فأجابهم القادة المتبعون متصلين من الدفاع عنهم : لو هدانا الله لدينه الحق، ووقفنا لاتباعه، وأرشدنا إلى الخير، لهديناكم وأرشدناكم إلى سلوك الطريق الأقوم، ولكنه لم يهدنا، فحقت كلمة العذاب على الكافرين.

ثم أعلنوا يأسهم من النجاة فقالوا : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا﴾ أي ليس لنا خلاص ولا منجى مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه، أي إن الجزع والصبر سيان، فلا نجاة لنا من عذاب الله تعالى.

قال ابن كثير : والظاهر أن هذه المراجعة (أي الحوار) في النار، بعد دخولهم فيها^(١)، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ ۖ﴾ (٨) [غافر : ٤٧-٤٨] وقال تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٣٨) وَقَالَتْ أُولِنَهُمْ لِأُخْرَبَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۖ﴾ (٣٩) [الأعراف : ٣٨-٣٩] وقال تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۖ﴾ (٤٠) [الأحزاب : ٣٣-٦٨] .

(١) تفسير ابن كثير : ٥٢٨/٢

ثم ذكر الله تعالى محاورة أخرى بين الشيطان وأتباعه من الإنس، فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ أي وقال إبليس لأتباعه الإنس، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات: إن الله وعدكم بالبعث والجزاء وعد الحق على السنة رسله، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم ألا بعث ولا جزاء، ولا جنة ولا نار، فأخلفتكم موعدي، إذ لم أقل إلا باطلاً من القول وزوراً، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمِئُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠/٤] وقد اتبعتموني وتركتم وعد ربكم.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة، ولا قوة ولا تسلط فيما وعدتكم به.

﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ أي ولكن حينما دعوتكم استجبتم لي، بمجرد ذلك.

﴿فَلَا تُلْمُونِي﴾ أي فلا توجهوا اللوم إلي اليوم، ولوموا أنفسكم؛ لأنكم أسرعتم إلى إجابتي باختياركم، فإن الذنب ذنبكم؛ لكونكم لم تستمعوا إلى دعاء ربكم، وقد دعاكم دعوة الحق بالحجج والبيانات، فخالفتهم البراهين الداعية لكم إلى الصواب.

﴿مَا أَنَا بِمُفْرِخِكُمْ﴾ ما أنا بمفغيكم ولا نافعكم ولا منفذكم ومخلصكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي ولا نفعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦/٢].

﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ إني أنكرت أو جحدت اليوم بإشراككم إياي من قبل أي في الدنيا مع الله تعالى في الطاعة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤/٣٥] والمراد بذلك تبرؤه من الشرك وإنكاره له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحة: ٤/٦٠]

وقال سبحانه: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [مرم: ٨٢/١٩].

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا في الأظهر من قول الله عز وجل، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس المحكي في القرآن قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة، والمعنى: أن الكافرين في إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل، لهم عذاب مؤلم.

والمقصود تنبيه الناس إلى تبرؤ الشيطان من وساوسه في الدنيا، وحضهم على الاستعداد ليوم الحساب، وتذكر أهوال الموقف.

وبعد أن أبان الله تعالى أحوال الأشقياء، أوضح أحوال السعداء، وكلا الفريقين كانوا قد برزوا للحساب والجزاء بين يدي الله، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أي ويدخل الملائكة الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقروا بوحدانيته، واتبعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، جنات (بساتين) فيها الأنهار الجارية في كل مكان، وهم ماكثون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون منها، وذلك بإذن ربهم، أي بتوقيفه وفضله وأمره.

تحيةهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم، ويحيون بعضهم بعضاً بالسلام، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُنْتُ أَنُوبُهَا وَقَالَ لَهَا خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣/٣٩] وقال سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ دَخَلْنَا فِيهَا فَحِينًا وَسَلَّمْنَا﴾ [الفرقان: ٧٥/٢٥] ويحييهم ربهم بالسلام: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) [يس: ٥٨/٣٦] وتحية بعضهم كما قال تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠) [يونس: ١٠/١٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - العتاب والنزاع والخصام قائم بين أهل النار، فهذه محاورة بين القادة والأتباع تدل على عجز السادة عن تحقيق أي شيء لأتباعهم الذين اتبعوهم في الدنيا، فهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم من عذاب الله، ولا تحقيق أي نفع لذواتهم، فبالأولى لا يتمكنون من نفع غيرهم، والكل لا يجدون مهرباً ولا ملجأ من عذاب الله وعقابه على الكفر والعصيان، وذلك سواء صبروا على العذاب أو جزعوا وضجروا.

٢ - إقرار السادة بالضللال، فدعوا أتباعهم إلى الضلال، ولو هدوا وأرشدوا لأرشدوا غيرهم، وهذا كذب منهم، كما قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ [المجادلة: ١٨/٥٨].

٣ - أعقب الله المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفره الإنس، بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وموضوع المناظرتين واحد: وهو تبرؤ المتبوع من التابع، ولكن الشيطان كان أصدق في هذه المحاورة من الإنسان؛ لأنه أعلن أن الله وعد الناس وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لهم بما وعدهم، وأما هو فوعد الناس بخلاف ذلك وأنه لا بعث ولا جزاء، فأخلف الوعد.

٤ - قال الرازي عن آية ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْكُمُ فَأَسْتَجِبْكُمْ إِلَيَّ﴾: هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس؛ لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال، لم يكن لوسوسته تأثير ألبتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس^(١).

(١) تفسير الرازي: ١٩/١١١

ومن المعلوم أن الملائكة والشياطين هي أجسام لطيفة، والله تعالى ركبها تركيباً عجيباً، ولا يستبعد أن تنفذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة أي في بنية الإنسان.

٥ - للظالمين عذاب أليم، لا مرد له، جزاء ظلمهم، أي كفرهم، فالعصيان والكفر باختيارهم وكسبهم.

٦ - للمؤمنين المتقين جنات تجري من تحتها الأنهار، بأمر ربهم، ومشيتته وتيسيره، يحيون فيها بالسلام من الله تعالى، ومن الملائكة، وتكون تحية بعضهم بعضاً هي السلام.

٧ - كانت مواعيد الشيطان باطلة، ووعد الله هو الحق، واتبع الناس قول الشيطان بلا حجة ولا برهان، وتبرأ الشيطان منهم ومن عملهم، فليس لهم لوم عليه، إغما عليهم اللوم، وأياسهم بأنه لا نصر عنده ولا عون ولا إغاثة، بل هو محتاج إلى من ينصره، وكفر بشركهم له في الدنيا، وهذا تنبيه لهم مما سيلقونه من العذاب.

مثال الكلمة الطيبة من السعداء

ومثال الكلمة الخبيثة من الأشقياء

﴿أَلَمْ نَرِ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ مِمَّنْ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾

القرئات:

﴿أَكُلْهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أَكُلْهَا).

﴿خَيْثَ أَجْتَنَّتْ﴾:

بكسر التنوين وصلاً قرأ: أبو عمرو، وعاصم، وحزمة. والباقون بضمه.

الإعراب:

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾ أو تفسير له، و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفة للكلمة أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي كشجرة.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ تعجيب من حال الفريقين: السعداء والأشقياء.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ومثل كلمة خَيْثَ كَشَجَرَةٍ خَيْثَ في كل تشبيه مرسل مجمل.

﴿أَصْلُهَا﴾ ﴿وَفَرْعُهَا﴾ ﴿طَيِّبَةٍ﴾ و﴿خَيْثَ﴾ في كل طباق.

للفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي ألم تنظر كيف اعتمده ووضعه، والمثل: قول يشبه بقول بينهما مشابة في شيء محسوس، للتوضيح والبيان

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، والكلمة الطيبة: هي لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والشجرة الطيبة هي النخلة ﴿ثَابِتٌ﴾ في الأرض بالعروق ﴿وَفَرْعُهَا﴾ في

اَلسَّكَمَ» أي أعلاها في جهة العلو «تُؤَقِّ» تعطي «أَكْلَهَا» ثمرها «كُلَّ حِينٍ» كل وقت أقته الله تعالى لإثمارها، أي إن كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء، ويناله ثوابه كل وقت.

«يَأْذِنُ رَبِّهَا» بإرادته «وَيَضْرِبُ» ويبين لأن في هذا التشبيه زيادة إفهام وتذكير «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» لعلهم يتعظون فيؤمنوا «كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» هي كلمة الكفر «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ» هي الحنظل «أَجْتُثَّتْ» استوصلت «مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» استقرار «يَا الْقَوْلَ الثَّابِتَ» الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فلا يزلون إذا افتنوا في دينهم، كزكريا ويحيى عليهما السلام «وَفِي الْآخِرَةِ» فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في موقف الحساب وعند رؤيتهم أهوال الحشر، وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر، فحينما يسألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبیهم، يجيبون بالصواب، كما في حديث الشيخين. «وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ» الكفار الذين ظلموا أنفسهم، فلا يبتدون للحق والجواب الصواب، بل يقولون: لا ندري، كما جاء في الحديث. «وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال الأشقياء وما آل إليهم أمرهم من العذاب في نار جهنم، وأحوال السعداء وإدراكهم الفوز عند ربهم، ذكر مثلاً يبين حال الفريقين، وسبب التفرقة بينهما، بتشبيه المعنويات بالحسيات، لترسيخ المعاني في الأذهان، كما هو الشأن في القرآن.

التفسير والبيان:

ألم تعلم أيها المخاطب كيف اعتمد الله مثلاً ووضع في موضعه المناسب له

وهو تشبيه الكلمة الطيبة وهي كلمة التوحيد والإسلام ودعوة القرآن، بالشجرة الطيبة وهي النخلة الموصوفة بصفات أربع هي:

١ - كون تلك الشجرة طيبة المنظر والشكل، وطيبة الرائحة، وطيبة الثمرة، وطيبة المنفعة أي يستلذ بأكلها ويعظم الانتفاع بها.

٢ - أصلها ثابت، أي راسخ باقي متمكن في الأرض لا ينقلع.

٣ - وفرعها في السماء، أي كاملة الحال لارتفاع أغصانها إلى الأعلى، وبعدها عن عفونات الأرض، فكانت ثمراتها نقية طيبة خالية من جميع الشوائب.

٤ - تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أي تثمر كل وقت ووقت الله لإثمارها بإرادة ربها وإيجاده وتيسيره. ولما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة، كان ذلك في حكم الحين.

روي عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول: «لا إله إلا الله» وأن الشجرة الطيبة هي النخلة، وكذلك روي عن ابن مسعود أنها النخلة، وهو مروي عن أنس وابن عمر عن النبي ﷺ.

وحديث ابن عمر رواه البخاري، قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم - أو كالرجل المسلم - لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: هي النخلة».

﴿وَيَقْرِبُ إِلَهُ الْأَمْثَالِ﴾ أي وهكذا يضرب الله الأمثال للناس؛ فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وعظة وتصوير للمعاني؛ لأن تشبيه المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة يرسخ المعاني، ويزيل الخفاء والشك فيها، ويجعلها

كالأشياء الملموسة. وفي هذا لفت نظر يدعو الإنسان إلى التأمل في عظم هذا المثل، والتدبر فيه، وفهم المقصود منه.

ثم ذكر الله تعالى مثال حال كلمة الكفر، فقال: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» أي وصفة الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر أو الشرك كصفة الشجرة الخبيثة وهي شجرة الحنظل ونحوه، كما قال أنس موقوفاً فيما روى أبو بكر البزار، ومرفوعاً فيما روى ابن أبي حاتم: أن النبي ﷺ قال: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ»: هي الحنظلة، ووصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث هي:

١ - إنها خبيثة الطعم أو لما فيها من المضار، أو الرائحة وهي الحنظلة، وقيل: الثوم، وقيل: الشوك.

٢ - اجتثت من فوق الأرض، أي اقتلعت واستؤصلت، وليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

٣ - مالها من قرار، أي ليس لها استقرار، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية.

وهذه صفات في غاية الكمال، فالخبث وصف للمضار، والاجتثاث وعدم القرار وصف للخلو عن المنافع.

وبالموازنة يتبين الفرق بين كلمتي الحق والباطل، فكلمة الحق وهي كلمة التوحيد والإيمان قوية ثابتة نافعة للناس، وكلمة الباطل وهي كلمة الشرك أو الكفر ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات.

وأصحاب الكلمة الأولى هم المؤمنون، وأولو الكلمة الثانية هم الكافرون والعصاة.

ثم أخبر الله تعالى عن فوز أهل الكلمة الأولى بمرادهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ أي إن كرامة الله وثوابه ثابتان للمؤمنين في الآخرة بالقول الذي كان يصدر عنهم في الدنيا، وهو الإيمان المستقر بالحجة والبرهان في قلوبهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى.

أو إن المراد أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا بعدم تعرضهم للفتنة في دينهم بالرغم من التعذيب كلال وغيره من الصحابة، فتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم، لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناسير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد.

وتثبيتهم في الآخرة: أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم في موقف الحساب، لم يتلعثموا، ولم تحيرهم أهوال الحشر.

وقيل وهو القول المشهور: معناه الثبات عند سؤال القبر، والمراد بالحياة الدنيا: مدة الحياة، والآخرة: يوم القيامة والحساب، روى البخاري ومسلم وأحمد وبقية الجماعة كلهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. وهذا مروي أيضاً عن أبي هريرة.

وروى ابن أبي شيبة الحديث المتقدم نفسه عن البراء أنه قال في الآية: التثبيت في الدنيا: إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر، فقالا له: مَنْ ربك؟ قال: ربي الله، وقالوا: وما دينك؟ قال: ديني الإسلام، وقالوا: وما نبيك؟ قال: نبيي محمد ﷺ.

وروى أبو داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل».

قال الرازي: القول المشهور: إن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبته إياه على الحق^(١).

ثم ذكر الله تعالى مصير الكافرين بقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي ويمنع الله الكافرين عن الفوز بثوابه، أو يتركهم وضلالهم لعدم توافر استعدادهم للإيمان، وانزلاقهم في الأهواء والشهوات.

أو يجعلهم يترددون في الجواب ويتلعثمون إذا سئلوا في قبورهم عن دينهم ومعتقدهم؛ روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الكافر إذا حضره الموت، تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره، فإذا دخل قبره، أُقْعِدَ، ف قيل له: من ربك؟ لم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله تعالى ذكر ربه، وإذا قيل له: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم أبان الله تعالى مشيئته المطلقة في الفريقين فقال: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي إن شاء هدى، وإن شاء أضل. وإضلالهم في الدنيا: أنهم لا يشبتون في مواقف الفتن، وتزلُّ أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأزل. والضلal لسوء الاستعداد، والميل مع أهواء النفس.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - الكلمة الطيبة وهي الإيمان أو لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أو

(١) تفسير الرازي: ١٩/١٢٢

المؤمن نفسه: هي الثابتة الخالدة، الطيبة النافعة. روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة: الإيمان عروقتها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذي في الله نباتها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله ثمرتها». والشجرة الطيبة في الأصح: هي النخلة، ذكر الغزنوي والطبراني فيما رواه ابن عمر عنه ﷺ: «مثل المؤمن كالنخلة، كل شيء منها يتنفع به».

٢ - الأمثال والتشبيهات، وبخاصة تشبيه المعقول بالمحسوس، فيها ذكرى وعظة وعبرة، وإفهام وإيقاظ للمشاعر والضمائر، ولفت الأنظار، وشد الانتباه إليها.

٣ - الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر لا قرار لها ولا ثبات، ولا جدوى ولا نفع، ولا تعتمد على حجة مقبولة أو برهان صحيح. والشجرة الخبيثة في الأصح: شجرة الحنظل، كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وكذلك الكافر لا حجة له، ولا ثبات، ولا خير فيه، وليس له أصل يعمل عليه.

٤ - المقصود من الآية الدعوة إلى الإيمان، ورفض الشرك.

٥ - يثبت الله المؤمنين على الحق والإيمان في الدنيا، فلا يتراجعون عنه، ويثبت نفوسهم، فيلهمها الصواب والنطق بالإيمان في القبر؛ لأن الموت ما يزالون في الدنيا إلى أن يبعثوا، وكذلك يلهمها الصواب في الآخرة عند الحساب.

٦ - يضل الله الظالمين عن حجتهم في قبورهم، كما ضلوا في الدنيا بكفرهم، فلا يلقنهم كلمة الحق، فإذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري؛

فيقول المَلَكُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وعند ذلك يضرب بالمقامع (سياط من حديد، رؤوسها معوجة) على ما ثبت في الأخبار.

٧ - يفعل الله ما يشاء من عذاب قوم وإضلال قوم، وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لما وصف مُسَاءَلَةَ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يارسول الله، أ يكون معي عقلي؟ قال: نعم، قال: كُفَيْتُ إِذْنٌ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

كفران النعمة واتخاذ الأنداد

وتهديد الكافرين بالتمتع بنعيم الدنيا
وأمر المؤمنين بإقامة الصلاة والإنفاق

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْقُرْآنَ ۚ ۞ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ ۞ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۚ ۞ ﴾

القرءات:

﴿ نِعْمَتَ ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقر بالتاء.

﴿ وَيَنسَوْنَ ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمة وقفاً (ويس).

﴿لِيُصَلُّوا﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لِيُصَلُّوا).

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ :

وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي (قل لعبادي الذين).

﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لا يبيع فيه ولا خلال).

الإعراب:

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿قَوْمَهُمْ﴾ : مفعول أول، و﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ : مفعول ثانٍ.

﴿جَهَنَّمَ﴾ : بدل من ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهو ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والتأنيث.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿قَوْمَهُمْ﴾ أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾ أو منهما.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ جواب الأمر وهو (أقيموا) وتقديره: قل لهم: أقيموا يقيموا. ويجوز جزمه بلام مقدرة، تقديره: ليقيموا، ثم حذف الأمر؛ لتقدم لفظ الأمر. ويجوز كونه مجزوماً على أنه جواب ﴿قُلْ﴾ وهذا ضعيف؛ لأن الأمر للنبي بالقول ليس فيه أمر لهم بإقامة الصلاة.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منصوبان على المصدر، أي إنفاق سر وعلانية، أو على الحال، أي ذوي سر وعلانية، أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية.

البلاغة:

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بينهما طباق.

﴿الْبُورِ﴾ و﴿الْفَرَارِ﴾ و﴿النَّارِ﴾ سجع مرصع.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ تهديد ووعيد.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي بدلوا شكر نعمته كفرًا، بأن وضعوه مكانه، وهم كفار قريش ﴿وَأَحْلَوْا﴾ أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايعوهم في الكفر، بإضلالهم إياهم ﴿دَارَ الْبُورِ﴾ دار الهلاك بحملهم على الكفر، والقوم البور: هم المالكون كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢/٤٨] ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويقاسون حرما ﴿وَيْسَ الْفِرَارُ﴾ أي وبئس المقر جهنم ﴿أَنْدَادًا﴾ شركاء، جمع ند: وهو المثل والشريك والشبيه ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهو التوحيد أو دين الإسلام، وليس الضلال والإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد، لكن لما كان نتيجه جعل كالغرض ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بدنياكم قليلاً. ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ مرجعكم.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خصهم بالإضافة تنوياً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. ومقول ﴿قُلْ﴾ محذوف، دل عليه جوابه، أي قل لعبادي الذي آمنوا: أقيموا يقيموا الصلاة ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وقت السر والعلانية أو ذوي سر وعلانية، أو إنفاق سر وعلانية ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ لا فداء، بأن يبيع ما يفدي به نفسه ﴿وَلَا خِلَلٌ﴾ مخالة، أي صداقة تنفع، وذلك اليوم هو يوم القيامة.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٨):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ قال ابن عباس: هؤلاء هم كفار مكة. وأخرج الحاكم وابن جرير والطبراني وغيرهم عن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قالوا في المبذلين: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر - أو فكفيتهم - وأما بنو أمية فماتوا إلى حين.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ وهم أهل مكة، حيث أسكنهم الله تعالى حرمة الأمن، وجعل عيشهم في البسعة، وبعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وأبان أسباب وقوعهم في سوء المصير في جهنم، ثم أمرهم على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع في نعيم الدنيا، ثم أمر المؤمنين بمجاهدة النفس والهوى بالصلاة والإنفاق.

التفسير والبيان:

يدعو الله تعالى إلى التعجب من أمر كفار مكة وأمثالهم الذين وصفهم الله بصفتين هما السبب الأول في دخولهم نار جهنم وهي:

أ - ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي بدلوا شكر نعمة الله كُفْرًا، فإن شكر النعمة واجب عقلاً وشرعاً، لكنهم خرجوا على هذا الواجب، وجعلوا بدل الشكر كُفْرًا وجحوداً. وهم كفار أهل مكة، وهو المشهور الصحيح عن ابن عباس في هذه الآية، قال ابن كثير: وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها، دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

٢ - ﴿وَأَحْلَوْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي وأنزلوا قومهم الذين شايعواهم في الكفر، واتبعوهم في الضلال، دار الهلاك الذي لا هلاك بعده.

ودار البوار هي جهنم مقر العذاب التي يدخلونها ويقاسون حرها، وبئس المقر جهنم.

والسبب الثاني: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي واتخذوا لله شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، فقالوا في الحج مثلاً: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

والسبب الثالث: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي اتخذوا الأنداد أو الشركاء لتكون عاقبة أمرهم إضلال من شايعهم واتبعهم، وصرفهم عن دين الله، وإبقاءهم في مرتع الكفر. فاللام في ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام العاقبة؛ لأن عبادة الأوثان سبب يؤدي إلى الضلال؛ ولأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم، أي إن المقصود لا يحصل إلا في آخر المراتب.

ثم قال تعالى مهدياً ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ أي تمتعوا بما قدرتم عليه من نعيم الدنيا، فإن جزاءكم ومرجعكم وموئلكم إلى النار، كما قال تعالى: ﴿تَمَتَّعْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُمُ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾ [لقمان: ٢٤/٣١] وقال سبحانه: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ﴾ [يونس: ٧٠/١٠]. وسمي ذلك تمتعاً؛ لأنهم تلتذذوا به، ولأنه بالنسبة إلى عقاب الآخرة تمتع ونعيم.

ونظير الآية في أمر التهديد: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٣٩/٨].

ويعد تهديد الكفار على تمتعهم في الدنيا، أمر الله نبيه بأن يبلغ الناس ويأمرهم بإقامة الصلاة التي هي عبادة بدنية، والإنفاق في سبيله وهو عبادة

مالية، فقال: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يأمر الله تعالى عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات، والنفقة على القربات، والإحسان إلى الأبعد.

وإقامة الصلاة: أداؤها مستكملة أركانها وشروطها، مع المحافظة على وقتها، والخشوع لله في جميع أجزائها.

ويكون الإنفاق مما رزق في السرّ (أي في الخفية) والعلانية وهي الجهر، قال البيضاوي: والأحب إعلان الواجب (أي في النفقة) وإخفاء المتطوع به (أي المتبرع أو المتصدق به).

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أي وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم، من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا بيع فيه، أي لا يقبل من أحد فيه فدية، بأن تباع نفسه، ولا تفيد فيه صداقة، للصفح والعفو والتخلص من العقاب، بل هناك العدل والقسط، كما قال تعالى: ﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥/٥٧] وقال سبحانه: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣/٢] وقال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤/٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآية بيان الفرق بين فريق الكفار والمؤمنين، أما الكافرون فاستحقوا دخول دار البوار: جهنم لأسباب ثلاثة: هي تبديلهم شكر نعمة الله عليهم كفراناً وجحوداً، واتخاذ الأنداد أي الشركاء وهي الأصنام التي عبدوها، وإضلالهم الناس عن دين الله القويم، بمعنى أن عاقبتهم إلى الإضلال والضلال، ومردهم ومرجعهم إلى عذاب جهنم.

وأما المؤمنون فلهم الجنة بسبب إقامة الصلوات الخمس المفروضة، والإنفاق في سبيل الله، بأداء الزكاة الواجبة، والتطوع بالصدقات المستحبة، بإعلان الواجب، وإخفاء التطوع، كما قال تعالى ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١/٢] .

ودلت الآية على أنه لا ينفع يوم القيامة فداء ولا صداقة، وأن الطاعات الأساسية ثلاث: الإيمان بالله تعالى، وشغل النفس بخدمة المعبود في الصلاة، وصرف المال وبذله في طاعة الله تعالى، ليجد الإنسان ثواب ذلك الإنفاق في يوم لا مبايعة فيه ولا محالة، إلا المحالة التي يشترك فيها الأخلاء في عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧/٤٣] .

أدلة وجود الله والتوحيد في الكون والأنفس

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [٣٢] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [٣٣] ﴿وَمَا أَتَاكُم مِّنْ كَلِّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [٣٤]

الإعراب:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿رِزْقًا﴾ منصوب على المصدرية أو مفعول: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بيان له، وحال منه.

﴿دَائِبَيْنِ﴾ حال من الشمس والقمر، وذُكِرَ تغليباً للقمر على الشمس؛ لأن

القمر مذكر والشمس مؤنث، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث، غلب جانب المذكر على جانب المؤنث؛ لأن التذكير هو الأصل. ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بالإضافة، على تقدير مفعول محذوف، أي وآتاكم سُؤلكم من كل ما سألتُموه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦/٢٧] أي أوتينا من كل شيء شيئاً. ومن قرأ بالتثنية (كُلُّ) كان المفعول ملفوظاً به، أي وآتاكم ما سألتُموه من كل شيء. و﴿مَا﴾ ههنا: نكرة موصوفة، و﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾: جملة فعلية صفة لها.

البلاغة:

﴿لَظَلُمُوا كَفَّارًا﴾ صيغة مبالغة على وزن فعول وفعال.

للفردات اللغوية:

﴿السَّمَوَاتِ﴾ جمع سماء، ولا نعرف حقيقتها، ولكن كل ما علا الإنسان وأظله فهو سماء، ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ الرزق: كل ما يتفجع به، ويشمل المطعوم والملبوس. ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلل أو أعد ويسر. ﴿الْفُلُكُ﴾ السفن. ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه أو بمشيئته إلى حيث توجهتم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَرِ﴾ جعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم. ﴿دَائِبِينَ﴾ دائمين في الحركة أو السير، والإنارة والإصلاح، لا يفتران. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان، فالليل للنوم والسكن فيه والنهار للمعاش وابتغاء الفضل. ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ﴾ أعطاكم. ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بلسان الحال، على حسب مصالحكم. ﴿يَعْمَتَ اللَّهُ﴾ إنعامه، وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ لا تطبقوا حصرها. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ الكافر. ﴿لَظَلُمُوا كَفَّارًا﴾ أي كثير الظلم لنفسه بالمعصية وإغفال شكرها، وكثير الكفر أو الجحود لنعمة ربه.

الخاصية:

بعد أن أوضح الله تعالى أوصاف أحوال السعداء والأشقياء، أتبعه بالأدلة

الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته ووحدانيته، ليدل على وجوب شكر الصانع الموجد لها، ويقرّع الكافرين الذين أعرضوا عن التفكير في تلك النعم.

التفسير والبيان:

يعدد الله في هذه الآيات نعمه على خلقه، ويشير إلى دلائل وجوده وقدرته، وهي عشرة أدلة.

١- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾: الله هو الذي خلق السماوات سقفاً محفوظاً، وزينها بزينة الكواكب.

٢- وخلق الأرض فراشاً وما فيها من المنافع الكثيرة لكم أيها الناس.

٣- ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾: أي السحاب مطراً أحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت به الشجر والزرع، وأخرج به ما يحتاجه الإنسان من الأرزاق للأكل والعيش، بواسطة الثمار والزرع المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣/٢٠].

٤- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾: أي وذلّل لكم السفن، بأن ألهمكم صنعها، وجعلها طافية على وجه الماء، تجري في البحر من بلد لآخر للركوب والحمل، بإذن الله ومشيئته.

٥- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾: أي فجر لكم ينابيع الأنهار، وشقّ الأرض من مسافة إلى مسافة، للشرب وسقي الزروع والأشجار والبهائم وغيرها من المنافع.

٦- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾: أي ذللّهما وجعلهما

يسيران في حركة دائمة، لا يفتران ليلاً ولا نهاراً لإصلاح حياة الإنسان والنبات وغيرها كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠/٣٦] .

٨-٩- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: أي جعلهما يتعاقبان ويتعارضان، فمرة يطول الليل كما في الشتاء، ومرة يطول النهار كما في الصيف، ويقصر الآخر، وبالعكس، والنهار للسعي والكسب والمعاش وشؤون الدنيا، والليل للنوم والسيبات والسكن فيه كما قال تعالى: ﴿يُعْثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤/٧] وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الفن: ٢٩/٣١] . وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣/٢٨] .

١٠- ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم أيها البشر سؤلكم من كل ما شأنه أن يسأل، ويحتاج إليه، ويتنفع به، سواء سألتهموه أم لم تسألوه، أو أعطاكم من كل مسؤول سألتهموه شيئاً، والخطاب لجنس البشر؛ لأن الله خلق لكم ما في الأرض جميعاً، وترك استخراجها واختراع ما يكتشف منها لعقولكم بمقتضى تطور العقل البشري، وتقدم الحياة المدنية، وبالتدريج، وقد وصل الإنسان في القرن العشرين إلى قمة الاكتشاف والابتكار في مختلف المجالات، معتمداً على طاقات البخار والهواء والنفط والكهرباء والذرة وغيرها.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ أي إن أردتم تعداد نعم الله المنعم بها عليكم لا تطيقوا حصرها لكثرتها. والنعمة هنا قائمة مقام المصدر، بمعنى الإنعام، كالنفقة والإنفاق، ويدل ذلك على العموم؛ لأن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة.

والمقصود من الجملتين الأخيرتين: ﴿وَأَتَّكُم﴾ ﴿وَإِنْ نَعُدُوا﴾ الإخبار عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها.

فبعد أن ذكر الله تعالى تلك النعم العظيمة، أبان أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من المنافع ما لا يتأتى معه الإحصاء، بقوله: ﴿وَأَتَّكُم﴾ ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَإِنْ نَعُدُوا﴾ ليبين أنه أتى العباد من كل ما احتاجوا إليه، مما لا تصلح الأحوال والعيشة إلا به. قال طلق بن حبيب رحمه الله تعالى: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا» وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها».

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الإنسان يظلم النعمة بإغفال شكرها، شديد الكفران لها، والمراد بالإنسان هنا الجنس، فلا يراد به الواحد، بل يراد به الجمع، أي توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بمحذوها.

ويلاحظ أنه تعالى قال هنا: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿وَإِنْ نَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٦/١٨]. والفرق بين الخاتمتين: أن الكلام هنا مناسب لتعداد قبائح الإنسان من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك، وأما في سورة النحل فيناسب ما ذكر في الآية من تعداد فضائل الله على الإنسان، ومنها اتصافه بالمغفرة والرحمة، تحريضاً على الرجوع إليه^(١).

وقال الرازي عن الفرق بين الآيتين: كأنه تعالى يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت الذي أخذتها، وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عن أخذها وصفان: وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها، وهما كوني غفوراً رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم، أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء^(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى ما يأتي:

أ- لقد أقام الله تعالى أدلة كثيرة على وجوده وقدرته وعلمه ووحدانيته، منها هذه الأدلة العشرة التي ذكرها في الآية من خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر من السحاب... إلخ.

٢- إن نعم الله تعالى على البشر لا تُعد ولا تحصى لكثرتها، ولدقة إدراكها وخفائها أحياناً، كخزائن السماوات والأرض، وعجائب تكوين الإنسان، وبخاصة دماغه وحواسه من سمع وبصر وملاحظة الصور، وغير ذلك من نعمة العافية، والإمداد بالرزق منذ كونه جنيناً في بطن أمه، إلى حين ولادته وطفولته، إلى شبابه وكهولته وشيخوخته، وتقلبه في أنحاء الأرض، إلى موته فلقاء ربه.

٣- إن النعم على الإنسان من الله، فلم يبدل نعمة الله بالكفر؟ وهلا استعان بها على الطاعة؟ إن من شأن الإنسان ظلم النعمة بإغفال شكرها، وكفرانها وجحودها. والإنسان: جنس، أراد به العموم، وقال بعض المفسرين: وأراد به الخصوص كأبي جهل وجميع الكفار.

دعاء إبراهيم عليه السلام مستقبل البيت الحرام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ ضَلُّوا كَثِيرًا ۚ وَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي
فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٢ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا
يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٣٣ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي
عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ۝٣٤ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ
الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝٣٥ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝٣٦﴾

القرءات:

﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إني أسكنت).

الإعراب:

﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ المفعول محذوف، تقديره: أسكنت ناساً من ذريتي

بواد.

﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ متعلق بأسكنت، وفصل بينهما بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ لأن

الفصل بالنداء كثير في كلامهم.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي مقيمي الصلاة، فحذف الفعل

لدلالة ما قبله عليه.

البلاغة:

﴿تَبَعَنِي﴾ و﴿عَصَانِي﴾ و﴿تُخَفِّنِي﴾ و﴿تُعَلِّنُنِي﴾ و﴿الْأَرْضِ﴾ و﴿السَّمَاءِ﴾
بين كل طباق.

﴿فَأَجْعَلْ أَفِيدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تهوي: فيه استعارة؛ لأن حقيقة الهويّ النزول من علو إلى انخفاض، كالهبوط، والمراد: تسرع إليهم شوقاً وحباً من مكان بعيد، بعكس «تحنّ» فهو قد يكون من المقيم بالمكان.

﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ عُرِفَ البلد هنا، ونُكِرَ في سورة البقرة ﴿أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦/٢] لأنه في البقرة كان دعاؤه قبل بنائها، فطلب أن تجعل بلداً آمناً، وهنا كان بعد بنائها، فطلب أن تكون بلد آمن واستقرار.

المفردات اللغوية:

﴿هَذَا الْبَلَدَ﴾ بلد مكة ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها ﴿وَأَجْنُبْنِي﴾ أبعدني. ﴿أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ عن أن نعبد. ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ﴾ أي الأصنام ﴿أَصْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ بعبادتهم لها، فلذلك سألت منك العصمة، واستعدت بكم من إضلالهن، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية. ﴿فَمَنْ تَبَعَنِي﴾ على التوحيد ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن عصاني دون الشرك، فإنك تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه حين يؤمنوا؛ لأنه أراد أن يغفر لكل كافر بعد إيمانه ما كان منه سابقاً، لكنه عليه السلام استعمل هذه العبارة التي ظاهرها أن كل ذنب فله أن يغفره حتى الشرك، بسبب ما كان يأخذ به نفسه من القول الجميل، والنطق الحسن، وجميل الأدب.

﴿وَمِن دُرِّيٍّ﴾ أي بعضها، وهو إسماعيل مع أمه هاجر. ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي مكة، فإنها حجرية لا تنبت. ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرمت

التعرض له والتهاون به، أو لم يزل معظماً تهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان، فلم يستول عليه، ولذلك سمي عتيقاً، أي أعتق منه. ﴿أَفْتَدَةً﴾ قلوباً. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ بعضهم. ﴿تَهَوَّى إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً وحباً، قال ابن عباس: لو قال: أفتدة الناس، لحنّت إليه فارس والروم والناس كلهم. والمقصود من الدعاء لإقامة الصلاة: توفيقهم لها، أو الدعاء لهم بإقامة الصلاة. ﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي بالإنبات في الوادي مع سكانهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله حراماً آمناً يجيى إليه ثمرات كل شيء، حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية في يوم واحد.

﴿تُخْفِي﴾ نسر. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من: زائدة أو للاستغراق، وقول ﴿وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى أو كلام إبراهيم. والمقصود من قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾ أنك أعلم بأحوالنا ومصلحتنا، وأرحم منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك. وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجوء إلى الله تعالى، والرغبة في الإجابة. وأتى بضمير جماعة المتكلمين لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه.

﴿وَهَبْ لِي﴾ أعطاني. ﴿عَلَى الْكَبَرِ﴾ مع الكبر، ولد إسماعيل ولأبيه تسع وتسعون سنة، وولد إسحاق ولأبيه مئة واثنى عشرة سنة. ﴿أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي مواظباً عليها. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها، وأتى بمن لإعلام الله تعالى له أن منهم كفاراً.

﴿وَلَوْلَدَتِي﴾ هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله عز وجل، وقيل: أسلمت أمه. وقيل: أراد بهما آدم وحواء. ﴿يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يثبت ويتحقق ويوجد.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى بالأدلة المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه، وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى أصلاً، وطلب من رسوله أن يعجب من حال قومه الذين عبدوا الأصنام، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه دعا أن يجعل مكة بلد أمان واستقرار، وأن يجنّبه وبينه عبادة الأصنام، وأنه أسكن بعض ذريته عند البيت الحرام ليعبدوه وحده بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وأنه شكر الله تعالى على منحه بعد الكبر واليأس من الولد ولدين هما إسماعيل وإسحاق، وأنه طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم يوجد الحساب.

والخلاصة: إن إبراهيم عليه السلام هو القدوة والنموذج لعبادة الله عز وجل، فليقتد به من يتمون إليه.

التفسير والبيان:

هذا تذكير من الله تعالى واحتجاج على مشركي العرب بأن مكة البلد الحرام إنما وضعت منذ القدم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم عليه السلام تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن والاستقرار في ظل التوحيد، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك حين دعا إبراهيم بقوله: رَبِّ اجْعَلْ مكة بلداً آمناً أي ذا أمن واستقرار، لا يسفك فيه دم، ولا يظلم فيه أحد، وقد أجاب الله دعاءه فجعله آمناً للإنسان والطير والنبات، فلا يقتل فيه أحد، ولا يصاد صيده، ولا يختل خلاه، ولا يعضد شجره، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٧] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧/٣].

﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ﴾ أي وباعدني يارب وبني من عبادة الأصنام، واجعل عبادتنا خالصة لك على منهج التوحيد. هذا دليل على أنه ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. وقد استجاب الله دعاءه في بعض ذريته دون

بعض. وكان هذا الدعاء حين ترك هاجر وابنه إسماعيل، وهو رضيع، في مكة، قبل بناء البيت الحرام.

ثم ذكر أنه افتتن بعبادة الأصنام كثير من الناس فقال: «رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلَنَ» أي يا رب إن الأصنام كفت سبياً في ضلال كثير من الناس عن طريق الهدى والحق، حتى عبدوهم. وقد أضيف الإضلال إلى الأصنام؛ لأنها كانت سبياً في الضلال عند عبادتها، وذلك بطريق المجاز، فإن الأصنام جمادات لا تفعل.

«فَنَ تَبَعَنِي» أي فمن صدقني في ديني واعتقادي، وسار على منهجي في الإيمان بك وتوحيديك الخالص، فإنه مني، أي على سنتي وطريقي، مثل «من غشنا فليس منا» أي ليس على سنتنا، ومن عصاني فلم يقبل ما دعوته إليه من التوحيد لك وعدم الشرك بك، فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة.

وهذا صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة غير الكفار؛ لأنه عليه السلام تراء في مقدمة هذه الآية من الكفار بقوله: «وَأَجْتَبَيْتَنِي وَبَيَّ أَن تَتَّبِدَ الْأَصْنَامَ»، ولأنه أيضاً بقوله: «فَنَ تَبَعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه، فإنه ليس منه، ولا يهتم بإصلاح شؤونه، ولأن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، فكان قوله: «وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» شفاعة في العصاة غير الكفار.

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ» الآية، وقول عيسى عليه السلام: «إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ» [المائدة: ١١٨/٥] الآية، ثم رفع يديه، ثم قال: (اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي) وبكى، فقال الله تعالى: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال: فقال الله تعالى: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك.

ثم دعا إبراهيم بدعاء ثان بعد بناء البيت الحرام لقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وبعد الدعاء الأول الذي كان قبل بناء البيت، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ أي يا ربنا إني أسكنت بعض ذريتي وهم إسماعيل ومن ولد منه، بواد لا زرع فيه وهو وادي مكة، عند بيتك المحرم أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به، وجعلته محرماً لئتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، فاجعل قلوب بعض الناس تسرع إليه شوقاً ومحبة، ونحن وتميل إلى رؤيته. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: لو قال: أفئدة الناس، لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وارزق ذريتي من أنواع الثمار الموجودة في سائر الأقطار، ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه وادٍ غير ذي زرع، فاجعل لهم ثماراً يأكلونها.

وقد استجاب الله دعاءه، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحَبِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧/٢٨] وتحقق فضل الله ورحمته وكرمه، فبالرغم من أنه ليس في البلد الحرام: «مكة» شجرة مثمرة، فإنه نجى إليها ثمرات ما حولها من البلاد، من أنواع ثمار الفصول الأربعة، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي وارزقهم من أنواع الثمار ليذكروك على جزيل نعمتك، أو رجاء أن يشكروك بإقامة الصلاة وكثرة العبادة. وفيه إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو للاستعانة بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي، وهو التوصل إلى رضاك والإخلاص لك، وأنت أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وتعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، فلا حاجة لنا إلى الطلب، وإنما ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجلاً لنيل ما عندك.

﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ولا يغيب عن الله شيء في الأرض أو في السماء، فكله مخلوق له، وهو عالم به. وهذا من كلام الله عز وجل، تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٣٤] أو من كلام إبراهيم، يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب والشهادة من شيء في كل مكان. و﴿مِنْ﴾ للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

ثم حمد إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ أي الحمد والشكر كله لله الذي أعطاني ومنحني الولد بعد الكبر والإياس من الولد، أعطاني ولدين هما إسماعيل وأمه هاجر وإسحاق وأمه سارة. وقدم إسماعيل؛ لأنه كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة. وقيل: لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعاً وتسعين سنة، ولما ولد إسحاق كان سنه مئة واثنى عشرة سنة.

وقوله: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ لأن المنة بهية الولد في هذه السن أعظم؛ إذ الظفر بالحاجة وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ أي إن الله ربي سامع دعائي وقولي، ومجيب من دعاءه، وعالم بالمقصود، سواء صرحت به أو لم أصرح. وقال هذا لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض، لا على وجه الإيضاح والتصريح.

ومناسبة قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ هو لمراعاة الأدب الجمل مع الله تعالى، فهو عليه السلام كان يريد أن يطلب من الله إعانة زوجه هاجر وابنه إسماعيل بعد موته، ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب، بل ذكر أنك يا رب تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا، ثم نوه بحال ذريته بعد موته، فكان هذا دعاء لزوجته وابنه بالخير والمعونة بعد موته، على سبيل الرمز والتعريض.

وذلك - كما قال الرازي - يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة أفضل من الدعاء، قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن ربه أنه قال فيما رواه البخاري والبخاري والبيهقي عن ابن عمر: «من شغله ذكرى عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين».

ثم دعا بما يكون دليلاً على شكر الله فقال: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ» أي رب اجعلني مؤدياً صلاتي على أتم وجه، محافظاً عليها، مقيماً لحدودها.

واجعل بعض ذريتي كذلك مقيمي الصلاة؛ لأن «وَمِنَ» للتبعض. وخص الصلاة بالذكر لأنها عنوان الإيمان، ووسيلة تطهير النفوس من الفحشاء والمنكر.

«رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ» أي اقبل يا رب دعائي، أو عبادتي في رأي ابن عباس بدليل قوله تعالى: «وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (مريم: ١٩/٤٨). وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الجماعة وغيرهم عن النعمان بن بشير: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (غافر: ٦٠/٤٠).

«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي» أي ربنا استرني وتجاوز عن ذنوبي وذنوب والدي وذنوب المؤمنين كلهم يوم يثبت ويوجد الحساب فتحاسب عبادك على أعمالهم الخيرة والشريرة. قال الحسن: إن أمه كانت مؤمنة، وأما استغفاره لأبيه فكان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين أنه عدو لله، تبرأ منه، كما قال عز وجل: «وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (التوبة: ١١٤/٩).

ودعاء إبراهيم لنفسه لا يلزم منه صدور ذنب منه، وإنما المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى، والاعتماد على فضله وكرمه ورحمته.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - تعليمنا طلب نعمة الأمان من الله، فابتداء إبراهيم عليه السلام بطلب نعمة الأمان في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به.

٢ - مشروعية الدعاء للنفس والذرية والبلاد، بل ينبغي لكل داع أن يدعو نفسه ولوالديه ولذريته.

٣ - كان دعاء إبراهيم مركزاً حول إخلاص التوحيد لله عز وجل، وتجنب عبادة الأصنام والأوثان، التي كانت سبباً في إضلال كثير من الناس، فدعاؤه جمع بين طلب أن يرزق التوحيد، وبين طلب صونه عن الشرك، وتضمن أيضاً طلب توفيقه لمصالح الأعمال، وتخصيصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة.

٤ - الالتفاف حول النبي أو المصلح واجب؛ لقول إبراهيم: ﴿فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُمْ مِنِّي﴾.

٥ - طلب المغفرة للعصاة غير الكفار؛ لأن الشرك أو الكفر لا يجوز بالإجماع طلب إسقاطه ومغفرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨/٤].

٦ - إسكان إبراهيم وزوجه وابنه إسماعيل عند البيت الحرام كان لإقامة الصلاة.

وقد روى البخاري عن ابن عباس ما مفاده أن إبراهيم ترك هاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه، عند البيت، عند دَوْحَةٍ فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم! أين

تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا؛ ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وبعد أن نفذ ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، فجعلت تسعى سعي المجهود بين الصفا والمروة، سبع مرات، قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» ثم سمعت وهي على المروة صوتاً، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو بجناحه، حتى ظهر الماء. روى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تشفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه، وهي هزيمة^(١) جبريل، وسقيا الله إسماعيل».

٧ - لا يجوز لأحد أن يفعل فعل إبراهيم في طرح ولده وعياله بأرض مضیعة، اتكالاً على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله تعالى، لقوله في الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وكان ذلك كله بوحي من الله تعالى.

٨ - تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِئُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقموا الصلاة فيه.

٩ - كان من بركة دعاء إبراهيم عليه السلام واستجابة الله له أن التعلق بالبيت الحرام وحبه والشوق إليه والحنين إلى زيارته متمكن في قلب كل مؤمن.

(١) هزيمة جبريل: أي ضربها برجله فنبع الماء.

وقال ابن عباس في الآية: ﴿فَجَعَلْ أَفْعَدَةً﴾: سأل أن يجعل الله الناس يهودون السكّنى بمكة، فيصير بيتاً محرماً، وكل ذلك كان، والحمد لله، وأول من سكنه جرهم.

وأن مكة أصبحت ملتقى الأثمار والفواكه الآتية من كل الأنحاء والأمصار، وأثبت الله لهم بالطائف سائر الأشجار.

١٠ - احتج أهل السنة بآية ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى، وهذا يشمل ترك المنهيات المنصوص عليه في هذه الآية: ﴿وَأَجْنِبْنِي﴾ وفعل المأمورات المنصوص عليه في آية: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصراً على أن الكل من خلق الله تعالى.

١١ - دلّ القرآن على أنه تعالى أعطى إبراهيم عليه السلام ولدين هما إسماعيل وإسحاق على الكبر والشيخوخة، ولم يتعرض القرآن لسن إبراهيم في ذلك الوقت، وإنما يؤخذ من روايات التاريخ.

ما يدل على وجود القيامة وأوصافها أو تأخير عذاب القيامة وأحوال المعذبين وتبدل السماوات والأرض

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ٤٣﴾
﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَئِسْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ رَوْالٍ ٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَعْنَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ ٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ٥٢﴾

القراءات:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: قرئ:

١- (تَحْسَبَنَّ) وهي قراءة عاصم، وابن عامر، وحمة.

٢- (تَحْسِبَنَّ) وهي قراءة الباقيين.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾:

وقرأ ورش، وحزة وفقاً (يؤخرهم).

﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي، وخلف (يأتيهم العذاب).

﴿لَيَزُولَ﴾:

وقرأ الكسائي (لنزول).

الإعراب:

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حال من ضمير ﴿يُؤْخِرُهُمْ﴾ وتقديره: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار في هاتين الحالتين.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ﴾ «يَوْمَ»: مفعول ﴿وَأَنذِرِ﴾ الثاني ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأنذر؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون الإنذار يوم القيامة، ولا إنذار يوم القيامة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ فعل ماض فاعله مقدر، أي تبين لكم فعلنا بهم، ولا يجوز أن يكون ﴿كَيْفَ﴾ فاعل ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله، ولأن ﴿كَيْفَ﴾ لا يقع مخبراً عنه، والفاعل يخبر عنه، وإنما ﴿كَيْفَ﴾ هنا منصوبة بقوله: ﴿فَعَلْنَا﴾.

﴿لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ اللام لام الجحود، والفعل منصوب بتقدير «أن». و «إن» بمعنى «ما» وتقديره: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، على التصغير والتحقير لمكرهم. ومن قرأ بفتح اللام وضم آخر الفعل «لَيَزُولُ» كانت اللام للتأكيد، ودخلت للفرق بين «إن» المخففة من الثقيلة وبين «إن» بمعنى «ما» أي وإنه كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكان هنا تامة بمعنى وقع، والجبال: عبارة عن أمر النبي ﷺ لعظم شأنه.

﴿مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي مخلف رسله وعده.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ﴾ يوم منصوب على الظرف بالمصدر قبله، وهو ﴿أَنْتِقَامٍ﴾. وما بعد ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ محذوف أي غير السماوات، للدلالة ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ عليه.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ اللام تتعلق بفعل ﴿وَتَعْنَى﴾ أو بفعل ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أو بمحذوف دل عليه قوله: ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾.

﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾ فيه تقدير، أي هذا بلاغ للناس وللإنذار؛ لأن «أن» المقدرة بعد اللام مع «ينذروا» في تأويل المصدر، وهو الإنذار. أو تقديره: هذا بلاغ للناس وأنزل لينذروا به، كقوله تعالى: ﴿كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٢/٧].

البلاغة:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ حذف منه: «والسماوات تبدل غير السماوات» للدلالة ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾.

﴿وَيَبْرُؤًا﴾ عبر بالماضي محل المضارع «يبرزون» للدلالة على تحقق الوقوع، مثل ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾ [النحل: ١/١٦] أي فكانه حدث ووقع، فأخبر عنه بصيغة الماضي.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد تثبيته على ما هو

عليه من أنه مطلع على أحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو هو خطاب لكل من توهم غفلته جهلاً بصفات الله واغتراراً بامهاله. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر عذابهم. ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون من أهل مكة وأمثالهم. ﴿تَشْخَصُ﴾ ترتفع فيه أبصارهم فلا تقر في أماكنها، لهول ما ترى، يقال: شخص بصر فلان، أي فتحه فلم يغمضه. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ومقبلين، وأصله الإقبال على الشيء. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعيها إلى السماء ناظرة أمامها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم بصرهم، بل تبقى عيونهم شاخصة لا تطرف. ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ قلوبهم خالية من العقل والفهم لفرعهم، وفرط الحيرة والدهشة.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ خَوْفٌ يَا مُحَمَّدُ الْكُفَّارِ. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة، أو يوم الموت، فإنه أول أيام عذابهم. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر أو الشرك والتكذيب. ﴿رَبِّئَا أَخِرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ﴾ أخر العذاب عنا، وردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك، ونحبب دعوتك بالتوحيد. ﴿وَتَسْجِعُ الرُّسُلُ﴾ الذين أرسلتهم، وهذا وما قبله جواب الأمر، ونظيره: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النافقون: ٦٣/١٠].

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ يقال لهم توبيخاً، أي حلفتكم أنكم باقون في الدنيا لا تترالون بالموت. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا. ﴿مِنْ زَوَالٍ﴾ من: زائدة، أي زوال عن الدنيا إلى الآخرة. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي كعاد وعود. ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من العقوبة وما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم، فلم تنزعروا. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ بينا لكم الأمثال في القرآن فلم تعتبروا، وأنكم مثلهم في الكفر والعذاب. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ بالنبي ﷺ حيث أرادوا قتله أو تقييده أو إخراجه، وبذلوا فيه غاية

جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل. ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي علمه أو جزاؤه. ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ أي وما كان مكرهم، وإن عظم، معداً لإزالة الجبال، أي لا يعبأ به ولا يضر إلا أنفسهم، فهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً، والمراد بالجبال هنا: حقيقتها، وقيل: شرائع الإسلام المشبهة بها في القرار والثبات. ومن قرأ بفتح لام ﴿لِنَزُولِ﴾ ورفع الفعل، فتكون «إن» مخففة، والمراد تعظيم مكرهم، مثل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ﴿٩٠﴾ [مريم: ٩٠/١٩].

﴿مُخَلَّفٌ وَعَدِيهِ رُسُلُهُ﴾ بالنصر. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه شيء ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ قادر من الانتقام لأوليائه من أعدائه وكل من عصاه. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾ اذكر ذلك وهو يوم القيامة، فيحشر الناس على أرض بيضاء نقية، كما في حديث الصحيحين. ﴿وَبَرَزُوا﴾ خرجوا من القبور. ﴿وَتَرَى﴾ تبصر يا محمد. ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي مشدودين بعضهم مع بعض أو مع شياطينهم. ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ في القيود أو الأغلال، جمع صَفْدٌ. ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصهم، جمع سربال وهو القميص. ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ لأنه أبلغ لاشتغال النار، والقطران: أسود منتن، تشتعل فيه النار بسرعة، يطل به جلود أهل النار، حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص، ليجتمع عليهم لذع القطران، ووحشة لونه، وتنن ريحه، مع إسراع النار في جلودهم. والقطران: دُهْن يتحلب من شجر العَرَعَر والتوت، كالزفت، تدهن به الإبل حال الجرب، ويقال له: الهَنَاءُ، تُهَنُّأُ به الإبل الجربى، أي تطل. ﴿وَتَعْنَى﴾ تعلق وتحيط بها.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَبَرَزُوا﴾، فتجازى كل نفس مجرمة أو مطيعة بما فعلت في الدنيا من خير أو شر. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع الخلق، في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، لحديث ورد بذلك. ﴿هَذَا﴾ القرآن. ﴿بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي أنزل لتبليغهم، وهو كفاية في

العظة والتذكير. ﴿وَلْيَعْلَمُوا﴾ بما فيه من الحجج. ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أن الله إله واحد. ﴿وَلْيَذَكَّرْ﴾ وليتعض. ﴿أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ أصحاب العقول.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد، وبعد أن حكى عن إبراهيم أنه طلب من الله أن يصونه من الشرك وأن يوفقه لصالح الأعمال، وأن يخصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة، ذكر ما يدل على وجود يوم القيامة بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وما يدل على صفة يوم القيامة بقوله: ﴿تَنخَصُّ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ إلخ.

التفسير والبيان:

ولا تحسبن يا محمد أن الله إذا أنظر الناس وآخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة، أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعمهم، بل هو يحصي ذلك عليهم، ويعدده عليهم عدداً. والمقصود من الآية إثبات وجود يوم القيامة بطريق التنبيه على أنه تعالى سينتقم للمظلوم من الظالم.

وهو وإن كان خطاباً للنبي ﷺ صورة، فالمراد به أمته، بأسلوب «إياك أعني واسمعي يا جارة». وفيه تسلية للمؤمنين، وتهديد للظالمين بأن الله يحصي عليهم أعمالهم ويعلم بها، وسيجزئهم على ظلمهم في الوقت المناسب، فعقابهم آتٍ لا محالة؛ لأن العلم بالظلم الصادر منهم موجب لعقابهم.

ثم بين الله تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بالصفات التالية:

أ - أنه تشخص فيه الأبصار، أي أنه يمهلهم ويؤخرهم ليوم شديد الهول، ومن شدة أهواله تظل الأبصار فيه مفتوحة لا تطرف ولا تغمض، من شدة الفرع والحيرة والدهشة. ثم وصف كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال:

٢ - ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي أنهم يأتون من قبورهم إلى المحشر مسرعين بالذل والمهانة، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨/٥٤] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَلَةَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضَى لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا﴾ [القيوم: طه: ١٠٨/٢٠-١١١] وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا﴾ [المعارج: ٤٣/٧٠] .

٣ - ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم، ينظرون في ذل وخشوع، ولا يلتفتون إلى شيء.

٤ - ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم، بل تظل أبصارهم شاخصة مفتوحة تديم النظر، لا يطفرون ولا يغمضون، لكثرة ما هم فيه من شدة الهول والفرع، والمراد من هذه الصفة دوام الشخوص.

٥ - ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية لا شيء فيها من القوة، مضطربة، لكثرة الخوف. والمراد أن قلوب الكفار خالية من الخواطر؛ لعظم الحيرة، ومن كل رجاء وأمل؛ لما تحققوه من العقاب، وخالية من كل سرور؛ لكثرة الحزن.

ووقت حصول هذه الأوصاف عند المحاسبة؛ لأنه تعالى ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب.

ثم ذكر تعالى مقالة هؤلاء المعذبين حين رؤية الهول، فقال: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

أي وخوف أيها النبي الناس جميعاً من أهوال عذاب يوم القيامة، حين يقول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب هلعاً وجزعاً: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَيْكَ

أَجَلٍ قَرِيبٍ» أي ردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى وقت آخر قريب العودة إليك، نندارك فيه ما فرطنا في الدنيا، من إجابة دعوتك إلى التوحيد وإخلاص العبادة لك، واتباع رسلك فيما أرسلتهم به، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَلْتَمَسْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَاَصْدَفَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الناققون: ١٠/٦٣] وكقوله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فرد الله تعالى عليهم موجبا لهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة حينما كنتم في الدنيا: أنكم إذا متم لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، أي كنتم تنكرون البعث والحساب، وتزعمون أنه لا انتقال لحياة أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨/١٦] فدوقوا هذا العذاب بذلك الإنكار.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ أي والحال أنكم أقمتم في الظلم والفساد، وصاحبتهم الظالمين لأنفسهم، وسرتم سيرتهم، بالرغم من أنه تبين لكم، ورأيتم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقاب لتكذيبهم وجحودهم وصدودهم عن دعوة الحق، وعايتم آثار عذابهم، وظهر لكم أن عاقبتهم آلت إلى الوبال والحزني والنكال، وضررنا لكم الأمثال، وهو ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على الإعادة، كما قدر على الابتداء، وقادر على التعذيب المؤجل، كما يفعل الهلاك المعجل، وذلك في كتاب الله كثير، ولكنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا، فلم يكن فيما أوقفنا بهم لكم مزدجر، فكيف تطلبون العودة والتأخير للتوبة؟! وقد فات الأوان.

ثم بين الله تعالى تشابه أحوالهم مع أحوال السابقين، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي إن هؤلاء الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم لم

تتغير حالهم عن حال من سبقهم، فإنهم مكروا مكروهم جهد طاقتهم في إبطال الحق وتقرير الباطل، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي وعند الله العلم بمكروهم، أو جزاؤهم، فكل شيء معلوم منهم، ومكتوب ومسجل عليهم، وسيجازيهم عليه الجزاء العادل، ويحاسبهم الحساب الشديد.

ثم ذكر أن عاقبة مكروهم الخسران فقال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي ما كان مكروهم قادراً لإزالة آيات الله وشرائعه ومعجزاته التي هي كالجبال الراسخات، أو المعنى: أنه وإن عظم مكروهم وتبالغ في الشدة مثل قوله: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢/٧١] فمحال أن تزول الجبال بمكروهم، والمراد بالجبال آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً، فهذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما ضر أنفسهم، وعاد وبال ذلك عليهم. والمقصود تصغير مكروهم وتحقيره وتهوينه، فليس من شأنه إزالة الآيات وإبطال النبوات الثابتة ثبوت الجبال، والجبال لا تزول، ولكن العبارة مجاز عن تعظيم الشيء ووصفه كيف يكون.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن أيها الرسول أن الله مخلف رسله وعده، بل هو منجز لهم ما وعدهم به، والمراد تثبت أمته على الثقة بوعد ربه بنصرهم وتعذيب الظالمين، كما قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١/٥٨] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١/٤٠] وآية ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ هنا هي تقرير وتأكيد لهاتين الآيتين، أي من نصرتمكم في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي إن الله ذو عزة وقدرة لا يعجزه ولا يمتنع عليه شيء أرادته، وشاء عقوبته، وهو ذو انتقام ممن كفر به وجحدته، أو

أشرك معه إلهاً آخر. وهذه خاتمة مناسبة للآية، تؤكد الحرص على إنجاز الوعد للرسول.

ثم ذكر الله تعالى وقت انتقامه فقال: ﴿يَوْمَ بُدِّلَ الْأَرْضُ﴾ أي إن الله تعالى ذو انتقام من أعدائه، ووعد هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، فتصبح على غير الصفة المألوفة المعروفة، وتبدل أيضاً السماوات غير السماوات، أما الأرض الحالية فتصبح كالدخان المنتشر، وأما السماوات فتبتد كواكبها وشمسها وقمرها.

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد».

وروى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن عائشة قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ بُدِّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على الصراط».

واختلف العلماء في تبديل الأرض والسماوات، فقيل: تبدل أوصافها فتستبر عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها وتسوى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت^(١)، قال ابن عباس: هي تلك الأرض، وإنما تغير. وتبدل السماء بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها.

وقيل: يخلق بدلها أرضاً وسماوات أخرى، عن ابن مسعود وأنس: «يحشر الناس على أرض بيضاء، لم يخطئ عليها أحد خطيئته»^(٢).

والعلماء يقررون أن الأرض والكواكب كانت كتلة ملتبهة في الفضاء، ثم

(١) الأمت: المكان المرتفع والتلال الصغار، والانخفاض والارتفاع.

(٢) الكشف: ١٨٥/٢

انفصلت عنها الشمس والكواكب السيارة، ثم الأرض، ثم الأقمار. وستنحل هذه المجموعة، وتكون سماوات غير هذه السماوات، وأرض غير هذه الأرض.

﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ أي وخرجت الخلائق جميعها من قبورهم انتظاراً لحكم الله الواحد، الذي قهر كل شيء وغلبه، كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦/٤٠] وفي هذا تهويل وتخويف.

ولما وصف الله تعالى نفسه بكونه قهاراً، أبان عجز الناس وذلتهم أمامه، وذكر من صفاتهم:

أ - كون المجرمين مقرنين في الأصفاذ، أي ترى يا محمد المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم مقيدين بعضهم إلى بعض في الأغلال أو القيود، فيجمع بين النظراء أو الأشكال، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢/٣٧] وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧/٨١] أي تقرن نفوس المؤمنين بالخور العين، ونفوس الكافرين بالشياطين وقال: ﴿فَكُفِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤/٢٦].

٢ - ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ أي قمصهم من القطران، والمراد أن جلود أهل النار تظلى بالقطران، حتى تصبح كالسراويل، ليحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونثنّ الريح. وأيضاً التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين.

٣ - ﴿وَتَقَشَّىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ أي تحيط النار بأجسامهم، وإنما ذكرت الوجوه؛ لأنها أشرف الأعضاء وأعزها، مثل قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤/٢٣] وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤/٣٩] وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي

النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَفَرٍ ﴿٤٨﴾ [القمر: ٥٤/٤٨] .

ثم بين الله تعالى سبب الجزاء فقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي إنه تعالى فعل كل ذلك ليجزي يوم القيامة كل شخص بما يليق بعمله وكسبه، من خير أو شر، فيعاقب المجرمين أو الكفار على كفرهم ومعصيتهم، ويثيب المؤمنين على إيمانهم وطاعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٥٣/٣١] .

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي إنه تعالى يحاسب جميع العباد بسرعة وهي في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، كما جاء في الحديث، ولا يظلم الناس ولا يزيد في عقابهم الذي يستحقونه، وهو سريع الإنجاز؛ لأنه يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً﴾ [لقمان: ٣١/٢٨] ، وهو سريع الإحصاء.

ثم قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ وكفاية في الموعظة، كما قال تعالى: ﴿لَا تُذَرُّكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَّغَ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن.

﴿وَلْيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي ليكون منذاراً لهم بالعقاب ومخذاراً من العذاب، وهو معطوف على محذوف أي ليتصحوا ولينذروا بهذا البلاغ.

﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي وليستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو.

﴿وَلْيَذَكِّرُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي وليتذكر ويتعظ به ذوو العقول أي إن لهذا البلاغ ثلاث فوائد: وهي التخويف من عذاب الله، والاستدلال به على وجود الخالق ووحدانيته، والاتعاظ به وإصلاح شؤون الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - وجود يوم القيامة بنحو مؤكد مقطوع به، أما تأخير العذاب الشديد ليوم القيامة فلحكمة إلهية يعود نفعها إلى مصلحة العباد، كيلا يعجل بعقابهم وتترك الفرصة لهم لإصلاح أحوالهم، فليس تأخير العذاب للرضا بأفعالهم، بل سنة الله إمهال العصاة مدة. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عما ساءه من إعراض المشركين عن الإيمان بدعوته، قال ميمون بن مهران: هذا وعيد للظالمين، وتعزية للمظلوم.

ب - يسيطر على يوم الحساب الحيرة والدهشة، والخوف والفرع، والاضطراب والقلق، فترى المجرمين حيارى لا تغمض أعينهم من هول ما يرونه في ذلك اليوم، ويسرعون في الخروج من القبور إلى مكان دعاء الداعي لهم بالتجمع في موقف الحساب، ناظرين من غير أن يظرفوا، ورافعي رؤوسهم ينظرون في ذل واستكانة، لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة النظر، وأفئدتهم خاوية خربة ليس فيها خير ولا عقل، ولا وعي ولا فهم من شدة الخوف.

ج - لا مناص من العذاب يوم القيامة ولا مفر منه، ولا أمل ولا رجاء في العودة إلى الدنيا لإصلاح الاعتقاد والأقوال والأفعال.

د - ما أكثر المواعظ والعبر وأقل الاتعاظ والاعتبار!! فقد سكن الناس في مساكن الظالمين، في بلاد ثمود ونحوها، ولم يعتبروا بمساكنهم، بعد ما تبين ما فعل الله بهم، وبعد أن ضرب الله لهم الأمثال في القرآن للعظة والعبرة.

هـ - لا جدوى من مكر الكافرين الشديد بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة، فعند الله العلم التام بمكرهم، وهو مجازيهم عليه. ومكرهم حقير

مهيئ لا يؤدي إلى شيء، من إزالة جبال الأرض، وإزاحة الإسلام والقرآن الثابتين ثبوت الجبال الراسيات، وقد حفظ الله رسوله ﷺ من ألوان مكرهم.

٦ - الله تعالى منجز وعده لرسله وأوليائه لا محالة، ولن يخلف الله وعده بنصر أهل الحق وعقاب المبطلين، والله تعالى قوي غالب منتقم من أعدائه، ومن أسمائه: المنتقم الجبار.

٧ - تتبدل الأرض والسموات يوم القيامة، وتبدل الأرض في رأي الأكثرين: عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها. وتبدل السموات: انتشار كواكبها وتصدعها وانشقاقها وتكوين شمسها وخسوف قمرها.

٨ - للمجرمين في النار صفات كثيرة، فهم مقيدون بالأغلال والقيود، وتطلى جلودهم بالقطران، وتضرب النار وجوههم فتغشيها وتحيط بها وبجميع أجسادهم.

٩ - إن حشر الناس يوم المعاد لإنصاف الخلائق وإقامة صرح العدل المطلق بينهم، ومجازاة كل امرئ بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

١٠ - القرآن وما فيه من عظات تبليغ للناس وعظة، وإنذار وتحذير من عقاب الله عز وجل، ومصدر للعلم بوحداية الله بما تضمنه من الحجج والبراهين، وموعظة يتعظ به أصحاب العقول. روى يمان بن رثاب أن هذه الآية ﴿هَذَا بَلَدٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وسئل بعضهم، هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم؛ قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ إلى آخرها.

١١ - هذه الآية الأخيرة من السورة دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله؛ لأنه تعالى بيّن أنه إنما أنزل هذه الكتب، وإنما بعث الرسل لتذكير أولي الألباب.

١٢ - أول هذه السورة مقرون بآخرها ومطابق له في المعنى، فأولها: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية، وآخر السورة: ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ يدل على أنه تعالى ذكر هذه المواعظ والنصائح ليستفيع الخلق بها، فيصيروا مؤمنين مطيعين، ويتركوا الكفر والمعصية.

انتهى الجزء الثالث عشر والله الحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النَّفْسِ الْمُنِيرَةِ

فِي عَقِيدَةٍ وَاشْرِيعَةٍ وَطَبَقٍ

الْجُزْءِ الْاَوَّلِ اَرْبَعٌ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَجَرِ

مكية، وهي تسع وتسعون آية

تسميتها:

سميت سورة الحجر لذكر قصة أصحاب الحجر فيها، وهم ثمود، والحجر: وادٍ بين المدينة والشام.

مناسبتها لما قبلها:

هناك تناسب بين هذه السورة وسورة إبراهيم في البدء والختام والمضمون، أما البداية: فكلتا السورتين افتتحتا بوصف الكتاب المبين، وأما المضمون: ففي كليهما وصف السماوات والأرض، وإيراد جزء من قصة إبراهيم عليه السلام وبعض قصص الرسل السابقين، تسلياً لرسول الله ﷺ عما تعرض له من أذى قومه بتذكيره بما تعرض له الأنبياء من قبله، ونصرة الله لهم، مع نقاش الكفار والمشركين.

وأما الخاتمة: ففي سورة إبراهيم وصف تعالى أحوال الكفار يوم القيامة بقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم:

[٤٨/٥٠-٥١] ثم قال هنا في هذه السورة: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار، ورأوا عصاة المؤمنين والموحدين قد أخرجوا منها، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين. هذا مع اختتام آخر سورة إبراهيم بوصف الكتاب: ﴿هَذَا بَلَّغٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢/١٤] وافتتاح هذه به ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١) وهذا تشابه في الأطراف بداية ونهاية^(١).

ما اشتملت عليه السورة:

تتفق هذه السورة مع بيان أهداف التنزيل المكي وهي إثبات الوجدانية والنبوة والبعث والجزاء، والتذكير بمصارع الطغاة ومكذبي رسل الله الكرام، لذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد، والتهويل والتوبيخ: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣).

وتضمنت السورة ما يأتي:

أ - مناقشة الكفار والمشركين الذين كذبوا بالرسول وبما أتوا به من آيات، بدءاً من أبي البشر الثاني: نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) [الحجر: ١٠/١١-١١].

٢ - إيراد الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، ومشاهد الرياح اللواقيح، والحياة والموت، والحشر والنشر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١١) [الحجر: ١٥/١٦].

(١) تناسق الدرر في تناسق السور للسيوطي، طبع دمشق: ٦٢

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٥/١٩] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ١٥/٢٦] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ [الحجر: ١٥/٢٢] ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٢٣] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ١٥/٢٥] وبيان حكمة خلق الموجودات: وهي عبادة الله وإقامة العدل وإرساء دعائم النظام في الحياة.

٣ - إثبات صدق الوحي على النبي ﷺ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [٨] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٩-٨].

٤ - الإشارة لنظرية ظلمة السماء: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٤] ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥/١٤-١٥].

٥ - قصة آدم وإبليس المعبرة عن الطاعة والرفض، بامثال الملائكة أمر الله بالسجود لآدم وتعظيمه، وأمر إبليس بالسجود له وعصيانه الأمر: ﴿فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٣١] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٢٩-٣١].

٦ - وصف حال أهل الشقاوة والنار، وأهل السعادة والتقوى والجنة [٤٢] - [٤٨].

٧ - تسلية الرسول ﷺ منعاً لليأس والقنوط بتذكيره بقصة لوط وشعيب وصالح عليهم السلام مع أقوامهم الذين دمرهم الله [قصة آل لوط: ٥٨ - [٧٧] [أصحاب الأيكة: قوم شعيب: ٧٨ - ٧٩] [أصحاب الحجر: ثمود: ٨٠ - ٨٤].

٨ - بيان ما أنعم الله به على نبيه من إنزال القرآن [٨٧] وإهلاك أعدائه

المستهزئين [٩٥] وأمره بعدم الافتتان بتمتع الآخرين بالدنيا، وأمره بالتواضع للمؤمنين [٨٨] والجهر بالدعوة [٩٤] والصبر والتسبيح والعبادة حتى الموت عند مضايقته باستهزاء المشركين [٩٧ - ٩٩].

والخلاصة: تضمنت السورة دلائل التوحيد، وأحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، وبعض قصص الأنبياء، وأفضال الله على نبيه المصطفى ﷺ.

وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ① رُبِمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَلْتَمِعُوا ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ④ مَا تَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ⑤﴾

القراءات:

﴿وَقُرْآنٍ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحزرة وقفاً (قَرَأَن).

﴿رُبِمَا﴾ :

قري:

١- (رُبِمَا) وهي قراءة نافع، وعاصم.

٢- (رُبِمَا) وهي قراءة الباقيين.

﴿وَيَلْتَمِعُوا الْأَمَلُ﴾ :

قرئ:

- ١- (وَيْلَهُمْ) وهي قراءة أبي عمرو.
 - ٢- (وَيْلَهُمْ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.
 - ٣- (وَيْلَهُمْ) وهي قراءة الباقيين.
- ﴿يَسْتَخِرُونَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (يستأخرون).

الإعراب:

﴿رُبَّمَا﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، فالتشديد على الأصل، والتخفيف لكثرة الاستعمال. و(ما) فيها كافة عن العمل، وخرجت بها عن مذهب الحرف؛ لأن (رُبَّ) حرف جر، وحرف الجر يلزم للأسماء، فلما دخلت (ما) عليها، جاز أن يقع بعدها الفعل، وصارت بمنزلة «طالما وقلَّما». ولا يدخل بعد ﴿رُبَّمَا﴾ إلا الماضي، وإنما جاء ههنا المضارع بعدها، على سبيل الحكاية، ولما كان إخبار الحق تعالى متحققاً، لا شك في وجوده لتحقيقه، نزل المستقبل منزلة الماضي الذي وقع ووُجد.

و ﴿رُبَّمَا﴾ معناها التقليل كَرُبَّ، وقد يراد بها الكثرة، على خلاف الأصل.

﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مفعول في موضع نصب؛ لأنه مفعول ﴿يَوَدُّ﴾.

﴿يَأْكُلُوا﴾ جواب الأمر أو الطلب.

﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾ ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ مرفوع ﴿وَلَهَا﴾ خبره، والجملة: في موضع جر؛ لأنها صفة ﴿قَرِيَّةٍ﴾ ويجوز حذف واو ﴿وَلَهَا﴾ نحوياً لمكان

الضمير، والأصل ألا تدخلها الواو مثل ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨/٢٦] ولكن لما شابهت صورتها صورة الحال، أدخلت عليها، تأكيداً للصوقها بالموصوف.

البلاغة:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ﴾ المراد أهلها، من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.

المفردات اللغوية:

﴿الرَّءِ﴾ إشارة لتحدي العرب بإعجاز القرآن البياني، أي هذا الكتاب كلام الله المنظوم من حروف لغتكم العربية الهجائية: ألف، ولام، وراء. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات ﴿الْكِتَابِ﴾ هو السورة، وكذا القرآن، أي هذه آيات الكتاب العظيم المتميز بالفصاحة الكاملة والبيان التام ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي قرآن واضح تام البيان، لا خلل فيه، مظهر للحق من الباطل. والكتاب والقرآن المبين: الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمداً ﷺ. وتنكير ﴿وَقُرْآنٍ﴾ للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الجامع لكونه كتاباً وقرآنًا، فهو كامل في كونه كتاباً، وفي كونه قرآنًا مفيداً للبيان.

﴿رُيَمًا﴾ تدل على أن ما بعدها قليل الحصول، وقد تستعمل في الكثير، كما هنا، فإنه يكثر منهم تمنى الإسلام، وقيل: للتقليل، فإن الأهوال تدهشهم، فلا يفقهون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة. وما: كفت دخول «رب» عن الجر، فجاز دخوله على الفعل، و«ما»: نكرة موصوفة، أي رب شيء ﴿يُودُّ﴾ يتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ﴿ذَرَهُمْ﴾ دعهم واركهم يا محمد ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِمُ﴾ يشغلهم ﴿الْأَمَلُ﴾ بطول العمر وغيره عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ عاقبة أمرهم، وسوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه. والغرض إقناط الرسول ﷺ من

ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان، وأن نصحبهم يعدّ اشتغالاً بما لا طائل تحته. وفيه إلزام للحجة، وتحذير عن إثارة التنعم، وما يؤدي إليه طول الأمل.

﴿مِنْ قَرَبَةٍ﴾ «مِنْ» زائدة للتمكين «قَرَبَةٍ» المراد أهلها «كِتَابٌ» أجل «مَعْلُومٌ» محدود لإهلاكها، أي لها أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ «مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمَةٍ» أي ما يتقدم زمان أجلها، و«مِنْ» زائدة. «وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ» يتأخرون عنه، وتذكير هذا الفعل العائد على «أَمَةٍ» للحمل على المعنى.

التفسير والبيان:

﴿الرَّ﴾ هذه الحروف المقطعة قصد بها التنبيه وإشعار العرب بإعجاز القرآن البياني، وتحذيرهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه، لأنه نزل بلغتهم، وتكون من حروفها التي تتركب منها الكلمات «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ» أي تلك الآيات من هذه السورة هي آيات الكتاب الكامل في كل شيء، وآيات القرآن المبين التام الوضوح والبيان لهذه السورة وغيرها. وتذكير كلمة «وَقُرْءَانٍ» للتفخيم، وقد جمع بين الوصفين: «الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ» للدلالة على أنه الكتاب الجامع للكمال، والغرابة في البيان، كما ذكر الزمخشري.

﴿زُبَيْمًا يَوَدُّ﴾ أي ولكن الكفار سيندمون يوم القيامة على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين. وكلمة «زُبَيْمًا» وإن كانت للتقليل، فهي أبلغ في التهديد. ذكر ابن عباس وابن مسعود وغيرها من الصحابة: أن كفار قريش لما عرضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين. قال الزجاج: الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب، ورأى حالاً من أحوال المسلم، ودّ لو كان مسلماً.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧/٦] .

روى الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب، فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة، فأخرجوا. فلما رأى ذلك من بقي من الكفار، قالوا: ياليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». «الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾» .

ثم هددهم الله وأوعدهم بتهديد شديد ووعد أكيد، فقال:

﴿ذَرَهُمْ﴾ أي دع يا محمد الكفار في ملاهيهم وتمتعهم بلذات دنياهم، يأكلون كما تأكل الأنعام، وتلهيهم الآمال عن التوبة والإنابة أو عن الآخرة والأجل، فسوف يعلمون عاقبة أعمالهم وأمرهم. كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠/١٤] وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦/٧٧] ويلاحظ أن الآيات الثلاث عللت سبب إهمالهم في الدنيا، إذ لا حظ لهم في الآخرة.

ثم ذكر تعالى سبب تأخير عذاب الكفار إلى يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا﴾ أي إن سنة الله تعالى في الأمم واحدة، وهي أنه لا يهلك أهل قرية إلا بعد قيام الحجة عليهم، وإبلاغهم طريق الرشد والحق، وانتهاء أجلهم المقرر والمقدر لهم في اللوح المحفوظ، وأنه لا يؤخر عذاب أمة حان هلاكهم عن وقته المحدد، ولا يتقدمون عن مدتهم: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨/١٣] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٤/٧] .

والمقصود بالآيات: أنه لو شاء الله لعجل العذاب للكفار، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم لعلمهم يتوبوا، فإن لكل أمة أجلاً معيناً، لا تأخير فيه ولا تقديم، والله تعالى يمهّل ولا يمهّل.

وهذا تنبيه لأهل مكة وأمثالهم وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك، كما قال ابن كثير.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - القرآن الكريم جامع بين صفة الكمال في كل شيء، والوضوح والبيان، فلا نقص فيه ولا خلل، ولا غموض ولا لبس، وإنما يُظهر الحق من الباطل لكل إنسان.

٢ - سيندم الكفار يوم القيامة على كفرهم، ويتمنون أن لو كانوا مسلمين في أوقات كثيرة؛ لأن ﴿زُبَيَّاً﴾ وإن كانت تستعمل في الأصل للقليل، إلا أنها قد تستعمل في الكثير، ومن عادة العرب أنهم إذا ذكروا الكثير، ذكروا لفظاً وضع للقليل، ثم إن هذا التقليل أبلغ في التهديد.

٣ - يهتم الكفار عادة بالماديات، فتراهم منغمسين في الشهوات والأهواء واللذات، معتمدين على الآمال المعسولة، مغترين بالأمانى الزائفة، منشغلين بالدنيا عن الطاعة والعمل للآخرة. وقد هددهم الله بتركهم في مآكلهم ومُتَعَمِّهم، وحذرهم من عاقبة صنيعهم.

والآية تدل على أن إثارة التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من شأن أخلاق المؤمنين.

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة في ذم الأمل مطلقاً، منها ما رواه أحمد

والشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم، ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل» وفي مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

وروى أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل».

٤ - لا ظلم في إهلاك الأمم الكافرة المكذبة للرسل، وإنما هلاكها بسبب جحودها وكفرها وتكذيبها بآيات الله ورسوله.

٥ - إن هلاك الأمم ليس عشوائياً ولا كيفياً حسب رغبات الناس، وإنما هو مقدر بتاريخ معين، ومقرر في أجل محدد، لا تأخير فيه ولا تقديم.

بعض مقالات المشركين في النبي ﷺ

والرد القاطع عليها

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ١﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ٧﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ٨﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ٩﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٠﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ١١﴾

القراءات: ﴿مَا نُنْزِلُ﴾:

قريئ:

١- (ما تُنَزَّلُ الملائكةُ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (وما تُنَزَّلُ الملائكةُ) وهي قراءة الباقيين.

﴿سُكِرَتْ﴾ :

وقرأ ابن كثير (سُكِرَتْ).

الإعراب:

﴿لَوْ مَا﴾ بمعنى هلا، وهي مركبة من «لو» التي معناها امتناع الشيء لامتناع غيره، و«ما» التي تسمى المغيرة؛ لأنها غيرت معنى «لو» من معنى امتناع الشيء لامتناع غيره، إلى معنى «هلا». مثل تركيب «لولا» صارت بمعنى «هلا» في أحد وجهيها، وبمعنى امتناع الشيء لوجود غيره.

﴿إِذَا﴾ أصلها: إذ أن ومعناه: حيثئذ، فضم إليها أن، واستقلوا الهمزة، فحذفوها.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ ﴿نَحْنُ﴾ في موضع نصب؛ لأنه تأكيد للضمير الذي هو اسم «إن» في «إِنَّا». ويجوز أن يكون في موضع رفع مبتدأ، و﴿نَزَّلْنَا﴾ خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر «إن».

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ محله النصب على الحال.

ولا يجوز أن يكون ﴿نَحْنُ﴾ هنا ضمير فصل لا موضع له من الإعراب؛ لأنه ليس بعده معرفة، ولا ما يقارب المعرفة؛ لأن ما بعده جملة، وهي نكرة، فتكون صفة للنكرة، وشرط الفصل أن يكون بين معرفتين أو بين معرفة وما يقارب المعرفة. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ ﴿وَمَا﴾ للحال، وهذا على حكاية الحال الماضية.

البلاغة:

﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿مُنْظَرِينَ﴾ بينها سجع، وكذلك بين ﴿يَعْرُحُونَ﴾ و﴿مَسْحُورُونَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نُرِى﴾ نادوا به النبي ﷺ على التهمك ﴿الذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي إنك لتقول قول المجانين، حتى تدعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر أي القرآن ﴿لَوْ مَا﴾ أي هلا، للتخصيص على فعل ما يقع بعدها ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك أو قولك: إنك نبي، وإن هذا القرآن من عند الله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تزيلاً ملتبساً بالحق وملازماً له، أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن تأتيكم بصورة تشاهدونها، فإنه لا يزيدكم إلا لبساً وخطأً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة، فإن بعضكم وبعض ذريتكم سيؤمن، وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي الوحي أو العذاب ﴿إِذَا﴾ أي حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿مُنْظَرِينَ﴾ مؤخرين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن، وهو رد لإنكارهم واستهزائهم ﴿وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾ من التبديل والتحريف، والزيادة والنقص، بأن جعلناه معجزاً مبيناً لكلام البشر، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل العربية، أو المراد نفي تطرق الخلل إليه أثناء بقاءه بضمان الحفظ له. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا رسلاً ﴿فِي شَيْعٍ﴾ فرق، وهي جمع شيعة: وهي الفرقة أو الجماعة المتفقة على رأي واحد، في العقيدة أو في المذهب، أو في الرأي. ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك، وهذا تسلية له ﷺ. ﴿نَدْخُلُهُ﴾ نُدْخِلُهُ، أي مثل إدخالنا التكذيب في قلوب أولئك ندخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كفار مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالنبي ﷺ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم، وهؤلاء مثلهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ على هؤلاء المقترحين ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ في الباب ﴿يَعْرِضُونَ﴾ يصعدون ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ سُدَّتْ ومنعت عن الإبصار ﴿مَسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك، يخيل إلينا أننا مسحورون، والإضراب بيل دلالة على البت بأن ما يروونه لا حقيقة له، بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر.

سبب النزول:

قال قتادة: القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة من صناديد قريش.

المناسبة:

بعد أن بالغ تعالى في تهديد الكفار، ذكر شبهتهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وإساءتهم الأدب بوصفه بالسفاهة والجنون، ثم ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء على هذا النحو، فلك يا محمد أسوة بالأنبياء في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن بعض مقالات المشركين وشبهاتهم الصادرة عن كفرهم وعنادهم، فقالوا استهزاء وتهكماً: يا أيها الذي تدعي نزول القرآن عليك، إنك متصف بالجنون، حينما تدعوننا إلى اتباعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا، فلا نقبل دعوتك.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ لو كنت ما تدعيه حقاً وصدقاً، فهلا تأتينا بالملائكة يشهدون لك بصدقك وصحة ما جئت به، ويؤيدونك في إنذارك، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧] وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَسُولًا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٢١] وحكى تعالى قول فرعون في شأن موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٣] .

فأجابهم تعالى عن المقالة الثانية بقوله: ﴿مَا نُزِّلَ الْمَلَكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا تنزل الملائكة إلا بحق وحكمة ومصلحة نعلمها، ولا حكمة في أن تأتيكم

عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار، وهم من غير جنسكم ولا على صورتكم فيلبس الأمر عليكم، إذ لكل جنس هادٍ من جنسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ﴿٩﴾ [الأنعام: ٩/٦] .

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْطَرِينَ﴾ أي ولو نزلنا الملائكة لكان ذلك إنزالاً للهلاك والعذاب، وما أخر عنهم العذاب ساعة؛ لأن ستننا أننا إذا أنزلنا آية كما يقترح الناس ولم يؤمنوا بها، أتبعنا ذلك بعذاب الاستتصال، فكان في إنزال الملائكة ضرراً محققاً لهم، لا نفعاً.

ثم أجابهم الله تعالى عن المقالة الأولى بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي إنه تعالى هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغير والتبديل، فقولوا: إنه مجنون، ونقول: نحن منزلو القرآن وحافظوه. وتلك خصوصية للقرآن، فإنه تعالى تكفل وحده بحفظه وصونه، على مدى الدهر، بخلاف الكتب السابقة التي أمر بحفظها الأحرار والرهبان، فعبثوا بها وغيرها وبدلوها، بل إن أصلها قد فقد وضاع، فلم يعرف لها أثر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤/٥] .

ثم قال الله تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب بعض كفار قريش: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٠﴾ أي إنا أرسلنا قبلك رسلاً للأمم الماضية وشييعها وطوائفها وفرقها، ولكن ما أتاهم من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به وكفروا برسالته، فقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا، واستكبروا عن اتباع الهدى، فإن مثل ذلك التكذيب والكفر الذي أدخل في قلوب المجرمين السابقين، ندخله في قلوب المجرمين الجدد، فضمير ﴿تَسْلُكُهُمْ﴾ عائد إلى الشرك. ويصح عوده إلى الذكر (القرآن) أي مثل ذلك الإدخال ندخل القرآن ونلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزأً به غير مقبول، حالة كونهم غير مؤمنين به أبداً.

﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت السنة المتبعة في الماضين، وهو أنه تعالى يهلك ويدمر كل من كذب رسله، ويعلم بهم، وينجي الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة، فلك يا محمد أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة. وبعبارة أخرى: سن فعل بالمجرمين اللاحقين كما فعلنا بالسابقين، وسننصر الرسل والمؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى عن شدة عنادهم وعن كفرهم في نفوسهم ومكابرتهم للحق، فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ أي لو فتحنا على هؤلاء المعاندين باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه أو تصعد فيه الملائكة، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: إنما منعت وسدت أبصارنا من الإبصار، وقد شبه علينا، واختلطت الأمور في أذهاننا، وأصبحنا لا نرى إلا أخيلة، كالقوم المسحورين سحرنا محمد بآياته، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَلِّينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام: ٧/٦).

والمعنى: بلغ من عناد المشركين أنهم لو صعدوا في السماء حقيقة، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هذه أوهام وأخيلة، وقد سحرنا محمد، كما يفعل عالم السيمياء، أو المنوم المغناطيسي. وفي الآية دليل على وجود الظلام في الفضاء الخارجي.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الشريفة على مايلي:

١ - لقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم من التغير والتبدل، والزيادة والنقص، إلى يوم القيامة، وهو رد على اتهام المشركين زوراً وبهتاناً بأن محمداً الذي أنزل عليه هذا القرآن مجنون.

٢ - لا فائدة من إنزال الملائكة تشهد للنبي ﷺ بصدقه في دعواه النبوة، لما فيه من اللبس عليهم، بل إلحاق الضرر بهم، وهو الهلاك أو العذاب إذا كفروا بعدئذ، ولم يمهلوا بنزوله.

٣ - إن تكذيب الأنبياء والاستهزاء بهم عادة قديمة وظاهرة شائعة في الأمم، فكما يفعل المشركون بالنبي ﷺ، فكذلك فعل من قبلهم بالرسول.

٤ - كما أدخل أو سلك الله الضلال والكفر والاستهزاء والشرك في قلوب المجرمين من طوائف الأقدمين، كذلك يسلكه في قلوب مشركي العرب، حتى لا يؤمنوا بمحمد ﷺ، كما لم يؤمن من قبلهم برسولهم.

وقيل: نسلك القرآن في قلوبهم، فيكذبون به، ذكر جماعة أنه قول أكثر المفسرين.

٥ - مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء المشركين من الهلاك.

٦ - المشركون معاندون، فلو كشف لهم أن يعاينوا أبواباً من السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل، لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له.

بعض مظاهر قدرة الله تعالى من خلق السماوات والأرض وإرسال الرياح لواقع والإحياء والإماتة والعلم الشامل والحشر

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَيْتُكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَادِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَضْرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

القرءات:

﴿الرِّيحَ﴾ :

وقرأ حمزة، وخلف (الريح).

الإعراب:

﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ﴾ ﴿مِنْ﴾ مستثنى منصوب، ولا يجوز أن يكون بدلاً من ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ لأنه استثناء من موجب.

﴿وَمَنْ لَسْتُمْ﴾ ﴿وَمِنْ﴾ إما منصوب عطفاً على قوله ﴿مَعِيشَ﴾ أي جعلنا لكم فيها المعيش والعبيد، أو بتقدير فعل، أي وأعشنا من لستم له برازقين، أو عطفاً على موضع ﴿لَكُمْ﴾ المنصوب بجعلنا، وإما موضعه الرفع مبتدأ، وخبره محذوف. ولا يجوز في رأي البصريين خلافاً للكوفيين عطفه على الكاف واللام في ﴿لَكُمْ﴾ لأنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار.

﴿وَلِنْ مِّن شَيْءٍ﴾ إن بمعنى «ما» و﴿مِّن﴾ زائدة، و﴿شَيْءٍ﴾ في موضع رفع مبتدأ، و﴿عِنْدَنَا﴾ خبر المبتدأ، و﴿خَزَائِنُهُمُ﴾ مرفوع بالظرف وهو ﴿عِنْدَنَا﴾ لوقوعه خبراً للمبتدأ، وتقديره: وماشيء إلا عندنا خزائنه. ودخول ﴿إِلَّا﴾ أبطل عمل ﴿وَلِنْ﴾ على لغة من يعملها.

﴿لَوْفَعُ﴾ إما جمع لافحة، أي حوامل بالسحاب؛ لأنها تسوقه، وإما أصله ملاقح، لكن أتى به على حذف الزوائد.

البلاغة:

﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُمُ﴾ استعارة تخييلية وتمثيل لكمال قدرته، شبه قدرته تعالى على كل شيء بالخزائن المودع فيها الأشياء، ويخرج منها كل شيء على وفق حكمته.

﴿ثُمَّ وَنُفِثُ﴾ و﴿الْمُسْتَقْدِينَ﴾ و﴿الْمُسْتَفْرِحِينَ﴾ بين كل طباق.

﴿خَزَائِنُهُمُ﴾ و﴿يَحْزِنِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿بُرُوجًا﴾ البروج: القصور والمنازل، وأصل البروج: الظهور، يقال: تبرجت المرأة: إذا أظهرت زيتها، والمراد هنا النجوم العظام ونجوم البروج الاثني عشر المعروفة أي منازل الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى، وهي اثنا عشر برجاً مختلفة الهيئات والخواص، على ما دل عليه الرصد والتجربة، مع بساطة السماء، وأسماء هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. والعرب تعدُّ معرفة مواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخضب والجذب. وبرج المريخ: الحمل والعقرب، والزهرة: لها الثور والميزان، وعطارد: له الجوزاء

والسُّنْبُلَةُ، والقمر: له السرطان، والشمس لها: الأسد، والمشتري له: القوس والحدوت، وزُحَل له: الجدي والدلو.

﴿وَرَزَّيْنَاهَا﴾ أي السماء بالكواكب ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ المفكرين الاعتبارين، المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ منعناها بالشهب ﴿رَجِيمٍ﴾ مرجوم بالحجارة ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَّ﴾ لكن من أخذ الشيء خفية أو خطفة، شبه خطفتهم اليسيرة من الملائة الأعلى بالسرقة. واسترق السمع: تسمعه بخفية وحذر ﴿فَاتَّبَعُهُمْ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ كوكب يضيء ويحرقه، أو شعلة ساطعة من النار. وأتبعه: لحقه. ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها بحسب مستوى الناظر وبالنسبة إلى الناس القاطنين فيها ﴿رُوسَى﴾ جبلاً ثوابت لثلاث تتحرك بأهلها ﴿مُوزُونِينَ﴾ أي مقدر بمقدار معين على وفق الحكمة والمصلحة.

﴿مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس، جمع معيشة ﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَكُمْ بِرَزَاقِينَ﴾ عطف على معاش أو على محل ﴿لَكُمْ﴾ والمراد به العيال والخدم والمماليك. والقصد من الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين، مختلفة الأجزاء في الوضع، مشتملة على أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، على كمال قدرته، وتناهي حكمته، وتفردته بالألوهية، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرِب الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحتاج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. والخزائن جمع خزانة، وهي ما تحفظ فيه الأشياء النفيسة أو المهمة.

﴿وَمَا نُزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي وما نسمح بإنزاله إلا بقدر معلوم حدّه، لحكمة وعلى حسب المصالح ﴿لَوْ قَعَّ﴾ حوامل للسحاب، أو التراب، أو للفاح الشجر، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف:

٥٧/٧ وفي قولهم: ناقة لاقح أي حامل، شبه الريح التي جاءت بخير تحمل السحاب الماطر بالحامل، كما شبه مالا يكون كذلك بالعقيم. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب ﴿مَاءً﴾ مطراً ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ أي جعلناه لكم سقياً لمزارعكم ومواشيتكم، يقال للماء المعد لشرب الأرض أو الماشية وسقايتها به: أسقيته، وإذا سقاه ماء أو لبناً: سقيته ﴿وَمَا أَنشَأَ لَهُمُ الْخُزْنَينَ﴾ أي ليست خزائنه بأيديكم ﴿الْوَارِثُونَ﴾ الباقون، نرث جميع الخلق ﴿الْمُسْتَفِدِينَ﴾ من ماتوا من ذرية آدم ﴿الْمُسْتَخْرِينَ﴾ الأحياء الذين تأخروا إلى يوم القيامة، أي بقوا أحياء ﴿يَحْشَرُهُمْ﴾ يجمعهم لا محالة للجزاء وتوسيط الضمير ﴿هُوَ﴾ للدلالة على أنه القادر المتولي لحشرهم لا غير، وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعد والتنبيه على صحة الحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة في صنعه متقن الأفعال ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى كفر الكافرين وعجز أصنامهم، ذكر كمال قدرته، وأدلة وحدانيته السماوية والأرضية، ففي السماء: البروج، والكواكب الساطعة، وفي الأرض الممدودة: الجبال الراسيات، والنباتات المقدرة بمقادير معلومة موزونة بميزان الحكمة والعلم، المشتملة على معاش الإنسان والحيوان، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿قُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ﴾ (٢٣) [الذاريات: ٢٠/٢٣].

والدلائل الأرضية سبعة: بسط الأرض، الجبال الثوابت، إنبات النباتات، الإمداد بالأرزاق من الخزائن، إرسال الرياح لواقع، الإحياء والإماتة للحيوانات، خلق الإنسان.

التفسير والبيان:

ووالله لقد أوجدنا في السماء نجوماً عظاماً من الكواكب الثوابت والسيارات، وزيناها لمن تأمل النظر فيها وكرره، فيما يرى من العجائب الظاهرة، والآيات الباهرة، التي يحار الناظر فيها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۖ﴾ [الصافات: ٦/٣٧] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١/٢٥] .

وقال جماعة: البروج: هي منازل الشمس والقمر.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي ومنعنا الاقتراب من السماء كل شيطان رجيم، كما قال في آية أخرى: ﴿وَحَفِظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ﴾ [الصافات: ٧/٣٧] والرجيم: المرحوم، أي المقذوف بالشهب، أو المرمي بالقول القبيح، أو الملعون المطرود. ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من استرق السمع، أو أراد استراق شيء من علم الغيب الذي يتحدث به الملائكة، لحقه وأتبعه بشهاب مبین، أي بجزء منفصل من الكوكب، وهو نار مشتعلة، فأحرقه. والشهاب: شعلة نار ساطع، ويسمى الكوكب شهاباً، كما قال في آية أخرى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَحِذُّ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۖ﴾ [الحج: ٩/٧٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥/٦٧] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات، فكانوا يدخلونها، ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة، فيلقونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام، منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد رسول الله ﷺ منعوا من السماوات كلها، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع، رمي بشهاب^(١).

(١) تفسير الرازي: ١٦٩/١٩، الكشف: ١٨٨/٢

والصحيح أن الشهاب يقتل الشياطين قبل إلقائهم الخبر، فلا تصل أخبار السماء إلى الأرض أبداً إلا بوساطة الأنبياء وملائكة الوحي. ولذلك انقطعت الكهانة ببعثة النبي ﷺ.

ثم أردف الله تعالى بيان الدلائل الأرضية بعد الدلائل السماوية على وحدانيته فقال: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ أي وجعلنا الأرض ممدودة الطول والعرض، ممهدة للانتفاع بها، في مرأى العين، وبالنسبة إلى الإنسان الذي يعيش على سطحها، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ قَرَشْنَهَا فَعَمَ الْمَنْهُدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨/٥١] فلا يعني ذلك نفي كروية الأرض؛ لأن أجزاء الكرة العظيمة تظهر كالسطح المستوي لمن يقف على جزء منها. وهذا دليل واضح على كمال قدرة الله تعالى وعظمته؛ لأن الإنسان المنتفع بها يراها منبسطة رغم تكويرها، ثابتة رغم تحركها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسٍ﴾ أي وجعلنا فيها جبالاً ثابتة كيلا تضطرب بالإنسان، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥/١٦] فدللت الآيات على خلق الله الأرض وبسطها وتوسيعها وجعل الجبال الراسيات والأودية والرمال فيها.

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي وأنبتنا في الأرض من الزرع والثمار المناسبة، المقدره بميزان معلوم، وحكمة ومصلحة، ومقدار معين، فكل نبات وزنت عناصره، وقدرت بما يحتاجه. فقلوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾ أي مقدر بقدر معلوم، موزون بميزان الحكمة أي على وفق الحكمة والمصلحة، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨/١٣].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ أي وأعددنا لكم في الأرض أسباب المعيشة والحياة الملائمة من غذاء ودواء، ولباس وماء، ونحوها. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ يَرْزُقِينَ﴾ أي وجعلنا لكم فيها أيضاً الخدم والمالِك والدواب والأنعام التي لستم أنتم لها رازقين، وهذا يعني أن الله يرزقكم وإياهم.

والمقصود من الآيات أنه تعالى يمتن على الناس بما يئّر لهم في الأرض من أسباب المكاسب والمعيشة، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والخدم الذين يستخدمونهم، وقد تكفل الله الخالق برزقهم، وفرزقهم على خالقهم، لا عليهم، فلهم المنفعة، وعلى الله التسخير والرزق.

ثم أخبر الله تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل يسير عليه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الأصناف، من نبات ومعادن ومخلوقات لا حصر لها، فقال: ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء في هذا الكون ينتفع به الناس إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم، نعلم أنه مصلحة له، فذكر الخزائن أراد به التمثيل لا الحقيقة وهو اقتداره على كل مقدور.

ثم أوضح تعالى أسباب حصول النعم، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ أي وأرسلنا الرياح الخيرة تحمل السحب المشبعة بالرطوبة لإنزال الأمطار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧/٧].

وكذلك جعلنا الرياح وسيطة لتلقيح الأشجار، بنقل طلع الذكور ولقاحها إلى الإناث، ليتكون الثمر.

كما أننا جعلنا الرياح وسائل لإزالة الغبار عن الأشجار، لينفذ الغذاء إلى مسامها. قال ابن عباس: الرياح لواقع للشجر وللسحاب.

﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي فأنزلنا من السحاب مطراً، فأسقيناكموه أي يمكننا أن تشربوا منه، وأسقينا به زرعكم ومواشيكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠/٢١] وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ

الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ١٠/١٦] .

﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِمُخْزِنِينَ﴾ أي لستم له بمحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله ينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أبقاه لكم في طول السنة، لشرب الناس والزرع والثمار والحيوان، فالتخزين يكون في السحاب وفي جوف الأرض.

ثم أخبر الله تعالى عن قدرته على بدء الخلق وإعادته فقال: ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي ونحن نحيي الخلق من العدم، ثم نميتهم، ثم نبعثهم كلهم ليوم الجمع، ونحن نرث الأرض ومن عليها، وإلينا يرجعون: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨/٨٨] .

ثم أنبأنا الله تعالى عن تمام علمه بال مخلوقات أولهم وآخرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ أي والله لقد علمنا كل من تقدم وهلك من لدن آدم عليه السلام، ومن هو حي، ومن سيأتي إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي وإن ربك هو الذي يجمعهم جميعاً، الأولين والآخرين، من أطاع ومن عصى، ويجازي كل نفس بما كسبت، إنه تعالى حكيم باهر الحكمة في صنعه، متقن الأفعال، واسع العلم، وسع علمه كل شيء، فهو يفعل بمقتضى الحكمة والعلم الشامل.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكرت الآيات دلائل التوحيد السماوية منها والأرضية، وبدأ بذكر الأدلة السماوية، وأردفها بالأدلة الأرضية، وهي ما يأتي:

١ - خَلَقَ النجوم العظام والكواكب الثابتة والسيارة، وَخَلَقَ بروج ومنازل لها، وهي اثنا عشر برجاً، معروفة في علم الفلك، قدمت ذكرها في بيان المفردات.

٢ - حفظ السماء من مقاربة الشيطان الرجيم أي المرجوم، والرجم: الرمي بالحجارة أو باللسان سباً وشتماً، وهو أيضاً: اللعن والطرْد. قال الكسائي: كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم.

ومن حاول اختطاف شيء من علم الغيب، قذف بجزء منفصل من الكوكب، مشتعل النار، فأحرقه وقتله، قبل إلقاء ما استرقه من السمع إلى غيره.

٣ - الأرض مخلوقة مهيأة منبسطة تتناسب مع إمكان الحياة البشرية عليها، وهي مبنية بالجبال الرواسي لئلا تتحرك بأهلها، وفيها من النباتات المختلفة ذات المقادير المعلومة، على وفق الحكمة والمصلحة، وفيها أيضاً أصناف المعاش من مطاعم ومشارب يعيش الناس وغيرهم بها، وفيها كذلك الدواب والأنعام ذات المنافع المتعددة، والله هو الذي يرزقها.

٤ - الله مالك كل شيء، يوجده ويكوّنه وينعم به على حسب مشيئته بمقدار معلوم بحسب حاجة الخلق إليه، فما من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا وعند الله خزائنه، كالمطر المنزل من السماء، والذي به نبات كل شيء، ولكن لا ينزله إلا بمقتضى مشيئته وعلى قدر الحاجة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧/٤٢].

٥ - هيأ الله في الكون أسباباً للرزق والإيجاد، منها أنه جعل الرياح لواقع للسحاب والأشجار، فأنزل بها الأمطار لشرب الناس وسقاية الزروع والثمار والأشجار والدواب، وهو تعالى يخزنها في السحاب وجوف الأرض، وهو سبحانه المحيي والمميت ووارث الكون، فلا يبقى فيه أحد.

٦ - الله تعالى عالم بجميع المخلوقات المتقدمة والمتأخرة إلى يوم القيامة، وإنه تعالى سيحشر الناس جميعاً للحساب والجزاء.

واستنبط الفقهاء من آية ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ﴾ (١٤) حكمين فقهيين:

الأول - فضل أول الوقت في الصلاة، وفضل الصف الأول في صلاة الجماعة، قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا». وفي الصف الأول مجاورة الإمام، لكن مجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هي لكبار العقول، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وأصحاب السنن الأربع عن أبي مسعود: «لِيلِيَّ مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى» وهذا حق ثابت لهم بأمر صاحب الشرع.

الثاني - فضل الصف الأول في القتال، لأن المتقدم باع نفسه لله تعالى، ولم يكن أحد يتقدم الحرب بين يدي رسول الله ﷺ؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ.

بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس وعداؤه البشر

﴿وَلَمَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴿١٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَبَتَّابِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: (الْمُخْلَصِينَ).

﴿صِرَاطٌ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿وَالْجَانَّ﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: وخلقنا الجانَّ خلقناه، وقدر

الفعل الناصب ليعطف جملة فعلية على جملة فعلية، هي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾.

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للمعرفة بعد تأكيد، وذهب بعض النحويين إلى أن ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أفاد معنى الاجتماع، أي سجدوا كلهم مجتمعين، لا متفرقين، إلا أنه يلزمه على هذا أن ينصبه على الحال.

﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ، و﴿لَكَ﴾ خبره، وتقديره: أي شيء كائن لك ألا تكون، أي في ألا تكون، فحذفت (في) وهي متعلقة بالخبر، فانتصب موضع (أن).

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلق بالظرف الذي هو ﴿لِكُلِّ﴾، مثل قولهم: كل يوم لك درهم، فإن كل يوم منصوب بـ (لك). و﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ مرفوع بالظرف الذي هو ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾؛ لأن قوله ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ وصف لقوله: ﴿أَبْوَابٍ﴾ أي لها سبعة أبواب، كائن لكل باب منها جزء مقسوم منهم، أي من الداخلين، فحذف منها العائد إلى ﴿أَبْوَابٍ﴾ التي هي الموصوف، وحذف العائد من الصفة إلى الموصوف جائز في كلامهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ﴾ [البقرة: ٤٨/٢] [١٢٣] أي ما تجزي فيه.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدم أو الجنس ﴿مِّنْ صَلَاسِلٍ﴾ طين يابس، يسمع له صلصلة، أي صوت، إذا نُقِر. فإذا طبخ فهو فَخَّار ﴿حَمَلٍ﴾ طين أسود، أي تغير واسود من مجاورة الماء له ﴿مَسْنُونٍ﴾ متغير الرائحة، والتقدير: أي كائن من حمأ مسنون ﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن وهو إبليس، أو هذا الجنس ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل خلق آدم ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُورِ﴾ هي نار شديدة الحرارة، لا دخان لها، تنفذ من المسام وتقتل.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ واذكر حين قال ﴿بَشَرًا﴾ إنساناً، وسمي بذلك لظهور بشرته أي ظاهر جلده ﴿سَوَّيْتُهُمُ﴾ أتممت خلقه وهياته لنفخ الروح فيه ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أجريت من الفم أو غيره، والمراد: إضافة عنصر الحياة في المادة القابلة لها. ﴿مِنْ رُوحِي﴾ أي فصار حياً، وإضافة الروح إلى الله تشریف لآدم ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ أي فاسقطوا له ساجدين سجود تحية بالانحناء. ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدان للمبالغة في التعميم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن، الذي كان بين الملائكة ﴿أَبَى﴾ امتنع من أن يسجد له، والاستثناء إما منقطع متصل بقوله: ﴿أَبَى﴾ أي لكن إبليس أبى، وإما متصل على أنه استئناف، على أنه جواب سائل قال: هلا سجد.

﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أي ما منعك، أو أي غرض لك في ألا تكون مع الساجدين ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ﴾ لا ينبغي لي أن أسجد، واللام لتأكيد النفي، أي لا يصح مني، وينافي حالي ﴿لِشَرِّ﴾ جسماني كثيف، وأنا ملك روحاني ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسُونٍ﴾ أي وهو أخس العناصر، وأنا خلقتني من نار، وهي أشرف العناصر.

﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي من الجنة أو من السماوات أو من زمرة الملائكة ﴿رَجِيمًا﴾ مطرود من الخير والكرامة، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته ﴿الَّلَّعْنَةُ﴾ الطرد والإبعاد ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ أمهلني وأخرنى ولا تمتني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يوم بعث الناس ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله، أو وقت انقراض الناس كلهم، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق، كما روي عن ابن عباس. ويجوز أن يراد بالأيام الثلاثة: يوم القيامة، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات كما قال البيضاوي، فهو يوم الجزاء، ويوم البعث، واليوم المعلوم وقوعه عند الله، والمؤكد حدوثه في علم الناس.

﴿بِمَا أَغْوَيْنَا﴾ أي بإغوائك لي، والإغواء: الإضلال، والباء للقسم، وما: مصدرية، وجواب القسم: ﴿لَأَزِيَنَّ﴾ والمعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزيئن لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ أي المؤمنين الذين استخلصهم الله لطاعته وطهرهم من الشوائب، وقرئ بكسر اللام، أي الذين أخلصوا لك العبادة من الرياء أو الفساد.

﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي هذا حق علي أن أراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ أي لا انحراف فيه، ولا عدول عنه إلى غيره. والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء: وهو تخلص المخلصين من إغوائه، أو الإخلاص.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تصديق لإبليس فيما استشه، والمراد بيان نجاتهم من تأثير الشيطان عليهم. والسلطان: التسلط بالإغواء ﴿الْغَاوِينَ﴾ الكافرين ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لموعد الغاوين أو المتبعين، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير، أو حال، والعامل فيها: الموعد إن جعل مصدراً على تقدير مضاف، أما إن جعل اسم مكان فإنه لا يعمل ﴿سَبْعَةُ أَتُوبٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم، أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة، وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. ولعل تخصيص العدد ليشمل جميع المهلكات، أو لأن أهلها سبع فرق ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتباع ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب أو فريق معين مفرز له.

المناسية:

هذا هو النوع السابع من دلائل وجود الله وقدرته وتوحيده، فإنه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة، أرفده بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب نفسه.

والدليل هو أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع وجود حوادث لا أول

لها، فيجب انتهاء الحوادث إلى حادث أول، فلا بد من انتهاء الناس إلى إنسان هو أول الناس، وذلك الإنسان الأول غير مخلوق من الأبوين، فيكون مخلوقاً لا محالة بقدرة الله تعالى.

وبعد أن ذكر الله تعالى خلق الإنسان الأول، ذكر مقاله للملائكة والجن بشأنه.

التفسير والبيان:

ولقد خلق الله الإنسان الأول آدم أبا البشر من طين أو تراب يابس، فالحمأ: هو الطين، والمسنون: الأملس، والصلصال: التراب اليابس، وقيل: إنه المنتن المتغير الرائحة في الأصل. وقد بدأ الخلق أولاً من تراب، ثم من طين، ثم من صلصال، ليكون أدل على القدرة الإلهية.

وخلقنا جنس الجن من نار السموم، أي نار الريح الحارة التي لها لَفْح وتقتل من أصابته. قال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجن، ثم قرأ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُورِ﴾ (٧) وورد عن عائشة في صحيح مسلم، وأحمد: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٥) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ [الرحمن: ١٤/٥٥-١٥].

وفي هذا إشارة إلى برودة طبع الإنسان، وحرارة طبيعة الجن. وفي الآية تنبيه على شرف آدم عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة محتده، وذلك كله دليل على قدرة الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى تشريفه لآدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له، وتحلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

أي واذكر أيها الرسول لقومك حين أمرت الملائكة قبل خلق أبيكم آدم بالسجود له بعد اكتمال خلقه، وإباء إبليس عدوه من بين سائر الملائكة السجود له، قائلًا: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتُمْ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۖ﴾ [الحجر: ٣٣/١٥] متذرعاً بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦/٣٨] وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢/١٧] .

وقد تضمن دفاع إبليس وسبب امتناعه عن السجود لآدم: بأنه خير منه، فإنه خلق من النار، وآدم من الطين، وفي النار عنصر الارتفاع والسمو، وفي التراب عنصر الخمود والركود، فهي أشرف من الطين، والأعلى لا يعظم الأدنى.

وذلك قياس فاسد؛ لأن خيرية المادة لا تعني خيرية العنصر، بدليل أن الملائكة من نور، والنور خير من النار. ثم إنه عصيان أمر الخالق، وجهل بأن آدم امتاز باستعداد علمي وعملي لتلقي التكليف وتقدم الكون.

لذا عاقبه الله بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ﴾ أي فاخرج من المنزل التي كنت فيها من الملائكة الأعلى، فإنك مرجوم، أي لعين مطرود، لعنة دائمة ملازمة له إلى يوم القيامة.

وإمعاناً في الكيد لآدم وحسداً له ولذريته طلب الإمهال إلى يوم البعث من القبور، وحشر الخلق لموقف الحساب، فأرجأه الله إلى يوم الوقت المعلوم، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق.

فلما تحقق إبليس الانتظار لذلك اليوم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي قال إبليس عاتياً متمرداً: رب بسبب إغوائك إياي، لأزين في الأرض أي الدنيا لذرية آدم عليه السلام الأهواء، وأحُب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، إلا المخلصين الذين أخلصوا لك في الطاعة والعبادة. واستثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلون منه.

فهدده تعالى وتوعده بقوله: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ۝٤١﴾ أي هذا الطريق في العبودية أو الإخلاص طريق مستقيم، مرجعه إلي، فأجازي كل واحد بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝٤٢﴾ [الفجر: ١٤/٨٩]. فقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هذا الإخلاص طريق علي وإلي، يؤدي إلى كرامتي وثوابي، أو هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم، أو هذا طريق علي تقريره وتأكيده، وهو مستقيم: حق وصدق. ومؤدى الكلام: ألا مهرب لأحد مني، كما يقال لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علي. وقوله: مستقيم أي لا عوج فيه ولا انحراف. وهو رد لما جاء في كلام إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝٤٧﴾ [الأعراف: ١٧/١٦-١٧].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَرِئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ أي إن عبادي المؤمنين المُخْلِصِينَ أو غير المُخْلِصِينَ، أو الذين قدرت لهم الهداية، لا سلطان لك على أحد منهم، ولا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن الذين اتبعوك من الضالين المشركين باختيارهم، فلك عليهم سلطان، بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ١٦/١٠٠].

ونظير الآية: ﴿إِنَّكُمْ لَرِئْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل: ٩٩/١٠٠-٩٩].

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٠١﴾ أي إن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [مؤد: ١١/١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي لجهنم سبعة أبواب، قد خُصص لكل باب منها جزء مقسوم وعدد معلوم من أتباع إبليس، يدخلونه، لا يحيد لهم عنه، وكلُّ يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دركٍ بقدر عمله.

وفي تفسير الأبواب السبعة قولان:

قول: إنها سبع طبقات: بعضها فوق بعض، وتسمى تلك الطبقات بالدركات، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥/٤] والسبب: أن مراتب الكفر مختلفة بالشدة والخفة، فاختلقت مراتب العذاب.

وقول آخر: إنها سبعة أقسام، ولكل قسم باب، أولها كما ذكر ابن جريج: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. الأولى كما ذكر الضحاك: للعصاة الموحدين، والثانية: لليهود، والثالثة: للنصارى، والرابعة: للصابئين، والخامسة: للمجوس، والسادسة: للمشركين، والسابعة: للمنافقين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادت الآيات ما يأتي:

أ - خلق الله آدم عليه السلام الإنسان الأول من طين يابس، مما يدل على القدرة الإلهية.

وخلق الجان من قبل خلق آدم من نار جهنم أو من الريح الحارة التي تقتل، أو من نار لا دخان لها. ورد في صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:

«لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، وينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك»^(١).

٢ - كرم الله الأصل الإنساني، فأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، ولله أن يفضل من يريد، ففضل الأنبياء على الملائكة، وامتنحهم الله بالسجود له تعريضاً لهم للشواب الجزيل.

٣ - سجد الملائكة له كلهم أجمعون إلا إبليس رفض وأبى، وإبليس ليس من جملة الملائكة: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ١٨/٥٠].

وهذا الاستثناء دليل للشافعي في جواز استثناء غير الجنس من الجنس، مثل: لفلان علي دينار إلا ثوباً أو عشرة أثواب إلا رطل حنطة، سواء المكيلات والموزونات والقيميات. وأجاز مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما استثناء المكيل من الموزون، والموزون من المكيل، كاستثناء الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم، ولم يجيزا استثناء القيميّات من المكيلات أو الموزونات، كالمثاليين المذكورين في بيان مذهب الشافعي، ويلزم المقر جميع المبلغ.

٤ - سئل إبليس عن سبب امتناعه من السجود، فأجاب بأنه مخلوق من عنصر وهو النار أشرف من التراب.

٥ - كان عقاب إبليس الطرد من السماوات أو من جنة عدن أو من جملة الملائكة، وملازمة اللعنة له إلى يوم القيامة.

٦ - سأل إبليس تأخير عذابه، زيادة في بلائه، كالأيس من السلامة، وأراد الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا

(١) أي لا يملك نفسه ويجسها عن الشهوات، أو لا يملك دفع الوسواس عنه.

بعده، فأجله الله تعالى إلى الوقت المعلوم: وهو النفخة الأولى، حين تموت الخلائق.

٧ - صمم إبليس على مدى الحياة إغواء بني آدم وإضلالهم عن طريق الهدى، إلا المؤمنين سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين، فلا سلطان له عليهم في أن يلقيهم في ذنب يمنعهم عفو الله، وهم الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم.

٨ - قول الله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ على سبيل الوعيد والتهديد، كقولك لمن تهدده: طريقك علي، ومصيرك إلي، ومعنى الكلام: هذا أي طريق العبودية طريق مرجعه إلي، فأجازي كلاً بعمله.

٩ - استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿٤١﴾ و﴿إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْعَالَوِينَ﴾ دليل على جواز استثناء القليل من الكثير، والكثير من القليل، مثل: علي عشرة إلا درهماً، أو عشرة إلا تسعة. وقال ابن حنبل: لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه، وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح.

١٠ - إن جهنم موعد إبليس ومن اتبعه. ولجهنم سبعة أطباق، طبق فوق طبق، لكل طبقة حظ معلوم. وجهنم أعلى الدركات، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ. والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

جزاء المتقين يوم القيامة

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

القراءات:

﴿وَعُيُونٍ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (وعيون).

﴿وَعُيُونٌ ، أَدْخُلُوهَا﴾ :

كسر التنوين وصلأ: أبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وحمزة. وضمه الباقون.

الإعراب:

﴿إِخْوَانًا﴾ حال من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أو من واو ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أو من الضمير في ﴿ءَامِينَ﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَلِّبِينَ﴾ حال أيضاً.

البلاغة:

﴿أَدْخُلُوهَا يَسْلَمِ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي يقال لهم: ادخلوها.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الْمُنَّاقِينَ﴾ هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية ﴿يَسْلَمِ﴾ أي سالمين من المخاوف والآفات ﴿ءَامِينَ﴾ من كل فزع ﴿عَلَىٰ﴾ حقد وحسد دفين في القلب ﴿سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وهو المجلس العالي عن الأرض ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبداً.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٥):

﴿إِنَّ الْمُنَّاقِينَ﴾ : أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ فرّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف، لا

يعقل، فجاء به للنبي ﷺ، فسأله فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣) فوالذي بعثك بالحق، لقد قطعت قلبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥).

نزول الآية (٤٧):

﴿وَنَزَعْنَا﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم، وبني عدي، وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده، فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

للخاصة:

بعد أن ذكر الله تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم، أتبعه ببيان حال السعداء من أهل النعيم المقيم الذين لا سلطان لإبليس عليهم، وهم المتقون.

التفسير والبيان:

إن المتقين الذين اتقوا عذاب الله ومعاصيه، وأطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، فلم يتأثروا بسلطان إبليس ووساوسه، هم في جنات أي بساتين ذات ثمار دائمة وظلال وارقة، وتتفجر من حولهم عيون هي أنهار أربعة: من ماء، ولبن، وخمر غير مسكرة، وعسل مصفى، خاصة بهم أو عامة، دون تنافس أو نزاع عليها، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥/٤٧].

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ (٤٦) يقال لهم: ادخلوها سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، آمنين من كل خوف وفزع. ولا تحشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ ونزع الله كل ما في صدورهم في الدنيا من حقد وعداوة، وضغينة وحسد، حالة كونهم إخواناً متحابين متصافين، جالسين على سرر متقابلين، لا ينظر الواحد منهم إلا لوجه أخيه، ولا ينظر إلى ظهره، فهم في رفعة وكرامة.

والمراد: أن الله طهر قلوبهم من معكرات الدنيا، فلا تحاسد، ولا تباغض، ولا تدابر، ولا غيبة ولا غيبة، ولا تنازع، وألقي فيها التواذ والتحاب والتصافي؛ لأن خصائص المادة زالت بالموت في الدنيا.

جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يُخْلَصُ المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُوا، أُذِنَ لهم في دخول الجنة».

وروى ابن جرير وابن المنذر عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران ابن طلحة على علي رضي الله عنه، بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ إخواناً على سرر متقابلين ﴿١٤﴾ فقال رجلان إلى ناحية البساط: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخواناً؟! فقال علي رضي الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذن، إن لم أكن أنا وطلحة؟.

﴿لَا يَسْتُهِمُ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في تلك الجنات تعب ولا مشقة ولا أذى، إذ لا حاجة لهم إلى السعي والكدح، لتيسير كل ما يشتهون أمامهم دون جهد. جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة بيت في الجنة من نَصَب، لا صَحَب فيه، ولا نَصَب».

﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي وهم ماكثون فيها، خالدون فيها أبداً، لا

يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا يُحْمَلُونَ عَنْهَا. جاء في الحديث الثابت: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تطفوا أبداً». وقال الله تعالى: ﴿خَلِّدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حَوْلاً﴾ (الكهف: ١٨/ ١٠٨).

والخلاصة: إن مقومات النعيم والثواب والمنافع ثلاثة: الاقتران بالاطمئنان والاحترام، وهو قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ (٤١)، والصفاء من شوائب الضرر والمعكرات الروحية كالحقد والحسد، والجسمية كالإعياء والمشقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا﴾ (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ) والدوام والخلود بلا زوال، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - إن جزاء المتقين الذين اتقوا الفواحش والشرك جنات أي بساتين وعيون هي الأنهار الأربعة: ماء وخر ولبن وعسل. ويقال لهم: ادخلوها بسلامة من كل داء وآفة، آمنين من الموت والعذاب، والعزل والزوال، فهم في احترام وتعظيم. والقول الحق الصحيح وهو قول جمهور الصحابة والتابعين أن المراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به. وقال المعتزلة: هم الذين اتقوا جميع المعاصي.

ب - لا يتعرض أهل الجنة لشيء من الأضرار والمؤذيات، فهم في خلوص من شوائبها الروحانية كالحقد وغيره، والجسمانية كالتعب والمرض، وهم في نعمة وكرامة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، تواصلًا ونحائبًا.

(١) تفسير الرازي: ١٩٣/١٩

٣ - إن نعيم الجنة دائم لا يزول، وإن أهلها باقون: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ﴿أَكُلُوا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ١٣/٣٥] ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَاقٍ﴾ [ص: ٥٤/٣٨].

٤ - الجنات أربع والعيون أربع، أما عدد الجنات فلقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦/٥٥] ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢/٥٥]. وأما العيون فهي أربعة أيضاً وهي المذكورة في الآية المتقدمة: ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾.

المغفرة والعذاب

﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [٥٠]

القراءات:

﴿عِبَادِي أَنِّي﴾:

وقراً نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: (عبادي أني).

البلاغة:

﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [٥٠] يوجد مقابلة بين العذاب والمغفرة، وبين الرحمة والعذاب.

المفردات اللغوية:

﴿نَبِيٌّ﴾ أخبر يا محمد. ﴿الْغَفُورُ﴾ للمؤمنين. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ للعصاة. ﴿الْأَلِيمُ﴾ المؤلم.

قال البيضاوي: وفي ذكره المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالمغفرة والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده.

سبب النزول:

أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون، فقال: «أتضحكون، وذكّر الجنة والنار بين أيديكم، فنزلت هذه الآية: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾».

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: أطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه، فقال: «لا أراكم تضحكون، ثم أدبر ثم رجع الفهقري، فقال: إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر، جاء جبريل، فقال: يا محمد، إن الله يقول: لَمْ تُقْنِطْ عِبَادِي: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾».

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخّع نفسه».

للناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ وهو إخبار عن سنة الله في عباده أنه غفار للذنوب الثائبين المنيبين إلى ربهم، ومعذب بعذاب مؤلم من أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها.

التفسير والبيان:

أخبر يا محمد عبادي أني ذو مغفرة ورحمة، وذو عذاب أليم. وهذا دال على

مقامي الرجاء والخوف. فالله تعالى يستر ذنوب من تاب وأناب، فلا يفضحهم ولا يعاقبهم، ويرحمهم فلا يعذبهم بعد توبتهم. وهذا يشمل المؤمن الطائع والمعاصي.

وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن أصرَّ على الكفر والمعاصي ولم يتب منها هو العذاب المؤلم الشديد الوجود. وهذا تهديد وتحذير من اقرار المعاصي.

ففي الآية كغيرها من الآيات الكثيرة جمع بين التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، ليكون الناس بين حالي الرجاء والخوف.

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ عَاكِدُونَ﴾ الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله، لما تورّع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله، لبخع نفسه».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذي عنده من رحمة لم يئأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار».

ورواية مسلم هي: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من رحمته أحد».

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآية دليل آخر على وسطية الإسلام، فينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره، فيخوف ويرجي، ويكون الخوف في حال الصحة أغلب عليه منه في حال المرض، فهو في حال دائمة بين الخوف والرجاء؛ لأن القنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوسطها.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء، وهو كثير المغفرة لمن تاب وأناب، ولكنه أيضاً لتحقيق التوازن وقمع الفاحشة والمنكر والشرك شديد العذاب لمن أصرَّ على معصيته، ومات قبل التوبة والإنابة، وذلك هو العدل المطلق.

وكل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفوراً رحيماً، ومن أنكر ذلك، كان مستوجباً للعقاب الأليم؛ لأنه كما يقول الأصوليون: ترتيب الحكم على الوصف يشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم أو «تعليل الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق». فقد وصفهم بكونهم عباداً له، ثم ذكر عقيب هذا الوصف: الحكم بكونه غفوراً رحيماً.

قال الرازي: وفي الآية لطائف:

إحداها - أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ وهذا تشریف عظيم.

وثانيها - لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة هي: ﴿أَنِّي﴾ و﴿أَنَا﴾ وإدخال الألف واللام على قوله: ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ولما ذكر العذاب لم يقل: إني أنا المعذب، وما وصف نفسه بذلك، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وثالثها - أنه أمر رسوله بأن يبلغهم هذا المعنى، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها - أنه لما قال: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي﴾ كان معناه: نبي كل من كان معترفاً بعبوديتي، وهذا يدخل فيه المؤمن المطيع والمؤمن العاصي. وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى^(١).

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٩٤/١٩ - ١٩٥

قصة ضيف إبراهيم وإخبارهم بإهلاك قوم لوط

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُون ٥٤﴾ قَالُوا بِشْرْنِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْفٰنِطِينَ ٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ٥٨﴾ إِلَّا عَالُ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ فَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَدِيرُ ٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ عَالُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ ٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْلِ وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون ٦٨﴾ وَانْقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا ٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٧١﴾ لَعَنَّا لَعْنَةً لِعَمَلِكِ إِيَّاهُمْ لَمَّا سَكَرْنَاهُمْ بِعَمَهُونَ ٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَاهُمَا وَامْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّعِينَ ٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧﴾

القراءات:

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾:

وقرأ حمزة (نُبَشِّرُكَ).

﴿يُبَشِّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَبَشِّرُونَ) وهي قراءة نافع.

٢- (تَبَشِّرُونَ) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (تُبَشِّرُونَ) وهي قراءة الباقيين.

﴿يَقْنِطُ﴾ :

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (يَقْنِطُ).

﴿لَتُنْجُوهُمْ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (لَتُنْجُوهُمْ).

﴿جِيْنَاكَ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيناك).

﴿فَاشِرٍ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير (فاشر).

﴿بَنَاتٍ﴾ :

وقرأ نافع (بناتي).

الإعراب:

﴿فِيمَ﴾ هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب، أي فبأي أعجوبة

تبشرون؟

﴿تُبَشِّرُونَ﴾ فتحت النون؛ لأنها نون الجمع، قياساً على فتحها في جمع

الاسم، نحو الزيدون، كما كسرت النون بعد ضمير الفاعل إذا كان مثنى في

نحو (تفعلان) قياساً على كسرهما في تثنية الاسم، نحو «الزيدان» حملاً للفرع على الأصل. و«بُشِّرُونَ» هنا فعل متعدٍ، والمفعول محذوف.

وقرئ: «بُشِّرُونَ» بنون خفيفة مكسورة، وأصله: تبشرونني، فاجتمع حرفان متحركان من جنس واحد، وهما نون الوقاية ونون الإعراب، فحذف إحداهما تخفيفاً، وحذفت ياء الإضافة وبقيت الكسرة قبلها تدل عليها.

وقرئ «بُشِّرُونَ» بنون مشددة مكسورة، ولما استقل اجتماع النونين المتحركتين، سکن النون الأولى، وأدغمها في الثانية، قياساً على كل حرفين متحركين من جنس واحد في كلمة واحدة. ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة قبلها تدل عليها.

«إِلَّا آلَ لُوطٍ» منصوب؛ لأنه استثناء منقطع؛ لأن (أتباع لوط) ليسوا من القوم المجرمين. و«أَمْرَاتُهُ» منصوب على الاستثناء من آل لوط. وهذا الاستثناء يدل على أن الاستثناء من الإيجاب نفي ومن النفي إيجاب؛ لأنه استثنى آل لوط من المجرمين، فلم يدخلوا في الإهلاك، ثم استثنى من آل لوط «أَمْرَاتُهُ» فدخلت في الهلاك.

«إِنَّمَا لِمَنِ الْفَنَائَتُ» لما دخلت اللام علقت الفعل عن العمل، مثل: «قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» [النافقون: ١/٦٣].

«أَنْتَ دَابِرٌ» منصوب على البدل من موضع «ذَلِكَ» إن جعل الأمر عطف بيان، أو بدل من «الْأَمْرُ» إن كان «الْأَمْرُ» بدلاً من «ذَلِكَ». و«مُصْحِحِينَ» حال من «هَؤُلَاءِ». وعامل الحال معنى الإضافة: «دَابِرٌ هَؤُلَاءِ» من المضامة والممازجة.

«عَنِ الْعَالَمِينَ» أي عن ضيافة العالمين، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، أي لعمرك قسمي.

البلاغة:

﴿فَدَرَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْفَرِيدِ﴾ أسند فعل التقدير إلى الملائكة مجازاً وهو لله وحده، لما لهم من القرب.

﴿دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾ كناية عن عذاب الاستئصال.

﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ بينهما طباق.

﴿الْقَلْبِطِينَ﴾ ﴿الْفَرِيدِ﴾ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ﴿مُصْحِحِينَ﴾ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ ﴿لَا تُنَوِّسِينَ﴾ فيها سجع، وكذا في ﴿الضَّالُّونَ﴾ ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿الْمُتَّقُونَ﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾ أخبرهم وهو معطوف على ما سبق وهو: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ وفي العطف تحقيق لهما ﴿ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة، منهم جبريل، بشروه بالولد، وبهلاك قوم لوط. وكلمة ضيف تستعمل بلفظ واحد للمفرد والمتنّى والجمع والمؤنث والمذكر. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿وَجِلُّونَ﴾ خائفون فزعون. ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف. ﴿إِنَّا﴾ رسل ربك. ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل. ﴿بِقُلْمٍ عَلِيمٍ﴾ أي ذي علم كثير إذا بلغ، هو إسحاق، لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١/١١].

﴿أُبَشِّرُكُمْوَنِي﴾ بالولد. ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ حال، أي مع مسّه إياي. ﴿فِيدَ﴾ فبأي شيء. ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر المحقق الذي لا شك فيه، أي بالصدق أو باليقين. ﴿الْقَلْبِطِينَ﴾ الآيسين من الولد للكبر. ﴿وَمَنْ يَفْقَظْ﴾ أي لا يقنط. ﴿الضَّالُّونَ﴾ الكافرون الذي لا يعرفون

كمال قدرته تعالى وسعة رحمته، أو البعيدون عن الحق. ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم وحالكم؟ والخطب: الأمر الخطير. ﴿تُجْرِمُونَ﴾ كافرين، هم قوم لوط، وأرسلنا لإهلاكهم. ﴿لَمُنْجُوهُمْ﴾ لخلصوهم مما هم فيه؛ لإيمانهم. ﴿فَدَرْنَا﴾ قضينا وكتبنا، والتقدير: جعل الشيء على مقدار معين، وأسند الملائكة التقدير لأنفسهم مع أنه هو فعل الله تعالى، لما لهم من القرب والاختصاص به.

﴿الْعَذِيبَاتِ﴾ الباقيات في العذاب؛ أي بقيت امرأته في العذاب لكفرها. ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ﴾ أي لوطاً. ﴿قَالَ﴾ لوط لهم. ﴿مُنْكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم. ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ﴾ أي قومك. ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكون، وهو العذاب. ﴿لَصَدِيقُونَ﴾ في قولنا.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ اذهب بهم ليلاً. ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بجزء أو طائفة من الليل. ﴿وَأَتَّبِعْ أَزْوَاجَهُمْ﴾ امش خلفهم أو على إثرهم. ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم، أو يطلع على أحوالهم، فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو فيصيه ما أصابهم. ﴿حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله، وهو الشام أو مصر، ففيه تعدية الفعل: ﴿وَأَمْضُوا﴾ إلى حيث، وتعدية: ﴿تَوَمَّرُونَ﴾ إلى ضميره المحذوف. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أوحينا إلى لوط. ﴿أَنْتَ دَابِرٌ﴾ آخر. ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مهلك مستأصل. ﴿مُضْهِجِينَ﴾ حال، أي يتم استئصالهم في الصباح، أي عند طلوع الصبح.

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ مدينة سدوم، وهي مدينة قوم لوط، أي جاء قوم لوط لما أخبروا أن في بيت لوط مرداً حسناً وهم الملائكة. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حال، طمعاً في فعل الفاحشة بهم، والاستبشار: إظهار السرور. ﴿فَلَا نَفْضَحُونَ﴾ في ضيفي، والفضيحة: إظهار ما يوجب العار، فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه. ﴿وَأَنفِقُوا آلَهُ﴾ في اقتراف الفاحشة. ﴿وَلَا تَحْزَنُونَ﴾ ولا تذلون

سببهم، والخزي: الذل والهوان أي لا تلحقوا بي ذلاً بقصدكم إياهم، بفعل الفاحشة بهم، أو لا تحجلوني فيهم، من الخزية وهو الحياء.

﴿أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي عن إضافتهم أو إجارة أحد منهم، أو لم تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل غريب، وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعته. ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساء القوم، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم، أو هؤلاء بناتي فتزوجوهن. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ أي قضاء الوطر. ﴿لَعَنُوكَ﴾ يكون بفتح العين حال القسم، وهو قسم من الله تعالى بحياة المخاطب وهو النبي ﷺ، أي وحياتك، والعمر: بفتح العين وضمها: الحياة. ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ غوايتهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون. ﴿الْصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل، وهي الصاعقة، قال ابن جرير: وكل شيء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس، أي داخلين في وقت الشروق.

﴿عَلَيْهَا﴾ أي قراهم. ﴿سَافِلَهَا﴾ بأن رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض، فصارت منقلبة بهم. ﴿سَجِيلٍ﴾ طين متحجر، طبخ بالنار، وهو لفظ معرّب. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكََ﴾ المذكور. ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على وحدانية الله. ﴿لِلْمُتَوَسِّينَ﴾ للناظرين المتفكرين المعتبرين. ﴿وَأَنَّهُ﴾ قرى قوم لوط. ﴿لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ﴾ على طريق قومك قريش إلى الشام، بنحو واضح لم تدرس آثارها، يمر بها الناس ويرون آثارها، أفلا يعتبرون بها. ﴿لَآيَةٍ﴾ لعبرة. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد، وأحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء. وكان ذكر هذه القصص تفصيلاً للوعد والوعيد، فبدأ أولاً

بقصة إبراهيم عليه السلام للبشارة بسلام عليه، ثم ذكر إهلاك قوم لوط، لاقترافهم جريمة فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

التفسير والبيان:

وأخبرهم يا محمد عن ضيوف إبراهيم المكرمين، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، فقالوا حين دخلوا عليه: سلاماً، أي سلاماً من الآفات والآلام والمخاوف. وكان إبراهيم عليه السلام يكنى: أبا الضيفان.

فقال إبراهيم للضيوف: إنا خائفون منكم؛ لدخولهم عليه بلا إذن، أو لما رأى أيديهم لا تمتد إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيد (المشوي بالحجارة المحماة). وهذا يعني أنهم يبيتون شراً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠/١١].

فأجابوه بقولهم: ﴿لَا نُؤْجَلُ﴾ لا نخف، وفي سورة هود: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠/١١] فهذا تعليل النهي عن الوجمل في تلك السورة، وأما هنا فعللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ أي أتينا لبشارتك بميلاد غلام ذي علم وفطنة وفهم لدين الله؛ لأنه سيكون نبياً، وهو إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود [٧١] وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢/٣٧].

﴿قَالَ أَبَشِّرْنُنِي﴾ أجاب إبراهيم متعجباً من مجيء ولد حال كبره وكبر زوجته، ومتحققاً من الوعد، أبشرونني بذلك بعد أن أصابني الكبر، فبأي أعجوبة تبشرونني، أو إنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة، فبأي شيء تبشرون؟ يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء.

فأجابوه مؤكدين لما بشروه به: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي قال ضيوف

إبراهيم له: بشرناك بما هو حق ثابت؛ إذ هو صنع الله ووعد الذي لا يتخلف، فلا تكن من القانطين اليائسين، فالذي أوجد الإنسان من التراب من غير أب وأم قادر على إيجاده من أي شيء، كأبوين عجوزين، أي إن إبراهيم استعظم نعمة الله عليه في وقت غير مألوف عادة، لا أنه استبعد ما هو داخل في نطاق القدرة الإلهية.

فأجابهم ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ أي أجاب إبراهيم الضيوف بأنه ليس يقنط، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك، ولا ييأس من رحمة الله إلا الضالون: أي المخطئون طريق الصواب، كما قال يعقوب: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٨٧].

ثم بعد تأكيد إبراهيم الخليل عليه السلام من هذه البشرى وعلمه أنهم ملائكة، وذهاب الروع عنه، سألمهم عن أمرهم بسبب مجيئهم مختفين: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي قال لهم: فما شأنكم وما الأمر الذي أرسلتم به غير البشرى أيها الملائكة المرسلون؟ كأنه فهم من قرائن الأحوال أن لهم مهمة أصلية غير البشرى؛ لأن البشرى كما حدث لزكريا ومريم يكفيها واحد.

فأجابه: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ أي قالوا له: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين مشركين هم قوم لوط، الذين يتعاطون المنكر، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء، لنهلكهم.

ثم أخبروه أنهم سينتجون آل لوط جميعهم من بينهم إلا امرأته التي كانت متواطئة مع قومها، فإنها من الغابرين، أي الباقيين مع الكفرة الهالكين، فإنها مخلصوهم أجمعين من ذلك العذاب: عذاب الاستئصال، إلا امرأة لوط، قضى الله عليها أن تكون مع المهلكين، لإعانتهم على مقاصدهم الخبيثة.

وقد أضاف الملائكة التقدير في قولهم: ﴿فَدَرْنَا﴾ إلى أنفسهم، مع أنه الله تعالى، لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والأمر هو الملك، وليس هم.

ثم بدأت قصة الدمار والعذاب ومجيئهم إلى لوط عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم فبشروه بالولد، وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين، ذهبوا بعدئذ إلى لوط وآله في صورة شباب حسان الوجوه، في بلدهم (سدوم) ولم يعرف لوط وقومه أنهم ملائكة الله، كما لم يعرفهم إبراهيم بادئ ذي بدء، فقال لهم لوط: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾ أي إنكم قوم غير معروفين لدي، تنكروكم نفسي، وأخاف أن تباغتوني بشر، فمن أي الأقوام أنتم؟! كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧/١١]. وقيل: أنكر حالتهم، وخاف عليهم من إساءة قومه، لما رآهم شباناً مُرداً حسان الوجوه.

فأجابوه ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي قالت الملائكة له: جئناك بما يسرك، وهو عذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، ويكذبونك فيه قبل مجيئه.

ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم: ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالأمر المحقق واليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه، وهو عذاب قوم لوط، وهذا مثل قوله تعالى ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨/١٥].

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ وهذا تأكيد آخر، أي وإنا لصادقون فيما أخبرناك به، من هلاكهم ونجاتك مع أتباعك المؤمنين.

وإنما وصفوا مهمتهم بهذا الوصف، ولم يصرحوا بعذابهم، لإفادة تحقق عذابهم، وإثبات صدقه عليه السلام فيما دعاهم إليه.

ثم جاءت مرحلة التنفيذ وبيان خطة النجاة للوط وأتباعه، فقالوا له: ﴿فَاسْرِ يَا هَلِكٌ يَقْطَعُ مِنَ الْإِيلِ﴾ أي فسر بأهلك بعد مضي جزء من الليل، وأهلك: ابتناه فقط ﴿وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ﴾ أي وامش وراء أهلك ليكون أحفظ لهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم، فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما أصابهم من العذاب والنكال، حتى لا يرق قلبه لهم.

وأكدوا النهي بقوله: ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي سيروا بأمر ربكم غير ملتفتين إلى ما وراءكم، إلى الشام، كما قال ابن عباس، أو حيث يوجهكم جبريل الذي أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة، لم يعمل أهلها مثل عمل قوم لوط.

وأوحى الله إليه أن التنفيذ سريع الحصول فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ﴾ أي وأوحينا إليه أو تقدمنا إليه أن أمر هلاكهم مقضي قضاء مبرماً، وأن آخر هؤلاء وأولهم مستأصل وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١/١١]. فقوله: ﴿دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني آخرهم، أي يستأصلون عن آخرهم، حتى لا يبقى منهم أحد.

ثم ذكر الله تعالى في ثنايا القصة ما عزم عليه قوم لوط من الإساءة لهؤلاء الضيوف، فقال: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٧) أي جاء قوم لوط أهل سدوم، حين علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، مستبشرين بهم فرحين، أملًا في ارتكاب الفاحشة معهم. وهذا جرم فظيع، وأمر مستهجن، ينافي الأعراف والأذواق السليمة من إكرام الغريب والإحسان إليه.

قيل: إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن، اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط. وقيل: إن امرأة لوط أخبرتهم بذلك. وعلى أي حال قال القوم: نزل بلوط ثلاثة من المرد، ما رأينا قط أصبح وجهًا، ولا أحسن شكلًا منهم، فذهبوا إلى دار لوط.

فقال لهم لوط جملتين مؤثرتين، الأولى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُون﴾ أي هؤلاء ضيوف، فلا تفضحوني فيهم، أي بارتكاب ما يؤدي إلى العار معهم، والضيف يجب إكرامه، فإذا قصدتموهم بالسوء، كان ذلك إهانة لي.

والثانية مؤكدة للأولى: ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (١٩) أي وخافوا عذاب الله، ولا تخزون أي ولا تذلونني بإذلال ضيفي، ولا توقعوني في الخزي (أي الهوان) والعار، بالإساءة إليهم.

فأجابوه: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ (٢٠) أي ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة، ونهيناك أن تضيف أحداً.

فأجابهم ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٢١) أي قال لوط لقومه مرشداً لهم: تزوجوا النساء اللاتي أباحهن الله لكم، وتجنبوا إتيان الرجال، إن كنتم فاعلين ما أمركم به، متتهين إلى أمري. والمراد بيناته: نساء قومه؛ لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم، كما قال تعالى في حق نبينا ﴿الَّتِي أَوْفَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦/٣٣] وفي قراءة أبي: وهو أب لهم. وقيل: المراد بناته من صلبه، أي الزوج بهن.

وهذا كله، وهم غافلون عما يراد بهم، ويحيط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر، لهذا قال تعالى لمحمد ﷺ أو قالت الملائكة للوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢٢) أي أقسم بحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا أيها الرسول - وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع - إنهم في غوايتهم يتحIRON، فلا يلتفتون إلى نصيحتك، ولا يميزون بين الخطأ والصواب. و﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ ضلالتهم، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون أو يلعبون.

قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذراً، وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره.

ثم أخبر الله تعالى عن نوع عذابهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (٢٣) أي فنزل فيهم صيحة جبريل عليه السلام: وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، فقلوه ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس. وكان ابتداؤها من الصبح وانتهائها حين الشروق، لذا قال أولاً ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ثم قال هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾.

وأخذ الصيحة: قهرها لهم وتمكنها منهم، وقد أدت بهم إلى رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. والصيحة: صوت شديد مهلك من السماء.

وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۖ﴾ أي جعلنا عالي المدينة وهو ما على وجه الأرض سافلها أي في أعماقها، فانقلبت عليهم، وأنزل تعالى عليهم حجارة من طين متحجر طبخ بالنار.

يظهر مما سبق أن الآية ذكرت أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب هي:

١ - الصيحة الهائلة المنكرة.

٢ - أنه جعل عاليها سافلها.

٣ - أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل.

ثم ذكر تعالى العبرة من تلك القصة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ۖ﴾ أي إن في ذلك العذاب الواقع بقوم لوط لدلالات للمتأملين المتفرسين، الذين يتعظون بالأحداث، ويتفهمون ما يكون لأهل الكفر والفواحش من عقاب أليم.

وبالمناسبة: روى البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ۖ﴾.

ثم وجه تعالى أنظار أهل مكة وأمثالهم إلى الاعتبار بما حدث فقال: ﴿وَأَنَّهُ

لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ أي وإن مدينة سدُوم التي أصابها هذا العذاب بطريق واضح، لا تحفى على المسافرين المارين بها، فآثارها ما تزال باقية إلى اليوم، في الطريق من الحجاز إلى الشام، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّا لَنُرَوِّنَا عَنْهُمْ مَضِيقِينَ ﴿٧٧﴾ وَيَأْتِلْ أَعْلَانَا نَعْقُلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٣٧-١٣٨].
فقوله: ﴿لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي بطريق واضح.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجاءنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله، أي إن المتفعين حقاً من مغزى القصة هم المؤمنون الذين يدركون أن العذاب انتقام من الله لأنبيائه. أما غير المؤمنين بالله، فينسبون الدمار للطبيعة والشؤون الأرضية.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت القصة إلى ما يأتي:

- ١ - تعليم أدب الضيف بالتحية والسلام حين القدوم على الآخرين.
- ٢ - وصف أحاسيس المضيف ومخاوفه حين تقديم الطعام لضيفه وامتناعهم عن الأكل.
- ٣ - كانت بشارة الملائكة لإبراهيم بولادة إسحاق سبباً في طرد مخاوفه وإشعاره بالأمن والسلامة.
- ٤ - كان استفهام إبراهيم الخليل استفهام تعجب من مخالفة العادة، وحصول الولد حال الشيخوخة التامة من الأبوين معاً، ولم يكن استفهامه استبعاد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر؛ لأن إنكار قدرة الله تعالى حينئذ كفر.

هـ - أكد الملائكة البشارة، وأنها حق ثابت لا خلف فيه، وأن الولد لا بد منه، ثم نهوه عن القنوط واليأس. ويلاحظ أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهي فاعلاً للمنهي عنه، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨/٣٣] .

وقد نفى إبراهيم القنوط عن نفسه قائلاً ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب. وهذا يعني أنه استبعد الولد لكبر سنه، لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

٦ - لا خلاف في اللغة العربية في أن الاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٩ استثنى آل لوط من القوم المجرمين، فهم ناجون، ثم استثنى امرأته من آل لوط، فهي هالكة.

٧ - لم يعرف لوط وآله أن الضيوف ملائكة، كما لم يكن إبراهيم قد عرفهم. وقيل: كانوا شباباً، ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنة قومه، فهذا هو الإنكار في قوله ﴿قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾.

٨ - ليس محموداً إطالة المكث أو النظر إلى آثار القوم الذين دمرهم الله، ويسن الإسراع حين المرور في تلك الديار؛ لأنها أماكن غضب ولعنة.

٩ - نهى الله تعالى لوطاً وأتباعه عن الالتفات أثناء نزول العذاب بقوم لوط، حتى لا تأخذهم الشفقة عليهم، وليجدوا في السير، ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح.

١٠ - كان تصميم قوم لوط على ارتكاب الفاحشة مع هؤلاء الضيوف دليلاً مادياً آخر على فحشهم وكفرهم وضلالهم.

١١ - قول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُ فَاعِلِينَ﴾ سواء كنَّ

بناته الصليبات أو نساء قومه: إرشاد إلى الشيء المباح غير الحرام، أي فتزوجهن ولا تركنوا إلى الحرام. ويكفر من فهم غير ذلك؛ لأن الزنى حرام في كل الملل والأديان، ولا يقره نبي قط ولو للضرورة.

١٢ - قوله تعالى: ﴿لَعَنُوكَ﴾: قال القاضي عياض وابن العربي فيه: أجمع أهل التفسير في هذا: أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، تشریفاً له، وأن قومه من قريش في سكرتهم أي في ضلالتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى قوم لوط، أنهم كانوا في سكرتهم يعمهون، وأن الملائكة قالت له ﴿لَعَنُوكَ﴾.

ويكره لدى كثير من العلماء أن يقول الإنسان: لعمرى؛ لأن معناه: وحياتي، فهو حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال. وقال الإمام أحمد: من أقسم بالنبي ﷺ لزمته الكفارة.

١٣ - كان عقاب قوم لوط بالصيحة وقلب بلدهم عاليها سافلها، وإمطار حجارة من سجيل أي طين متحجر مطبوخ بالنار عليهم.

١٤ - إن في هذه القصة لعبرة وعظة للمؤمنين الصادقين. والآثار المادية لديار قوم لوط في طريق الشام خير شاهد وأصدق دليل للمتعطين. هذا.. ولم يجز المالكية القضاء بالتوسم والتفرس، فذلك دليل غير متيقن، فلا يترتب عليه حكم.

قصة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحجر (ثمود)

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْزَلْنَا مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ لِيَأْمُرَ بِبَنِيهِ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتًا﴾:

قري:

١- (بُيُوتًا) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بُيُوتًا) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ هنا: مخففة من الثقيلة، ومعنى إن ولام ﴿لظَالِمِينَ﴾ للتوكيد.

البلاغة:

﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: الغيضة: وهي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض، وهي بقرب مدين. ﴿لُطَائِمِينَ﴾ بتكذيبهم شعبياً. ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بأن أهلكناهم بشدة الحر. ﴿وَأَنَّهُمَا﴾ قرى قوم لوط والأيكة. ﴿لِيَأْمُرَ مُبِينَ﴾ أي لطريق واضح. والإمام: ما يؤتم به، سمي به الطريق؛ لأنه يُؤْتَم وَيُتَّبَع.

﴿أَصْحَابُ الْعِجْرِ﴾ هم ثمود، والحجر: واد بين المدينة والشام، كانوا يسكنونه، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً، ومنه حجر الكعبة. ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذب أصحاب الحجر صالحاً، وعبر بالجمع عن المفرد؛ لأنه تكذيب لباقي الرسل، لاشتراكهم في الجحيم بالتوحيد.

﴿عَائِلَتَنَا﴾ هي الناقة التي فيها آيات كثيرة، كعظم خلقها، وكثرة لبنها، وكثرة شربها، أو المراد آيات الكتاب المنزل على نبيهم. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح. ﴿أَغْنَى﴾ دفع. ﴿عَنَّهُمُ﴾ العذاب. ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والحصون وجمع الأموال. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي خلقاً ملتبساً بالحق، ملازماً له، لا يلائم استمرار الفساد، ودوام الشرور. ﴿لَأَنبِيَاءَ﴾ لا محالة، فيجازي كل أحد بعمله. ﴿فَأَصْفَحَ﴾ يا محمد عن قومك. ﴿الْصَّفْحَ الْجَبِيلَ﴾ أعرض عنهم إعراضاً لا جزع فيه، أو لا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. ﴿الْخَالِقُ﴾ لكل شيء، خلقك وخلقهم، ويده أمرك وأمرهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل إليه الأمر.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة والرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، فأولها: قصة آدم وإبليس، وثانيها: قصة إبراهيم ولوط، وثالثها: هذه القصة

- قصة أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض (أشجار متشابكة كثيرة) فكذبوا شعيباً، فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة، أي الصيحة وقت الصباح، لشركهم بالله، ونقصهم المكيال والموازين. ورابعها: قصة صالح مع قومه، كان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها، وظهور نتاجها عند خروجها، وكثرة لبنها.

والهدف من إيراد هذه القصص كما بينا الترغيب في الطاعة الموجبة للفوز بالجنان، والتحذير من المعصية المؤدية لعذاب النيران، وتسلية النبي ﷺ بها عن تكذيب قومه له.

وأما مناسبة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ﴾ فهو أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار، فكأنه قيل: الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم؟ فأجاب عنه بأني إنما خلقت الخلق ليكونوا مشغولين بالعبادة والطاعة، فإذا تركوها وأعرضوا عنها، وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم. أو إن المراد من هذه الآية تصبير الله تعالى محمداً عليه السلام على سفاهة قومه، فإنه إذا عرف أن الأنبياء السابقين عاملتهم أممهم بمثل هذه المعاملات الفاسدة، سهل عليه تحمل السفاهات من قومه.

التفسير والبيان:

أي إن أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب ظالمون، بسبب شركهم بالله، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريبي الزمان من قوم لوط بعدهم، ومجاورين لهم في المكان، لذا لما أنذر شعيب قومه قال: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ يَنْتَكُمُ يَبْعِيدُ﴾ [هود: ٨٩/١١].

والأيكة: الشجر الملتف.

روى ابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعباً».

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي فعاقبناهم جزاء كفرهم ومعاصيهم، عاقبنا أهل الأيكة بيوم الظلة: وهو إصابتهم بحر شديد سبعة أيام، لا ظل فيه، ثم أرسلت عليهم سحابة، فجلسوا تحتها، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم. وعاقبنا أهل مدين بالصيحة.

﴿وَأَنبَأْنَا لِيَامَايَ ثَمِين﴾ أي وإن كلاً من قرى قوم لوط وبقرة أصحاب الأيكة لبطريق واضح يسلكه الناس في سفرهم من الحجاز إلى الشام. والإمام: ما يؤتم به، وجعل الطريق إماماً لأنه يؤتم ويتبع حتى يصل إلى الموضع الذي يريد.

ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الحجر وهم ثمود، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ أي ولقد كذبت ثمود صالحاً نبياً عليهم عليه السلام، ومن كذب رسولاً فقد كذب بجميع المرسلين، لاتفاق أصول دعوتهم في التوحيد وعبادة الله وأمهات الفضائل، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

﴿وَأَنبَأْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي وآتيناهم وأعطيناهم من الآيات والدلائل ما يدلهم على صدق نبوة صالح عليه السلام، كالناقة التي أخرجها الله من صخرة صماء بدعاء صالح، فأعرضوا عنها وعقروها ولم يعتبروا بها، فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب يوم من نهر صغير ولهم شرب يوم آخر، ولبنها كثير كان يكفي القبيلة.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ﴾ أي وكانت لهم بيوت نحتوها في الجبال وأصبحوا بها آمنين من الأعداء، من غير خوف، لقوة إحكامها، وهي ما تزال مشاهدة بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، فقتل رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه - فيما رواه البخاري وغيره عن ابن عمر -: «لا

تدخلوا بيوت القوم المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا، خشية أن يصيبكم ما أصابهم».

﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّبْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي لما عَتَوْا وبغوا وعقروا الناقة، أخذتهم صبيحة الهلاك في وقت الصباح من اليوم الرابع من موعد العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَعُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥/١١] .

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ أي فما نفعتهم تلك الأموال لما جاء أمر ربك، وما دفعت عنهم ذلك العذاب، ولم يستفيدوا من مكاسبهم وهي ما كانوا ينحتونه من البيوت في الجبال، وما كانوا يستغلونه من الزروع والثمار، التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها، لئلا تضيق عليهم في المياه، بل أصبحوا هلكى جائئين.

ولما أخبر الله تعالى عن إهلاك الكفار، فكأن شخصاً تساءل، كيف يليق التعذيب والإهلاك بالرحيم الكريم؟ فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي وما خلقنا هذه المخلوقات في السماء والأرض وما بينهما إلا بالحق، أي بالعدل والحكمة، لا ظلماً، ولا باطلاً ولا عبثاً، ليكون الخلق مشغولين بالعبادة والطاعة، فإذا تركوها وأعرضوا عنها، وجب في مقتضى العدل والحكمة إهلاكهم وتطهير الأرض منهم. وفي هذا إشارة إلى أن تعذيب المكذبين للنبي ﷺ في الآخرة هو حق وعدل وحكمة ومصلحة للبشر أنفسهم.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي وإن يوم القيامة آت لا ريب فيه، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وفي هذا تهديد للعصاة، وترغيب للطائعين.

﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي فأعرض يا محمد عن المشركين، واحتمل ما

تَلْقَى مِنْهُمْ مَنْ أَذَى إِعْرَاضاً جَيْلاً بِجَلْمٍ وَإِغْضَاءً، وَهَذَا مَخَالِقَةٌ لِلنَّاسِ بِخَلْقِ حَسَنٍ، فَهُوَ غَيْرُ مَنْسُوخٍ. وَالشَّائِعُ أَنَّ هَذَا الصَّفْحَ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، فَهُوَ مَنْسُوخٌ.

قال الرازي: كون الصَّفْحِ مَنْسُوخاً بِآيَةِ السِّيفِ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يُظْهَرَ الْخَلْقَ الْحَسَنَ وَالْعَفْوَ وَالصَّفْحَ، فَكَيْفَ يَصِيرُ مَنْسُوخاً؟^(١)

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) أَيِ إِنَّ رَبَّكَ كَثِيرُ الْخَلْقِ، خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَاسِعَ الْعِلْمِ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ، وَإِنَّ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ السَّاعَةِ، فَإِنَّهُ الْخَلَّاقُ الَّذِي لَا يَعْجِزُهُ خَلْقُ شَيْءٍ، الْعَلِيمُ بِمَا تَبَدَّدَ مِنَ الْأَجْسَادِ، وَتَفَرَّقَ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ الْأَرْضِ، فَالْجَمِيعُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، مُحَاسِبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فقه الحياة أو الأحكام:

هَاتَانِ قِصَّتَانِ مِنْ قِصَصِ الْأُمَمِ الْبَائِئِةِ الظَّالِمَةِ الْمَكْذُوبَةِ لِرُسُلِهَا، تَهَيَّرَ أَعْمَاقُ الْبَشَرِ، وَتَحَرَّكَ مَشَاعِرُهُمْ، وَتَوَقَّظَ ضَرُورَةُ الصَّحْوَةِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى سَاحَةِ الْإِيمَانِ وَصَلَاحِ الْأَعْمَالِ.

فَلَقَدْ كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (قَوْمُ شَعِيبَ) رَسُولَهُمْ شَعِيباً، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْفُلُونَ بِالنَّعْمِ وَالْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمَغْدُوقَةِ، فَكَانُوا أَصْحَابَ غِيَاظٍ^(٢) وَرِيَاظٍ وَشَجَرٍ مَثْمَرٍ.

وظَلَّتْ بِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى آثَارُ مَدِينَةِ قَوْمِ لُوطَ وَبِقَعَةِ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ مَائِلَةً مُشَاهِدَةً قَائِمَةً، لِيَعْتَبَرَ بِهِمَا مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِمَا.

(١) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ: ٢٠٦/١٩

(٢) الْأَيْكَةُ: الْغِيْظَةُ، وَهِيَ جَمَاعَةُ الشَّجَرِ، وَالْجَمْعُ: الْأَيْكُ.

وكذلك كَذَّب أصحاب الحجر (ديار ثمود بين المدينة وتبوك) نبيهم صالحاً، فلم يؤمنوا برسالته، ومن كذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم؛ لأنهم على دين واحد في الأصول، فلا يجوز التفريق بينهم.

وكان عقاب هؤلاء المكذبين وهو التدمير والإبادة والهلاك التام عبرة للمعتبرين، ومثار تفكير وعظة للمتفكرين، فما أغنت عنهم الأموال والحصون في الجبال وقوة الأجسام. والله الخالق للسموات والأرض قادر على البعث والمعاد والقيامة لإقامة العدل بين الخلائق وحساب الناس أجمعين.

وقد استنبط العلماء من الآيات في ضوء السنة ما يأتي:

أ - كراهة دخول مواطن العذاب، ومثلها دخول مقابر الكفار، فإن دخل الإنسان إلى تلك المواضع والمقابر، فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ مما ذكر سابقاً من الاعتبار والخوف والإسراع، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا أرض بابل، فإنها ملعونة».

وهناك روايات أخرى لحديث ابن عمر عند البخاري وهي: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عَجْنَا واستقينا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا الماء، وأن يطرحوا ذلك العجين.

وفي لفظ آخر: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر - أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلقوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدُها الناقة.

٢ - عدم جواز الانتفاع بماء السخط، فراراً من سخط الله؛ لأن النبي ﷺ أمر بإهراق ماء بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به، وتقديمه علفاً للإبل. وهذا ينطبق على الماء النجس وما يعجن به.

٣ - قال مالك: إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهايم؛ إذ لا تكليف عليها. وكذلك قال في العسل النجس: إنه يعلفه النحل.

٤ - أمر رسول الله ﷺ بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه، كما أمر في لحوم الخمر الإنسية يوم خير، فدل على أن لحم الحمير أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس.

٥ - يجوز للرجل حمل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها؛ لأمره ﷺ بعلف الإبل العجين.

٦ - جواز التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ لأمره ﷺ أن يستقوا من بئر الناقة.

٧ - منع بعض العلماء الصلاة في موضع العذاب، وقال: لا تجوز الصلاة فيها؛ لأنها دار سخط، وبقعة غضب. فلا يجوز التيمم بترابها، ولا الوضوء من مائها، ولا الصلاة فيها. وقد روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمام، وفي معادن الإبل، وفوق بيت الله.

وزاد المالكية: الدار المغصوبة، والكنيسة والبيعة، والبيت الذي فيه تماثيل، والأرض المغصوبة، أو موضعاً تستقبل فيه نائماً أو وجه إنسان، أو جداراً عليه نجاسة.

لكن أجمع العلماء على جواز التيمم في الموضع الطاهر من مقبرة المشركين، وجواز الصلاة في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر. وقال مالك: لا يصلى على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة.

والممنوع مما ذكر مستثنى من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي عن جابر: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

أ - لا يصل في البستان (الحائط) الذي يلقي فيه النتن والعذرة لإصلاحه، حتى يسقى ثلاث مرات، لما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الحائط يلقي فيه العذرة والنتن، قال: «إذا سقي ثلاث مرات فصل فيه».

أفضال الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَالْقُرْآنَ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً: (والقرآن).

﴿إِنِّي أَنَا﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إني أنا).

﴿فَأَصْدَعْ﴾ :

بإشمام الصاد صوت الزاي قرأ: حمزة والكسائي، وخلف. والباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿كَمَا أُنزِلْنَا﴾ الكاف متعلقة بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا أَنزِلُكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾ ﴿كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ﴾، أو متعلقة بقوله: ﴿أَنَا أَنذِرُ الْمُيْتِ﴾، أي أنذرکم من العذاب ﴿كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ﴾ وهم الذين اقتسموا طرق مكة وعقابها، يمنعون الناس عن استماع كلام النبي ﷺ.

﴿عِصِينَ﴾ أي جعلوه أعضاء، حين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، و﴿عِصِينَ﴾ جمع عِصَة.

﴿فَاصِدَعٌ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ما: إما اسم موصول بمعنى الذي، و﴿تُؤْمَرُ﴾ صلته، وعائده محذوف تقديره: فاصدع بالذي تؤمر به، كما حذف من قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١/٢٥] أي بعثه الله، ومثل: أمرتك الخير أي أمرتك بالخير، وإما أن تكون «ما» مصدرية، أي فاصدع بالأمر. ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾: صفة، وقيل: مبتدأ، ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو ﴿فَسَوْفَ﴾.

البلاغة:

﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ عطف عام وهو القرآن على خاص وهو الفاتحة. ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه استعارة تبعية، شبه خفض الجناح بخفض الجناح بجامع العطف والرقعة في كل، واستعير اسم المشبه به للمشبه.

المفردات اللغوية:

﴿الْمَثَانِ﴾ جمع مثنى، من الثنية وهو التكرير والإعادة، والسبع المثنائي: هي الفاتحة، كما قال ﷺ في حديث رواه الشيخان؛ لأنها تنثى في كل ركعة، وآياتها سبع ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك إلى ما عند غيرك من حطام الدنيا. ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾

أَلَنْ جَانِبِكَ، والمراد به: التواضع واللين، مأخوذ من خفض الطائر جناحه على فرخه: إذا غطاه وضمه إليه. ﴿الْذِّبْرُ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم و﴿الْذِّبْرُ﴾ المخوف بعقاب الله من لم يؤمن به. ﴿الْمَيْيْتُ﴾ البين الإنذار، أي أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَا أَرْزَلْنَا﴾ العذاب. ﴿عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ﴾ هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر. وقيل: هم أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

﴿الْقُرْآنَ﴾ حيث قال المشركون عناداً: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين. وإذا كان المراد أهل الكتاب فالقرآن: كتبهم المنزلة عليهم، آمنوا ببعض كتبهم، وكفروا ببعض، فيكون ذلك تسلياً للنبي ﷺ.

﴿عِصِينَ﴾ أجزاء، جمع عضة بمعنى الكذب، أي جعلوه مفترى، أو آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦﴾ سؤال توبيخ عن التقسيم أو النسبة إلى السحر، فيجازيهم عليه، أو هو عام في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي. فليس المقصود بالسؤال سؤال استخبار واستعلام؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، فيقول لهم: لم عصيتم القرآن، وما حجتكم فيه؟ هذا قول ابن عباس. وقال عكرمة: إن القيامة مواطن، فمرة يكون هناك سؤال وكلام كما في هذه الآية، ومرة لا يكون هناك سؤال وكلام، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يَشْغُلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٣٩﴾ [الرحمن: ٣٩/٥٥].

﴿فَأَصْدَعُ﴾ يا محمد. ﴿يَمَا تُوْمَرُ﴾ به أي اجهر وأمضه، من صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً. ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ بك، ياهلاكنا كلاً منهم بأفة، وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود

ابن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث. ﴿سَوَفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين. ﴿وَلَقَدْ﴾ للتحقيق. ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي ينقبض حسرة وحرناً. ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الاستهزاء والتكذيب. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل: سبحانه وبحمده، أي التسبيح مقترناً بالحمد. ﴿الْمُسْتَجِدِّينَ﴾ المصلين. ﴿الْيَقِثُ﴾ الموت. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

سبب النزول:

نزول الآية (٩٥):

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾: أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال: مر النبي ﷺ على أناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، ومعه جبريل، فغمز جبريل بأصبعه، فوقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحاً حتى تننوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥).

المناسبة:

لما صبر الله تعالى محمداً على أذى قومه، وأمره بأن يصفح الصفح الجميل، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمداً ﷺ بها؛ لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه، سهل عليه الصفح والتجاوز.

التفسير والبيان:

وتالله لقد أعطيناك وأنزلنا عليك أيها الرسول السبع المثاني والقرآن العظيم، والسبع المثاني: هي سورة الفاتحة، ذات الآيات السبع، التي تُتلى وتكرر في كل ركعات الصلاة، والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. روى البخاري حديثين في تفسير السبع المثاني، الأول عن أبي سعيد بن المولى، والثاني عن أبي هريرة.

أما حديث أبي سعيد فقال: «مَرَّبِي النَّبِيُّ ﷺ، وأنا أصلي، فدعاني، فلم آتِه حتى صليت، فأَتَيْتُهُ فقال: ما منعك أن تأتيَنِي؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرجُ من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذَكَرْتُهُ فقال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وأما حديث أبي هريرة فقال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن: هي السبع المثاني، والقرآن العظيم».

وقيل: السبع المثاني: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة؛ لتكرار القصص والأحكام والحدود وتثنيها فيها.

وقيل: المراد بالسبع المثاني: جميع القرآن، ويكون العطف من باب الترادف، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣/٣٩] فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه.

والراجح أن تفسير البخاري نص في أن الفاتحة: السبع المثاني. ولا مانع - كما قال ابن كثير - من وصف غيرها بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكَمَالِهِ بذلك أيضاً، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة^(١).

ثم رتب تعالى على هذا العطاء العظيم قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطمح أيها الرسول - والخطاب لأُمته - إلى ما متعنا به الأغنياء من زينة الحياة الدنيا، فمن وراء ذلك عقاب شديد، واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم

(١) تفسير ابن كثير: ٥٥٧/٢

عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. والمقصود: فاخر بما أوحى إليك، وقدر عظمة نعمته عليك، ولا تنظر إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية، لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تتحسر عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك، وإذا كنت في نعمة عظمى، هانت أمامها بقية النعم وكانت حقيرة. وهذا دليل على أن القرآن ثروة كبرى وخير وفلاح. ونظير الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ٢٠/١٣١] .

قال أبو بكر رضي الله عنه: من أوتي القرآن، فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيمًا، وعظم صغيراً.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا، ليتقوى بهم الإسلام، ويعتز بهم المسلمون. وقيل: المعنى: لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا، فلنك في الآخرة أفضل منه.

وبعد النهي عن الالتفات لأغنياء الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال:

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أَلن جانبك وتواضع للمؤمنين، ولا تجافهم ولا تقس عليهم، كما قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَبِثَ أَجَلٌ قَلِيلٌ فَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩] .

ثم وجهه تعالى لوظيفته، وهي الإنذار فقال: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ﴾ أي وقل يا محمد للناس: إني منذر ومخوف من عذاب أليم، بسبب التكذيب والتمادي في الغي، كما حل بالأمم المتقدمة المكذبة لرسولها، وما أحاط بهم من انتقام وعذاب.

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِينِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْنَّجَاءُ النُّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأُدْجِلُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ، فَنَجَّوْا، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ».

﴿كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٦) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٧﴾ هناك رأيان في تعلق قوله: ﴿كَمَا أُنْزِلْنَا﴾^(١).

أحدهما - أن يتعلق بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا التوراة والإنجيل على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من قبلك، وهم المقتسمون الذين اقتسموا القرآن إلى أجزاء، فأمنوا ببعضه الموافق للتوراة والإنجيل، وكفروا ببعضه المخالف لهما، فاققسموه إلى حق وباطل. وهذا مروي عند البخاري وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس.

والثاني - أن يتعلق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) أي وأندر قريباً بالعذاب مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين - يعني اليهود - وهو ما جرى على قريظة والنضير، فجعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون، وقد كان.

فكل من هذين الرأيين جعل المقتسمين من أهل الكتاب، والمقتسم هو القرآن. ويجوز أن يراد بالقرآن كتبهم التي يقرؤونها، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض، ويكون هذا من باب التسلية للنبي ﷺ حيث قال قومه عن القرآن؛ إنه سحر، أو شعر، أو كهانة.

وهناك وجه ثالث مروي أيضاً عن ابن عباس، جعله الرازي هو القول الأول، حيث قال ابن عباس: هم الذين اقتسموا طرق مكة، يصدون الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، ويقرب عددهم من أربعين. وقال مقاتل بن سليمان: كانوا ستة عشر رجلاً، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها: لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي للنبوّة، فإنه مجنون، وكانوا ينفرون الناس عنه، بأنه ساحر، أو كاهن. أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم خزيًا، فماتوا شرمية، والمعنى: أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين^(١).

فالمقتسمون: هم القرشيون.

وبعد هذا الإنذار أقسم الله تعالى بذاته العلية على وقوع الحساب على الأعمال، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٦) أي فوالله لنسألن جميع الكفار سؤال توبيخ وتأنيب لهم عن أقوالهم وأعمالهم، وسنجازيهم عليها الجزاء الأوفى. فسر أبو العالية الآية فقال: يسأل العباد كلهم عن خَلَّتَيْنِ يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا به المرسلين.

وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كُحِلَ عَيْنِيهِ، وعن فُتَاتِ الطِينَةِ بأصبعه، فلا أَلْفَيْتُكَ يوم القيامة، وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك».

وإذا كانت هذه مهمتك أيها النبي وهو الإنذار وأن الحساب محقق، فما عليك إلا الجهر بدعوتك، فقد انتهت مرحلة الإسرار في الدعوة، فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي فاجهر بتبليغ دعوتك للجميع، وواجه بها المشركين، ولا تأبه بهم، فإن الله عاصمك وحافظك منهم، وأعرض عن المشركين، أي

(١) تفسير الرازي: ٢١١/١٩ وما بعدها.

بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ هذا تأمين رباني وعصمة وصون، أي إنا كفيناك شر المستهزئين بك، المجاهدين في عداوتك، الساخرين منك ومن القرآن، وهم جماعة ذوو قوة وشوكة من المشركين، وهم خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث.

قال جبريل لرسول الله ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأومأ إلى عقب الوليد، فتعلق بثوبه سهم، فأبى تعظماً نزعته، فأصاب عرقاً في عقبه فمات. وأومأ إلى أخص العاص بن وائل، فمات بشوكة دخلت فيه، وأشار إلى عيني الأسود ابن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف ابن الحارث بن قيس فامتخط قيحاً فمات، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث، وهو قاعد في أصل شجرة، فأصيب بداء، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات^(١).

وكان هؤلاء المستهزئون مشركين، لذا وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي الذين يتخذون إلهاً آخر مع الله، فيشركون به من لا يضر ولا ينفع.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ومآل شركهم ونتيجة كفرهم. وهذا تهديد ووعيد لهم بسوء المصير، لعلهم يرتدعون ويؤمنون.

ثم سأل الله نبيه عما يصيبه من أذى المشركين فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك تتأذى من سخرية المشركين وشركهم، ويحصل لك ضيق صدر وانقباض، فلا يشينك ذلك عن إبلاغ رسالة الله،

(١) تفسير الرازي: ٢١٥/١٩، تفسير القرطبي: ٦٢/١٠، تفسير ابن كثير: ٥٥٩/٢

وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، والجا إليه لإزالة الانقباض والجزع. ﴿فَسَيَحْ يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

أي فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسييحه وعبادته التي هي الصلاة، وداوم على ذلك حتى يأتيك اليقين، أي الموت، وسمي الموت باليقين؛ لأنه أمر متيقن، والدليل لهذا التأويل: قوله تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٩٣) وَلَوْ نَكُنْ نَظْعُمُ الْمُسْكِينَ﴾ (٩٤) وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٩٥) وَكَأَنَّا نَكُذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٩٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (٩٧) [المدر: ٧٤/٤٣-٤٧] أي الموت.

وهذا دليل على أن علاج ضيق الصدر هو التسبيح والتقديس والتحميد والإكثار من الصلاة، وأن العبادة كالصلاة واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

وهو دليل أيضاً على تخطئة بعض الملاحدة القائلين بأن المراد باليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة، سقط عنه التكليف عندهم، وهذا - كما قال ابن كثير - كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس، وأكثرهم عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة.

وكان ﷺ إذا حزبه أمر، واشتد عليه خطب، فزع إلى الصلاة. روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - القرآن العظيم هو النعمة العظمى على النبي ﷺ وعلى المسلمين لا يقاس بها أي شيء آخر من مال أو ثروة أو غير ذلك.

٢ - الفاتحة سورة من القرآن خصصت بالذكر لفضلها ومزيتها، لاشتمالها على أصول الإسلام، بل هي أفضل سور القرآن لسببين:

الأول - أفرادها بالذكر مع كونها جزءاً من القرآن، مما يدل على مزيد الشرف والفضيلة.

الثاني - أنه تعالى لما أنزلها مرتين، دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها. وإنها نزلت مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن، ومرة بالمدينة.

٣ - لا يطمح بصر المؤمن إلى زخارف الدنيا، وعنده معارف المؤلى عز وجل، قال ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» أي من لم يستغن به.

٤ - قال بعضهم: هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على مولاه. والحق أنه ليس في دين محمد الرهبانية، والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية، كما كان في دين عيسى، وإنما الإسلام دين الحنيفية السمحة ودين الفطرة ودين الوسطية الذي يجمع بين الروح والمادة، والاشتغال للحياتين معاً الدنيا والآخرة، واستيفاء حظوظ الجسد المباحة مع الرجوع إلى الله بقلب سليم.

٥ - على المؤمن أن يكون بعيداً عن المشركين، ولا يحزن إن لم يؤمنوا، قريباً من المؤمنين، متواضعاً لهم، محباً لهم، ولو كانوا فقراء.

٦ - مهمة النبي ﷺ وكل مؤمن عالم بعده التبليغ لرسالة الله لجميع الخلق، والإنذار بالعذاب من الكفر والعصيان. وقد كانت دعوة النبي ﷺ في بادئ الأمر سرية، ثم صارت جهرية بهذه الآية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤).

٧ - العذاب مقرر على المقتسمين لكتاب الله، بأن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعضه الآخر، سواء أكانوا من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أم من مشركي قريش.

٨ - الآية: ﴿فَرَزَكَ لَسْتَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) بعمومها تدل على سؤال الجميع من الناس، كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب. والظاهر أن الكافر يسأل، لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٩٢) [الصفات: ٢٤/٣٧] وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٩٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٩٦) [الغاشية: ٢٥-٢٦].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الفصص: ٧٨/٢٨] وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩/٥٥] وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤/٢] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَخْجُونُونَ﴾ [المطففين: ١٥/٨٣] فذلك في أحوال خاصة بيوم القيامة؛ لأن للقيامة مواطن، فمواطن يكون فيه سؤال وكلام، ومواطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام، هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقرير وتوبيخ، فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟^(١).

٩ - تكفلت عناية الله ورعايته بصون النبي ﷺ وحاميته من أذى المشركين بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون.

قال بعضهم: هذا منسوخ بآية القتال، قال الرازي: وهو ضعيف؛ لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم، فلا يكون منسوخاً^(١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ أي اصدع بما تؤمر ولا تحف غير الله؛ فإن الله كافيك من آذاك، كما كافك المستهزئين. وصفة المستهزئين: الشرك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

١٠ - التسييح والتحميد والصلاة علاج الهموم والأحزان، وطريق الخروج من الأزمات والمآزق والكروب. وغاية القرب من الله تعالى حال السجود، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأخلصوا الدعاء» لذا خص السجود هنا بالذكر بقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

١١ - المسلم مطالب على سبيل الفرضية بالعبادة التي هي الصلاة على الدوام حتى يأتيه الموت، ما لم يغلب الغشيان أو فقد الذاكرة على عقله، والإسلام سمح سهل، فعليه أداء الصلاة بأي كيفية يستطيعها، ولا تسقط عنه أصلاً إلا في حال الغيبوبة، ويحاسب على كل فريضة تركها أو أهملها عمداً، كما قال العبد الصالح عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١/١٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية، وهي مئة وثمان وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة النحل، لاشتغالها في الآيتين [٦٨-٦٩]: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ عَلَىٰ قِصَّةِ النَّحْلِ الَّتِي أَهْمَهَا اللَّهُ امْتِصَاصَ الْأَزْهَارِ وَالشَّجَرِ، وَتَكْوِينَ الْعَسَلِ الَّذِي فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، وَتِلْكَ قِصَّةٌ عَجَبِيَّةٌ مُثْبِتَةٌ لِلتَّفَكِيرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي عَجِيبِ صَنِعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَذَا الصَّنْعِ عَلَىٰ وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وسميت أيضاً سورة «النَّعَم» لتعداد نعم الله الكثيرة فيها على العباد^(١).

ارتباطها بالسورة التي قبلها:

إن آخر سورة الحجر شديد الارتباط بأول هذه السورة، فإن قوله تعالى في آخر السورة السابقة: ﴿فَوربك لتسألنهم أجمعين﴾ يدل على إثبات الحشر يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ يدل على ذكر الموت، وكل من هاتين الآيتين ظاهر المناسبة لقوله هنا في أول السورة: ﴿أَفَلَا أَمَرَ اللَّهَ﴾ إلا أنه في الحجر أتى

(١) تفسير القرطبي: ٦٥/١٠

بقوله: ﴿يَأْتِيكَ﴾ بلفظ المضارع، وهنا ﴿أَتَى﴾ بلفظ الماضي؛ لأن المراد بالماضي هنا: أنه بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظراً، لقرب وقوعه وتحقق مجيئه.

وكذلك ترتبط هذه السورة بسورة إبراهيم؛ لأنه تعالى ذكر هناك فتنة الميت، وما يحصل عندها من الثبات أو الإضلال، وذكر هنا ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ وما يحصل عقب ذلك من النعيم أو العذاب. وذكر أيضاً النعيم في سورة إبراهيم، وقال بعده: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤/١٤] وكررت الآية نفسها هنا [١٨] وذكر هنا أنواع النعم المختلفة.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة الكلام على أصول العقيدة وهي الألوهية والوحدانية، والبعث والحشر والنشور، فبدأت بإثبات الحشر والبعث واقترب الساعة ودنوها، معبراً تعالى بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع قطعاً، مثل قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١/٢١] وقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١/٥٤] وكل ذلك يدل على أن إخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة.

ثم أثبتت الوحي الذي كان ينكره المشركون كما أنكروا البعث، وأنهم كانوا يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم العذاب الذي هددهم به.

ثم تحدثت السورة عن أدلة القدرة الإلهية في هذا الكون الدالة على وحدانية الله من خلق السماوات والأرض، وما فيهما من كواكب ونجوم، وجبال وبحار، وسهول ووديان، ومياه وأنهار، ونباتات وحيوانات، وأسماك ولآلئ بحرية وبواخر تجري في البحر، ورياح لواقع ومسيرة للفلك، ودعت إلى التأمل في منافع المطر والأنعام وثمرات التخييل والأعنان، ومهمة النحل، وخلق

الإنسان ثم إماتته، والمفاضلة بين الناس في الرزق، وطيوان الطيور، وتهية المساكن، وغير ذلك.

وأوضحت السورة نعم الله تعالى الكثيرة المتتابعة، وذكّرت الناس بنتيجة الكفر بها، وعدم القيام بشكرها، وإعداد أبواب جهنم للكفار خالدين فيها، وإعداد جنات عدن للمتقين الذين أحسنوا العمل في الدنيا. وأبانت فضل الله سبحانه بإرسال الرسل في كل الأمم، وحصرت مهمتهم الموحدة بالأمر بعبادة الله واجتناب الطاغوت.

وأبانت السورة مهمة خطيرة للأنبياء في عالم القيامة وهي الشهادة على الأمم بإبلاغهم الدعوة الحقّة إلى دين الله، وعدم الإذن للكافرين في الكلام، ورفض قبول أعذارهم.

ثم ذكر تعالى أجمع آية في القرآن وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠/١٦] وأعقبها بالأمر بالوفاء بالعهود والوعود، وتحريم نقضها، وتعظيم شروطها وبنودها، وعدم اتخاذ الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق وسيلة للخداع والمكر.

ثم أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن، والتصرّيح بانعدام سلطانه وتأثيره على المؤمنين المتقين المتوكّلين على ربهم، وبيان أن سلطانه على المشركين.

وأوضح سبحانه أن هذا القرآن نزل به روح القدس على قلب النبي ﷺ، فهو كلام الله، لا كلام بشر عربي أو أعجمي.

وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد ودحض الشرك والأنداد من دون الله والكفر بأنعم الله، ورفع الحرج عمن نطق بالكفر كرهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان، وإعطاء كل نفس حق الدفاع عن نفسها يوم القيامة، وجزاء كل إنسان بما عمل.

وفي أواخر السورة عقب الحديث عن الأنعام بيان ما حرمه الله منها، وزجر العلماء عن الإفتاء بالتحريم أو التحليل دون دليل، ومقارنة ذلك بما حرمه تعالى على اليهود بسبب ظلمهم.

ثم ختمت السورة بمدح إبراهيم بسبب ثباته على التوحيد الخالص، وأمر النبي ﷺ باتباع ملته، ثم أمره بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقصره العقاب على المثل دون تجاوز ذلك، والأمر بالصبر على المصائب والأحزان، والاعتماد على عون الله للمتقين المحسنين.

إثبات البعث والوحي

﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ يُزِيلُ
الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَأَنْتَقُونَ ②﴾

القراءات:

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عما تشركون).

﴿يُزِيلُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (يُنْزِلُ).

الإعراب:

﴿إِنَّ﴾ بمعنى يأتي، أقام الماضي مقام المستقبل، لتحقيق إثبات الأمر وصدقه. وقد يقام المستقبل مقام الماضي، مثل قول الشاعر:

وإذا مررت بقبره فانحمر له كُوم الهجان وكل طرف سابح وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخا دم وذباح أي فلقد كان. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الضمير إما أن يعود على الله وإما أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم.

﴿أَنْ أُنْذِرُوا﴾ إما بدل من قوله ﴿بِالرُّوحِ﴾ وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأن أنذروا، فحذف الباء، فاتصل الفعلُ به.

البلاغة:

﴿فَأَتَقُونُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى خطاب المستعجلين.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْ أَمُرُ اللَّهَ﴾ قرب ودنا، أي إن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم عنه وإنه واقع لا محالة. ويقال في العادة لما يجب وقوعه: قد أتى، وقد وقع. و﴿أَمُرُ اللَّهَ﴾ تعذيبه الكافرين وعقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيهاً له عن الشريك. ﴿الْمَلَكَةِ﴾ أي جبريل ﴿بِالرُّوحِ﴾ الوحي أو القرآن، فإنه يحیی القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بأمره وإرادته ﴿أَنْ﴾ مفسرة ﴿أُنْذِرُوا﴾ خوَّفُوا بالعذاب ﴿فَأَتَقُونُ﴾ خافوا عقابي، لمخالفة أمري وعبادة غيري.

سبب الغزول:

كان المشركون يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إياهم، كما فعل يوم بدر استهزاء وتكدياً، ويقولون: إن صح ما يقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت. أخرج ابن مردويه عن

ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال لما نزلت: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

فموضوع الآية الأولى إعلان أن الأمر الموعود به وهو قيام الساعة متحقق حادث لا محالة، وأنه تعالى منزّه عن الشريك والولد. وموضوع الآية الثانية الإخبار بأن نزول الوحي بوساطة الملائكة، والتنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية، وأن النبوة عطائية. والمراد من قوله: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ معرفة الحق لذاته، وأما المراد من قوله: ﴿فَأَتَّقُون﴾ فهو معرفة الخير لأجل العمل به.

التفسير والبيان:

كان الكفار يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم استهزاء وتكديباً بالوعد، ف قيل لهم: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهِ﴾.

فلما أكثر ﷺ من تهديد الكفار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولم يروا شيئاً، نسبوه إلى الكذب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي قد حصل أمر الله وحكمه ووجد من الأزل إلى الأبد، وتحقق بزول العذاب، إلا أن المأمور به والمحكوم به إنما لم يحصل ولم ينقذ؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين، فلا تستعجلوه، ولا تطلبوا حصوله قبل مجيء ذلك الوقت، أي إن الحكم صدر مع وقف التنفيذ في أمد معين.

وكذلك لما أكثر ﷺ من تهديدهم بقيام الساعة أجيبوا بأنه قد اقتربت الساعة ودنت، معبراً عن المستقبل بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع

لا محالة، كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ﴾ [القمر: ١/٥٤] وقوله سبحانه: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۖ﴾ [الأنبياء: ١/٢١] أي إن أمر الله بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً، فلا تستعجلوه قبل حضور الوقت المقدر في علمه تعالى، أي قرب ما تباعد، فلا تتعجلوا وقوعه.

وهذا تهديد للكفار وإعلام لهم بقرب عذابهم وهلاكهم.

﴿سُبْحَنُكَ وَتَعَالَى﴾ تبرأ الله تعالى وتزّه وتقدس عما ينسبون له من الشريك والولد وعبادتهم ما سواه من الأوثان والأنداد. وهذا إبطال لما عقدوا عليه الآمال من شفاعة الأصنام.

ولما كان استعجال العذاب وقيام القيامة تكذيباً للنبي واستهزاء به وبوعده، وهو كفر، قرن تعالى النهي عن الاستعجال بإثبات التنزيه له عن الشرك والشركاء، وهو رأس الكفر.

ثم أجاب الله تعالى عن شبهة ثالثة تتعلق بتكذيب النبوة والنبي، فقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي ينزل تعالى الملائكة بالوحي على من يريد من عباده الذين اصطفاهم واختارهم للرسالة. وعبر عن الوحي بالروح؛ لأنه يحیی موات القلوب كما يحيي الروح موات الأبدان، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢/٦]. واستعمال الروح بمعنى الوحي شائع في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢/٤٢].

وقوله: ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ هم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤/٦] وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ

الْمَلَكِيَّةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ» [الحج: ٧٥/٢٢] وقال: «يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» [غافر: ١٥/٤٠]. وهذا رد لقولهم: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» [الزخرف: ٤٣/٢٣١].

وقوله: «مِنْ أَمْرِهِ» [النحل: ٢/١٦] يعني أن التنزيل والنزول للوحي لا يكونان إلا بأمره تعالى، كما حكى عن الملائكة: «وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» [مریم: ٦٤/١٩] فلا يستطيع الملائكة فعل شيء إلا بأمر الله تعالى وإذنه.

ودلت الآية على أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بوساطة الملائكة. ثم بيّن تعالى مهمة الرسل فقال: «أَنْ أُنْذِرُوا» أي لينذروا الناس الكفرة ويعلموهم أنه لا إله إلا الله، فاتقوا عقابي لمن خالف أمري وعبد غيري.

فقه الحياة أو الأحكام:

أجابت الآيات عن شبهات ثلاث للمشركين: قيام الساعة ونزول العذاب، والشرك والشركاء، والنبوة والوحي.

أما الموضوع الأول: فقد أعلن تعالى أن قيام الساعة ونزول العذاب والهلاك متحقق كائن لا محالة، ولكنه مرتبط بوقت معين مقدر في علم الله تعالى، وهو أمر قريب، فلا داعي للاستعجال بوقوعه، والتعجيل بمحدوثه.

وأما الموضوع الثاني: فقد نزه الله تعالى نفسه عن الشرك والإشراك، وعن الشريك والولد وعن الأوثان والأنداد، وعما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، لقولهم: لا يقدر أحد على بعث الأموات، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق. والتنزيه يتضمن إثبات القدرة المطلقة لله، والوحدانية التامة، واستحقاق العبادة المستقلة به المخلصة له، وإبطال ما زعموه من شفاعة الأصنام.

وأما الموضوع الثالث: فقد أبان تعالى أنه الذي ينزل بالروح، أي بالوحي وهو النبوة، على من اختارهم الله للنبوة، من طريق الملائكة، ولا يحدث شيء من تنزل الوحي إلا بأمره وإذنه تعالى، وختمت الآية بالتحذير من عبادة الأوثان، والإنذار بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فليتقوا عقاب الله إذا خالفوا أمره وعبدوا غيره.

وأفادت الآية كما لا حظنا أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يكون إلا بالملائكة، كما قال تعالى في آخر سورة البقرة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥/٢] فبدأ بذكر الله سبحانه، ثم أتبعه بذكر الملائكة؛ لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير وساطة، وذلك الوحي هو الكتب، والملائكة يوصلون الوحي إلى الأنبياء والرسول، فكان الترتيب متناسباً متدرجاً موضحاً رتبة الملائكة والأنبياء^(١).

أدلة وجود الله ووحدانيته

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ٣ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ ٥ وَتَحْمِلُ أَوْفَاقَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَمُوفٌ رَجِيمٌ ٦ وَالْحَيْلَ وَالْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِزِكْبُوهَا وَرِيئَةٌ وَمَخْلُقٌ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَكُمْ أَجْمَعِينَ ٩﴾

(١) تفسير الرازي: ٢٢٠/١٩

القراءات:

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عما تشركون).

﴿لَرَّءَوْفٌ﴾:

قرئ:

١- (لرؤوف) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص.

٢- (لرؤف) وهي قراءة الباقيين.

﴿فَصَدُّ﴾:

باشمام الصاد صوت الزاي، قرأ: حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الباقيون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿بَلِّغِيهِ﴾ الهاء في موضع جر بالإضافة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ هذه الأسماء كلها معطوفة بالنصب على قوله: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ وتقديره: وخلق الخيل والبغال والحمير.

﴿وَزِينَةً﴾ إما منصوب بفعل مقدر، أي وجعلها زينة، وإما منصوب على أنه مفعول لأجله، أي لزينة.

البلاغة:

﴿خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ ﴿لَرَّءَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قدم الظرف مراعاة للفاصلة آخر الآيات.

﴿تَرْيَحُونَ﴾ ﴿تَشْرَحُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي أوجد السماوات والأرض محققاً على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة، وقدرها وخصصها بحكمته ﴿تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاظم عما يشركون به من الأصنام، وهذا يدل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام المادية ﴿مِنْ تُطْفِئُ﴾ المراد مادة التلقيح التي تكون سبباً للحمل ﴿خَصِيمٌ﴾ مناظر مجادل شديد الخصومة ﴿مُتَيْنٌ﴾ مظهر للحجة قائل: من يحبي العظام وهي رميم؟ روي أن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم رميم، وقال: يا محمد، أترى أن الله تعالى يحبي هذا بعد ما قد رم؟ فنزلت ﴿دَفءٌ﴾ ما تستدفئون به من الكساء والرداء من أشعارها وأصوافها ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ من النسل والدر والركوب.

﴿جَمَالٌ﴾ زينة في أعين الناس، والمراد جمال الصورة وتركيب الخلقة ﴿تَرْيَحُونَ﴾ تردونها بالعشي من المرعى إلى مراحها (حظيرتها) ﴿تَشْرَحُونَ﴾ تُخرجونها بالغداة (صباحاً) إلى المرعى ﴿أَتَقَالِكُمْ﴾ أحالكم ﴿لَئِنْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بَشِقَ الْآنْفُسِ﴾ لم تكونوا واصلين إليه على غير الإبل إلا بجهد الأنفس أو بالمشقة الزائدة ﴿لَرَأَوْهُ رَجِيعٌ﴾ بكم حيث خلقها لكم. ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي لتزينوا بها زينة ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الأشياء العجيبة الغريبة.

﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي بيان الطريق المستقيم ﴿جَائِزٌ﴾ حائد أو مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿هَدَانِكُمْ﴾ إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتمام ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فتهتدون إليه باختيار منكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٤):

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾: نزلت الآية في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أترى الله يحبي هذا بعدما رم؟ ونظير الآية قوله تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) إلى آخر السورة.

المفاسدة:

بعد أن بين الله تعالى أنه منزّه عن الشريك والولد، وأنه الإله الواحد، وأمر بإخلاص العبادة له، ذكر أدلة وجود الإله الصانع الواحد وكمال قدرته وحكمته، وهي خمسة: خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وخلق الأنعام، وخلق النبات، وخلق العناصر الأربعة. والأخيران هما موضوع الآيات التالية.

التفسير والبيان:

خلق الله تعالى وأبدع العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وذلك مخلوق بالحق، أي على أساس من الحكمة والتقدير المحكم، لا عبثاً، وانفرد بخلقه ذلك، فتنزه الله عن المعين والشريك، لعجز ما سواه عن خلق شيء، فلا يستحق العبادة إلا هو، ففعله ﴿وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، فهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فيستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم ذكر الله تعالى خلق جنس الإنسان من نطفة، أي مهينة ضعيفة، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي خلق الإنسان من ماء مهين ضعيف، فلما استقل وكبر، إذا هو بخاصم ربه تعالى، ويكذبه وهو إنما خلق ليكون عبداً، لا

ضدًا، وخلق من شيء ضعيف، فتراه يجادل ويقول: ﴿مَنْ يُعْجِ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/٧٨]. ونظير الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٤-٥٥].

روي أن المراد بالآية أبي بن خلف الجمحي، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم، فقال: أترى يجيئ الله هذا بعد ما قد رم؟ وفي هذا أيضاً نزل ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝﴾ [يس: ٣٦/٧٧].

ثم امتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، فقال: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي وخلق الله لكم الأنعام ذات المصالح والمنافع المختلفة لكم، من أصواف وأوبار وأشعار للبس والأثاث (أو الفراش) ومن ألبان للشرب، ونسل للأكل.

ولكم في هذه الأنعام جمال، أي زينة حين الرواح: وهو وقت رجوعها عشاء من المراعي، ووقت السروح: وهو وقت الغدوة والذهاب من مراحها إلى مسارحها أو المرعى. وخص تعالى هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب والإياب، وفي ذلك مفاخرة بالقطيع، وقدم الرواح على السروح؛ لأن الفائدة فيه أتم، لمجيئها شبعانة، فتدر الحليب، وتملأ النفس سروراً، والعين متعة، فهي عنصر للغذاء وأداة إنتاج في الاقتصاد.

وجمال الأنعام والدواب من جمال الحلقة والتركيب والصورة.

وكذلك هي أداة عمل وركوب وحمل أمتعة، فقال تعالى: ﴿وَتَحْمِيلُ أَنْفَالِكُمْ﴾ أي وهي أيضاً تحمل أمتعتكم الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها من بلد إلى آخر لا تبلغونه إلا بمشقة شديدة، مثل الحج والعمرة والجهاد والتجارة ونحو ذلك من أنواع الاستعمال ركوباً وتحملاً، كما قال

تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢١/٢٣-٢٢] وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧٩-٨٠] .

وتظل الأنعام ثروة اقتصادية في كل زمان ومكان، ونعمة كبرى، لذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كثير الرأفة والرحمة بعباده، فقد جعلها لهم مصدر رزق وخير كبير، وأداة منافع وجلب مصالح، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٦-٧٧] .

وامتن الله تعالى على الناس بثروة حيوانية أخرى هي: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً، وجعلها للركوب والزينة بها أي تزينون بها، مع منافع أخرى.

ثم جاء دور الامتنان بوسائل النقل والمواصلات الحديثة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويخلق لكم غير هذه الحيوانات من وسائل النقل كالقطارات والسيارات والسفن والطائرات وغيرها.

ثم في هذا العالم السماوي والأرضي والحيواني، يرشد تعالى إلى الطريق السوي من الطرق المعنوية الدينية والحياتية فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي وعلى الله فضلاً وتكرماً بيان الطريق الواضح الموصل إلى الحق والخير، بإقامة الأدلة وإنزال الكتب وإرسال الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٣] وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر: ٨١/٨٠] .

وكثيراً - كما قال ابن كثير - ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى في الحج: ﴿وَتَكَرَّدُوا فَاِنَّ حَيْرَ اَزَادِ النَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧/٢] وقوله سبحانه: ﴿يَنْبِئُ ءَادَمَ فَاَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ لِيَاسَا يُرَى سَوَاءَ بَيْنَكُمْ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ حَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦/٧] .

ثم قال سبحانه محذراً من متهاتات الطرق: ﴿جَائِرٌ﴾ أي ومن الطرق أو السبل طريق جائر حائد عن الاستقامة، مؤد إلى الضلال والزيغ عن الحق. وسبيل الاستقامة هو الإسلام، والجائر منها غيره من الأديان، لنسخها بالإسلام، ولأن الإسلام دين التوحيد والفطرة الذي ارتضاه لعباده، كما قال: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

[الروم: ٣٠/٣٠].

ثم أخبر الله تعالى أن الهداية بقدرته ومشيئته تعالى فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال المعتزلة: ولو شاء لهداكم جميعاً جبراً وقسراً وإلجاءً. وقال أهل السنة: الله قادر على هداية جميع الناس، ما في ذلك أدنى شك، وإنما المراد بالآية: أنه تعالى يبين السبيل القاصد المستقيم والجارر، وهدى قوماً يستحقون الهداية، وقد اختاروا الهدى، وأضل قوماً اختاروا الضلالة لأنفسهم. والهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البعد: ١٠/٩٠) وهداية توفيق ورعاية كما في قوله سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦/١) وقوله هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩/١٠] وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ وَتَمَتَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٨) [هود: ١١/١١٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان دليل واضح على قدرة الله تعالى ووجوده ووحدانيته.

لكن تعدى الإنسان طوره، وتجاوز حدوده، فناكد وجادل، وكذب ربه وخاصمه في قدرته.

٢ - وكذلك خلق الأنعام بما فيها من منافع امتن الله بها على الإنسان دليل آخر على قدرة الله وتوحيده.

ودل قوله ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ على مشروعية لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، كموسى وغيره.

ومنافع الأنعام كثيرة لا نكاد نجد لها شبيهاً، ففيها منفعة الأجسام ذاتها بأكل لحومها، ومنفعة نتاجها بالدر واللبن والنسل، ومنفعة ما تستر به من أوبار وأصواف وأشعار، ومنفعة ظهورها للركوب وحمل الأثقال والنقل من بلد إلى آخر، ومنفعة قواها بالحرث، فالبقرة لا يحمل عليها ولا تركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل واللبن، فحق على الإنسان شكر هذه النعمة، ومقابلتها بالعبادة لله تعالى الذي خلقها وسخرها للناس.

ودلت هذه الآية على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها، ولكن بقدر المعتاد وقدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل، مع الرفق في السير. وقد أمر النبي ﷺ بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخضب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها بئقها^(١)».

(١) السنة: القحط ويسب نبات الأرض، والتقي: المخ، والمعنى: أسرعوا في السير بالإبل، تصلوا إلى المقصد، وفيها بقية من قوتها، لعدم وجود ما يقويا على السير في الأرض الجدية.

وهذا دليل الفرق بالحيوان.

٣ - كذلك الدواب الأخرى التي خلقها الله وهي الخيل والبغال والحمير دليل آخر على القدرة الإلهية، ومزيد فضل الله تعالى، قال العلماء: ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذلّلها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها، رحمةً منه تعالى لنا، وما ملّكه الإنسان وجاز له تسخير من الحيوان، فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم.

واختلف العلماء فيمن اكرى دابة بأجر معلوم إلى موضع معين، فتعدى وتجاوز ذلك المكان، ثم رجع إلى المكان المأذون له فيه، فقال أبو حنيفة: لصاحبها الأجرة المسماة، ولا أجر له فيما لم يسم؛ لأنه خالف فهو ضامن إذا هلك الدابة.

وقال الشافعي وفقهاء المدينة السبعة: على المستأجر الكراء المسمى، وكراء المثل فيما جاوز ذلك، ولو عطبت لزمته قيمتها.

وقال أحمد: عليه الكراء والضمان.

وقال ابن القاسم تلميذ مالك: إذا عطبت الدابة في حال التجاوز، فلصاحبها كراؤه الأول، وله الخيار في أخذ كراء الزائد بالغاً ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدي.

واستدل بالآية مالك وأبو حنيفة وغيرهما على تحريم لحوم الخيل؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل، ولا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة، دل على أن ماعدها بخلافه. أما في الأنعام فقال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها.

ويؤيده حديث أحمد وأبي داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن خالد بن

الوليد أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكل ذي ناب من السباع أو يخلب من الطير. وهو لفظ الدارقطني.

قال القرطبي المالكي: الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة؛ أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلت عليه لدلت على تحريم لحوم الحمير، والسورة مكية، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمير عام خيبر، وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضاً لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعتها وأهم مافيهما، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرحاً به، وقد تُركب ويحرث بها.

وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، وثبت ذلك في السنة، روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمير الأهلية وأذن في لحوم الخيل. وقال النسائي عن جابر: أطعنا رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمير^(١).

واستدل جمهور العلماء بالآية أيضاً على أن الخيل لا زكاة فيها؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحه منها وكرمنا به من منافعتها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل.

وقال أبو حنيفة: إن كانت إنثاءً كلها، أو ذكوراً وإنثاءً، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة، وإن شاء قومها، فأخرج عن كل مثني درهم خمسة دراهم. واحتج بأثر عن النبي ﷺ أنه قال: «في الخيل السائمة في كل فرس دينار» لكنه كما قال الدارقطني: تفرد به ضعيف جداً، ومن دونه ضعفاء.

٤ - لم ينقطع فضل الله وكرمه، فقد خلق لنا غير الأنعام والدواب فقال: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشمل كل وسائل النقل والركوب الحديثة.

هـ - على الله تفضلاً وكرماً بيان السبيل المستقيم وهو الإسلام، وحذر من اتباع السبل الجائرة الحائدة عن الحق من الملل والأهواء الأخرى. والهداية بمشيئة الله تعالى، والتوفيق للهداية مقرون باختيار الإنسان لها.

أدلة أخرى لإثبات الألوهية والوحدانية

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَاثُونَهَا وَتَرَى الْفُلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾:

قرئ:

١- (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) وهي قراءة ابن عامر.

٢- (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) وهي قراءة حفص.

٣- (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) وهي قراءة الباقرين.

الإعراب:

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ بالنصب عطفاً على ما قبله، ومن قرأ بالرفع فهو مبتدأ، و﴿مُسَخَّرَاتٌ﴾ خبره.

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ مبتدأ وخبر، ومن قرأ بالنصب فهو حال.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ معطوف بالجر على ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي إن في ذلك وما ذرأ لكم، أو معطوف على ﴿أَيُّلَ﴾ أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات، ﴿مُخْلِقَاتٌ﴾ ﴿مُخْلِقَاتٌ﴾ حال.

﴿أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول لأجله، أي كراهة أن تميد بكم، أو لئلا تميد بكم، والوجه الأول أوجه؛ لأن حذف المضاف أكثر من حذف «لا».

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ منصوب بالعطف على قوله ﴿سَخَّرَ﴾ أي سخر الليل والنهار وعلامات، أو منصوب بتقدير: خلق، أي وخلق لكم علامات.

المفردات اللغوية:

﴿تَسْمُونَ﴾ أي تَرَعُونَ دوابكم، والسوم: الرعي، ومنه الإبل السائمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في ذلك المذكور لعلامة دالة على وحدانيته تعالى ﴿لَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ في صنعه، فيؤمنون، ويستدلون على وجود الصانع وحكمته، فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض، ثم يخرج منها الزرع أو الشجر، ثم ينمو منها الأوراق والأزهار والثمار ذات الأجسام والأشكال المختلفة، مع اتحاد المواد، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد والشركاء.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ أَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بأن هيأها لمنافعكم ﴿بِأَمْرٍ﴾ بإرادته ﴿يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوان ونبات وغير

ذلك ﴿أَلْوَنَهُ﴾ أشكاله وأصنافه ﴿يَذْكُرُونَ﴾ يتعظون ﴿سَخَرَ الْبَحَرَ﴾ دَلَّه للركوب والاصطياد والغوص فيه ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك ﴿حَلِيلَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى﴾ تبصر ﴿الْفَلَكَ﴾ السفن ﴿مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ غمر الماء، أي تشقه بجريها فيه، مقبلة مدبرة بريح واحدة ﴿وَلَتَسْتَبْعُوا﴾ تطلبوا، معطوف على ﴿لِنَأْكُلُوا﴾ مِنْ فَضْلِهِ، تعالى بالتجارة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون نعم الله، فتقومون بحمدها.

﴿رَوَّسَى﴾ جبلاً ثوابت ﴿أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تتحرك بكم، أو خوف أن تضطرب يمينا وشمالاً بكم، والميد: الحركة والاضطراب يمينا وشمالاً ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَّمَتْنِي﴾ أمارات ومعالم تستدلون بها على الطرق نهراً، كالجبال والسهول. ﴿وَيَا لَتَجْمِ﴾ أي النجوم ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الطرق والقبلة ليلاً.

المناسبة:

هذه الآيات تنمة لأدلة إثبات وجود الله وتوحيده، ذكر منها هنا خلق النبات وأحواله، وأحوال العناصر الأربعة (الماء والتراب والنار والهواء) أما الماء فيشمل المطر والبحر والأنهار، وأما التراب فيفهم من كلمة الأرض، وأما الحرارة فمن الشمس، وأما الهواء فهو أساس حياة الإنسان والحيوان والنبات، وكان واسطة تسيير الفلك في البحار.

التفسير والبيان:

تتابع الآيات التنبيه إلى أدلة أخرى لإثبات الذات الإلهية من حركة الكون وعالم النبات، والبحار، والجبال، وبدأ بعالم النبات الذي يتسبب بإنزال المطر من السماء، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إي إن الذي خلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام والدواب، هو الذي هيأ ظروف

الحياة للإنسان بإنزال المطر من السماء، فجعله عذباً زُلالاً يسوغ لكم شرايه، ولم يجعله ملحاً أجاباً، وأخرج به شجراً ترعون فيه أنعامكم، وأنبت به لكم زرعاً وزيتوناً ونخيلاً وأعناباً، ومن كل الثمرات على اختلاف أصنافها وألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها، رزقاً لكم تستطيعون به تحقيق قوام الحياة، والمراد بالشجر هنا: النبات مطلقاً، سواء كان له ساق أم لا، كما نقل عن الزجاج، وهو حقيقة في الأول ويستعمل في الثاني بمعنى الكلاء؛ لأنه الذي يعلف.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي في ذلك المذكور كله من إنزال الماء والإنبات لدلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، لقوم يتعظون ويتفكرون في تلك الأدلة؛ لأنه لا مبدع ولا موجد لها غير الله الخالق الأحد، المستحق للتمجيد والعبادة، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٦٠] .

ثم نبه الله تعالى على آياته الكونية العظام، ممتناً بنعمه عليكم، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي وصير لكم ما ينفعكم من تعاقب الليل والنهار للنوم والاستراحة والسعي وكسب المنافع وقضاء المصالح، ودوران الشمس والقمر للإنارة وانتفاع الإنسان والحيوان والنبات بالحرارة والضوء ومعرفة عدد السنين والشهور، وتزيين السماء بالنجوم الثابت والسيارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياء، ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه بنظام دقيق وحركة مقدرة، لا زيادة فيها ولا نقص، وكل ذلك خاضع لسلطان الله وقهره، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤/٧] .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ إن في المذكور كله دلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله كلامه، ويفهمون حججه.

والسبب في ختم الآية السابقة بقوله: ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وختم هذه الآية بقوله: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن دلالة الأدلة السماوية العلوية على قدرة الله ووحدانيته ظاهرة لا تحتاج إلا لمجرد العقل دون تأمل، وأما الأدلة الأرضية من الزرع والنخيل وغيرها فتحتاج في دلالتها على إثبات وجود الله إلى تفكير وتأمل وتدبر.

وبعد أن نبّه الله تعالى على معالم السماء، نبّه على ما خلق في الأرض من عجائب فقال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من أشياء مختلفة الألوان والأشكال والمنافع والخواص من نباتات ومعادن وجمادات وحيوانات.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في المذكور جميعه لدلالات على قدرة الله، لقوم يذكرون آلاء الله ونعمه، فيشكرونه عليها، وختمت هذه الآية الثالثة بالتذكّر بعد ختم الأولى بالتفكير والثانية بالتعقل؛ للتنبيه على أن المؤثر فيما وجد في الأرض هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن احتجّ تعالى على إثبات الإله أولاً بأجرام السماوات، وثانياً بيدن الإنسان ونفسه، وثالثاً بعجائب خلقه الحيوانات، ورابعاً بعجائب طبائع النباتات، ذكر خامساً الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر، مبتدئاً بعنصر الماء، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ أي والله تعالى يمتن على عباده أيضاً بتذليله البحر لهم، وتيسيره للركوب فيه، وإباحته السمك حياً وميتاً، في الحلّ والإحرام، وخلقه اللآلئ والجواهر النفيسة فيه، وتيسير استخراج العباد له من قراره، حليةً يلبسونها، وكذا الاستفادة من المرجان الذي ينبت في قيعانه:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢/٥٥] ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره، أي تشقه وتجتازه من بلد إلى آخر، ولتبتغوا من فضله، أي ولتطلبوا فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، ولتشكروا نعمه وإحسانه عليكم بما يشره لكم في البحار.

وفي وصف اللحم بالطراوة بيان قدرة الله في إخراج العذب من المالح، ويدل أيضاً على أنه يطلب أكله بسرعة؛ لأنه يتسارع إليه الفساد.

ثم ذكر الله تعالى بعض النعم التي خلقها في الأرض فقال: ﴿وَأَلَقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ وهي نعم ثلاث:

الأولى - تثبيت الأرض بالجبال الرواسي، أي الثوابت لتقرّ ولا تضطرب أثناء دورانها بما عليها من كائنات حية، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاسًا﴾ [النازعات: ٣٢/٧٩] .

الثانية - إجراء الأنهار على وجه الأرض، ففيها حياة الأنفس والنبات والحيوان. وذكرها بعد الجبال؛ لأن أكثر الأنهار إنما تنفجر منابعها من الجبال. وتلك الأنهار كثيرة في العالم، منها القصير والغزير والطويل ومنها غير ذلك، وتتجه يمينا أو يساراً، أو جنوباً أو شمالاً، أو شرقاً أو غرباً. والأودية التي تحدث أحياناً ترفد تلك الأنهار.

الثالثة - إيجاد السبل وهي الطرق والمسالك التي تسهل العبور والانتقال من أرض إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد غيره، بل ومن جبل إلى سهل، كما قال تعالى في صفة الجبال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١/٢١] .

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لتهتدوا بتلك السبل إلى مآربكم ومقاصدكم.

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي وأظهر في الأرض علامات مخصوصة ومعالم معينة تؤدي

إلى المقصود، فالعلامات: هي معالم الطرق، وهي الأشياء التي بها يهتدى، وهي الجبال والرياح ونحوها يستدل بها المسافرون برّاً وبحراً، ومن كثرت أسفاره لطلب المال أو غيره مثل قريش، كان علمه بمنافع الاهتداء بالنجوم أوفى وأتم.

﴿وَيَاتَجَمُّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي والناس يهتدون في ظلام الليل بالنجوم. وهذا يرمي إلى علم النجوم أو الفلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادتنا الآيات فوائد عديدة هي:

١ - الله تعالى هو منزل المطر بقدرته وحكمته، والمطر: ماء عذب صالح للشرب، ينبت الله به أشجاراً وعروشاً وكروماً ونباتاً ومراعي للأنعام، والماء سبب الحياة البشرية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠/٢١]. وفي ذلك الإنزال والإنبات دلالة على قدرة الله ووجوده ووحدانيته لقوم يتأملون ويتفكرون.

٢ - والله سبحانه سخر لعباده الليل والنهار للسكون والأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣/٢٨]، وسخر أيضاً الشمس والقمر والنجوم مذللات لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزروع، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

٣ - والله عز وجل سخر ما ذراً (خلق) في الأرض لكم، فما ذراه الله سبحانه مسخر مذل كالذواب والأنعام والأشجار وغيرها. هذا مع العلم بأن بعض المخلوقات غير مذل لنا، بدليل ما رواه مالك في الموطأ عن كعب الأحبار قال: لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهود حماراً، فقيل له: وما هن؟ فقال: أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله

التامات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم، من شرِّ ما خلق وبرّاً وذَرّاً.

٤ - إن في اختلاف ألوان المخلوقات لعبرة لقوم يذكرون أي يتعظون ويعلمون أن في تسخير هذه الكائنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره.

٥ - والله سبحانه أنعم علينا بتسخير البحر لتناول اللحوم (الأسماك) واستخراج اللؤلؤ والمرجان، وللركوب، والتجارة، وللدفاع عن البلاد من أذى محتل وعدوان مستعمر. وتسخير البحر: هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والتجارة وغير ذلك.

ويلاحظ أن الحنفية لا يجيزون أكل السمك الطافي على سطح ماء البحر أو النهر، لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْيَبْيَةُ﴾ [المائدة: ٣/٥]، ولحديث ضعيف أخرجه أبو داود وابن ماجه عن جابر عن النبي ﷺ: «ما نَضَبَ عنه الماء فكلوا، وما لفظه فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا».

وأباح الجمهور أكل الطافي، لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦/٥]، ولحديث أبي هريرة عند أحمد ومالك وأصحاب السنن الأربعة وابن أبي شيبة عن البحر «هو الظهور مأؤه، الحلُّ ميتته».

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لو حلف لا يأكل اللحم، فأكل لحم السمك، لا يحنث؛ لأنه ليس بلحم عرفاً. وقال الجمهور: إنه يحنث؛ لأنه تعالى نصّ على كونه لحماً في هذه الآية، وليس فوق بيان الله بيان.

وبما أن الله تعالى امتن على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حرّم الله تعالى على الرجال الذهب

والحرير، روي في صحيح الشيخين عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة».

وجمهور العلماء على تحريم اتِّخَاذ الرجال خاتم الذهب، ويجوز لهم التَّخْتُم بخاتم الفضة؛ لأنه ﷺ اتَّخَذَ خَاتِماً من فضة، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ الفضة، وقال: «إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتِماً من ورق، ونقشت فيه: محمد رسول الله، فلا ينقش أحد على نقشه». وهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه. ومن حلف ألا يلبس حلياً، فلبس لؤلؤاً لم يحنث عند أبي حنيفة، عملاً بالعرف والعادة، والأيمان تختص بالعرف.

٦ - والله تعالى جعل في الأرض نعماً ثلاثاً تستحق الشكر هي إلقاء الجبال الرواسي فيها لئلا تميد وتضطرب، وإجراء الأنهار، وجعل السُّبُل والطُّرُق منافذ عبور وانتقال بأمان. قال القرطبي: وفي هذه الآية: أدل دليل على استعمال الأسباب، وقد كان الله قادراً على تسكينها دون الجبال. وجعل تعالى في الأرض علامات، أي معالم الطرق بالنهار، وجعل النجوم وسائل اهتداء إلى المقاصد.

خواص الألوهية

الخلق وعلم السر والعلن والحياة الأبدية

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ٨ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ٩ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ١١ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ١٢ لَا جِرْمَ أَتَى اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ١٣﴾

القرءات:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرُونَ) وهي قراءة حفص، وحزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَكَّرُونَ) وهي قراءة الباقرين.

﴿يَدْعُونَ﴾:

وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقر (تدعون).

الإعراب:

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿أَمُوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ خبر ثانٍ، أي هم مخلوقون أموات. ويجوز أن ترفع ﴿أَمُوتُ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم أموات. ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ استفهام عن الزمان بمعنى (متى)، و﴿أَيَّانَ﴾: مبني لتضمنه معنى الحرف، وهو همزة الاستفهام، وبني على حركة لالتقاء الساكنين، وهي الفتحة؛ لأنها أخف الحركات.

البلاغة:

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ بينهما طباق السلب. ﴿لَفَقُورٌ رَّحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

﴿تُسْرُونَ﴾ و﴿تُعْلَنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَمُوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ و﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيهما إطناب تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بينهما جناس ناقص.

المفردات اللغوية:

﴿أَمَّنْ يَخْلُقْ﴾ هو الله سبحانه وتعالى. ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ كل ما عبد من دون الله تعالى من الملائكة وعيسى والأصنام. وغلب فيه أولو العلم منهم، وأجريت الأصنام مجرى أولي العلم؛ لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، فتعرفوا فساد ذلك، فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يستحضره بأدنى تذكر والتفات. والمراد بالآية إنكار التسوية بين الخالق والمخلوق، بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرة الله تعالى وتناهي حكمته وتفرد به بالخلق.

﴿لَا تَخْضَوْهَا﴾ لا تضبطوها، فضلاً عن أن تطبقوا شكرها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث ينعم عليكم مع تقصيركم وعصيانكم. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد وترثيف للشرك باعتبار العلم.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهم الأصنام. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ينحتون ويصورون من الحجارة وغيرها، فهي مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود. ﴿أَمْثَلُ﴾ لا روح فيهم. ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيد. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون، أي الأصنام. ﴿أَيَّانَ﴾ وقت. ﴿يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يشعرون بزمان بعثهم أو بعث عبدتهم الخلق، فكيف يعبدون؟ إذ لا يكون إلهاً إلا الخالق الحيّ العالم بالغيب، المقدر للثواب والعقاب، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

﴿إِلَهُكُمْ﴾ المستحق للعبادة منكم ﴿إِلَهُ وَحْدٌ﴾ لا نظير له في ذاته ولا في صفاته، وهو الله تعالى، وهذا تكرير للمدعى بعد إقامة الحجج. ﴿قُلُوبُهُمْ مُّكْذِرَةٌ﴾ جاحدة للوحدانية. ﴿مُتَكَبِّرُونَ﴾ متكبرون عن الإيمان بها. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً. ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم بذلك. ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي يعاقبهم.

المفاسدة:

بعد ذكر الدلائل الدالة على وجود الإله القادر الحكيم، مع بيان أنواع نعم الله تعالى، ذكر الله تعالى خواص الألوهية: وهي الخلق والإبداع، وعلم الترتيب والعلن، والحياة الدائمة، مما يدل على أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، ويدل على إبطال عبادة غير الله تعالى، ثم ذكر تعالى أسباب الإشراك: وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد، فبقي أصحابه على الجهل والضلال، علماً بأن أشد القبح عبادة تلك الأصنام الجمادات المحضة، التي ليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار.

التفسير والبيان:

نبه الله تعالى في هذه الآيات على عظمتها، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ أي أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها، كمن لا يخلق، بل لا يقدر على شيء من الخلق أصلاً، أفلا تذكرون أي تعتبرون وتتعضون؟! فإن معرفة ذلك لا تحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر. والاستفهام إنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير. ونظير الآية: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١/٣١].

ثم نبههم تعالى على كثرة نعمه وإحسانه إليهم ليرشداهم إلى أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، فقال: ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي وإن أردتم حساب نعم الله وضبطها، لا تستطيعوا إحصاءها وضبط عددها، فنعم الله كثيرة دائمة، والعقل عاجز عن الإحاطة بها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ أي إنه تعالى كثير المغفرة يتجاوز عنكم وعن تقصيركم في الشكر، رحيم بكم فينعم عليكم مع استحقاقكم للحرمان بسبب الإشراك والكفر، فلو طالبكم بشكر جميع نعمه، لعجزتم عن القيام بذلك، ولو عذبكم

لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير، ومهما عمل الإنسان من الطاعات فلن يقابل نعمة واحدة من نعم الله تعالى.

والخلاصة: إنه تعالى بعد أن بيّن بالآية المتقدمة: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ أن الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ، بيّن هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا﴾ أن العبد لا يمكنه الإتيان بعبادة الله وشكر نعمه على وجه أتم.

وبعد أن أبطل عبادة الأصنام لعجزها عن الخلق والإنعام، أبطل عبادتها بوجه آخر وهو كونها جمادات لا تعلم شيئاً، فقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ أي والله يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فهو عالم الغيب والشهادة، والظاهر والباطن.

ثم وصف تعالى الأصنام بما يجردها عن أهلية العبادة، ليدلّ على غباء المشركين صراحة، فقال ذاكراً ثلاثة أوصاف:

أ - ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ﴾ أي إن الأوثان والأصنام لا يخلقون شيئاً، بل هي مخلوقة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفات: ٣٧/ ٩٥-٩٦].

٢ - ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ولا حياة لها أصلاً، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، فلا تفيدكم شيئاً.

فقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ لبيان أنه لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها، فهي ليست كبعض المواد التي يمكن طرء الحياة عليها، كالنطف التي ينشئها الله حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها.

أما الإله فهو الحي الذي لا يطرأ عليه موت أصلاً، فبان الفرق بينهما وهو أن الإله دائم الحياة، والأصنام دائمة الموت.

٣ - ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وتلك الأصنام لا تدري متى يبعث عبدها ومتى تقوم الساعة؟ فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء. وعبر عن الأصنام كما يعبر عن الآدميين لزعمتهم أنها تعقل عنهم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على حسب زعمهم.

وهذا إيماء إلى أن البعث من لوازم التكليف، للجزاء على العمل من خير أو شر، وتصريح بأن من لوازم الألوهية معرفة يوم القيامة، وهو تهكم بالمشركون الذين لا يحسنون الفهم والتقدير.

وبعد هدم عبادة الأصنام، صرح تعالى بالمطلوب فقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إن إلهكم أيها الناس إله واحد، لا إله إلا هو، ومعبودكم الذي يستحق العبادة والطاعة بحق هو الإله المعبود الواحد. ثم ذكر سبب شركهم وإنكارهم التوحيد، فقال تعالى:

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي فالذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها ولا يصدقون بها، ولا يؤمنون بالوحدانية قلوبهم منكرة للتوحيد، وهم مستكبرون عن الإقرار بالوحدانية وعن عبادة الله، فلا يرغبون في حصول الثواب، ولا يرهبون من الوقوع في العقاب.

والمعنى أن الكافرين تنكر قلوبهم الوحدانية، كما قال تعالى واصفاً تعجبهم منها: ﴿أَجَعَلَ آلِهَةَ إِلَهِهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥/٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥/٣٩].

ثم هددهم تعالى وأوعدهم على أعمالهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أي حقاً، إن ربك يعلم ما يسر هؤلاء المشركون وما يعلنون، ويعلم إصرارهم على كفرهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، إنه لا يحب المستكبرين عن

التوحيد وهم المشركون، بل وكل مستكبر، أي يعاقبهم ويجازيهم. وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات مناقشة حادة مع المشركين، فيها إنكار لعبادتهم الأصنام، وتهكم بهم، وبيان فساد تفكيرهم وسوء تقديرهم، وسوء صنيعهم، وصدودهم عن الحق، وإعلان تصميمهم على الكفر والشرك.

وأول فساد في تفكيرهم أن الأصنام مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها، فهي لا تضر ولا تنفع، فكيف تتخذ آلهة؟!

ومن كان قادراً على خلق الأشياء، كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع.

والفساد الثاني أنهم ينكرون نعم الله وإحسانه لهم، وأبسط مبادئ التدين والأخلاق مقابلة النعمة وشكرها، وهم لم يشكروها.

والفساد الثالث أن الأصنام جمادات لا تعلم شيئاً، فكيف توصف بالألوهية؟ والإله ينبغي أن يكون عالماً بالسرائر والظواهر، محيطاً بأحوال العابدين، حتى يلبي مطلبهم، ويجازي مقصرهم ومسيئهم.

ثم صرح تعالى بأوصاف الأصنام الثلاثة المناقضة تماماً لمن يستحق وصفه بالألوهية والعبادة والطاعة، وهي العجز عن خلق شيء، وكونهم أمواتاً غير أحياء، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة، وكونهم - أي الأصنام - يجهلون وقت البعث وقيام الساعة للحساب والجزاء على الأعمال.

والألوهية الحقّة بعد بيان استحالة الإشراف بالله تعالى هي ألوهية الله

الواحد الأحد الفرد الصّمد، المعبود الواحد الذي لا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

أما المشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة فلا يقبلون الوعظ ولا التذكير، ولو آمنوا بالآخرة حقاً لآمنوا بوحداية الله، ولكنهم قوم متكبرون متعظمون عن قبول الحق.

والله حقّاً يعلم ما يسرون من القول والعمل وما يعلنون، فيجازيهم على أفعالهم، إنه لا يحبّ المستكبرين أبداً، أي لا يشبههم ولا يشي عليهم.

صفات المستكبرين

إنكار المشركين الوحي المنزل والنبوة وجزاؤهم

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيطِرُ الْأَوَّلِينَ ۖ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ۖ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْ أَفَ اللَّهُ بَيِّنُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَإِنَّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليَنسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۖ﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بكسرة خالصة.

﴿تَشْتَقُونَ﴾ :

وقرأ نافع: (تشاقون).

﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ :

وقرأ حمزة وخلف: (يتوفاهم).

﴿فَلَيْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فليس).

الإعراب:

﴿مَاذَا أُنْزِلَ﴾ (ما) اسم استفهام مبتدأ، و(ذا) خبره، و﴿أُنْزِلَ رُبُّكُمْ﴾: صلته، والعائد محذوف تقديره: أنزله، فحذف تخفيفاً. ولما كان السؤال مرفوعاً رفع ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ على تقدير مبتدأ محذوف، أي هو أساطير الأولين. وأما قوله الآتي: ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ فالجواب منصوب؛ لأن السؤال منصوب، لأن ﴿مَاذَا﴾ بمنزلة كلمة واحدة، أي أي شيء أنزل ربكم، وهي في موضع نصب بـ ﴿أُنْزِلَ﴾. ﴿يَغْيِرُ عَلِيمٌ﴾ حال ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ حال أيضاً.

البلاغة:

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ استعارة تمثيلية، شبه حال الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً ثم انهدم عليهم وأهلكهم، ووجه الشبه أن ما ظنوه سبباً لحمايتهم، كان سبباً في فناءهم.

المفردات اللغوية:

﴿أُنْزِلَ رُبُّكُمْ﴾ على محمد. ﴿أَسْطِيرُ﴾ أكاذيب وأباطيل وتُرّهات.

﴿الْأُولَئِكَ﴾ الغابرين القدماء، قالوا ذلك إضلالاً للناس، وقد نزلت الآية في الضر بن الحارث، ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ في عاقبة أمرهم. ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم. ﴿كَامِلَةً﴾ لم يكفر منها شيء. ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض أوزار من يضلونهم؛ لأنهم دعوهم إلى الضلال فاتبعوهم، فاشتركوا في الإثم؛ لتسببهم في إضلالهم، والأصح أن ﴿مِنْ﴾ للجنس لا للتبعض، أي فعليهم مثل أوزار تابعيهم. ﴿سَكَّاءَ﴾ بش. ﴿مَا يَزُرُّوكَ﴾ يحملونه حملهم هذا.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول، أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، أو حال من الفاعل أي وهم جاهلون. ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ اللام لام الصيرورة؛ لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين، لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهو غمروذ بن كنعان، بنى صرحاً طويلاً ببابل، سمكه خمسة آلاف ذراع، ليصعد منه إلى السماء، ليقاتل أهلها. والمكر: صرف غيرك عما يريد به بحيلة، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات. والمقصود بالآية: المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار. ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَنَسَنَهُمْ مِنَ الْفُؤَادِ﴾ أهلكه وأفناه، فأرسل عليه الريح والزلزلة، فهدمته من الأساس، كما يقال: أتى عليه الدهر، و﴿فَأَنَّ﴾: قصد، و﴿الْفُؤَادِ﴾: الدعائم، جمع قاعدة. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي وهم تحتها، و﴿فَخَرَّ﴾: سقط. ﴿وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جهة لا تخطر ببالهم، أي من جهة لا يحسبون ولا يتوقعون. وقيل: هذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرُّسل.

﴿يُخْزِبُهُمْ﴾ يذللهم أو يعذبهم بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢/٣]. ﴿وَيَقُولُ آتِنِ شُرَكَائِي﴾ أي ويقول

الله لهم على لسان الملائكة توبيخاً: أين شركائي بزعمكم؟ ﴿تَشْتَقُونَ﴾ تعادون المؤمنين وتنازعون الأنبياء في شأنهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ويقول الأنبياء والمؤمنون العلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاقونهم ويتكبرون عليهم، أو يقول الملائكة: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشَوَّءَ﴾ الذلة والعذاب على الكافرين، وفائدة قولهم: إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة، وإيراده بقصد وعظ من سمعه.

﴿ظَالِمٍ أَنْفُسِهِمْ﴾ بالكفر. ﴿فَالْقُوا السَّلَامَ﴾: ﴿السَّلَامَ﴾: الاستسلام والخضوع، والمعنى: انقادوا واستسلموا عند الموت، وأقروا لله بالربوبية، أو سالموا حين عاينوا الموت. ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي قائلين: ما كنا نعمل من كفران أو شرك، وعدوان. ﴿بَلَى﴾ نعم، أي فتجيهم الملائكة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي ليدخل كل صنف بابَه المعدَّ له. وقيل: ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أصناف عذابها. ﴿مَثْوًى﴾ مأوى، والمثوى: مكان الإقامة.

للفاسية:

بعد أن ذكر الله تعالى أدلة التوحيد وأدلة بطلان عبادة الأصنام، أعقب ذلك ببيان شبهات منكري النبوة، وأولها الطعن في القرآن الذي احتج النبي ﷺ على صحة نبوته بأنه معجزة، فقالوا: أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات، فأهلكهم الله في الدنيا، وسيعاقبهم في الآخرة بما فعلوا، فيقولون مستسلمين حين رؤية العذاب: ما كنا نعمل من سوء، أي كفر وشرك وعدوان.

للتفسير والبيان:

تذكر هذه الآيات شبهات منكري النبوة التي هي صفات المكذبين المستكبرين.

الشبهة الأولى^(١) - طعنهم في القرآن بأنه أساطير الأولين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لما احتج رسول الله ﷺ على صحة نبوته بكون القرآن معجزة، طعنوا في القرآن، وقالوا: إنه أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات.

ومعنى الآية: وإذا قيل لهؤلاء المستكبرين المكذبين الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين: أي شيء أنزل ربكم؟ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الكلام الذي يتلى علينا أساطير أي أكاذيب وخرافات مأخوذة من كتب المتقدمين، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَبَهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ [الفرقان: ٢٥/٥] أي يفترون على الرسول بأقوال متضادة مختلفة باطلة.

والسائل: إما واحد من المسلمين أو من كلام بعضهم لبعض أو النضر بن الحارث أو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة، ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحجيج عما أنزل على محمد ﷺ.

هذا عن القرآن، أما عن النبي ﷺ فكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي حكى عنه القرآن قراره: ﴿إِنَّهُمْ فَكَرُوا وَقَدَرُوا﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا ﴿١٨﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرُوا ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بِؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ [الدثر: ١٨/٢٤-٢٤]، أي ينقل ويحكي، ففترقوا متفقين على قوله.

ثم أبان تعالى مصير قولهم: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ هذه لام العاقبة

(١) الشبهة الثانية ستأتي في الآية (٣٣)، والشبهة الثالثة في الآية (٣٥)، والشبهة الرابعة في الآية

أو الصيرورة، مثل: ﴿فَالْقَلْبَ طَهُءُ مَا لَ رِعَوْتَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرْنَا﴾ [النقص: ٨/٢٨] .

والمعنى: إنما قالوا ذلك ليتحملوا أوزارهم وآثامهم كاملة يوم القيامة وأوزار الذين يتبعونهم جهلاً بغير علم فلا يعلمون أنهم ضلال، واقتداء بهم في الضلال، أي ليصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتدائهم بهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿كَامِلَةٌ﴾ أنه لا ينقص منها شيء. وقوله تعالى: ﴿يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾ على رأي الرّغشري: حال من المفعول، أي يضلّون من لا يعلم أنهم ضلال، وعلى رأي الرّازي: حال من الفاعل، أي إن هؤلاء الرؤساء يضلّون غيرهم جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي بشّ شيئاً يحملونه من الذنب ذلك الذي يفعلون.

ونظير الآية: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣/٢٩] .

وأوضحت السّنة سبب تحملهم آثام من قلّدوهم، فقال ﷺ - فيما رواه أحد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة -: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجر من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

ثم أبان الله تعالى وجود الشّبه بين الكفار القدامى والجدد في الجرم والعقاب فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي قد كاد لدين الله ورسله من تقدّمهم من الأمم، واحتالوا بمختلف الوسائل لإطفاء نور الله فأهلكهم الله تعالى في الدّنيا، بأن دمر مبانيهم من قواعدها، وسقط عليهم السّقف من

فوقهم، وأبطل كيدهم، وأحبط أعمالهم، وأطبق عليهم العذاب من كل جانب، ومن حيث لا يحسّون بمجيئه ولا يتوقّعون، فاعتبروا يا أهل مكة وأمثالكم. وهذا كله تمثيل لصورة العذاب، ومضمونه إهلاكهم من الله تعالى.

وسبب قوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ مع أن السَّقْف لا يكون إلا من فوق هو تأكيد سقوط السقف، وشدة إطباق العذاب وسقوطه عليهم وهم تحته.

ومعنى إتيان الله: إتيان أمره. وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَلْقَا عِدَّ﴾ أي من جهة القواعد أي اجتته من أصله وأبطل عملهم، وهذا مقابل لقوله تعالى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ليفيد إحاطة العذاب من أعلى ومن أسفل. وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يحتسبون ولا يتوقّعون.

وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ﴾ هو نمرود بن كنعان، بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع.

هذا عذابهم في الدنيا، وأما في الآخرة فهو ما قاله تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي وفي يوم القيامة يخزيهم، أي يظهر فضائحهم وما تخبئه نفوسهم فيجعله علانية، ويذلهم بعذاب الخزي، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢/٣].

ويقول لهم الربّ تبارك وتعالى بوساطة الملائكة تقريراً لهم وتوبيخاً: أين شركائي في زعمكم واعتقادكم؟ أين أهتكم التي عبدتموها من دوني؟ أين تلك الآلهة التي كنتم تشاقون أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم؟ أحضروهم ليدفعوا عنكم العذاب: ﴿هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣/٢٦]، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠/٨٦].

فلا يجيب أحد، ويسكتون عن الاعتذار، وتظهر عليهم الحجة الدامغة، ويتبين أنه لا شركاء ولا وجود لهم.

ثم ذكر الله تعالى مقال الذين أوتوا العلم من الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وهم سادة الدنيا والآخرة، والخبرون عن الحق: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي قال العلماء المقرّون بالتوحيد: إن الدّلّ والفضيحة والعذاب والهوان محيط اليوم بالكافرين الذين كفروا بالله، وأشركوا به ما لا يضرهم ولا ينفعهم.

وهؤلاء هم الذين بقوا على كفرهم حتى الموت، فتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم، حالة كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي والتعريض للعذاب.

وكانت حالهم أيضاً: ﴿فَأَلْقُوا السَّلَٰءَ﴾ أي فلما حضرهم الموت وعانوا العذاب، أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ أي ما كنا مُشركين برّبنا أحداً، كما حكى تعالى عنهم يوم المعاد: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٢٣/٦].

فكذبهم الله في قولهم: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي لقد عملتم السوء كله وأعظمه وأقبحه، والله عليم بأعمالكم، فلا فائدة في إنكاركم والله يجازيكم على أفعالكم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي فادخلوا في جهنم، وذوقوا عذاب إشراككم بربكم وعقاب معاصيكم، وأنتم خالدون ماكنون فيها إلى الأبد، وبئس المقرّ والمقام دار الهوان، لمن كان متكبّراً عن آيات الله تعالى وأتباع رسله.

وهم في عذاب دائم دون موت كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦/٣٥] ، وفي ديمومة من العذاب في جميع الوقت، كما قال سبحانه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝﴾ [غافر: ٤٦/٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

تتضمن الآيات جواباً عن شبهة المشركين حول القرآن ووصفه بأنه أساطير

الأولين، وليس معجزة، وليس هو من تنزيل ربنا. ولم يكن جوابهم هنا كما تبين سابقاً بالحجة الدامغة، وإنما جوابهم هو استحقاقهم العذاب الشديد، فاقتصر على محض الوعيد ولم يجب عن شبهتهم؛ لأنه تعالى بيّن كون القرآن الكريم معجزاً بطريقتين:

الأول - أنه ﷺ تحدّاهم بكل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، أو بحديث واحد، وعجزوا عن المعارضة، وذلك يدلّ على كونه معجزاً.

الثاني - أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهي: ﴿اَكْتَنَبَهَا فَهِيَ ثَمَلَىٰ عَلَيْهِ يُكْرَهُ وَأَصِيلاً﴾ وأبطلها بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن القرآن مشتمل على الإخبار عن المغيبات، وهذا لا يكون إلا من العالم بأسرار السماوات والأرض^(١).

فهم يتحملون نتيجة آثامهم وذنوبهم تحملاً كاملاً، لا ينقص منه شيء لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم، كما أنهم يتحملون مثل أوزار تابعيهم، وذلك بسبب كفرهم وإضلالهم غيرهم، جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام، إذ لو علموا لما أضلّوا، فبئس الوزر الذي يحملونه.

وعقابهم في الدنيا يشبه عقاب عمالقة الكفر الذين تقدموهم مثل الثمروذ ابن كنعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتل أهله، فبنوا الصرح ليصعدوا منه، فخرّ عليهم، إما بزلزلة أو ريح، فخرّبته. وكان عقابهم إبطال مكرهم وتدميرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم.

وعقابهم أيضاً في الآخرة هو الدّلّ والهوان والفضيحة بالعذاب الأليم بسبب كفرهم، مع التفرّيع والتوبيخ والاستهزاء بهم، وبيان عدم وجود الشركاء لله تعالى أصلاً.

وكل من العقابين لاستمرارهم على الكفر إلى حين الموت، فإذا أقرّوا حيثنّو بالربوبية لله، وانقادوا عند الموت، فلا يتفعهم ذلك، والله عليم بأعمال الكفار.

وهذه الآية دليل على أنه لا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم، ويخضع ويذلّ، ولكن لا تنفعهم حيثنّو توبة ولا إيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٤٠/٨٥].

ويقال لهم عند الموت: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية، يدخل كل طائفة من باب، ويستقرّ في طبقة أو درك من طبقات ودركات جهنم، فبئس مقام المتكبرين الذين تكبروا في الدنيا دار التكليف عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى، كما وصفهم ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٣٥].

صفات المتقين

إيمان المتقين بالوحي المنزل وجزاؤهم

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِلذَّيْنِ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٠) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢١) ﴿الَّذِينَ نَوْفَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَبِيعٌ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢)

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وبكسرة خالصة قرأ الباقر.

﴿تُؤَفِّهُمُ﴾:

وقرأ حزة، وخلف (يتوفاهم).

الإعراب:

﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾ بدل، أو مبتدأ، وخبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أو هو المخصوص بالمدح اسم: نعم.

﴿طَبَّيْنِ﴾ حال منصوب من الهاء والميم في ﴿تُؤَفِّهُمُ﴾ وهو العامل فيها. ﴿الَّذِينَ تُؤَفِّهُمُ﴾ نعت لقوله ﴿الْمُتَّقِينَ﴾.

البلاغة:

﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي قالوا: أنزل خيراً. والسبب في نصب ﴿خَيْرٌ﴾ هنا، مع أنه رفع ﴿أَسْطِيرُ الْأُولَى﴾ في جواب المشركين: هو كما قال الزمخشري بيان الفرق بين جواب المؤمن المقر وجواب الجاحد، يعني لما سئل المؤمنون لم يتلعموا وأجابوا عن السؤال جواباً بيناً مفعولاً للإنزال فقالوا: خيراً، والمشركون عدلوا عن السؤال وأعرضوا عن الجواب فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء.

المفردات اللغوية:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك، يعني المؤمنين. ﴿أَحْسِنُوا﴾ بالإيمان. ﴿حَسَنَةً﴾ مكافأة في الدنيا أو حياة طيبة. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي الجنة. ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها، أو لثوابهم في الآخرة خير منها، وهو وعد للمتقين جزاء قولهم وإيمانهم. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من أنواع المشتبهات. وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزيهم.

﴿طَبِيبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ لأنه في مقابلة ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾ يقول الملائكة لهم عند الموت: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت، جاءه ملك، فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ويشره بالجنة. ويقال لهم في الآخرة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أحوال المكذبين بالقرآن المنزل وبالوحي من قولهم: أساطير الأولين، وتحمل أوزارهم وأوزار أتباعهم، وتوفي الملائكة لهم ظالمي أنفسهم، وإلقائهم السلم في الآخرة والإقرار بربوبية الله، أتبعه بيان أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالمنزل، وما أعد لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات في جنات عدن، حتى تتم المقارنة بين وعد هؤلاء، ووعد أولئك.

روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بنجر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد المقتسمين طرق مكة للحيلولة بين القادمين وبين الإيمان بالنبي، قالوا له ما قالوا سابقاً، وإذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: اجتمعت قريش، فقالوا: إن محمداً رجل حلوا اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله، فانظروا ناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين، فمن جاء يريده فردوه عنه، فخرج ناس في كل طريق، فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد، ووصل إليهم، قال أحدهم: أنا فلان بن فلان، فيعرفه نسبه، ويقول له: أنا أخبرك عن محمد: إنه رجل كذاب، لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد، ومن لا خير فيهم، وأما شيوخ قومه وخيارهم، فمفارقون له، فيرجع الوافد، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد، فقالوا له مثل ذلك، قال: بشس الوافد لقومي، إن كنت جئت، حتى إذا بلغت مسيرة يوم، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل، وأنظر ما يقول، وآتي قومي ببيان أمره، فيدخل مكة، فيلقى المؤمنين، فيسألهم ماذا يقول محمد؟ فيقولون: خيراً.

التفسير والبيان:

تتميز الأشياء بأضدادها، فأخبر الله تعالى عن السعداء المؤمنين إثر الإخبار عن الأشقياء المشركين، ليتضح الفرق، وتتجلى أسس العدل. فستل الذين اتقوا الكفر والمعاصي وخافوا الله: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل خيراً أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به وبرسوله.

والسائل: هم الوافدون على المسلمين في أيام المواسم والأسواق، فكان الرجل يأتي مكة، فيسأل المشركين عن محمد وأمره، فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنين، ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه، فيقولون: أنزل خيراً.

ثم أخبر تعالى عما وعد هؤلاء المؤمنين في مقابل وعيد المشركين السابق، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه، وأحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة.

فلهم في الدنيا مثوبة حسنة من عند الله بالنصر والفتح والعزة، وفي الآخرة بنعيم الجنة وما فيها من خير.

ثم أعلمنا الله تعالى بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا.

ونظير صدر الآية: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

ونظير آخر الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَرَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفصل: ٨٠/٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨/٣] وقوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤/٩٣] وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧/٨٧] .

ثم وصف الدار الآخرة بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ، جَنَّاتٌ عَدْنٌ أَي لَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ دَارُ الْآخِرَةِ، وهي جنات عدن أي إقامة تجري بين أشجارها وقصورها الأنهار، ونعيمها دائم ميسر غير ممنوع: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي للمحسنين في الدنيا ما يتمنون ويطلبون في الجنات، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْآلُفُ نَفْسٌ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَخِيلٌ﴾ [الزخرف: ٧١/٤٣] وقال سبحانه: ﴿وَفَكَهَمٌ كَثِيرٌ ۚ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣] .

وهذا جزاء التقوى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الطيب، يجزي الله كل من آمن به واتقاه، وتجنب الكفر والمعاصي، وأحسن عمله. وهذا حث على ملازمة التقوى.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المتقين عند الاحتضار في موازاة أو مقابلة حال المشركين: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَلْمِ الْأَنْفُسِ﴾ فقال ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي الذين قبض أرواحهم الملائكة طاهرين طيبين من الشرك والمعصية وكل سوء. وكلمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ كما قال الرازي: كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم كل ما نهوا عنه، واتصافهم بالأخلاق الفاضلة، والتبرؤ عن الأخلاق المذمومة، والتوجه إلى حضرة القدس، وعدم الانهماك في الشهوات واللذات الجسدية، فيطيب للملائكة قبض أرواحهم. وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح.

وتسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة عند قبض الأرواح، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَالُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢/٤١].

ومضمون تحية الملائكة هو: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي تقول الملائكة لهم: سلام عليكم من الله، وأمان لا خوف، وراحة لا مكروه، ادخلوا الجنة التي أعدها لكم ربكم بسبب أعمالكم. والمراد من هذه التحية: البشارة بدخول الجنة بعد البعث. ولما بشرتهم الملائكة بالجنة، صارت الجنة كأنها دارهم، وكانهم فيها، فقولهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي هي خاصة لكم، كأنكم فيها.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات مثل واضح لأسلوب القرآن في بيان المتقابلات المتعاكسة، فبعد أن أبان تعالى حال المشركين وجزاءهم في الدنيا والآخرة، أعقبه ببيان حال المؤمنين الآتقياء.

فهم يؤمنون ويصدقون تصديقاً جازماً بصدق النبوة، وصحة ما أنزل الله من القرآن على نبيه المصطفى ﷺ.

فيكون جزاؤهم أحسن من عملهم: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠/٥٥] فلهم في الدنيا الجزاء الأفضل من النصر والفتح والغنيمة والعزة، ولهم في الآخرة الحسنة أي الجنة، فمن أطاع الله فله الجنة غداً، وما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا، لفنائها وبقاء الآخرة، ولنعم دار المتقين: الآخرة، وهي جنات عدن التي يدخلونها، وتجري في رياضها الأنهار، ولهم فيها ما يشاؤون مما تمنوه وأرادوه، ومثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين، وهكذا يكون جزاء التقوى.

ويطيب للملائكة قبض أرواح هؤلاء الأتقياء، ويسلمون عليهم، مبشرين لهم بالجنة؛ لأن السلام أمان. قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده، لتقرّ عينه.

وتقول لهم أيضاً: أبشروا بدخول الجنة بما عملتم في الدنيا من الصالحات. والخلاصة: إنه يصدر من الملائكة سلام، وبشارة بالجنة، وبدأ بالسلام لأنه أمان واطمئنان عام، وأتبعه بأمر خاص وهو البشارة.

تهديد المشركين على تماديهم في الباطل

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أَنْ يَأْتِيَهُمْ).

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر الكفار المارّ ذكرهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ هو عذاب الاستئصال، أو يوم القيامة المشتمل على العذاب. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فعل الذين من قبلهم من الأمم، كذبوا رسلهم، فأهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاكهم بغير ذنب. ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي جزاؤها على حذف المضاف، أو تسمية الجزء باسم سيئات الأعمال. ﴿وَحَاقَ﴾ نزل أو أحاط بهم، وخص في الاستعمال بإحاطة الشر. ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط بهم جزاء استهزائهم.

المناسبة:

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم: أساطير الأولين، ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به ووصفه بالخيرية، أردف ذلك ببيان أن أولئك الكفار لا يرتدعون عن حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد بقبض أرواحهم، أو أمر الله بعذاب الاستئصال^(١). ثم نبه تعالى إلى تشابه الكفار قديماً وحديثاً في الشرك والتكذيب، وتعرضهم للهلاك جزاء فعلهم.

والخلاصة: إن هذه الآية: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هي الشبهة الثانية لمنكري النبوة، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ في التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك؟^(٢).

التفسير والبيان:

يهدد الله تعالى المشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا، فيقول: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة وأمثالهم في التصديق بنبوة النبي محمد ﷺ إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك، أو هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم؟ ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَيْكٌ﴾ أي أو أن يأتيهم أمر ربك بعذاب الاستئصال في

(١) البحر المحيط: ٤٨٩/٥

(٢) تفسير الرازي: ٢٠/٢٦

الدنيا كإرسال الصواعق أو الخسف، أو أن يأتي أمر ربك بيوم القيامة، وما يعاينونه من الأهوال، فهم لا ينزجرون عن الكفر إلا بمثل هذه الأمور. والمقصود: حثهم على الإيمان بالله ورسوله قبل أن ينزل بهم أمر لا مرد لهم فيه.

﴿كَذَلِكَ فَكَلَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمُ﴾ أي هكذا تهادى الذين من قبلهم من المشركين في شركهم، حتى ذاقوا بأس الله، وحل بهم العذاب والنكال.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ أي إن ما وقع بهم من العذاب لم يكن بظلم من الله؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال رسله وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فعوقبوا، وجوزوا بسوء عملهم، وأحاط بهم من العذاب الأليم ما كانوا به يستهزئون، أي يسخرون من الرسل حين توعدهم بعقاب الله.

فيقال لهم يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤/٥٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات جواب عن الشبهة الثانية لمنكري النبوة الذين طلبوا إنزال ملك من السماء يشهد على صدق محمد في ادعاء النبوة.

والجواب يدل على إصرارهم على الكفر وتماذيمهم في الباطل وعزوفهم عن الحق، فهم ما ينتظرون إلا أحد أمرين: أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم، أو يأتي أمر الله بالعذاب من القتل كيوم بدر، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل: المراد يوم القيامة.

والواقع أن القوم لم ينتظروا هذه الأشياء؛ لأنهم ما آمنوا بها، فاستحقوا العقاب، وكانت محابتهم العذاب.

ولما أصرّوا على الكفر، أتاهاهم أمر الله فهلكوا، وما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم، كما فعل بأسلافهم، ولكن ظلّموا أنفسهم بالشرك.

لقد فعل الذين من قبلهم مثلما فعلوا، فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم، وجزاء خبيث أعمالهم، وعقاب استهزائهم.

احتجاج الكفار بالقدر

وإنكارهم البعث وتشابه مهمة الرسل

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

القرءات:

﴿أَنِ اعْبُدُونَا﴾:

قرئ:

١- (أَنِ اعْبُدُونَا) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمة.

٢- (أَنْ اَعْبَدُوا) وهي قراءة الباقيين.

﴿لَا يَهْدِي﴾ :

قرئ:

١- (لا يَهْدِي) وهي قراءة عاصم، وحزمة، والكسائي، وخلف.

٢- (لا يَهْدِي) وهي قراءة الباقيين.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ :

وقرأ ابن عامر، والكسائي (كن فيكون).

الإعراب:

﴿الْبَلَّغُ﴾ مرتفع بالظرف، لاعتماد الظرف على حرف الاستفهام.

﴿يَهْدِي﴾ فيه ضمير يعود إلى اسم ﴿إِنْ﴾ و﴿مَنْ﴾ منصوب بيهدي وتقديره: إِنْ الله لَا يَهْدِي هو مَنْ يُضِلُّ. وَمَنْ قرأ ﴿يَهْدِي﴾ كَانَ ﴿مَنْ﴾ فِي موضع رفع؛ لِأَنَّهُ نَائِبٌ فَاعِلٌ. وَفِي ﴿يُضِلُّ﴾ ضمير يعود على اسم ﴿إِنْ﴾ ومفعول ﴿يُضِلُّ﴾ محذوف، أَي إِنْ الله لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّه الله.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ ﴿أَنْ نَقُولَ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيهما

إطناب.

﴿مَنْ هَدَى اللهُ وَمَنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾

بين كل من الجملتين طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال البيضاوي: إنما قالوا ذلك استهزاء ومنعاً للبعثة والتكليف، متمسكين بأن ما شاء الله يجب، وما لم يشأ يمتنع. وهذا نظير آية أخرى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦] وهذا احتجاج بالقدر، وهي حجة باطلة داحضة، بانفاق العقلاء والعلماء، كما قال ابن تيمية، لهذا رد الله عليهم هنا بقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي سورة الأنعام [١٤٨] بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ والراجح أنهم لم يقولوا ذلك استهزاء، وإنما اعتراضاً على الله تعالى. والرد عليهم أن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء ولا يجوز الاعتراض عليه، ولبعثة الرسل فائدة: وهي الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة الطاغوت، وأما علم الله بالشيء فلا اطلاع لنا عليه.

﴿وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من البحائر والسوائب، أي فإشراكنا وتحريمنا بمشيئة الله، فهو راض به ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وكذبوا رسله فيما جاؤوا به، وحرّموا حلاله، وهو جواب عن الشبهتين المتقدمتين. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فما على الرسل إلا الإبلاغ البين، وليس عليهم الهداية، ولكنه يؤدي إلى الهدى على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقاً، بل بأسباب قدرها له.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ كما بعثناك في هؤلاء المشركين، أي إن البعثة - كما قال البيضاوي - أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها، سبباً لهدى من أراد اهتدائه، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله، كالغذاء الصالح، فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه، ويضر المنحرف ويفنيه. وهو دليل على أن الله تعالى أمر أبداً في جميع الأمم بالإيمان ونهه عن الكفر.

﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ أي بأن اعبدوا الله، أي وحّدوه، ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ أي اتركوا الأوثان أن تعبدوها، وهو أمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. والطاغوت: كل ما عبد من دون الله، والمراد: اجتنبوا ما يدعو إليه مما نهى عنه الشرع، ويشمل الطاغوت الشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا إلى ضلال.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فآمن، بأن وفقهم للإيمان بإرشادهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي وجبت عليه الضلالة في علم الله فلم يؤمن، بأن لم يوفقهم ولم يرد هداهم. ووجبت أي ثبتت بالقضاء الأزلي السابق؛ لإصراره على الكفر والعناد.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يامعشر قريش ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ رسلهم من الهلاك، مثل عاد وثمود وغيرهم، لعلكم تعتبرون ﴿إِنْ تَحْزَنْ﴾ ياحمد ﴿عَلَىٰ هُدُنُهُمْ﴾ وقد أضلهم الله، لا تقدر على ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ هذا معنى من حقت عليه الضلالة، أي من يريد ضلاله، ولكنه لم يأمره به، وإنما على العكس أمره وأمر العالم كله بالإيمان ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ مانعين من عذاب الله، بأن ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

﴿جَهَدَ أَيْمَانُهُمْ﴾ غاية اجتهدهم فيها ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان لنفسهما منصوبان بفعلهما المقدر، أي وعد ذلك وحقه حقاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي أهل مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك أي إنهم مبعوثون، إما لعدم علمهم بمقتضى الحكمة التي يراعيها الله عادة، وإما لقصر نظرهم على المألوف، فيتوهمون امتناعه.

﴿لَبِئْسَ﴾ متعلق بقوله: يبعثهم المقدر، أي يبعثهم لئس ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مع المؤمنين، من أمر الدين الحق، بتعذيبهم وإثابة المؤمنين ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في إنكار البعث المميز بين الحق والباطل والحق

والمبطل بالثواب والعقاب ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أردنا إيجاده ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون. وهذه الآية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ لتقرير القدرة على البعث وبيان إمكانه؛ لأن تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيتته، ولا يتوقف على سبق المواد والمدد، وإلا لزم التسلسل، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة، يمكن له تكوينها مرة أخرى.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت؟! فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة:

في هذه الآيات شبهتان، أما آيات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهي الشبهة الثالثة لمنكري النبوة بعد إيراد الشبهتين المتقدمتين، وتقريرها: أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة، فقالوا: لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان، سواء جئت أم لم تجيء، ولو شاء الله الكفر، فإنه يحصل الكفر، سواء جئت أو لم تجيء، وإذا كان الأمر كذلك، فالكل من الله، ولا فائدة في مجيئك وإرسالك، فكان القول بالنبوة باطلاً.

وأما آيات: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ فهي الشبهة الرابعة لمنكري النبوة، ومفادها أنهم قالوا: الاعتقاد بالبعث والحشر والنشر باطل، فكان القول بالنبوة باطلاً من وجهين:

الأول - إن محمداً كان داعياً إلى التصديق بالمعاد، فإذا بطل ذلك، ثبت أنه كان داعياً إلى القول الباطل، فهو ليس رسولاً صادقاً.

الثاني - إنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته، بناء على الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب، وإذا بطل ذلك، بطلت نبوته.

ورد الله عليهم مقالهم كله بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم القديمة، وما على الرسل إلا التبليغ، وليس عليهم الهداية، والله تعالى لا يجبر أحداً على الهداية أو الضلالة، وإنما يختار الإنسان لنفسه ما يريد، والله سبحانه خلق للناس قدرة الاختيار بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فلا يصح الاحتجاج بمشيئته تعالى، بعد أن خلق لهم من الاختيار ما يكفي.

التفسير والبيان:

أجاب الله تعالى في هذه الآيات عن شبهتين للكفار منكري النبوة، الأولى منهما هي الشبهة الثالثة لهم المتضمنة اغترارهم بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم الواهي محتجين بالقدر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي وقال المشركون بالله عبدة الأصنام والأوثان، معتذرين عن شركهم، محتجين بالقدر بقولهم: ما نعبد هذه الأصنام إلا بمشيئة الله، فلو شاء الله ما عبدناهم، ولا حرّمنا هذه المحرمات من البحائر والسوائب والوصائل^(١) ونحو ذلك مما ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مالم ينزل به سلطاناً، ما حرّمناها إلا برضا الله، ولو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنتنا منه.

وهذه الشبهة هي عين ما حكى الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦].

(١) سبق تفسيرها في آية: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْدٍ وَلَا سَاكِنَةٍ وَلَا دَابَّةٍ وَلَا سَابِقَ﴾ [المائدة: ٥/٥]

وقصدهم من ذلك - كما ذكر الشوكاني في فتح القدير - الطعن في الرسالة، أي لو كان ما قاله الرسول حقاً آتياً من الله من منع عبادة غير الله، ومنع تحريم ما لم يحرمه الله، لم يقع منا ما يخالف ما أراده الله منا، فإنه قد شاء ذلك، وما شاءه كان وما لم يشأ لم يكن، فلما عبدنا غيره وحررنا ما لم يحرمه، دل على أن فعلنا مطابق لمراحه وموافق لمشيئته، وهم في الحقيقة لا يقرون بذلك، ولكنهم قصدوا الطعن على الرسل.

ورد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إن ذلك ليس جديداً في الاعتقاد الفاسد، فمثل قولهم حدث ممن قبلهم من الأمم حين كذبوا الرسل، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فهؤلاء سلكوا سبيل أسلافهم في تكذيب الرسل واتباع الضلال.

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فهم مخطئون فيما يقولون، وليس الأمر كما يزعمون أنه تعالى لم ينكره عليهم، بل قد أنكره عليهم أشد الإنكار، ونهاهم عنه أشد النهي، وأرسل في كل أمة أو قرن أو طائفة من الناس رسولا يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن عبادة ماسواه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

فمنهم من هداه الله ووقفه فآمن وامثل، ومنهم من أعرض وتنكر، فحققت عليه الضلالة وكلمة العذاب لإصراره على الكفر والعصيان.

وما على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم إلا إبلاغ الرسالة والوحي وإيضاح طريق الحق، ومنه أن مشيئته تعالى تتوجه بالهداية لمن تعلق بها، كما قال: ﴿فَالْتَمَسْنَا جُورَهَا وَتَقَوَّيْنَا ۖ ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۖ ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٨/ ١٠] وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٩].

وليس من وظيفة هؤلاء الرسل إلقاء الناس إلى الإيمان، فذلك ليس من شأنهم، ولا هو من الحكمة.

أي إن الثواب والعقاب مرتبطان بأمرين: مشيئة الله تعالى، واتجاه العبد إلى تحصيل الأسباب المؤدية إلى النجاة أو الهلاك. وهداية الله نوعان: هداية إرشاد ودلالة، وهذا ما يقوم به الرسل والكتب المنزلة عليهم، وهداية توفيق وعون، وهذا متعلق بسلوك العبد أصل طريق الهداية والإيمان، فمن آمن زاده الله توفيقاً إلى الخير، ومن ضل وكفر وأعرض أضله الله وأبعده عن جادة الحق والخير. ثم إن أمر الله جميع الناس بالإيمان غير إرادته ومشيئته.

ثم أبان الله تعالى عموم بعثة الرسل لكل الأمم فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي إن سنته تعالى في خلقه إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله، ونهيهم عن عبادة الطاغوت: وهو كل ما عبد من دون الله من الأوثان والأصنام والكواكب والشيطان وغيرها، فلقد أرسل في كل أمة رسولاً منذ حدث الشرك في قوم نوح، وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي كانت دعوته عامة للإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كان يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢١/٢٥] وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ (٢٥) [الزخرف: ٤٣/٤٥] .

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

والخلاصة: إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية غير مرادة؛ لأنه تعالى نهى الناس عن الكفر على ألسنة رسله. وأما المشيئة الكونية وهي تمكين بعض الناس من الكفر وتقديره لهم على وفق اختيارهم، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حكمة بالغة^(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٥٦٩/٢

ثم إنه تعالى أنكر على الكفرة المكذبين بإنزال العقوبة عليهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي فبعض الناس هداهم الله ووقفهم لتصديق الرسل، ففازوا ونجوا، ومنهم من كفر بالله وكذبوا رسله، فعاقبهم الله تعالى.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل، وكذب الحق، كعاد وثمود، كيف أهلكهم الله بذنوبهم: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠/٤٧] فانظروا كيف كان مصير المكذبين رسلهم، لتعتبروا بعاقبتهم.

ثم خصص الله الخطاب برسوله مسلماً له عما يقابله قومه من جحود فقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدُنْهُمْ﴾ أي إن تحرص يا محمد على هداية قومك، فلا ينفعهم حرصك إذا كان الله قد أراد إضلالهم بسوء اختيارهم، كما قال سبحانه ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١/٥] وقال تعالى حكاية لقول نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤/١١] وقال عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦/٢٨].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي وليس لمن اختاروا الضلالة ناصرين يتقذونهم من عذاب الله وعقابه؛ لأن أساس الحساب على الإيمان والكفر الاختيار، لا الإكراه والإلجاء.

ثم ذكر تعالى الشبهة الرابعة لمنكري النبوة، فقالوا: اعتقاد البعث والحشر والنشر باطل، فكان القول بالنبوة باطلاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي حلف المشركون، واجتهدوا في الحلف، وأغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي إنهم استبعدوا البعث، وكذبوا الرسل في إخبارهم بإيهم به؛ لأن الميت يفنى ويزول.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: بلى سيكون ذلك، ووعد به وعداً حقاً لا بد منه، ولكن أكثر الناس لجهلهم بقدرة الله خالفوا الرسل ووقعوا في الكفر.

وحكمة الله في المعاد هي ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي ليبين للناس الحق فيما يختلفون فيه من كل شيء، ويقيم العدل المطلق فيميز الخبيث من الطيب، والطائع من العاصي، والظالم من المظلوم، ويميزي الذين أساءوا بما عملوا، ويميزي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وليعلم الكافرون علم اليقين الذين أنكروا البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقوالهم: لا يبعث الله من يموت، وتقول لهم زبانية النار: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿لَا﴾ أفسح هذا أم أنت لا تبصرون ﴿أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الطور: ١٤/٥٢-١٦].

وناسب الكلام في البعث أنه تعالى أخبر عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أي إنا إذا أردنا شيئاً من الخلق والإعادة والبعث للأموات والمعاد، فلنما يتم بالأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء الله، دون عناء ولا تردد، ولا بلاء ولا تكلف، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٤/٥٠] وقال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧/١٦] وقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُمُ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾ [القمان: ٢٨/٣١] وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢/٣٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن بعثة الرسل في كل الأمم عامة شاملة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الطاغوت أي ترك كل معبود دون الله، كالشيطان والكاهن والصنم، وكذا كل من دعا إلى الضلال.

٢ - الناس أمام دعوة الرسل فريقان: فريق أرشده الله إلى دينه وعبادته، وفريق أضله الله في قضائه السابق حتى مات على الكفر، وكل من الفريقين اختار لنفسه ما يحلو، وعلم الله واسع محيط بكل شيء، علم الله من كل فريق ما سيختار، فكان قضاؤه السابق مطابقاً لما سيحدث، وعلم الله لا يتغير. وسنة الله قديمة مع العباد، وهي أنه يأمر الكل بالإيمان، وينهاهم عن الكفر، ثم يخلق الإيمان في فريق، والكفر في فريق، حسبما علم من توجه العبد إلى منجاه.

٣ - العاقل من يعتبر ويتعظ بما حل بفريق الضالين المكذبين، كيف آل أمرهم إلى الدمار والخراب والعذاب والهلاك.

٤ - لا جدوى ولا فائدة من حرص النبي ﷺ أو غيره على هداية أحد بجهده وتصميمه إن سبق في علم الله الضلالة له، فإنه تعالى لا يرشد من أضله، بعد أن ضل سواء السبيل.

وليس للضالين من ناصرين ولا من شافعين ولا من رفاق ينفذونهم من العذاب الذي استحقوه على ضلالهم وكفرهم.

٥ - الكل يعجب من حماقة المشركين وجهلهم حينما يغفلون الإيمان ويؤكدون القسم بأن الله لا يبعث من يموت. لذا رد الله عليهم بأن البعث حق مؤكد لا شك فيه، ولا بد من وقوعه، وإن كان أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون.

٦ - الحكمة من البعث والمعاد واضحة وهي إظهار الله الحق فيما يختلف

فيه الناس من أمر البعث وكل شيء، وإعلام الكافرين بالبعث الذين أقسموا على إنكاره أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت.
 ٧ - لله القدرة المطلقة الهائلة، فإذا أراد أن يبعث من يموت فلا تعب عليه ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما يحدثه في الكون؛ لأنه إنما يقول له: كن فيكون.

جزاء المهاجرين وبشرية الرسل ومهمة النبي ﷺ في بيان القرآن، وتهديد الكافرين

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ
 الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
 وَلَعَلَّهُمْ يَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ
 يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ
 بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا
 خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظُلُمَلَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾
 يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿فَسَتَلَوْا﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمة وقفاً (فَسَلُوا).

﴿لَرءُوفٌ﴾:

قرئ:

١- (لِرؤُوف) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص.

٢- (لِرؤُف) وهي قراءة الباقيين.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أو لم تروا).

﴿يَنْفَتِحُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو: (تفتيؤا).

الإعراب:

﴿حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر، أي لنبوئتهم تبوئة حسنة.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الذين: إما بدل مرفوع من ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وإما بدل منصوب من الهاء والميم في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أو منصوب بتقدير: أعني.

﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ حال من الفاعل أو المفعول. ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ حال من الظلال ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حال من ضمير ﴿ظَلَّلَهُمُ﴾ الذي هو في معنى الجمع ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال.

﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ حال من: هم.

البلاغة:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ استفهام بمعنى الإنكار.

﴿لِرؤُوفٍ رَّحِيمٍ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ عطف خاص على عام لتعظيم الملائكة وتكريمهم.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ﴿دَخَرُونَ﴾ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ بأسلوب السجع اللطيف.

﴿الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ بينهما طباق.

للفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ هم النبي ﷺ وأصحابه، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة في صدر الإسلام فرضاً، ثم قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عباس: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» أي إن الهجرة أصبحت هي ترك سيئات الأعمال: «والمهاجر: من هجر ما نهى الله عنه» والهجرة: ترك الوطن في سبيل الله لإقامة دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بالأذى من أهل مكة ﴿لَتُبَوَّئَتْهُمْ﴾ لتنزلهم في الدنيا منزلاً حسناً ﴿وَلَا جُرْ إِلَّا خَيْرٌ أَكْبَرُ﴾ أي إن الجنة أعظم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا أن الله يمنح المهاجرين خير الدارين لو افقوهم، أو للمهاجرين، أي لو علموا ذلك لزدادوا في اجتهادهم وصبرهم، أو للمتخلفين عن الهجرة، أي لو علموا ما للمهاجرين من الكرامة لبادروا إلى الهجرة. وفي هذا ترغيب في الهجرة وفي طاعة الله تعالى؛ لأنه بالهجرة قوي الإسلام.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هم الصابرون على الشدائد من أذى المشركين، والهجرة لإظهار الدين. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي منقطعين إلى الله تعالى مفوضين إليه الأمر كله. ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة، وهو رد لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. وفي هذا دلالة واضحة أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، وليس في النساء نبيه. ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ العلماء بالتوراة والإنجيل، أي

أهل الكتاب العالمين ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فإنهم يعلمونه، وأنتم أقرب إلى تصديقهم من تصديق المؤمنين بمحمد ﷺ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بمحذوف، أي أرسلناهم بالبينات أي الحجج الواضحة، والبيئة: هي المعجزة الدالة على صدق الرسول ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الكتب، أي كتب الشرائع وتكاليف العباد، جمع زبور ﴿الذِّكْرِ﴾ القرآن، وسمي ذكراً؛ لأنه موعظة وتنبيه ﴿لِئُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتوضح أسرار التشريع ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في القرآن من الحلال والحرام، والتبيين: أعم من أن ينص على المقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وإرادة أن يتأملوا فيه، فيتنبهوا للحقائق، ويعتبروا.

﴿مَكْرُوءًا﴾ المكرات السيئات، والمكر: السعي بالفساد خفية ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ أي الأعمال التي تسوء عاقبتها، وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا بالنبي ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجة، كما ذكر في سورة الأنفال [٣٠] وراموا صد أصحابه عن الإيمان ﴿يَحْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ مثلما فعل بقارون، أي بأن يذهبهم ويغور بهم في أعماق الأرض. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من جهة لا تخطر ببالهم، بأن يأتيهم العذاب بغتة من جانب السماء، كما فعل بقوم لوط، وكما أهلك المشركين في بدر، ولم يكونوا يقدرُونَ على النجاة.

﴿فِي تَقْلِيهِمْ﴾ في أسفارهم في البلاد للتجارة، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦/٣]. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار من العذاب ﴿تَخَوُّفٍ﴾ مع تخوف وتوقع للبلايا أو تنقص شيئاً فشيئاً في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعر أبو كبير يصف ناقته:

تَخَوُّفُ الرِّحْلِ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوُّفُ عَوْدِ النَّبْعَةِ السَّفِينِ^(١)
فقال عمر: عليكم بديوانكم، لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر
الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

﴿فَإِنَّ رَيْكُمْ لَرُؤُوفٌ رَجِيمٌ﴾ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ له ظل
كشجرة وجبل ﴿يَنْفَيْتُؤُا ظِلَّيْلُهُ﴾ يميل من جانب إلى جانب، وقرئ (تنفياً)
وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع، والظلال: جمع ظل: وهو ما يكون
أول النهار قبل أن تناله الشمس ﴿وَالشَّمَايِلُ﴾ جمع شمال، والمراد باليمين
والشمال: أي عن جانبي الشيء أول النهار وآخره. ﴿سُجَّداً لِلَّهِ﴾ أي
خاضعين له بما يراد منهم، والسجود: الانقياد والخضوع ﴿وَهُمْ﴾ الظلال،
نزلوا منزلة العقلاء ﴿دَخِرُونَ﴾ صاغرون منقادون. ﴿مِنْ دَاخِرٍ﴾ نسمة تدب على
السماء والأرض، أي تخضع له بما يراد منها، وغلب في الإتيان بما: مالا
يعقل لكثرتة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبرون عن عبادته ﴿يَخَافُونَ﴾ أي الملائكة،
حال من ضمير ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ حال، أي عالياً عليهم بالقهر
والغلبة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧/٧].

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى موقف الكفار في إنكار البعث والقيامة، الدال على
التمادي في الغي والجهل والضلال، أبان حكم الهجرة عن تلك الديار ورغب
فيها، تخلصاً مما يقدم عليه أولئك الكفار من إيذاء المسلمين وإضرارهم
وعقوبتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في ستة من
الصحابة: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وعابس، وجبير، مؤلِّين
لقريش، فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، أما صهيب فقال لهم: أنا

(١) التامك القرد: اللحم المتراكم بعضه فوق بعض من السم. والنبعة: شجرة من أشجار
الجبال يتخذ منها القسي.

رجل كبير إن كنت لكم، لم أنفعكم، وإن كنت عليكم، لم أضركم، فافتدى منهم بماله، فلما رآه أبو بكر قال: ربيع البيع يا صهيب، وقال عمر: نعم الرجل صهيب، لو لم يخف الله، لم يعصه، وهو ثناء عظيم، يريد به: لو لم يخلق الله النار لأطاعه، فكيف ظنك به، وقد خلقها؟ وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الإسلام، فتركوا عذابهم، ثم هاجروا، فنزلت هذه الآية^(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال في هذه الآية: هؤلاء أصحاب محمد ﷺ، أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى الشبهة الخامسة لمنكري النبوة الذين قالوا: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر، بل لو أراد بعثة رسول إلينا، لكان يبعث ملكاً، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله تعالى وعادته أن يبعث رسولاً من البشر.

ثم هددهم بخسف الأرض بهم، أو بعذاب من السماء بغتة؛ لأن الله قدرة كاملة في السماء والأرض، والمخلوقات كلها تنقاد له وتخضع لأمره.

التفسير والبيان:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ هذه الآية تحدد جزاء المهاجرين في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان، رجاء ثواب الله وجزائه، والمعنى: والذين فارقوا ديارهم وأوطانهم، وتركوا أموالهم وأولادهم في سبيل الله، وحباً في إرضائه، وذهبوا إلى ديار أخرى، بعد أن ظلموا، وأوذوا من

الأعداء، لتزلزلهم في الدنيا داراً أو بلدة حسنة، ومنزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب. فالحسنة: هي المنزلة الطيبة والمسكن المرضي والموطن الأصح وهو المدينة، كما قال ابن عباس والشعبي وقتادة. وقال مجاهد: هي الرزق الطيب، قال ابن كثير: ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله، عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك أصبحوا سادة العباد والبلاد.

فالحسنة: هي المنزلة الرفيعة المادية والمعنوية.

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ﴾ أي وثوابهم في الآخرة على هجرتهم أعظم مما أعطيناهم في الدنيا؛ لأن ثوابه هو الجنة ذات النعيم الدائم الذي لا يفنى، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزدادوا في اجتهادهم وصبرهم. أو لو علم المتخلفون عن الهجرة معهم ما ادّخر الله لمن أطاعه وأتبع رسوله.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما دخر لك في الآخرة أكثر.

ثم وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا على الأذى من قومهم والعذاب، وعلى مفارقة الوطن المحبوب، وهو حرم الله، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله، وعناء السفر ومتاعب الغربة، وتوكلوا على ربهم، أي فوضوا أمورهم إليه، فأحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن كثير: ويحتمل أن يكون سبب نزول الآية في مهاجرة الحبشة الذين

اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكّنوا من عبادة ربهم. ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد، في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة^(١)، وهذا هو الصحيح في سبب نزول هذه الآية، كما ذكر ابن عطية.

ثم أجاب الله تعالى عن الشبهة الخامسة لمنكري النبوة المذكورة في هذه السورة وهي بشرية الرسل، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ أَيْ وَمَا أَرْسَلْنَا لِلنَّاسِ رَسُولًا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ أَيْ ملائكة، وإنما أرسلنا رجالاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ نُوْحِي إِلَيْهِمْ أَوْامِرًا وَنَوَاهِيًا، فلم نرسل إلى قومك يا محمد إلا كما أرسلنا إلى من قبلهم من الأمم، أي رسلاً من جنسهم وطبيعتهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣/١٧]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠/١٨].

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عِجْبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية [يونس: ٢/١٠].

﴿فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي فاسألوا أهل العلم وأهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً.

﴿يَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالحجج والدلائل التي تشهد لهم بصدق

(١) تفسير ابن كثير: ٥٧٠/٢

نبوتهم، وبالكُتبِ المُشتملة على التشريع الربّاني. والزُّبر: جمع زبور أي كتاب، تقول العرب: زبرت الكتاب: إذا كتبه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥/٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٤/٥٢]. وفي الآية: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ تقديم وتأخير، أي ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبر إلا رجالاً، أي غير رجال، فكلمة ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير، كقوله: لا إله إلا الله.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك يا محمد، أنزلنا إليك القرآن، لتبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم من الشرائع والأحكام والحلال والحرام وقصص الأمم الماضية التي أيدت وأهلكت لتكذيبها الأنبياء، لعلكم بمعاني ما أنزل الله عليكم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ومن أجل أن يتفكروا وينظروا في حقائق الكون وأسرار الحياة وعبر التاريخ، فيهتدون، ويفوزون بالنجاة في الدارين.

وبعد فتح باب الأمل أمامهم، حذَّره تعالى سوء ما هم عليه من الكفر والعصيان، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي إنه تعالى يخبر عن حلمه وإمهاله العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم لما هم عليه من الضلال. والمكر في اللغة: عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء.

والمعنى: أفأمن الذين مكروا السيئات برسول الله ﷺ وهم أهل مكة، وحاولوا صدّ الناس عن الإيمان بدعوته، أحد أمور أربعة:

الأول - أن يخسف بهم الأرض، كما فعل بقارون.

الثاني - أو يأتيهم العذاب فجأة من حيث لا يشعرون به، كما صنع بقوم لوط.

الثالث - أو يأخذهم في قلوبهم في الليل والنهار أو في أسفارهم ومتاجرهم واشتغالهم في المعاش والأشغال الملهية، فلا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

الرابع - أو يأخذهم على تخوف أي في حال خوفهم بأن يهلك الله قوماً، فيتخوفوا، فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فإن العذاب المتوقع مع الخوف الشديد أبلغ وأشد من حال المفاجأة؛ لأن العقاب في حال الإرهاب، وإنهاك الأعصاب، وإخافة النفوس أشد من العقاب المفاجئ. وقيل: التخوف: التقصص من الأموال والأرزاق، والأنفس، على لغة هذيل كما بينا.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى لم يعجل بعذابهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه رؤوف رحيم بعباده، فترك لهم وقتاً يتمكنون من تلافي التقصير، واستدراك الأخطاء، والعدول عن الضلال.

ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم» وثبت فيهما أيضاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١١/١٠٢]».

ونظير الآية: ﴿وَكَأَنِّ مِنْ قَرِيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٨] .

والتخويف والإنذار يناسبه التذكير بالقدرة الإلهية الهائلة، والعظمة والجلال والكبرياء الذي خضع له كل شيء، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ أَيُّ أَلَمٍ يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَكُرُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْخُلُوقَاتِ ذَاتِ الظَّلَالِ كَالْجِبَالِ وَالْأَشْجَارِ وَالْمَبَانِي وَالْأَجْسَامِ الْقَائِمَةِ، تَمِيلُ ظِلَالُهُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ، ذَاتِ الْيَمِينِ وَهُوَ الْمَشْرِقُ، وَذَاتِ الشَّمَالِ وَهُوَ

المغرب، وذلك بكرةً وعشيّاً أي في الغداة أول النهار، وفي المساء آخر النهار، قال الأزهري: تفيؤ الظلال: رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي بعدما انصرفت عنه الشمس، والظّل: ما يكون بالغداة: وهو ما لم تنله الشمس. والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لجميع الناس.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أراد: من شيء له ظلّ من جبل وشجر وبناء وجسم قائم، بدليل ﴿يَنْفِيئُوا ظِلَّهُمْ﴾ وهو الشيء الكثيف الذي يقع له ظلّ على الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ظِلْلُهُمْ﴾ أضاف الظلال إلى مفرد، ومعناه: الإضافة إلى ذوي الظلال، وإنما حسن هذا؛ لأن الذي عاد إليه الضمير، وإن كان واحداً في اللفظ وهو قوله تعالى: ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ إلا أنه كثير في المعنى. ونظيره قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣/٤٣]، فأضاف الظهور - وهو جمع - إلى ضمير مفرد؛ لأنه يعود إلى واحد أريد به الكثرة، وهو قوله تعالى: ﴿مَا تَرْكِبُونَ﴾.

﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي إن الظلال ساجدة لأمر الله وحده، والسجود: الانقياد والاستسلام، وهم صاغرون خاضعون منقادون لله، والدّخور: الضّغار والدّل، لأن الظلال تتحوّل من جهة المشرق إلى جهة المغرب، فهي في أول النهار من جهة المشرق، ثم تتقلّص، وتنتقل من حال إلى حال في آخر النهار، ماثلة إلى جهة المغرب، وهذا الانتقال دليل على القدرة الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿دَاخِرُونَ﴾ جمع بالواو؛ لأن الدّخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل، فغلب العقلاء.

ومجمل معنى الآية: أولم ينظروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل واحد منها وشقيّه - استعارة

من يمين الإنسان وشماله لجانبى الشيء - ترجع الظلال من جانب إلى جانب، منقادة لله غير ممتعة عليه فيما سخرها له من التقيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله لا تمتنع^(١).

وهذا في الجمادات، ثم ذكر سجود الأحياء فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي ولله يخضع كل ما في السماوات والأرض من دابة تدب عليها، وكذلك الملائكة، والحال أنهم لا يستكبرون أبداً عن عبادته وعن أي شيء كلفوا به، أو عن مراد الله فيما أراد، فهم في تذلل وخضوع لله تعالى.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ يخاف هؤلاء الملائكة والدواب الأرضية الذي خلقهم، وهو دائماً من فوقهم بالقهر والغلبة، ويفعلون أي الملائكة كل ما يؤمرون به، فهم مثابرون على طاعته تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجه. فالمراد بالفوقية: الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة.

ونظير الآية كثير مثل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿١٥﴾ [الرعد: ١٣/١٥].

والخلاصة: إن على أهل مكة الماكرين بالنبي وبالمؤمنين أن يحذروا عقاب الله، فإن الله قادر على تعذيبهم عاجلاً أو آجلاً، ودليل قدرته وعظمته وكبريائه خضوع كل شيء له في السماوات والأرض، من جماد ونبات وحيوان وإنس وجن وملائكة.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ما يأتي:

أ - جزاء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وصبروا على الأذى،

وتوكلوا على ربهم هو الموطن الأفضل، والمنزلة الحسنة، والعيشة الرضية،
والرزق الطيب الوفير، والتصر على الأعداء، والسيادة على البلاد والعباد،
وقد اجتمع لهم بفضل الله كل ذلك، ولأجر دار الآخرة أكبر من أن يعلمه
أحد قبل أن يشاهده.

٢ - في الآية تنويه بفضيلة الصبر والتوكل، أما الصبر فلما فيه من قهر
النفس، وأما التوكل فللغزوف عن الخلق والاتجاه إلى الحق، الأول هو مبدأ
السلوك إلى الله تعالى، والثاني هو نهاية هذا الطريق.

٣ - دلّت آية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النساء،
ودلّت أيضاً على أنه ما أرسل ملكاً إلى الناس، ولكن الله يرسل الملائكة رسلاً
إلى سائر الملائكة، ويرسل بعضهم بالوحي إلى الأنبياء، كما قال تعالى:
﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١/٣٥]. ورسّل البشر هم دائماً من الرجال.

٤ - على العوام سؤال أهل الذكر فيما لم يكونوا يعلمون به، وأهل الذكر:
هم أهل العلم مطلقاً، سواء بأخبار الماضين، إذ العالم بالشيء يكون ذاكرة له،
أو بالكتب السماوية السابقة، أو بالقرآن. وبما أن أهل مكة كانوا مقرّين بأن
اليهود والتّصارى أصحاب العلوم والكتب، فأمرهم الله بأن يرجعوا في مسألة
بشرية الرّسل إليهم، ليبيّنوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها، فهم الذين
يخبرونهم بأن جميع الأنبياء كانوا بشرًا.

٥ - احتجّ بآية ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ من أجاز للمجتهد تقليد مجتهد آخر،
فقال: لما لم يكن أحد المجتهدين عالماً، وجب عليه الرجوع إلى المجتهد الآخر
الذي يكون عالماً، لقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
فإن لم يجب فلا أقل من الجواز.

٦ - احتجّ نفاة القياس بهذه الآية أيضاً: ﴿فَسْأَلُوا﴾ فقالوا: المكلف إذا
نزلت به واقعة، فإن كان عالماً بحكمها لم يجز له القياس، وإن لم يكن عالماً

بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالماً بها؛ لظاهر هذه الآية، ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم، لتمكُّنه من استنباط الحكم بالقياس. وأجيب بأنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة، والإجماع أقوى من هذا الدليل.

٧ - أرسل الأنبياء السابقون بالبينات والزُّبر، أي بالدلائل والحجج الشاهدة بصدقهم، وبالكتب المتضمنة تشريع الإله. وأنزل الذكر أي القرآن على النبي ﷺ ليبين للناس فيه ما أنزل إليهم من الأحكام والوعد والوعيد قولاً وفعلاً، فالرسول مبين عن الله عز وجل مراده مما أجهله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغيرها من أنظمة الحياة مما لم يفصله القرآن.

٨ - اشتملت آية ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي بالسيئات على وعيد للمشركين الذين احتالوا على تقويض أركان الإسلام بخسف الأرض كما خسفها بقارون، أو بمفاجأتهم بالعذاب كما فعل بقوم لوط وغيرهم، أو بأخذهم في قلبهم أي في أثناء أسفارهم وتصرفاتهم، وما هم بمعجزين الله، أي سابقين الله ولا فائتيه، أو بأخذهم في حال تخوف وإرهاب، أو على تنقص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم، أي تنقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى أهلكهم كلهم.

٩ - من أدلة عظمة الله وكبريائه وقدرته سجود كل ما يدب على الأرض له، وكذا الملائكة الذين في الأرض، وخصَّهم بالذكر لشرف منزلتهم، فكل جاد ونبات وحيوان وإنس وجنّ وملائكة يخضعون لله وينقادون لأمره، ولا يستكبرون عن عبادة ربهم، ويخافون عقاب ربهم وعذابه من فوقهم، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء، ويمثلون كل ما يؤمرون به، وهؤلاء هم الملائكة.

١٠ - استدلل بعضهم بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر؛

لتخصيصهم بالذكر، ولأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، فليس في قلوبهم تكبر وترفع، ولأنهم يفعلون ما يؤمرون، مما يدل على أن أعمالهم خالية من الذنب والمعصية، ولأنهم خلقوا قبل البشر بأزمان مديدة وهم طائعون لله طوال هذه المدة، ولا شيء فوقهم في الشرف والرتبة إلا الله تعالى.

مناقشة عقائد المشركين وأعمالهم القبيحة

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونَ ٥١ ﴾ وَلَمْ يَأْتِ فِي السُّورَةِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ ﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلِ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ٥٣ ﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَسْتَعِزُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٥٥ ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهَا كُنتُمْ تَفَرِّوْنَ ٥٦ ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٥٧ ﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ ﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أُمَسِّكُمُ عَلَىٰ هُوٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩ ﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٠ ﴾ وَلَوْ يَوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ ظُلُمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٦١ ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ٦٢ ﴾

القرءات:

﴿يُؤَاخِذُ﴾، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾:

وقرأ ورش، وحزة، وقفا: (يواخذ، يؤخرهم).

﴿يَسْتَفْخِرُونَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمة وقفاً (يستأخرون).

﴿مُفْرَطُونَ﴾ :

وقرأ نافع (مُفْرَطُونَ).

الإعراب:

﴿وَاصِبًا﴾ حال من ﴿الَّذِينَ﴾، وعامله ﴿وَلَهُ﴾ الجار والمجرور الذي فيه معنى الظرف.

﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْمَلٍ﴾ ﴿مَا﴾ : شرطية، أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله تعالى.

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿مَا﴾ : مبتدأ وخبره ﴿لَهُمْ﴾ مقدم عليه، أو معطوف بالنصب على ﴿الْبَنَاتِ﴾.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ ألسنة: جمع لسان، واللسان يذكر ويؤنث، فمن ذكر جمعه على ألسنة، ومن أنث جمعه على ألسن، والقرآن أتى بالذكر. و﴿الْكَذِبَ﴾ : مفعول ﴿وَتَصِفُ﴾. ومن قرأ (الْكُذْبُ) بثلاث ضمات، كان مرفوعاً على أنه صفة الألسنة.

البلاغة:

﴿فَاتَنَّى فَارْهَبُونَ﴾ فيه إفادة القصر، أي لا تخافوا غيري، وفيه التفات عن الغيبة إلى التكلم، مبالغة في الترهيب والمهابة، وتصريحاً بالمقصود، فكانه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياي فارهبون لا غيري. ويلاحظ وجود

السَّجْعُ فِي أَوَاخِرِ الْآيَاتِ ﴿فَازْهَبُونَ﴾ ﴿نَنْقُوتُ﴾ ﴿تَجْتَرُونَ﴾ ﴿يُسْرِكُونَ﴾ ﴿تَفْتَرُونَ﴾.

﴿فَتَسْعَوُا﴾ تهديد ووعيد.

﴿يَسْتَفْهِمُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ اعتراض لتعجيب الخلق من هذا الجهل الفاضح القبيح.

﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ﴾ كلام بليغ بديع، أي ألسنتهم كاذبة، كقولهم: عيناها تصف السحر أي ساحرة.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَهِينِ اثْنَيْنِ﴾ تأكيد. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ فيه إثبات الألوهية والوحدانية. ﴿فَازْهَبُونَ﴾ خافون دون غيري، وفيه التفات عن الغيبة. والرهبة: الخوف. ﴿وَلَمْ يَأْتِ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً. ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص. ﴿وَاصِبًا﴾ دائماً لازماً، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٩/٣٧]. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَنْقُوتُ﴾ أي مع أنه الإله الحق ولا إله غيره، والاستفهام للإنكار والتوبيخ. ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي وأي شيء اتصل بكم من نعمة، فهو من الله، فلا نافع غيره، ولا ضارّ سواه.

﴿مَسَكُمُ﴾ أصابكم. ﴿الضُّرُّ﴾ كالفقر والمرض. ﴿تَجْتَرُونَ﴾ تتضرعون لكشفه أو ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدُّعاء، ولا تَدْعُونَ غيره. والجوار: رفع الصوت في الدُّعاء والاستغاثة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ﴾ وهم كفاركم. ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ من النعمة، أي كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، وإنكار كونها من الله تعالى. ﴿فَتَسْعَوُا﴾ باجتماعكم على عبادة الأصنام، وهو أمر تهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك وأغلظ وعيده.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي المشركون. ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لأهلهم التي لا علم لها؛ لأنها جهاد، أو لما لا يعلمون أنها تضر ولا تنفع، وهي الأصنام. ﴿نَصِيحًا وَمَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزروع والأنعام، بقولهم: ﴿هَكَذَا إِلَهُ رَبِّعِمِهِمْ وَهَذَا إِشْرَاكِئَنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦/٦] ﴿تَاللَّهِ لَنُشْعَلَنَّ﴾ سؤال توبيخ، وفيه التفات عن الغيبة. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون على الله من أنه أمركم بذلك، وأنها آلهة حقيقة بالتقرب إليها، وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ بقولهم: الملائكة بنات الله، كانت خزاعة وكنانة يقولون: إن الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَنَهُمْ﴾ تنزيهاً له عن النقائص، أو تنزيهاً له من قولهم أو تعجباً منه ومما زعموا. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي يشتهونه، وهم البنون، والمعنى: يجعلون له البنات التي يكرهونها، وهو منزعه عن الولد، ويجعلون لهم الأبناء الذين يختارونهم، فيختصون بالأسنى الأرفع، كقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ الْرَبِّكَ الْأَبْنَاءُ وَلَهُمُ الْبَنَاتُ﴾ [الصافات: ١٤٩/٣٧].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ البشارة: إلقاء الخبر المؤثر في تغير الوجه، ويكون في السرور والحزن، وجاءت الآية في الثاني (الحزن) ثم خصص عرفاً بالخبر السار. ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿مُسَوِّدًا﴾ متغيراً، وهو كناية عن الاغتمام من الكآبة والحياء من الناس. ﴿كَظِيمٍ﴾ ممتلئ غماً وغيظاً وحزناً. ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم أي من قومه. ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من سوء البشر به عرفاً، خوفاً من التعبير، متردداً فيما يفعل به. ﴿أَبْمَسِكُمْ عَلَىٰ هُوْبٍ﴾ أيتركه بلا قتل، بهوان وذلل، والإمساك هنا: الحبس. ﴿أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ﴾ أي يواريه في التراب أو يثده، وذكر ضمير يمسكه ويدسه؛ لأنه عائد على ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُبَشِّرُ بِهِ﴾. ﴿سَاءَ﴾ بش. ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا، حيث نسبوا لخالقهم البنات اللاتي هنّ عندهم بهذا التقدير.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي الكفار. ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي الصفة السوء

بمعنى القبيحة، وهي اشتهاؤ الذكور استظهاراً بهم، وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق أو الفقر والعار، مع احتياجهم إليهن للزواج. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي الصفة العليا، وهي أنه لا إله إلا هو، واتّصافه بجميع صفات الجلال والكمال، فله الوجوب الذاتي، والغنى المطلق، والوجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ فِي مَلَكِهِ، الْمُسْتَرِدُّ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ.﴾ المتّصف بكمال الحكمة في صنعه وخلقه.

﴿يُظْلِمُهُمُ﴾ بالمعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْنَا﴾ على الأرض. ﴿مِنْ دَائِبٍ﴾ نسمة تدب عليها. ﴿لَا يَسْتَفْخِرُونَ﴾ عنه. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه، بل هلكوا وعذبوا حيثئذ لا محالة، وإضافة الظلم للناس الدال على العموم: لا يلزم أن يكونوا كلهم ظالمين، حتى الأنبياء عليهم السلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم، وصدر عن أكثرهم. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ينسبون لله ما هو قبيح لأنفسهم من البنات، والشريك في الرياسة، وإهانة الرسل، وخبائث الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾ مع ذلك، أي يكذبون، كما يقال: عينها تصف السحر، أي هي ساحرة، وقدّها يصف الهيف، أي هي هيفاء. وكذبهم هو ﴿أَنْتَ لَهُمُ الْمُسْتَقْنَى﴾ عند الله، أي الجنة، لقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسْنَى﴾. ﴿لَا جُحْرَ﴾ حقاً. ﴿مُفْرَطُونَ﴾ مُتْرَكُونَ فيها أو مُقَدَّمُونَ إليها، مُعَجَّلُونَ بهم إليها. وعلى قراءة كسر الراء: أي متجاوزون الحد.

الخاصة:

بعد أن بيّن الله تعالى أنّ كل ما سوى الله متقاد خاضع لجلاله وكبريائه وسلطانه، أتبع ذلك بأمور ثلاثة:

أولها - التهي عن الشّرك، وأن كل ما سواه فهو ملكه، وأنه غني عن الكل، وأن الناس مذنبون، فإذا أصابهم الضّرّ تضرّعوا إلى الله تعالى، وإذا كشفه عنهم، عادوا إلى الكفر والشرك.

ثانيها - بيان قبائح أفعال المشركين، بعد إيراد سُخْف أقوالهم وفسادها.

ثالثها - إمهال هؤلاء الكفار، وحلم الله عليهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، بالرغم من عظيم كفرهم، وقبيح أفعالهم، إظهاراً للفضل والرحمة والكرم.

التفسير والبيان:

بما أنه ثبت في الآيات السالفة خضوع كل ما في الكون لله تعالى، فذلك دليل قاطع على وحدانية الله، لذا أخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا أَيُّ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ: لَا تَتَّخِذُوا إلهين اثنين، أي لا تتخذوا لي شريكاً، ولا تعبدوا سواي، فمن عبد مع الله غيره فقد أشرك به، إنما هو الله إله واحد، ومعبود واحد، فاتَّقوني وخافوا عقابي بالإشراك وعبادة سواي.

وإنما ذكر ﴿اثنين﴾ بعد قوله ﴿إِلَهَيْنِ﴾ لتأكيد التنفير عن التعدد، والدلالة على أن المنهي عنه هي الاثنينية. وكان ذكر ﴿وَاحِدٍ﴾ بعد قوله ﴿إِلَهُ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية، أما الألوهية فلا خلاف ولا نزاع فيها. وجاء بهذه العبارة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ بعد ثبوت الإله ونفي التعدد للدلالة على أنه لما ثبت وجود الإله وأنه لا بدّ للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الفرد الصّمد.

والخلاصة مما ذكر: أن لا إله إلا الله وحده، وأن العبادة لا يستحقها سواه. ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي لما كان الإله واحداً، والواجب لذاته واحداً، كان كل ما سواه حاصلاً بِخَلْقِهِ وتكوينه وإيجاده، فله جميع ما في السماوات

والأرض ملكاً وَخَلَقاً وعبيداً، فهو خالقهم ورازقهم، ومحبيهم ومميتهم، وهم عبيده ومملوكوه، وله الدِّين واصباً، أي له الطاعة والانقياد والعبادة على سبيل الدوام والاستمرار، فالَّذِينَ هنا: الطاعة، والواصب: الدائم. وقيل: الواصب: الواجب اللازم أبداً.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ أي إنكم بعدما عرفتم أن إله العالم واحد، وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه في وقت حدوثه، ومحتاج إليه أيضاً في وقت دوامه وبقائه، فكيف يعقل الرغبة في غير الله أو رهبة غير الله تعالى؟ وهذا مقول على سبيل التعجب.

﴿وَمَا يَكُم مِّن تَقَمَّرٍ﴾ وإذا كان الواجب ألا يتقى غير الله، فالواجب ألا يشكر غير الله؛ إذ ما من نعمة بكم من إيمان وسلامة جسد وعافية، ورزق ونصر ونحو ذلك إلا وهي من الله عز وجل ومن فضله وإحسانه.

فدلّت الآية على أن العاقل يجب عليه ألا يخاف وألا يتقى أحداً إلا الله، وألا يشكر أحداً إلا الله تعالى، فجميع النعم من الله تعالى.

وكذلك لا يدفع الضّرّ إلا الله بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي إذا تعرّضتم لسوء أو ضرر في أنفسكم من مرض أو خوف أو مشقة، ونحوها من الضرورات، فإليه تلجؤون وتسألون وتَدْعُونَ، وتلحون في الرغبة إليه والاستغاثة به لكشف ذلك عنكم، لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا بَلَغْتُمُ الْبَرَّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧/١٧].

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ﴾ أي ثم إذا كشف الضّرّ عنكم، وأزال المخاوف، ووهبكم النعمة والسلامة والعافية، وفرج البلاء عنكم، إذا أنتم تفرقون فريقين، ففريق منكم يبقى على ما كان عليه من الإيمان، فلا يفرع إلا إلى الله

تعالى، وفريق منكم عند ذلك يتغيرون، فيشركون بالله غيره في العبادة، وهذا مثار عجب من فعل هؤلاء، حيث يقابلون النعمة بالنعمة، والشكر بالشكر بالله تعالى. والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ هذه اللام إما لام التعليل، أي قيصنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويحجدوا نعم الله عليهم، والمعنى: أنهم أشركوا بالله غيره في كشف الضر عنهم، وغرضهم من الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى.

وإما لام العاقبة (الصيرورة) أي إن عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفر، كقوله تعالى: ﴿فَالْقَظَّةُ ءَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨] .

ثم توعدهم وهددهم قائلاً: ﴿فَتَتَّعُوا﴾ أي اعملوا ما شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً في الحياة الدنيا، فسوف تعلمون عاقبة تمتعكم، وما ينزل بكم من العذاب، وتدركون سوء ما أنتم عليه. وهذا الأمر التهديدي مثل قوله تعالى:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩/١٨] ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٧] .

ثم أخبر الله تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام بغير علم، وجعلوا للأنداد نصيباً مما رزقهم الله، فقال تعالى:

أ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي يجعل هؤلاء المشركون للأصنام التي لا يعلمون حقيقتها أنها جهاد لا يضر ولا ينفع، فهم إذن جاهلون بها، يجعلون لها نصيباً مع الله تعالى، مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرها يتقربون به إلى الله تعالى، ونصيباً يتقربون به إليها، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام: ١٣٦/٦] .

ثم توعدهم الله على أفعالهم مقسماً بنفسه الكرمة فقال: ﴿تَاللَّهِ لَنَشْتَلَنَ عَمَّا كُتِبَ تَفَرُّونَ﴾ أي أقسم لأسألكم عن ذلك الذي افترىتموه من الباطل، ولأجازينكم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿قُورَيْبِكُ لَنَشْتَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣/١٥] . وهذا سؤال توبيخ وتأنيب وتقريع لهم على إثمهم وجرمهم.

٢ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ﴾ أي ومن جهل المشركين وإفكهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن بنات الله، فعبدوها مع الله تعالى، إذ قالت خزاعة: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩/٤٣] ، فأخطؤوا خطأ كبيراً، إذ نسبوا إليه تعالى الولد، ولا ولد له، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، وإنما يرضون الذكور، كما قال تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢/٥٣] ، وقال تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤/٣٧] ، نزلت في خزاعة وكنانة، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى، فكانوا يقولون: ألقوا البنات بالبنات.

وهنا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، أي إنهم يختارون لأنفسهم الذكور، ويأفنون من البنات التي نسبوها إلى الله تعالى، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ [الطور: ٣٩/٥٢] .

ثم عاب الله تعالى على العرب تبرمهم بالبنات فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ﴾ أي وإذا بُشِّرَ أحد هؤلاء العرب الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى، ظل وجهه مسوداً أي كئيباً من الهم، وهو كظيم، أي ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، يتوارى من القوم، أي يكره أن يراه الناس، من مساءة ما بُشِّرَ به، هل يمسك المولود الأنثى على هوان وذلّ وعار وفقر، أم يدفنها في التراب وهي حيّة، وذلك هو الوأد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٨١-٩].

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بش ما قالوا، وبش ما قسموا، وبش ما نسبوه إلى الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤٣/١٧].

والتبشير عرفاً: مختص بالخبر الذي يفيد السرور، إلا أنه بحسب الأصل في اللغة: عبارة عن الخبر الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه، وكل من السرور والحزن يوجب تغير البشرة.

وذكر ضمير ﴿أَيْسِيَكُمْ﴾ لأنه عائد على ﴿مَا﴾.

ثم أجهل الله تعالى موقف المشركين حول هذا الأمر، فقال:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي للذين لا يصدقون بالحياة الآخرة وما فيها صفة السوء التي هي كالمثل في القبح، أي لهم صفة التقص بما ينسب إليهم، وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور، وكراهة الإناث، ووأدهن خشية الإملاق، والإقرار على أنفسهم بالشح البالغ.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي وله تعالى الصفة العليا، والكمال المطلق، فهو الواحد المنزه عن الولد والوالد والشريك، وهو الغني عن العالمين، والمنزه عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم، أي فله الكمال المطلق من كل وجه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو القوي الذي لا يُغْلَب، الحكيم في صنعه الذي لا يفعل إلا بما تقتضيه الحكمة السديدة.

وبعد أن حكى الله تعالى عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح قولهم، بيّن أنه يعجل هؤلاء الكفار، ولا يعاجلهم بالعقوبة، فضلاً منه ورحمةً وكرماً، فقال:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ هذا إخبار عن حلمه تعالى بخلقه، مع ظلمهم، فلو أنه يؤاخذهم بذنوبهم ومعاصيهم ويعاقبهم على جرمهم فوراً، ما ترك على ظهرها من دابة، أي لأهلك جميع دواب الأرض، تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكنه جلّ جلاله حلّيم ستار غفور رحيم، يؤخرهم إلى أجل مسمى، فلا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحداً.

روى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضّر إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى إن الحُبَارَى لتموت في وكرها بظلم الظالم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كَادَ الْجُلْعَلُ^(١) يَبْهَلَكَ فِي جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ﴾ وهذا مروي أيضاً عن أبي الأحوص.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكن بحلمه تعالى يؤخر هؤلاء الظلمة والعصاة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، إلى أجل سماه الله لعذابهم، فإذا حان وقت هلاكهم، لا يستأخرون عن الهلاك ساعة، ولا يتقدمون قبله، حتى يستوفوا أعمارهم.

روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية

(١) الجُلْعَلُ مفرد جُعْلَان: دابة سوداء من دواب الأرض.

الصالحة، يرزقها الله العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره،
فذلك زيادة العمر».

﴿وَمِمَّنْ كُفِّرُوا بِلِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي وينسبون إلى الله ما يكرهون لأنفسهم
من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيد الله، وهم يأنفون أن يكون لأحدهم
شريك في ماله.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾ أي ويكذبون في دعواهم أن لهم العاقبة الحسنة
في الدنيا وفي الآخرة وهي الجنة على هذا العمل. روي أنهم قالوا: إن كان
محمد صادقاً في البعث، فلنا الجنة بما نحن عليه، فردّ الله عليهم مقالهم بقوله:
﴿لَا جُزْمَ أَنْ هُمْ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي حقاً أن لهم النار، وأنهم متروكون
فيها أو معجل بها إليهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات الأحكام التالية:

١ - النهي عن تعدّد الآلهة أو الشرك، والأمر بالوحدانية والتوحيد؛ لأن
الإله الحق لا يتعدّد، وأن كل من يتعدّد فليس بإله، والله تعالى واحد في ذاته
المقدّسة، فقد قام الدليل العقلي والشرعي على وحدانيته تعالى.

٢ - ترتب على وحدانية الله أنه المستحق للعبادة، فلا يعبد سواه، ولا
يخاف غيره.

٣ - وترتب على الوحدانية أن كل ما سوى الله في السماوات والأرض فهو
مملوك له، لأنه مخلوق منه، متكون موجود به، فلا يكون الدين، أي الطاعة
والإخلاص إلا له دائماً، ولا يُتَمَنَّى غير الله تعالى.

٤ - جميع النعم من الله تعالى، سواء المادية كالرزق والسلامة والصّحة، أو
المعنوية كالأمان والجاه والمنصب ونحوها.

٥ - لا يجد الإنسان ملجأ لكشف الضّر عنه في وقت الشدائد والكروب إلا الله تعالى، فيضجّ بالدعاء إليه؛ لعلّمه أنه لا يقدر أحد على إزالة الكرب سواه.

٦ - التعجيب من حال الإنسان بعد إزالة البلاء وبعد الجوار (رفع الصوت والتضرع بالدعاء إلى الله) فهو يعود إلى الإشراف بعد النجاة من الهلاك. وهذا المعنى مكرر في القرآن الكريم. وقد أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي، وقيل: لام العاقبة.

٧ - تهديد هؤلاء الكفار بالتمتع بمتع الحياة الدنيا، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

٨ - هناك نوع آخر من جهالات المشركين، وهو أنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه جاد يضر وينفع، وهي الأصنام، شيئاً من أموالهم يتقربون به إليه. فيكون ضمير «يَعْلَمُونَ» عائداً للمشركين، وقيل: إنه عائِد للأوثان، أي ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً.

ولكن الله عزّ وجلّ يسألهم سؤال توبيخ عن اقترائهم واختلافهم الكذب على الله أنه أمرهم بهذا.

٩ - ومن جهالاتهم نسبة البنات إلى الله تعالى، ونسبة البنين لأنفسهم وأنفقتهم من البنات.

١٠ - ومن جهالاتهم تغير وجوههم حزناً وغماً بالبنات، واختفاء الواحد منهم وتغييه عن مواجهة القوم من شدّة الحزن وسوء الحزني والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنات. وكان بعض العرب يدفنون بناتهم أحياء في التراب، مثل خزاعة وكنانة، قال قتادة: كان مُضَرُّ وخُزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدّهم في هذا تميم. زعموا خوف الفقر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهنّ.

وقد حرم الإسلام الوأد، وأوجب الإحسان إلى البنات، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهنّ، كنّ له سترأ من النار» ففي الصّبر عليهنّ والإحسان إليهنّ ما بقي من النار. وروى مسلم أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضمت أصابعه. وروى أبو يعلى الخافظ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له بنت فأدّبها، فأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه، كانت له سترأ أو حجابأ من النار».

١١ - يش ما حكم به أهل الجاهلية من إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم، وقد استأثروا من البنات أشدّ الاستياء؛ لأن الواحد منهم يسود وجهه بولادة البنت، ويختفي عن القوم من شدة نفوره من البنت، ويقدم على قتلها.

١٢ - هؤلاء الواصفين لله البنات مثل السوء، أي صفة السوء من الجهل والكفر، ولله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد، ووصفه بما لا شبه له ولا نظير، جلّ الله تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

١٣ - من فضل الله ورحمته وكرمه أنه يمهّل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة، ليترك الفرصة لهم للإيمان والتوبة. قال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلاق بذنوب المذنبين، لأصاب العذاب جميع الخلق، حتى الجعلان في حجرها، ولأمسك الأمطار من السماء، والنبات من الأرض، فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعمو والفضل؛ كما قال: ﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥/٥]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا

كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا ﴿٥٨﴾
[الكهف: ٥٨/١٨].

١٤ - إن أجل موت الإنسان ومنتهى عمره لا يتقدم ولا يتأخر ساعة واحدة أو لحظة واحدة.

وتعميم الهلاك مع أن في الناس مؤمنين ليسوا بظلمة، يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة. جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على نياتهم» أو «على أعمالهم».

١٥ - ينسب المشركون لله البنات، وتقول ألسنتهم الكذب أن لهم الجزاء الحسن، والحق أن لهم النار، وأنهم مُتْرَكُونَ منسيون في النار، أو معجلون إلى النار، مقدمون إليها.

عادة الأمم في تكذيب الرسل ومهمة النبي

في تبیان القرآن وجعله هدى ورحمة

﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالْمُؤْمِنُونَ لَكَ يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَائِهِمْ بَعَثْنَا مِنْهُمُ الْفَارُوقَ فَتُفَرِّقَ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُم مِّن ذُرِّيَّتٍ حَقَارَىٰ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِأَعْيُنِنَا فَرَضُوا فَعْلَانِيَّةً إِنَّهُمْ لَا يَجْعَلُونَ فِرْقَانًا بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَتُدْبِرُ أَعْيُنُهُمْ وَالْفِرْقَانِ الَّذِي بَيْنَهُم وَبَيْنَ فَسَادِهِمُ الْمُحْشَرُونَ﴾
﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالْمُؤْمِنُونَ لَكَ يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَائِهِمْ بَعَثْنَا مِنْهُمُ الْفَارُوقَ فَتُفَرِّقَ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُم مِّن ذُرِّيَّتٍ حَقَارَىٰ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِأَعْيُنِنَا فَرَضُوا فَعْلَانِيَّةً إِنَّهُمْ لَا يَجْعَلُونَ فِرْقَانًا بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَتُدْبِرُ أَعْيُنُهُمْ وَالْفِرْقَانِ الَّذِي بَيْنَهُم وَبَيْنَ فَسَادِهِمُ الْمُحْشَرُونَ﴾

الإعراب:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على المفعول لأجله.

المفردات اللغوية:

﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا﴾ رسلًا. ﴿فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمُ﴾ السيئة،

فأروها حسنة، فأصروا على قبائحها، وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ متولي أمورهم، وناصرهم ومساعدهم، والضمير يعود إلى الأمم. ﴿الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا، وقيل: يوم القيامة، على حكاية الحال الآتية، أي لا ولي لهم غيره، وهو عاجز عن نصر نفسه، فكيف ينصرهم؟! ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الآخرة. ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا لِسُبْحَانَ لَهُمْ﴾ للناس. ﴿الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ﴾ من أمر الدين كالتوحيد، والقدر، وأحوال المعاد، وأحكام الأفعال. ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محل ﴿لِسُبْحَانَ﴾.

للناسبة:

بعد أن فند الله تعالى فساد عقائد المشركين وأقوالهم، وأمهلهم العذاب، سلى رسوله ﷺ عما كان يناله من أذى قومه، ونسبتهم إلى الله ما لا يجوز، بإخباره بإرسال الرسل إلى الأمم المتقدمة، مقسماً على ذلك، ومؤكداً بالقسم، وبـ «قد» التي تقتضي تحقيق الأمر، فزين لهم الشيطان أعمالهم، من تماديهم على الكفر، فهو وليهم اليوم، حكاية حال ماضية، أي لا ناصر لهم في حياتهم إلا هو، أو حكاية حال آتية، وهي يوم القيامة، فلا تحزن لتكذيبهم، فلست بدعاً من الرسل، وليس قومك منفردين بالعتو والاستكبار.

وناسب ذلك بيان مهمة النبي ﷺ وهي تبیان أحكام القرآن للمختلفين وهم أهل الملل والأهواء، وتوضيح ما اختلفوا فيه وهو الدين، مثل التوحيد والشرك، والجبر والقدر، وإثبات المعاد ونفيه، وأحكام الدين مثل تحريمهم أشياء حلالاً كالبحيرة والسائبة، وتحليل أشياء حراماً كالميتة.

التفسير والبيان:

هذه الآية تسلية من الله لرسوله عما يناله من الحزن بسبب جهالة قومه وإعراضهم عن رسالته، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي والله لقد أرسلنا

رسلاً إلى الأمم الخالية من قبلك، فكذبت الأمم رسلها، وحسّن لهم الشيطان أعمالهم من الكفر وعبادة الأوثان، فهو وليهم اليوم، أي هم رازحون تحت العذاب والنكال.

ووليهم اليوم، أي ناصرهم في الدنيا، على زعمهم، حكاية للحال القائمة ولكن لهم عذاباً مؤلماً في الآخرة، فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا. وقيل: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي قربنهم في النار يوم القيامة، حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي فهو ناصرهم اليوم، لا ناصر لهم غيره، نفيّاً للناصر لهم على أبلغ الوجوه، وأطلق على يوم القيامة اسم «الْيَوْمِ» لشهرته.

وبسّ الناصر المعين الذي لا يملك لهم خلاصاً، ولا يستطيع إنقاذاً لهم، ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم؛ إذ لا تنفعهم ولاية الشيطان.

فلا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك، فلك أسوة بالمرسلين قبلك، ودع المشركين الذين كذبوا الرسل؛ فإنما وقعوا فريسة لتزيين الشيطان لهم ما فعلوه.

ثم أبان الله تعالى أن الهلاك لا يكون إلا بعد بيان الحجة. فقال:

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي إنما أنزلنا عليك القرآن لهدف واضح، وهو أن تبين للناس الذي يختلفون فيه في العقائد والعبادات، فيعرفوا الحق من الباطل، والقرآن فاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه، وهو هدى للقلوب الحائرة أو الضالة، ورحمة لقوم يصدقون به، ويتمسكون به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى على أن سنة الله في عباده منذ القديم إرسال الرسل بالحجة الواضحة والبيان الشافي، وما محمد ﷺ إلا كغيره من الرسل.

وشأن الأمم تكذيب المرسلين، لتأثرهم بتزيين الشيطان أعمالهم، وإغوائهم، وصرفهم عن إجابة أنبيائهم.

وهكذا كان موقف كفار مكة، أغواهم الشيطان، كما فعل بكفار الأمم قبلهم.

ولكن سيتلقى هؤلاء الكفار جميعاً جزاء أوفى وعذاباً أليماً في نار جهنم، ولن يكون لهم ولي ولا ناصر ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

ودلت الآية الثانية على أن مهمة النبي ﷺ هي تبيان ما جاء في القرآن، وبيان ما اختلف فيه أهل الملل والأهواء من الدين والأحكام، فتقوم الحجة عليهم ببيانه. أما الدين المختلف فيه فهو مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر، وإثبات المعاد ونفيه. وأما الأحكام فهي مثل تحريم أشياء تحل شرعاً كالبحيرة والسائبة وغيرهما، وتحليل أشياء تحرم كالملية.

والقرآن تبيان للناس وهدى أي رشد، ورحمة للمؤمنين به.

من دلائل القدرة الإلهية والتوحيد

ومظاهر النعم على الناس

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ١٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِمَا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ١٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَنَجِدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ١٩﴾

القراءات:

﴿سُقِّيْكُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (نَسْقِيْكُمْ).

﴿يُبُوتَا﴾:

قرئ:

١- (يُبُوتَا) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (يُبُوتَا) وهي قراءة الباقيين.

﴿يَعْرُشُونَ﴾:

وقرأ ابن عامر (يعرُشون).

الإعراب:

﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ الهاء تعود على ﴿الْأَنْعَامِ﴾، على لغة من ذكره، فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث، كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً سُقِّيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢٣/٢١] فقد ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه هنا مفرداً، وأما في سورة المؤمنين فلأن معناه الجمع.

﴿لَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ الهاء تعود على موصوف محذوف، وتقديره: ما تتخذون منه. وما: مبتدأ، وتتخذون جملة فعلية صفة لـ «ما». وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصفات: ٣٧/١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وتقديره: إلا ملك له مقام.

﴿ذُلًّا﴾ حال من السبل.

﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ الهاء تعود إلى الشراب، أو إلى القرآن. و﴿شِفَاءٌ﴾ يرتفع بالظرف على كلا المذهبين، إذا جعل وصفاً لشراب، كما ارتفع ألوانه بمختلف؛ لأنه وصف للشراب.

البلاغة:

﴿كُلِّ مِنْ كُلِّ﴾ فيهما جناس ناقص.

﴿يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿يَعْرِشُونَ﴾ ﴿يَنْفَكِرُونَ﴾ فيها سجع.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَنجَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي أحيّاها بإنبات الزرع والشجر وإخراج الثمر. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ييسها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَايَةً﴾ دالة على البعث. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وفهم. ﴿الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم. ﴿لَعِبْرَةً﴾ اعتباراً وعظة، وأصل العبرة: تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة والمشابهة. ﴿شَقِيقُكُمْ﴾ بيان للعبرة. ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي الأنعام. ﴿مِنْ بَيْنِ﴾ من للابتداء متعلقة بـ ﴿شَقِيقُكُمْ﴾. ﴿فَرَثٍ﴾ خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء. ﴿خَالِصًا﴾ مصفى من الشوائب، لا يشوبه شيء من الفرث والدم من طعم أو ريح أو لون، وهو بينهما. ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في الحلق، لا يغص به. ﴿لَنَنخِذُونَهُ﴾ أي ثمر تتخذون منه ﴿سَكَّارًا﴾ خمرًا يسكر، سميت بالمصدر، وهذا قبل تحريرها وفي أول مراحل التحريم؛ لأنه وصف الرزق بالحسن، ولم يوصف السكر بذلك. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ جميع ما يؤكل طازجاً أو غير متخمر من هاتين الشجرتين كالعنب والزبيب والتمر والحل والدبس. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَايَةً﴾ دالة على قدرته تعالى. ﴿يَقُولُونَ﴾ يتدبرون.

﴿وَأَوْحَى﴾ ألهم وعلم، كالطبيعة والغريزة في الحيوان. ﴿أَنِ انْجَزَى﴾ أن مفسرة أو مصدرية. ﴿يُؤْتَا﴾ تأوين إليها، أي أوكاراً. ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ بيوتاً.

﴿وَمِمَّا يَبْرِشُونَ﴾ أي مما يبينه الناس لك من الأماكن، أي يصنعونه من الخلايا من طين أو خشب أو غيرها. ﴿فَأَسْأَلُكَ﴾ ادخلي. ﴿سُبُلَ رَبِّكَ﴾ طرقه ومسالكه لامتصاص الأزهار والثمار وغيرها وتحويلها بقدره الله عسلاً طيباً. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول أي مسخرة لك، منقادة طائعة لا تتوعر عليك ولا تلتبس، وهو حال من السبل، أي لا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تفضل عن العود منها وإن بعدت. ﴿شَرَابٌ﴾ هو العسل ﴿تُخَلِّفُ الْوَنُومُ﴾ من أبيض وأصفر وأحمر وأسود، بحسب نوع المرعى ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من الأوجاع، إما بعضها بدليل تنكير كلمة ﴿شِفَاءٌ﴾ كالأمرض البلغمية، وإما كلها مع ضميمه غيره إليه، كسائر الأمراض، إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه.

وقيل: الضمير يعود للقرآن.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتأملون في صنعه تعالى، فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، علم قطعاً أنه لا بد من وجود قادر حكيم يلهمها ذلك، ويحملها عليه.

للناسبة:

بعد بيان وعد المؤمنين بالجنان، والكافرين بالنيران، وتسليية النبي ﷺ عما ناله من أذى قومه، ونسبة الشرك إلى الله، وحصر مهمته في بيان أحكام القرآن، عاد تعالى إلى إثبات قدرته ووجوده ووحدانيته بدلائل حسية مشاهدة لكل راء أمامه صباح مساء، من إنبات الزرع والشجر بالمطر، وإخراج اللبن من الأنعام، واتخاذ أصناف المأكّل من الأعناب والنخيل، وإخراج العسل من بطون النحل، الذي فيه شفاء للناس.

قال الإمام أبو عبد الله محمد فخر الدين بن عمر الرازي: إن المقصود الأعظم من القرآن العظيم تقرير أصول أربعة: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة:

الإلهيات، فابتدأ تعالى في أول هذه السورة بذكر دلائل الإلهيات، وهي الأجرام الفلكية، ثم أردف ذلك بالإنسان، ثم الحيوان، ثم النبات، ثم أحوال البحر والأرض، ثم عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات، فبدأ بذكر الفلكيات، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾^(١).

التفسير والبيان:

بعد أن جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك أخبر أنه يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

أي إنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء، الذي يكون سبباً لحياة الأرض بإنبات الزرع والشجر والثمر، بعد أن كانت الأرض ميتة لا حياة فيها ولا ثمر ولا نفع.

إن في ذلك لآية واضحة ودليلاً قاطعاً على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته لمن يفهمون الكلام ويدركون معناه، بسماع التدبر والإمعان، لا بمجرد سماع الأذان. فهذا دليل حسي على توحيد الإله، وتخصيصه بالعبادة، وإفراده بالألوهية.

وهناك دليل آخر على قدرة الله الباهرة، وهو إخراج اللبن من الضرع، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ أي وإن لكم أيها الناس لعظة وعبرة دالة على قدرتنا ورحمتنا ولطفنا في الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم، فإننا نسقيكم مما يخرج من بطونها من اللبن الخالص من الشوائب، السائغ شربه في الحلق، فلا يغص به أحد، اللذيذ طعمه، السهل هضمه، الذي يخلقه الله لبناً خالصاً وسيطاً بين الفرث (وهو الزبل الذي ينزل إلى الكرش) والدم المحيطين

(١) تفسير الرازي: ٦٣/٢٠

به، أي يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته في باطن الحيوان من بين خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء، والدم في العروق، فإذا هضم الغذاء في المعدة صرف من عصارتها دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير أو يتأثر به. وذلك دليل القدرة الإلهية والحكمة البالغة.

وذكر ضمير ﴿بُطُونِهِ﴾ مراعاة للفظ ﴿الْأَنْعَامِ﴾ فهو لفظ مفرد وضع لإفادة الجمع، كالرھط والقوم والبقر والغنم، فقد يراعى اللفظ فيكون ضميره التذكير، وقد يراعى المعنى فيكون ضميره ضمير الجمع وهو التأنيث.

وهناك دليل آخر وهو ما يتخذ من أشربة من ثمرات النخيل والأعناب وهي بعض منافع النبات المذكورة عقب بيان بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ أي ولكم أيضاً عبرة وعظة فيما تشربونه من أشربة متنوعة من ثمرات النخيل والأعناب كالخل والدبس والخمر أو النبيذ المسكر قبل تحريمه، وما تأكلونه من ثمار طازجة على طبيعتها. وهذا دليل على إباحة المسكر قبل تحريمه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في تلك الأشربة والمأكول لآية واضحة لقوم يستخدمون عقولهم في النظر والتأمل في الآيات. وذكر العقل هنا أمر مناسب؛ لأنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرمت المسكرات صيانة للعقول.

والتفاوت في الوصف بين «السكر والرزق الحسن» بوصف الرزق بالحسن في حال أكل الثمرة غير متخمرة دون السكر يؤذن بالترقية بينهما وبتقييح المسكر، وعمهد لتحريم المسكرات، وهي أول آية نزلت تعرض بالخمر أو المسكر، وقد روي أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «إن ربكم ليقدم في تحريم الخمر».

وهو دليل للجماهير غير أبي حنيفة على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل

والمتخذ من العنب، ومثله حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما أوضحت السنة.

قال ابن عباس: السَّكَّر: ما حُرِّم من ثمرتيهما (النخيل والعنب) والرزق الحسن: ما أُحِلَّ من ثمرتيهما، كالخل والرُّب (المربّة) والتمر والزبيب ونحو ذلك^(١). وفي رواية عن ابن عباس: السَّكَّر: حرامه، والرزق الحسن: حلاله.

وهذا دليل آخر على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً بعد بيان أدلة إخراج الألبان من الأنعام، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعنان، وهو إخراج العسل من النحل، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾.

أي وألهم^(٢) ربك النحل وجعل في غريزتها وطبعها، وقرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها عقلاء البشر، فهي تعيش جماعات في الخلية، ويرأس كل خلية أكبرها جثة وهي الملكة أو اليعسوب، ومعها جماعة الذكور، وجماعة الإناث وهي الشغالات أو العاملات، وتعيش عيشة تعاونية في أدق نظام، وتقوم بامتصاص رحيق الأزهار، وإفرازه عسلاً وشمعاً.

وتقوم بما يلي:

أ - ﴿أَنَّا أَخَذْنَا مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي ألهمها الله وأرشدنا أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر، ومن عرائش الناس التي يصنعونها لها في البيوت والكروم، فتبني بيوتاً محكمة الإتقان، سداسية الأشكال، من

(١) تفسير ابن كثير: ٥٧٥/٢

(٢) الإلهام: ما يخلفه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، وهو من قوله تعالى: ﴿وَنفِثَ رَمًا مِّنْهُنَّ﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨). والنحل يؤت في لغة أهل الحجاز، مثل كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء.

أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض، ولا يوجد فيها خلل، تخزن في بعضها العسل، وفي بعضها الآخر الشمع لتربية صغار النحل.

وجعلها سداسية لمنع الفُرج الخالية الضائعة فيما بينها. وإذا نفرت نحلة من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها ردوها إلى وكرها على ألحان الموسيقى والطبول. وكل ذلك دليل على مزيد الذكاء والكياسة.

٢ - ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ثم امتصي من رحيق جميع الثمار ما تشائين، حلوة كانت أو مرّة أو بين ذلك. وهذا إذن أمر قدرتي تسخيري أن تأكل من كل الثمرات.

٣ - ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي إذا أكلت من الثمار، فاسلكي الطرق التي أهلكك الله أن تسلكيها في عمل العسل، أو في طلب تلك الثمرات، والعودة بسلام إلى الخلايا.

وهي في أثناء بحثها عن الغذاء تنقل على أجنحتها من حيث لا تشعر لقاحات الأزهار من الذكر إلى الأنثى. وتلك مهام أودعها الله في غرائز النحل، ليست مجرد مصادفة أو طبيعة أو غريزة، وإنما هي جزء من رسالة الكائنات الحية التي تؤدي أدواراً في الكون، يعود نفعها في النهاية على الإنسان، فسبحان الله الخالق المالك القادر القاهر الميسر لكل شيء سبباً.

٤ - ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ أي يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان، أبيض أو أصفر أو أحمر، فيه شفاء ونفع لكثير من أمراض الناس، ويدخل في تركيب العقاقير والأدوية. وقد وصفه الله بهذه الصفات الثلاث:

الأولى - كونه شراباً، إما أن يشرب وحده، أو تتخذ منه الأشربة.

الثانية - كونه مختلف الألوان من أحمر وأبيض وأصفر وغيرها.

الثالثة - كونه سبباً للشفاء في الجملة لكثير من الأمراض.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب، فسقاه عسلاً، فبرئ.

أوضح بعض الأطباء القدامى هذه الواقعة فقال: كان لدى هذا الرجل فضلات في المعدة، فلما سقاه عسلاً، وهو حار، تحللت فأسرعت في الاندفاع والخروج، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، مع أنه كان مفيداً لأخيه، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع، ثم سقاه حتى ذهبت الفضلات الفاسدة كلها المضرة بالبدن، فاستمسك بطنه، وصلح مزاجه، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده وإشارته عليه الصلاة والسلام^(١).

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الشفاء في ثلاثة: في شربة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمي عن الكي». وروى ابن ماجه القزويني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن».

وذكر الأطباء المحدثون التركيب الكيماوي للعسل وهو ٢٥ - ٤٠ غلوكوز، و ٣٠ - ٤٥ ليفيلوز، و ١٥ - ٢٥ ماء. ويعطى مقوياً ومغذياً، وضدّ التسمم من المواد السامة كالزرنخ والزئبق والذهب والمورفين، وضدّ تسمم الأمراض كالتسمم البولي بسبب أمراض الكبد، والاضطرابات المعدية

(١) تفسير ابن كثير: ٥٧٥/٢

والمعوية، وتسمم الحميات كالتيفونيد والتهاب الرئة والسحايا والحصبة، والذئبة الصدرية، وحالات ضعف القلب واحتقان المخ والتهابات الكلى الحادة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في كل ما ذكر عن النحل لدلالة واضحة على وجود الله وقدرته لقوم يتفكرون في عجيب صنع الله وخلقه ورعايته الحكمة والمصلحة في ترتيب العالم.

فالنحل يختص بتلك العلوم والمعارف الدقيقة كبناء البيوت المسدسة، ويهتدي إلى أجزاء العسل من الأزهار وأطراف الشجر والأوراق، كما أنه يهتدي إلى جمع الأجزاء النافعة في جو الهواء الملقاة على أطراف الأشجار والأوراق.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى ما يأتي من بيان كمال القدرة وتعداد النعم الإلهية:

أ - أنزل الله من السحاب مطراً يكون سبباً لإحياء الأرض بالنبات المختلف الأنواع بعد اليبس والجمود، وفي ذلك دلالة على البعث وعلى وحدانية الله تعالى؛ لأن معبود المشركين كما علموا لا يستطيع شيئاً، فتكون هذه الدلالة مفيدة لقوم يسمعون عن الله تعالى سماع تدبر وإصغاء بالقلوب، لا بالأذان.

ب - إن في الأنعام وهي أصناف أربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز لدلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته، فهو يسقي الناس من ألبانها، وحدث اللبن يدل على أمرين: وجود الصانع المختار سبحانه، وإمكان الحشر والنشر، لمرور الطعام بعدة مراحل من التحول والقلب من نبات وعشب، إلى دم، إلى لبن، فدهن وجبن، وذلك يدل على أنه تعالى قادر على قلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك.

و يخرج اللبن ويتولد مع ثلاثة أشياء في موضع واحد، فالفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وهذا دليل القدرة العظيمة والصنع الإلهي الدقيق.

واستنبط بعض العلماء من عود الضمير مذكراً، في قوله: ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ إلى الأنعام أن لبن الفحل يفيد التحريم؛ لأنه جيء به مذكراً لأنه راجع إلى ذكر النعم، واللبن محسوب للذكر.

٣ - في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، فأما لبن الميته فلا يجوز الانتفاع به؛ لأنه مائع طاهر في وعاء نجس؛ لأن ضرع الميته نجس، واللبن طاهر، فإذا حُلب صار مأخوذاً من وعاء نجس. وأما لبن المرأة الميته فهو طاهر؛ لأن الإنسان طاهر حياً وميتاً، وقيل: إنه نجس لتنجسه بالموت.

٤ - وفي هذه الآية أيضاً دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها، ولا يقال: إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده، ولكن إذا أخذ من غير سرف ولا إكثار.

٥ - اللبن غذاء كامل يغذي الطفل مدة من الزمن وينمي الجسد، روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ بلبن فشرب، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، وإذا سقى لبناً، فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يُجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن».

٦ - ومن منافع النبات ما يدل أيضاً على القدرة الإلهية، فقد أخرج الله لنا من ثمرات النخيل والأعناب الرزق الحسن: وهو ما أحله من ثمرتيهما على الطبيعة، والسَّكَّر هو النيذ، وهذا قبل التحريم النهائي للبات له، في رأي الجمهور، فالنيذ (وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب

ثلاثه، ثم يترك حتى يشتد) حرام عندهم، لإسكاره، وقول النبي ﷺ فيما رواه العقيلي عن علي، والنسائي عن ابن عباس: «حَرَّمَ اللهُ الخمر بعينها والسكر من غيرها» والصواب أنه موقوف على ابن عباس.

وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله ما لم يصل إلى حد السكر، محتجاً بهذه الآية الدالة على أن السكر حلال؛ لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة، ولأن الحديث السابق دلّ على أن الخمر حرام: «الخمر حرام لعينها» وهذا يقتضي أن يكون السكر شيئاً غير الخمر، والمغايرة تقتضي أنه النبيذ المطبوخ. والحق أن الآية ليس فيها ما يدل على الحل؛ إذ الكلام في الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الإنسان، ولم تنحصر المنافع في حل التناول.

وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على قدرة الله تعالى؛ لأن من كان عاقلاً، علم بالضرورة أو البدهة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، مما يدل على وجود الإله القادر الحكيم.

٧ - كما أن إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاطعة على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً، فكذا إخراج العسل من النحل دليل قاطع على إثبات هذا المقصود.

وفي النحل منافع كثيرة للأشجار والنباتات نفسها، وللإنسان أيضاً، وكذلك في العسل والشمع منافع للإنسان، فالعسل شفاء من كثير من الأمراض، والشمع للإضاءة وصناعات أخرى.

وذلك كله دليل على وجود الإله الصانع الملهم في اعتقاد كل من أعمل فكره، وتأمل ونظر في أعمال النحل وآثاره العجيبة.

بعض عجائب أحوال الناس الدالة على قدرة الله وتوحيده

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ ثُمَّ يُوَفِّيْكُمْ مِنْ يَدِهِ إِلَى أَزْوَاجِهِمْ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَیَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَبِنِعْمَتِ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ منصوب بـ ﴿عِلْمٍ﴾ على مذهب البصريين على إعمال الثاني؛ لأنه أقرب. وبـ ﴿يَعْلَمَ﴾ على مذهب الكوفيين، على إعمال الأول.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ جملة اسمية، في موضع نصب؛ لأنها وقعت جواباً للنفي، وقامت هذه الجملة الاسمية مقام جملة فعلية، وتقديره: فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيماهم، فيستؤوا.

﴿رَزَقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ ﴿شَيْئًا﴾ إما بدل منصوب من ﴿رَزَقًا﴾ كأنه قال: ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم شيئاً، وإما منصوب برزق، أي أن يرزق شيئاً، والوجه الأول أوجه؛ لأن الرزق اسم، والاسم لا يعمل إلا شاذاً، ولأن البدل أبلغ في المعنى.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الواو عائد إلى ضمير «ما» محلاً على المعنى.

البلاغة:

﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً. ﴿ثُمَّ يَبْزُقُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم. ﴿أَزَلَّ الْأَعْمَى﴾ أردته وأخسه، بسبب الهرم والخرف، قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه. ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي فاوت بين أرزاقكم، فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك. ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا﴾ الأغنياء والسادة ﴿بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي بمعطي رزقهم من الأموال وغيرها لماليتهم، وجاعليها شركة بينهم وبين مماليتهم. ﴿فَهُمْ﴾ أي المماليك والسادة (الموالي) ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ شركاء. والمعنى: ليس لهم شركاء من مماليتهم في أموالهم، فكيف يجعلون بعض مماليتك الله شركاء له. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يكفرون حيث يجعلون له شركاء. وقرئ (تجحدون).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي جعلها لكم من جنسكم لتأنسوا بها، ولتكون أولادكم مثلكم. ﴿وَحَفَدةٌ﴾ أي أولاد الأولاد جمع حفيد. ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ونحوها من اللذائذ أو من الحلالات. ومن للتبعض، فإن المرزوق في الدنيا أنموذج من الطيبات.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالأصنام. ﴿وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام، بإشراكهم، أو حرموا ما أحل الله لهم. وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام بها، أو للتخصيص مبالغة، أو للمحافظة على فواصل الآيات بالسجع.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره. ﴿رِزْقًا مِّنَ السَّمَنَاتِ﴾ بالمطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرّون على شيء، وهم الأصنام. ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ﴾ لا تجعلوا لله أشباهاً أو أمثالاً تشركونهم به، أو تقيسونهم عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ألا مثل له، وفساد القياس الذي تقيسونه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ولو علمتم لما جرأتم عليه. وهو تعليل للنهي. أو أنه يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم دون نصه.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس، فذكر مراتب عمر الإنسان وهي أربعة: سن النشوء والنماء (الطفولة) وسن الشباب، وسن الكهولة، وسن الشيخوخة، وذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته.

ثم ذكر تفاوت الناس في أرزاقهم، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢/٤٣] وهي من قسمة الخلاق. ثم ذكر نعمة ثالثة ورابعة وهي جعل الأزواج من جنس الذكور، والرزق من الطيبات من نبات كالثمار والحبوب والأشربة، ومن حيوان مختلف الأنواع.

التفسير والبيان:

تستمر الآيات في تعداد مظاهر قدرة الله وعظمته وألوهيته ونعمه، وهي

متعلقة هنا بالإنسان، فيذكر تعالى مراحل نشوء الإنسان، وأنه هو سبحانه الذي أنشأ الناس من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾.

أي والله أوجدكم يا بني آدم، ولم تكونوا شيئاً، ثم حدد لأعماركم أجالاً معينة، فمنكم من يتوفاه عند انقضاء آجالكم، ومنكم من يهرم ويصير في أرذل العمر وأسوته وهو حال ضعف القوى والحواس والخرف، أو فقدها، وقلة الحفظ والعلم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٣٠/٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٣٦/٦٨] وقال عز وجل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥٠﴾ [النين: ٤/٥٠].

وروى البخاري وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة الحيا والممات» وفي حديث سعد بن أبي وقاص: «وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر». وروي عن علي رضي الله عنه: أرذل العمر: خمس وسبعون سنة. وهذا أمر غير مطرد، وربما كان هذا هو الغالب في الماضي.

﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي نرده إلى أرذل العمر، ليصبح غير عالم بشيء، وجاهلاً كما كان وقت الطفولة، ونساء لضعف ذاكرته.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي إن الله عليم بكل شيء، فيجعل الإنسان في حال من القوة والضعف على وفق الحكمة، وقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء أبداً.

هذا شأن تفاوت الناس في الأعمار، أردفه ببيان تفاوتهم في الأرزاق فقال

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾ أي إن الله تعالى جعلكم متفاوتين في الأرزاق، فهناك الغني والفقير والمتوسط لحكمة اقتضتها ظروف المعيشة، والمصلحة للإنسان نفسه، وليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا.

﴿فَمَا أَلْزَمَ فَضُلًا﴾ أي فما الذين فضّلوا بالرزق وهم السادة الملاك أو الموالي بجماعلي أرزاقهم شركة على قدم المساواة بينهم وبين ممالئكم.

وهذا مثل ضربه الله للعبارة، مفاده أنه إذا كنتم لم ترضوا بهذه المساواة بينكم وبين خدمكم، وهم أمثالكم في الإنسانية، فكيف تسوون بين الخالق والمخلوق، وبينه وبين هذه الأصنام، وتشركون به ما لا يليق به من عبيده ومخلوقاته؟

ويوضح المثل آية أخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨/٣٠].

﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَّخِذُونَ﴾ أي أتشركون بالله بعبادتكم الأصنام، فتجحدون بنعمة الله عليكم؟ لأن من أثبت شريكاً لله، فقد نسب إليه بعض النعم والخيرات، فكان جاحداً لكونها من عند الله تعالى. أو أتجحدون بنعمة الله عليكم بعد تقرير هذه البيانات وإيضاح هذه الدلالات على وحدانية الله، والتي يفهمها كل عاقل؟! فهذا إنكار على المشركين جحودهم نعم الله عليهم.

ومن جليل نعمه تعالى على عباده أمور أخرى منها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي والله جعل لكم أيها العبيد المخلوقون لله أزواجاً من جنسكم وشكلكم لتحقيق الأنس والانسجام والاتلاف وقضاء المصالح، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الاتلاف والمودة والرحمة، فمن رحمته جعل الذكور والإناث من جنس واحد.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، أي أولاد البنين.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقكم من طيبات الرزق التي تستطيعونها في الدنيا، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب.

﴿أَفَإِلْبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ؟﴾ أي أيصدقون بالباطل وهو أن الأصنام شركاء لله في النفع والضرر، وأنها تشفع عنده، وأن الطيبات التي أحلها الله لهم كالبحيرة والسائبة والوصيلة هي حرام عليهم، وأن المحرمات التي حرمها الله عليهم كالميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب هي حلال لهم؟

وهذا توبيخ وتأنيب لهم على تلك الأحكام الباطلة، وعلى إنعام الله في تحليل الطيبات، وتحريم الخبيثات.

﴿وَبِعَمَلِهِم مَّنَافِعَ أَشْيَاءَ كَفُتِرُوا﴾ أي ويحذون بهذه النعم الجليلة، فينسبون إلى غير الخالق من صنم أو وثن؟! ويسترون نعم الله عليهم. جاء في الحديث الصحيح: «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك رأس وتربع؟».

ثم أخبر الله تعالى عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً، فقال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون بالله ما لا يستطيع تقديم الأرزاق لهم من السماء والأرض، فلا يقدر على إنزال المطر، ولا إنبات الزرع والشجر، بل ولا يملكون ذلك لأنفسهم، فليس لهم الإمداد بالرزق لأنفسهم ولغيرهم، ولا يقدر على، لو أرادوه.

وفائدة قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفى الملك وتحصيل الملك، فمن لا يملك

شيئاً قد يكون مستطيعاً أن يتملكه بطريق ما، فأبان تعالى أن هذه الأصنام لا تملك، وليس في استطاعتها أيضاً تحصيل الملك^(١). وجمع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالواو والنون المختص بأولي العلم اعتباراً لما يعتقدون فيها أنها آلهة.

ونتيجة ما ذكر: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباحاً وأمثالاً، ولا تشبهوه بخلقه، قال ابن عباس - فيما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم في هذه الآية - : أي لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن الله يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم تجهلون تشركون به غيره. وإن الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب الشديد، بسبب عبادة هذه الأصنام، فتركوا عبادتها، وأنتم لا تعلمون ذلك، ولو علمتموه لتركتم عبادتها. وهذا تهديد شديد على عظم جرمهم وكفرهم ومعاصيهم، وردّ على عبدة الأصنام.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - إن الله تعالى هو المتصرف في شؤون الإنسان من حياة أو موت، فهو خَلَقَهُ وهو يتوفاه في أجل معين، وهو الذي يحميه من الأمراض، أو يرده إلى أرذل العمر حال الكبر يعني أردأه وأضعه، وهو الخرف ونقص القوة والعقل وسوء الحفظ وقلة العلم، فيصبح كالصبي الذي لا عقل له، ولا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر. ودلت الآية أيضاً على تفاوت الناس في الأعمار. وهذا دليل على وجود إله عالم فاعل مختار، وعلى صحة البعث والقيامة؛ لأن الانتقال من العدم إلى الوجود كالعودة إلى الوجود مرة أخرى.

(١) تفسير الرازي: ٨٢/٢٠

٢ - لله تعالى الحكمة البالغة في قسمة الأرزاق بين العباد، فجعل منهم الغني والفقير والمتوسط، ليتكامل الكون، ويتعاش الناس، ويخدم بعضهم بعضاً، ويحجب عن الإنسان انزلاقه في المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧/٤٢] فالآية دليل على أن التفاوت في الأرزاق كالتفاوت في الأعمار.

وربَّ الله على هذا التفاوت في الأرزاق نتيجة منطقية تمس الاعتقاد في مثل ضربه الله لعبدة الأصنام وهو: إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؟ فلما لم يجزوا لأنفسهم أن يشركهم عبيدهم في أموالهم، لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان وغيرها مما عُبد، كالملائكة والأنبياء، وهم عبيده وخلقه.

والتفاوت ليس مختصاً بالمال، بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والقبيح.

٣ - من نعم الله على عباده جعل الزوجات من جنس الأزواج وشكلهم، وفي هذا ردّ على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها.

ومن نعمه سبحانه إنجاب الذرية من بنين وبنات وحفدة (أولاد البنين). ومن نعمه رزق الطيبات من الثمار والحبوب والحيوان وغير ذلك.

والآية تومئ إلى ضرورة التعاون بين الأزواج والبنين والحفدة؛ لأنهم أسرة واحدة. ومن السنة النبوية أن الرجل يعين زوجته؛ روت عائشة أن النبي ﷺ كان يكون في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج. ومن أخلاق النبي ﷺ: أنه كان يَخْصِفُ النعل، ويَقْمُ البيت، ويحيط الثوب.

ومن قدر على نفقة خادمة واحدة أو أكثر فعل، على قدر الثروة والمنزلة.

وهذا أمر متروك للعرف، فنساء الريف والأعراب والبادية يخدمن أزواجهن، ونساء المدن يعينهن الزوج، أو يستأجر لهن الخادمة إذا كان من أهل الثروة.

٤ - من حماقة المشركين وجهالتهم أنهم يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع ولا تشفع، فلا تملك إمداد غيرها ولا أنفسها بالرزق من إنزال المطر وإنبات النبات، ولا يقدرّون أي الأصنام على شيء، فلا تشبهوا بالله هذه الجمادات؛ لأنه واحد قادر لا مثل له.

مثالان للأصنام والأوثان

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦)

القراءات:

﴿ صِرَاطٍ ﴾:

وقرأ قبيل (سراط).

الإعراب:

﴿عَبْدًا﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾. ﴿مَمْلُوكًا﴾ صفة قيد بها العبد للتمييز من الحر، فإنه أيضاً عبد لله.

﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾: رَزَقَ: فعل يتعدى إلى مفعولين، الأول منهما الهاء في ﴿رَزَقْنَاهُ﴾ والثاني: ﴿رِزْقًا﴾ وهذا ليس مصدرأ؛ لأنه قال:

﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ والإنفاق إنما يكون من الأعيان لا الأحداث.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ جمع الضمير في الفعل ولم يقل: يستويان، لمكان ﴿وَمَنْ﴾ لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث؛ ولأنه للجنسين، فإن المعنى: هل يستوي الأحرار والعبيد؟

﴿رَجُلَيْنِ﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

البلاغة:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ﴾ فيها استعارة تمثيلية، مثل فيها الوثن بالأبكم الذي لا يتفهم به شيء، كما مثله في الآية المتقدمة بالملوك العاجز عن التصرف رأساً.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ بينهما طباق.

للفردات اللغوية:

﴿مَمْلُوكًا﴾ صفة تميزه من الحر، فإنه أيضاً عبد الله. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التصرف مطلقاً لعدم ملكه. ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ نكرة موصوفة أي حرّاً، لتطابق كلمة ﴿عَبْدًا﴾. ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي يتصرف به كيف يشاء، والأول: مثل الأصنام، والثاني: مثله تعالى، والمعنى: مثل ما يشرك به: بالملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومثل نفسه: بالحر المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً، فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف يشاء، فالأول مقيد والثاني حر طليق. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي الجنسان وهما العبيد والأحرار، أي هل يستوي الأحرار والعبيد؟ لا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له لا يستحقه غيره، فضلاً عن العبادة لأنه مصدر النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ أَهْلُ مَكَةٍ﴾ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب، فيشركون.

﴿أَبْكُمْ﴾ الأبكم: الذي ولد أخرس. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الصنائع أو التدابير؛ لأنه لا يفهم ولا يفهم. ﴿كُلُّ﴾ ثقیل على وليه وقرابته. ﴿مَوْلَنُ﴾ ولي أمره. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ يصرفه. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنجح وكفاية مهم، وهذا مثل الكافر أو الأصنام. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ الأبكم المذكور. ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي ومن هو ناطق نافع للناس حيث يأمر به ويحث عليه. ﴿صِرَاطٍ﴾ طريق، وهذا هو المؤمن، أو الله تعالى، أي إن هذا تمثيل ثانٍ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام، لإبطال المشاركة بينه وبينها، أو هو مثل للمؤمن والكافر.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبد، وفي قوله: ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُمْ﴾ قال: نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

وفي عبارة أخرى: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد بن أبي العاص، كان يكره الإسلام، وكان عثمان يتفق عليه، ويكفله، ويكفيه المؤونة، وكان المولى ينهاه عن الصدقة والمعروف.

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى عن ضرب الأمثال له؛ لأن الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون، علّمهم كيف تضرب الأمثال، فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً، فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف شاء.

ومثلكم أيضاً في الإشراك مثل من سوى بين رجلين: أحدهما أبكم عاجز،

لا يقدر على تحصيل خير، وهو عبء ثَقِيل على سيده، والآخر ذو فهم ومنطق وكفاية وقدرة ورشد ينفع الناس بالحث على العدل.

هل من المعقول التسوية بين الاثنين؟!

أي كيف يسوى الجماد بالله تعالى في الألوهية والعبادة؟! أو كيف يسوى الكافر المخذول والمؤمن الموفق؟!

هذان مثالان موضعان بطلان عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تجيب.

التفسير والبيان:

بعد أن نهى الله تعالى عن الإشراك، أبان بالأمثال الواقعية فساد عبادة الأصنام، فذكر مثلين:

أولهما - ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ هذا مثل ضربه الله لحالة الأصنام بالمقارنة مع ذاته تعالى، فما مثلكم أيها المشركون في إشراككم بالله الأوثان والأصنام المعبودة التي لا تنفع ولا تضر، إلا كمثل من سَوَّى بين عبد مملوك لمالكة، عاجز عن التصرف، لا يقدر على شيء، وبين مالك حر التصرف في ملكه، ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كيف يريد، سرّاً وجهراً، فالأول - مثل الصنم العاجز، والثاني - مثل الإله القادر. وبما أنه لا يعقل بداهة التسوية بين الشخصين: العبد والحر، ولا يجهل الفرق بينهما إلا كل غبي، فكيف يسوى بين الإله القادر على الرزق والإنفاق، وبين هذه الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلاً؟ وكيف يسوى بين الضار والنافع؟

لذا قال تعالى نتيجة لهذه المقارنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الحمد التام الكامل لله، والثناء الشامل لله، والشكر الجزيل لله المنعم بمختلف النعم، فهو وحده المستحق للحمد، لا تلك الأوثان، بل أكثر

أولئك الكفار التي يعبدونها لا يعلمون الحق فيتبعوه، ولا يعرفون المنعم الحقيقي بالنعمة الجليلة فيخصوه بالتقديس والتزويه، والعبادة، والحمد والشكر.

وثانيهما - هو أيضاً مثل الحق تعالى، ومثل الوثن. وهذا المثل يؤكد ما دل عليه المثل السابق على نحو أوضح، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾.

أي وضرب الله مثلاً لنفسه وللوثن أو الآلهة المعبودة من دونه، مثل رجلين: أحدهما - أبكم لا ينطق ولا يتكلم بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء يتعلق بنفسه أو بغيره، وهو مع هذا كلُّ أي عيال وكلفة على مولاه الذي يعوله، حيثما أرسله أو بعثه، لا يحقق مطلباً، ولا ينجح في مسعاه، ولا يأتي بخير قط؛ لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا مقال لديه، فلا يفهم عنه.

والثاني - رجل كامل المواهب والحواس، ينفع نفسه وغيره، يأمر بالعدل أي بالقسط، ويسير على منهج الحق والعدل، ويحكم بالعدل، فمقاله حق، وأفعاله وسيرته مستقيمة، وطريقه مستقيم ودينه قويم.

هل يستوي هذان الرجلان؟ الأول عديم النفع، والثاني كامل النفع، والأول كالصنم لا يسمع ولا ينطق، والثاني وهو المتصف بصفات الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، ويأمرهم بالعدل، ويلتزم العدل في نفسه قضاءً وحكماً.

وإذا كان هذان الرجلان لا يتساويان بداهة، فلا تساوي أصلاً بين الحق تعالى، وبين ما يزعمون أنه شريك له.

فقه الحياة أو الأحكام:

دل هذان المثالان على ضلالة المشركين وبطلان عبادة الأصنام؛ لأن شأن الإله المعبود أن يكون مالكاً قادراً على التصرف في الأشياء، وعلى نفع غيره

ممن يعبدونه، وعلى الأمر بالخير والعدل، والتزام منهج الاستقامة والقسط في سيرته وسلوكه.

والأصنام في المثل الأول فاقدة الملك، عاجزة عن التصرف هي مثل العبيد المملوكين للسلادة الموالي. أما الأحرار الملاك الأغنياء كثيرو الإنفاق سرّاً وجهراً، فهم القادرون على التصرف. وبما أن العقل لا يجوز التسوية بين الحر والعبد في التعظيم والإجلال، مع تساويهما في الخلقة والصورة والبشرية، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلاً؟!

وهناك قول آخر: وهو أن هذا مثل للمؤمن والكافر، فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، فهو باعتبار حرمانه من عبودية الله وطاعته كالعبد الذليل الفقير العاجز. والمراد بقوله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المؤمن، فإنه مشغول بالتعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فأبان تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى.

قال الرازي: والقول الأول أقرب؛ لأن الآية في إثبات التوحيد، وفي الرد على المشركين.

وهذا المثل منتظم مع ما ذكر قبله من بيان نعم الله على أولئك المشركين، وعدم توافر تلك النعم من آلهتهم.

وقد احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً.

والأصنام في المثل الثاني لا تقدر على شيء، وأما الله فهو القادر على كل شيء، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى، وهل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل، وهو على الصراط المستقيم؟! والأمر بالعدل يجب أن يكون موصوفاً بالنطق، وإلا لم يكن أمراً.

ويجب أن يكون قادراً؛ لأن الأمر مشعر بعلو الرتبة، وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادراً. ويجب أن يكون عالماً حتى يمكنه التمييز بين العدل والجور، فدل وصفه بالعدل على وصفه بكونه قادراً عالماً.

أما الرجل الأول فوصفه بأربع صفات: الأبهى (الأخسر العبي)، ولا يقدر على شيء، وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل، وكلُّ على مولاه (أي غليظ وثقيل على سيده)، وأينما يوجهه، أي يرسله، لا يأت بخير؛ لأنه عاجز لا يحسن التعبير ولا يفهم الكلام، فهل الموصوف بهذه الصفات الأربع يتساوى مع الموصوف بأضدادها، وهو الأمر غير الأبهى، والقادر غير العاجز الذي لا يقدر على شيء وأنه كلُّ على مولاه، والعالم غير الذي لا يأتي بخير.

علم الله الغيب وخلق الإنسان والطير

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْخِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾

القرءات:

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾:

وقرأ ابن عامر، وحزة، وخلف (ألم تروا).

الإعراب:

﴿مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرئ بضم الهمزة على الأصل، وبكسرهما على الاتباع لكسرة نون ﴿بُطُونِ﴾.

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ إما منصوب على المصدر، أي لا تعلمون علماً، أو منصوب لأنه مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ الذي هو بمعنى (تعرفون) للاقتصار على مفعول واحد، والجملة حال.

البلاغة:

﴿كَلَّمَجَ الْبَصَرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

للفردات اللغوية:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب فيهما، وهو يختص بعلم الغيب، لا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد، بأن لم يكن محسوساً ولم يدل عليه محسوس، وقيل: يوم القيامة، فإن علمه غائب عن أهل السماوات والأرض. ﴿السَّاعَةِ﴾ وقت القيامة، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما، فيموت الخلق بصيحة واحدة. ﴿كَلَّمَجَ الْبَصَرِ﴾ الملح: النظر بسرعة، ولحج البصر: رجع الطرف من أعلى الحدة إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أمرها أقرب منه؛ لأنه بلفظ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والمعنى: ما أمر قيام القيامة في سرعته وسهولته إلا كلمح البصر ﴿السَّمْعِ﴾ أي الأسماع. ﴿وَالْأَفْعِدَّةِ﴾ جمع فؤاد وهي القلوب. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله عليكم طوراً بعد طور، فتشكروا وتؤمنوا.

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذلات للطيران. ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ الفضاء بين السماء والأرض. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عند قبض أجنحتهن أو بسطها أن يقعن. ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بقدرته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في تسخير الطير للطيران وتمكينا منه، وإمساكها في الهواء وخلق الجو لدلالات على الإله الواحد الخالق. ﴿لِقَوْرِ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بها.

الخاصية:

بعد أن مثل تعالى الأصنام أو الكفار بالأبكم العاجز، ومثل نفسه بالآمر

بالعدل، وهو على صراط مستقيم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة، أردف ذلك بيان كمال علمه وقدرته. أما كمال العلم فهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وأما كمال القدرة فهو قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾. ومن مظاهر كمال قدرته وحكمته: خلق الإنسان في أطواره المختلفة، وتمكين الطير من الطيران في الجو، وهذا وما يأتي بعده من دلائل التوحيد.

التفسير والبيان:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عِلْمُ الله وحده غيب السماوات والأرض، والتعبير يفيد الحصر، معناه: أن العلم بالمغيبات ليس إلا لله، وهو مختص بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك. إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء. وهذا إخبار عن كمال علم الله تعالى. ثم أخبر عن كمال قدرته وأنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي وما شأن الساعة (وهي الوقت الذي تقوم فيه القيامة) في سرعة الجيء إلا كطرف العين أو رجع البصر من أعلى الحديقة إلى أسفلها، أو هو أقرب من هذا وأسرع؛ لأن أمره فوري الحدوث والتنفيذ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧/٢ ومواضع أخرى] ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨/٣١]. فالله تعالى قادر على إقامة القيامة في أسرع لحظة، ولما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر، ذكره تقريباً للأذهان.

ونظير الآية: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٤/٥٠] أي فيكون ما يريد كطرف العين.

وخص قيام الساعة من بين المغيبات، لكثرة الجدل حوله، وإنكاره من كثير من الناس، فهي محط الأنظار، ومحل البحث والجدل بين المنكرين والموحددين.

والمقصود من الآية: أن شرع التحليل والتحریم إنما یحسن بمن یحیط بالعواقب والمصالح، وأنتم أيها المشركون لا تحیطون بذلك، فلم تنحکمون! ثم ذکر تعالى دلیل ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله قادر على كل شيء، ومن مشتملات قدرته: إقامة الساعة في أسرع من لمح البصر أو غمضة العين.

ثم ذکر بعض مظاهر قدرته تعالى ومنتته على عباده، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونٍ أُمَهَّتِكُمْ﴾ أي والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، فالإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، ثم زوده الله بالمعارف والعلوم، فزرقه عقلاً يفهم به الأشياء، ويمیز به بین الخیر والشر، وبین النفع والضرر، وهياً له مفاتيح المعرفة من السمع الذي يسمع به الأصوات ويدركها، والبصر الذي يبصر به الأشخاص والأشياء والفؤاد الذي يعي به الأمور، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٣٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الملك: ٢٣-٢٤] .

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا نعم الله عليكم، باستعمال كل عضو فيما خلق من أجله، ولتتمكنوا من عبادة ربكم، وتطيعوه فيما أمركم.

وذلك كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عادى لي ولياً، فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها^(١)، ولئن سألني لأعطيته،

(١) هذا من قبيل المجاز عن عون الله وتوفيقه ورضاه.

ولئن دعاني لأجيبته، ولئن استعاذني لأعيذته، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه».

أي إن العبد إذا أخلص الطاعة لله، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي لما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله^(١).

ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر على كمال قدرته وحكمته فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ أي ألم ينظروا إلى الطير المذلل المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه في جو السماء، ما يمسكه عن الوقوع إلا الله عز وجل، فإنه لولا أنه تعالى خلق الطير خلقة يمكنه معها الطيران، وخلق الهواء أو الجو خلقة يمكن معها الطيران فيه، لما أمكن ذلك، فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً ييسطه مرة ويضمه مرة، كما يفعل السباح في الماء، وأوجد له الذيل ليساعده في الهبوط، وخلق الهواء، وجعل ثقله حاملاً للطير، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً.

وقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ معناه أن جسم الطائر ثقيل، والجسم الثقيل لا يمكنه التحليق في الجو من غير دعامة تحته، فكان الممسك له في الجو هو الله تعالى، بوساطة الهواء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في خلق جناحي الطير، وتسخير الهواء لحمله، لدلالات على قدرة الله ووحدانيته، لا للأصنام والأوثان، لمن يؤمن بالله. وخص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم المتفعون بتلك الآيات، وإن كانت دلائل لكل العقلاء.

ونظير الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَبَقِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا
الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩/٦٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن علم الغيب في السماوات والأرض مختص بالله تعالى، لا يعلم به أحد، إلا من أطلعه الله عليه. وإذا كان الله هو المحيط بالغيب فهو الذي يشرع الحلال والحرام، لا المشركون الجاهلون، الذين لا يدركون عواقب الأمور، ولا يقدرון المصالح.

٢ - إن قيام الساعة (أي حدوث وقت القيامة) في أسرع من لمح البصر دليل واضح على قدرة الله التامة، فهو سبحانه القدير على كل شيء، وهو الذي يقول للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. قال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ أي يقول للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٣ - إن من نعمه تعالى ومن مظاهر قدرته خلق الناس من بطون أمهاتهم، لا علم لهم بشيء، ثم تزويدهم بوسائل المعرفة والعلم، وهي السمع والأبصار والأفئدة، فيها يعلمون ويدركون. فالسمع لسماع الأوامر والنواهي، والأبصار لرؤية آثار صنع الله، والأفئدة للوصول بها إلى معرفة الله. وذلك كله لشكر نعم الله وإبصار آثار صنعته. والآية دليل على أن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، ثم تأتي المعارف والعلوم بالتعلم بوساطة الحواس التي هي السمع والبصر.

٤ - ومن مظاهر قدرة الله ووحدانيته جعل الطير قادرة على التحليق والطيران في الجو (وهو ما بين السماء والأرض) وهي مذلة لأمر الله تعالى،

وما يمسكها في حال القبض والبسط والاصطفاف إلا الله تعالى، وتلك علامات وعبر ودلالات على القدرة الإلهية، لقوم يؤمنون بالله وبما جاءت به رسله، فإنه لولا خلق الطير على وضع يمكنه الطيران، وخلق الجو على حالة يمكن الطيران فيه، لما أمكن ذلك.

بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الإلهي

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتِكُمْ﴾:

قري:

١- (بُيُوتِكُمْ) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بُيُوتِكُمْ) وهي قراءة الباقيين.

﴿ظَعْنِكُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ظَعْنِكُمْ).

﴿بَأْسَكُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحزة وقفاً: (باسكم).

﴿نِعْمَتَ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

البلاغة:

﴿ظَعْنِكُمْ﴾ ﴿إِقَامَتِكُمْ﴾ ﴿يَعْرِفُونَ﴾ ﴿يُنْكِرُونَهَا﴾ بين كل اثنين طباق.

﴿سَرَبِلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي والبرد، حذف الثاني استغناء بالأول.

المفردات اللغوية:

﴿سَكَنًا﴾ أي مسكناً تسكنون فيه. ﴿بُيُوتًا﴾ كالخيام. ﴿تَسْتَخْفُونَهَا﴾ تجدونها خفيفة للحمل والنقل. ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ سفركم، والظعن بسكون العين أو فتحها: سير أهل البادية لطلب الماء والمرعى. ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ الغنم. ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ الإبل. ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ المعز. ﴿أُنْثَى﴾ متاع البيوت، كالفرش والשיاب وغيرها. وليس للأثاث واحد من لفظه ﴿وَمَتْنًا﴾ ما يتمتع ويتنفع به، وهو ما يتجر به. ﴿إِلَى جَيْنَ﴾ إلى مدة من الزمان، فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَفَ﴾ من البيوت والشجر والغمام. ﴿ظِلَّلًا﴾ جمع ظل: وهو ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها، للوقاية من حر الشمس. ﴿أَكْنَنًا﴾ جمع كَنَ: وهو ما يستكن فيه وهو الغار في الجبل والسرب أو النفق. ﴿سَرَبِلَ﴾ جمع سَرَبِلَ: وهو القميص من القطن والكتان

والصوف وغيرها، وسرايل الحرب: الدروع، والسرايل يعم كل ما يلبس ﴿تَقِيَكُمْ الْحَرَ﴾ أي والبرد. ﴿بَأْسَكُمْ﴾ المراد هنا حربكم، أي تقيكم الطعن والضرب وهي الدروع. والبأس في الأصل: الشدة. ﴿كَذَلِكَ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت. ﴿يُسَبِّحُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا، بخلق ما تحتاجون إليه. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿تُسَلِّمُونَ﴾ توحّدون الله، أي لعلكم تنظرون في نعم الله، فتؤمنون به، أو تتقادون لحكمه.

سبب النزول:

نزول الآية (٨٣):

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ، فسأله، فقرأ عليه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال: نعم: ثم قرأ عليه كل ذلك، وهو يقول: نعم، حتى بلغ ﴿كَذَلِكَ يُسَبِّحُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ فولى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾.

المناسبة:

هذه باقة أخرى من فضائل الله ونعمه على بني آدم، ومن دلائل التوحيد، فبعد أن ذكر الله تعالى مامنً به على الناس من خلقهم وما خلق لهم من مدارك العلم، ذكر ما امتن به عليهم مما يتشفعون به في حياتهم، من أمور أخرى غير دواهم، من بيوت السكن المبنية من الحجارة وغيرها، والحيام أو بيوت الشعر المصنوعة من جلود الأنعام، والأصواف والأوبار والأشعار التي تصنع منها الملابس والأثاث (المفروشات) والأمتعة التي يتجر بها ويعاش من أرباحها،

والحصون والقلاع والمعازل في الجبال، والثياب الواقية من الحر والبرد، والدروع والجواشن^(١) الحامية من السلاح في الحرب.

التفسير والبيان:

هذا امتنان آخر بما أنعم الله على عبده بالإيواء في المساكن فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي والله جعل لكم بيوتاً هي سكن لكم، تأوون إليها، وتستترون بها، وتتفنون بها بسائر وجوه الانتفاع.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودٍ﴾ أي وجعل لكم أيضاً من جلود الأنعام المعروفة بيوتاً أي من الأدم، في السفر والحضر، تستخفون حملها يوم سفركم وانتقالكم ويوم إقامتكم، وهي الحيام والقياب، يخف حملها عليكم في الأسفار.

وجعل من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز ما تتخذونه أثاثاً لبيوتكم، تكتسون به، وتتفنون به في الغطاء والفراش، وجعل لكم منها متاعاً تتمتعون به من جملة الأموال والتجارات، إلى أجل مسمى وزمن معين في علم الله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويَتَّخِذُ مَالاً وتجارة، وهذا كله بحسب عرف العرب في الماضي، وإن تغير الحال اليوم. فالأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي ومن نعمه تعالى أن جعل لكم من الأشجار والجبال وغيرها ظلالاً تستظلون بها من شدة حر الشمس، وشدة عصف الرياح.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ أي وجعل لكم من الجبال حصوناً ومعازل ومغارات وكهوفاً ونحوها، تأمنون فيها من العدو أو حر الشمس أو البرد.

(١) الجواشن: جمع جَوْشَن وهو الدرع.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيلَ﴾ أي وجعل لكم ثياباً من القطن والكثان والصوف ونحوها، تقيكم شدة الحر، أي والبرد، لكن ذكر الحر لحاجة العرب في بلادهم الحارة إلى اتقاء الحر، وما يقي الحر يقي البرد.

﴿وَسَرِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ أي وجعل لكم دروعاً من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك، تقيكم البأس والشدة في الحرب والظعن والضرب ورمي النبال، واليوم تقي شظايا القنابل.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وحوائجكم، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، أو مثل ذلك الإتمام بهذه النعم، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم، ونعمة الدنيا والآخرة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ يا أهل مكة، أي لتدخلوا في حظيرة الإسلام، وتؤمنوا بالله وحده، وتتركوا الشرك وعبادة الأوثان، فتدخلوا جنة ربكم، وتؤمنوا عذابه وعقابه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا﴾ أي فإن أعرضوا بعد هذا البيان، وتعداد النعم، فليس عليك شيء، إنما عليك فقط البلاغ لرسالتك، الموضح لمهمتك، المفسر لأصول الاعتقاد ومقاصد الدين، وأسرار التشريع، وقد أدبت ذلك، أي إن أعرضوا فلست بقادر على إيجاد الإيمان في نفوسهم، إن عليك إلا البلاغ فحسب.

وسبب هذا الإعراض هو ما قاله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المنعم عليهم بهذه النعم، المتفضل بها عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك بأفعالهم، ويعبدون معه غيره، ويسندون الرزق والنصر إلى غيره، إذ يقولون: إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعاة هذه الأصنام، فلم يخصوه تعالى بالشكر والعبادة، بل شكروا غير الله تعالى.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي وأكثرهم الجاحدون المعاندون، وأقلهم المؤمنون الصادقون. وإنما قال ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معانداً، بل جاهلاً بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وما ظهر له كونه نبياً حقاً من عند الله.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على طائفة من النعم التي أنعم الله بها على الناس وهي ما يأتي:

١ - الآية الأولى فيها تعداد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر بيوت المدن أولاً، وهي للإقامة الطويلة، ثم ذكر بيوت البدو والأعراب والرعاة، وهي بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف.

٢ - وفي الآية الأولى أيضاً أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، وفي آية أخرى أذن في الأعظم من ذلك وهو ذبحها وأكل لحومها.

ولم يذكر القطن والكتان؛ لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطفوا بما عرفوا وألفوا.

والآية بعمومها دلت على جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، حتى إن المالكية والحنفية قالوا: صوف الميتة وشعرها ظاهر يجوز الانتفاع به على كل حال، ويغسل مخافة أن يكون علق به وسخ. ويؤيدهم حديث أم سلمة عن النبي ﷺ: «لا بأس بجلد الميتة إذا دُبِغ، وصوفها وشعرها إذا غُسل». وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس: «أما إهاب دبغ فقد طهر».

وزاد أبو حنيفة فقال: القرن والسن والعظم مثل الشعر؛ لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها، فلا تنجس بموت الحيوان. وقال باقي الأئمة: إن ذلك نجس كاللحم.

وأجاز الزهري والليث بن سعد الانتفاع بجلود ميتة الأنعام، وإن لم تدبغ؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ عام في جلد الحي والميت. وخالفهما جمهور العلماء في ذلك.

والظاهر من مذهب مالك: أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يُصلى عليه، ولا يؤكل فيه. وأكثر المدنيين وأكثر أهل الحجاز والعراق على إباحة ذلك وإجازته، للحديث المتقدم: «أما إهاب دُبغ فقد طهر».

وذهب الإمام أحمد إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء، وإن دُبغت؛ لأنها كلحم الميتة، واحتج بحديث عبد الله بن عُكيم عند أبي داود: «ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وخالفه بقية الأئمة لحديث شاة ميمونة: الذي رواه عنها أبو داود والنسائي «لو أخذتم إهابها؟ فقالوا: إنها ميتة، فقال: يطهرها الماء والقرظ».

والمشهور عند المالكية أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث، ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي والأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه. أما جلد الكلب وما لا يؤكل لحمه فغير معهود الانتفاع به، فلا يطهر.

٣ - دلت الآية الثانية على نعمة الظل والظلال: وهو كل ما يستظل به من البيوت والشجر، وعلى نعمة الأكنان جمع كِنٍّ: وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك، وهي المغاور والكهوف في الجبال، يأوي إليها الناس في البراري، ويتحصنون بها من الأمطار والسيول والأعاصير وغير ذلك.

ودلت أيضاً على نعمة السراويل أي القمص، والدروع التي تقي الناس في الحرب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلَ تَفِيكُم بِأَسْكُم﴾ دليل على اتخاذ العباد عُدة الجهاد، ليستعينوا بها على قتال الأعداء.

ودل آخر الآية: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ على إكمال نعم الله وأفضاله بإتمام نعمة الدين والدنيا والآخرة.

وكل هاتيك النعم لتكون سبباً للانقياد والطاعة لله عز وجل، شكراً على نعمه.

٤ - تشير الآية الثالثة إلى أن مهمة النبي ﷺ هي التبليغ، وأما الهداية فإلى الله، فإن أعرض الناس عن النظر والاستدلال والإيمان، فعليهم تبعة إعراضهم.

٥ - الآية الرابعة صريحة في أن الكفار يعرفون أن النعم من عند الله، ولكنهم ينكرونها بقولهم: إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم، أو بوساطة شفاعة الأصنام. ويعرفون نبوة محمد ﷺ ثم يكذبونه، ويعرفون نعم الله بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم، ولا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى.

وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة بعث الشاهد عليهم وعلى المؤمنين وعدم تخفيف العذاب ومضاعفته عليهم وتكذيب العبودات لهم

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

القرءات:

﴿لَا يُؤْذَنُ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمة وقفاً (لا يُؤْذَن).

﴿وَجِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمة وقفاً (وجينا).

للفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ واذكر ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ جيل من الناس ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ هو نبيهم يشهد لها وعليها بالإيمان والكفر يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ

﴿كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ إذ لا عذر لهم، أي إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبي أي الرجوع إلى ما يرضي الله ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذَابُ﴾ النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون ويؤخرون إذا رأوه.

﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾ من الشياطين وغيرها الذين شاركوهم في الكفر بالحث عليه، أو أوثانهم التي دعوها ﴿نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس بأن يشطر عذابهم ﴿فَأَلْفَوْا إِلَهُهُمْ﴾ ألقوا لهم أي قالوا لهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِلَّا نَارًا مَبْدُودَةً﴾ [القصص: ٢٨/٦٣] ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مرم: ٨٢/١٩] ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به.

﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾ أي استسلموا لحكمه، بعد الاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ غاب وضاع عنهم وبطل ﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من أن ألهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم، حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ومنعوا الناس عن دين الله وهو الإسلام، والحمل على الكفر ﴿رَدْنَهُمْ عَذَابًا﴾ لصدهم ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ المستحق بكفرهم ﴿يُقْسِدُونَ﴾ بصدهم الناس عن الإيمان.

﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ واذكر ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هو نبيهم، فإن نبي كل أمة بعث منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ قومك أو أمتك ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بياناً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبَشْرَى﴾ بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة، وهم الموحدون الخاضعون لله.

المناسبة:

بعد أن أوضح الله تعالى حال المشركين الذين عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وأبان أن أكثرهم الكافرون، أتبعه بالوعيد، فذكر حالهم يوم القيامة وبعض مشاهدتهم من شهادة نبيهم لهم أو عليهم، وعدم تخفيف العذاب عنهم ومضاعفته عليهم، وتكذيب المعبودات لهم أنهم شركاء لله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم.

ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من التهديدات المانعة من المعاصي: وهو إحضار شاهد على كل أمة، وأن النبي ﷺ شاهد على أمته، وأن من مزايه بيان أحكام القرآن الذي هو هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين بالجنان.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن شأن المشركين وأحوالهم يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

أي واذكر أيها الرسول هؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهداً عليهم، وهو نبيهم يشهد عليهم بما أجابوه عما بلَّغهم عن الله تعالى، إما بالإيمان وإما بالكفر والعصيان، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١/٤].

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم لا يسمح للكفار بالاعتذار والدفاع عن أنفسهم، إذ لا حجة لهم، ولأنهم يعلمون كذبهم في الاعتذار، كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ [المرسلات: ٧٧/٣٦-٣٥].

وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ يدل على أن منعهم من الكلام والاعتذار أشد عليهم من شهادة نبيهم عليهم.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا يطلب منهم العتاب؛ إذ لا فائدة في العتاب مع سخط الله وغضبه، فإن الرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان جازماً أنه إذا عاتبه، رجع إلى صالح العمل، والآخرة دار جزاء لا دار تكليف وعمل، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وإذا عاين الذين أشركوا وجحدوا نبوة الأنبياء العذاب، فلا ينجو منهم أحد، ولا يخفف عنهم من شدته ساعة واحدة، ولا يمهل عقابهم ولا يؤخر عنهم، بل يؤخذون بسرعة من الموقف بلا حساب؛ لأنه فات وقت التوبة والإنابة، وحان وقت الجزاء على الأعمال.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَاثِرَ يَوْمٍ سَمِعُوا لَهَا قَهْقِئًا وَزَفِيرًا﴾ (١٦) ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٧) ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (١٨) [الفرقان: ١٢/٢٥-١٤] (١) وقوله سبحانه: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (١٩) [الكهف: ١٨/٥٣].

ثم أخبر تعالى عن تباري آلهة المشركين منهم في وقت أحوج ما يكونون إليها، وهذا من بقية وعيد المشركين، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾.

أي إذا شاهد المشركون بالله يوم القيامة شركاءهم الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله في الدنيا، ألقوا تبعة شركهم عليها، وقالوا: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم وندعوهم من دونك، قاصدين بذلك إحالة الذنب والإثم على هؤلاء الشركاء، وهو شأن المتخبط في عمله، كالغريق الذي يتمسك بما تقع يده عليه.

فرد الشركاء قائلين: ﴿فَالْقَوْلُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي قالت لهم الآلهة:

كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْيَاسَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦] وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ أي استسلم العابد والمعبود، وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد، وذلوا واستسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُنَادُونَ نَادُوا رَبَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢/٣٢]. وقال: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨/١٩] أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ. وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١/٢٠] أي خضعت وذلّت واستسلمت.

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي وذهب عنهم افتراؤهم بنسبة الشركاء لله، وأنها نصراء وشفعاء لهم، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨/١٠] وذلك حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

وبعد ذكر وعيد الذين كفروا المضالين، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد غيره عن سبيل الله، من المضالين المضلين، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ أي الذين جحدوا النبوة وأشركوا بالله وكفروا بأنفسهم وحملوا غيرهم على الكفر، وصدوا عن سبيل الله، وهو الإيمان بالله ورسوله، يضاعف الله عقابهم، كما ضاعفوا كفرهم، فهم في الحقيقة ازدادوا كفراً على كفر، فاستحقوا عذابين: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال والافساد، والصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق والإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦/٦] أي ينهون الناس عن اتباع محمد، ويتعدونهم منه أيضاً.

﴿يَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي هذه الزيادة من العذاب بسبب الإفساد والصد. وهذا دليل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال، فقد عظم عذابه، فكَذَلِكَ إِذَا دَعَا إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ، فقد عظم قدره عند الله تعالى.

والآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨/٧].

ثم خصص الله تعالى بالذكر شهادة محمد ﷺ على أمته، وهو نوع آخر من التهديد المانع من المعاصي، فقال مخاطباً رسوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم نبعث في كل أمة (أي قرن وجماعة) نبياً يشهد عليها، قطعاً للحجة والمعذرة، وجئنا بك شاهداً على هؤلاء أي أمتك، بما أجابوك به عن رسالتك، فيظهر لك الشرف الرفيع والمقام العظيم.

وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صَدْرَ سُورَةِ النِّسَاءِ، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١/٤] فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفتُ، فإذا عيناه تَدْرِفَانِ.

ثم أبان الله تعالى بمناسبة بيان شهادة النبي على أمته أنه أزاح علتهم فيما كلفوا، فلم يبق لهم حجة ولا معذرة، فقال:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا﴾ أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيناً لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم، وهدى للضالين، ورحمة لمن صدق به، وبشرى لمن أسلم لله وجهه، فأطاعه وأتاب إليه، بجنات الخلد والثواب العظيم.

وبيان القرآن لأحكام التشريع حلاله وحرامه إما بالوحي نصاً ومعنى مباشرة، وإما بالوحي معنى وهو السنة التي فيها بيان آخر لمجمل القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٦/٤٤] وقال ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي عن المقدام بن معد يكرب: «إني أوتيت القرآن ومثله معه» ثم يأتي دور الاجتهاد في نطاق النصوص الشرعية، وفي ضوء مبادئ التشريع، وروح الشريعة العامة، وضمن مقاصدها وأهدافها العامة. والاجتهاد يشمل كل مصادر التشريع الأخرى غير النصية من إجماع وقياس واستصلاح واستحسان وعرف وسد ذريعة واستصحاب وغير ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - كل نبي شاهد على أمته بما أجابوه عن دعوته، وليس في الآخرة مجال للاعتذار عن التقصير والدفاع عن النفس، ولا يكلف الكفار أن يرضوا ربهم يوم القيامة؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون فيرجعوا إلى الدنيا فيتوبوا.

٢ - لا تخفيف لعذاب جهنم عن المشركين الظالمين، فيدخلون فيها، ولا يؤخرون ولا يمهلون، وإنما يؤخذون بسرعة من الموقف بلا نقاش في الحساب، إذ لا توبة لهم حينئذ.

٣ - تتبرأ الآلهة المزعومة من عبادة عابديها، وتكذبهم بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار.

ويستسلم العابد والمعبود لحكم الله فيهم، ويبعث الله المعبودين من أصنام وأوثان وغيرها، فيتبعهم العابدون حتى يُوردوهم النار. ورد في صحيح مسلم من حديث أنس: «من كان يعبد شيئاً فليتبَّعه، فيتَّبِعْ من كان يعبد الشمس

الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه: «فَيُمَثَّلُ لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون».

٤ - للكفار الذين يصدون عن سبيل الله وهو سبيل الحق والإسلام عذاب مضاعف بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية. ونوع زيادة العذاب موضح في الحديث التالي، روى الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار إذا جَزِعُوا من حرّها، استغاثوا بضحضاح في النار، فإذا أتَوْه، تلقّاهم عقارب كأنهم البغال الذُّهُم، وأفاعٍ كأنهن البَحَّاتِي^(١) تضربهم، فذلك الزيادة».

٥ - الأنبياء - كما ذكرنا - شهود على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة، ودعوهم إلى الإيمان، وفي كل زمان شهيد، وإن لم يكن نبياً، وهم أئمة الهدى خلفاء الأنبياء والعلماء حفظة شرائع الأنبياء.

والنبي ﷺ شاهد على أمته والأمم الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] وقال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢].

قال القرطبي: فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله، كقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال فيه النبي ﷺ: «يبعث أمة وحده»

(١) البخاتي: جبال ضخام طوال الأعناق.

وسَطِيح^(١)، وورقة بن نُوَفل الذي قال فيه النبي ﷺ: «رأيتُه ينغمس في أنهار الجنة». فهؤلاء ومن كان مثلهم حجة على أهل زمانهم، وشهيد عليهم^(٢).

٦ - القرآن الكريم تبيان لكل شيء من أصول التشريع والحلال والحرام، والشرائع والأحكام، ومبادئ الحياة الإنسانية، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨/٦].

وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله تعالى إلا ماورد في هذا القرآن، أي إما جملة وتفصيلاً، وإما جملة فقط. أما الأدلة الأخرى كالإجماع وخبر الواحد والقياس، فقد دل القرآن الكريم ذاته على حجيتها، كما هو معروف في علم أصول الفقه. وكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبياناً لكل شيء، كما قال الزمخشري.

(١) سَطِيح: هو كاهن بني ذئب، كان يتكهن في الجاهلية، واسمه ربيع بن ربيعة.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦٤/١٠.

أجمع آية في القرآن للخير والشر والوفاء بالعهد والهداية والإضلال

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ
إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقْضَتْ غَزْلَهَا مِنْ
بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ
أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٨﴾
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ
بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةَ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٠﴾
وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَدَقُوا أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

القراءات:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرُونَ) وهي قراءة حفص، وهمة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَكَّرُونَ) وهي قراءة الباقرين.

﴿وَلَنَجْزِيَنَ﴾:

قرئ:

١- (ولنجزين) وهي قراءة ابن كثير، وعاصم.

٢- (وليجزين) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿تَوَكَّبِدَهَا﴾ مضاف إليه، وهو مصدر وَّكَّد، ويقال: أَكَّدَ في وَكَّدَ، والواو هي الأصل، والهمزة بدل منها كما كانت في «أَحَدَ» وأصلها «وَحَدَ».

﴿أَنْكَنَّا﴾ منصوب على المصدر، وعامله ﴿نَقَضَتْ﴾ لأنه بمعنى: نكثت نكثاً، أو حال. ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿تَكُونُوا﴾.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ في موضع نصب على تقدير: كراهة أن تكون أمة، أو لثلاث تكون أمة. و﴿تَكُونُ﴾ تامة، و﴿أُمَّةٌ﴾ فاعلها. و﴿هِيَ أَرْبَى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في موضع رفع، صفة ﴿أُمَّةٌ﴾. وهاء ﴿بِئْسَ﴾ تعود على العهد، وقيل: التكاثر.

البلاغة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ مقابلة حيث جمع بين الأمر بثلاثة، ونهى عن ثلاثة. وإيتاء ذي القربى خاص بعد عام للاهتمام به. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ عَزْلَهَا﴾ تشبيه تمثيلي، شبه تعالى من يعاهد ثم ينقض عهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنفضه.

﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فيه استعارة القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه، لكون الثبات يكون عادة بالقدم، ثم شبه الانحراف عن الحق بزلل القدم، وهو تشبيه المعنوي بالانزلاق الحسي بطريق الاستعارة.

﴿يُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهْدِي﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿يَنْفُذُ﴾ ﴿بَاقٍ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿بِالْعَدْلِ﴾ قال ابن عطية: العدل: فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسيّر مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق. والإحسان: فعل كل مندوب إليه^(١).

وذكر البيضاوي أن العدل: التوسط في الأمور اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير. والإحسان: إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية كالنطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الشيخان عن عمر: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

والخلاصة: إن العدل: الإنصاف، والإحسان: إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه.

﴿وَلَا يَتَّبِعْ ذِي الْقُرْبَى﴾ إعطاء القرابة حقهم من الصلة والبر، وخص ذلك بالذكر اهتماماً به و﴿أَلْفَحْشَاءً﴾ كل قبيح قولاً أو فعلاً، ويشمل الزنى والسرقة وشرب المسكرات والطمع ونحو ذلك من المذموم ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما أنكره الشرع واستقبحه العقل السليم، كالكفر والمعاصي من الضرب الشديد والقتل وغمط حقوق الناس، ونحو ذلك ﴿وَالْبَغْيِ﴾ ظلم الناس، والاستعلاء عليهم وتجاوز الحد، وخصه بالذكر اهتماماً، كما بدأ بالفحشاء اهتماماً بها ﴿لَمَّا لَكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ تتعظون.

جاء في المستدرک عن ابن مسعود: وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر. وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية، لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين.

﴿يَعْهَدُ اللَّهُ﴾ العهد: كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد والبيع والأيمان وغيرها ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ﴾ نقض اليمين: الحنث فيها، والأيمان هنا: مطلق الأيمان أو أيمان العهد ﴿تَوَكَّدَهَا﴾ توثيقها ﴿كَفِيلًا﴾ شاهدًا ورقياً بالوفاء، حيث حلفتكم به، والجملة حال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في نقض الأيمان أو العهد، وهو تهديد لهم.

﴿نَقَضَتْ﴾ أفسدت أو فكت غزلها من بعد إبرام وإحكام ﴿غَزَلَهَا﴾ ما غزلته من صوف وغوه، وهو مصدر بمعنى المفعول ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بنقضت، أي من بعد إحكام له وإبرام ﴿أَنْكَثًا﴾ جمع نَكَثَ: وهو ما ينكث بمعنى منكوث وهو المنقوص، أي يحل فتله وينقض بعد غزله. وهي امرأة حمقاء من مكة، كانت تغزل طول يومها، ثم تنقضه. ﴿تَتَخَذُونَ﴾ أي لا تكونوا مثلها في اتخاذكم أيمانكم مكرراً وخديعة ﴿دَخَلًا﴾ أي فساداً ومكرراً وخديعة، وأصل الدَّخَلُ: ما يدخل في الشيء، وليس منه، والمراد أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض.

﴿أَنْ تَكُونُ أُمَّةً﴾ أي لأن تكون جماعة ﴿هِيَ أَرْبَى﴾ أكثر وأوفر عدداً. والمناسبة: أنهم كانوا يحالفون الحلفاء، فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز، نقضوا حلف أولئك، وحالفوهم.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم الله بما أمر به من الوفاء بالعهد، لينظر المطيع منكم والعاصي، أو يختبركم بكون أمة أربي، لينظر: أنفون بالعهود أم لا؟ ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾ في الدنيا من أمر العهد وغيره، بأن يعذب الناكث ويثيب الوافي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه المشيئة مشيئة

اختيار على مذهب أهل السنة «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» أهل دين واحد، متفقين على الإسلام «وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» أي إنه تعالى جعل ناساً للشقاوة أو الضلال وهم من لم يأخذوا بأسباب الهدى، وكان في سابق علم الله أنهم لو تركوا وأنفسهم لما فعلوا إلا الضلال والفساد والبهتان، وجعل ناساً آخرين للسعادة وهم من اهتموا بآيات الله، وعلى هذا النحو خلق الضلال والهدى، أما الإضلال فبالخذلان لمن اختار الكفر، عدلاً، وأما الهداية فبالتوفيق لاختيار الإيمان والدوام عليه، فضلاً.

«وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» هذا سؤال توبيخ وتبكيت يوم القيامة، لا سؤال تفهم، فهذا منفي في آيات أخرى، مثل: «فَيُؤْمِنُ وَلَا يُغْنِي عَنْ ذَنْبِهِ إِنِشْ وَلَا جَانٌّ» [الرحمن: ٣٩/٥٥].

«وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ» كرهه تأكيداً، وهو تصريح بالنهاي عنه بعد التضمين، تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي «فَنَزَلَ قَدَمٌ» أي أقدامكم عن محجة الإسلام، وإنما وحد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟! «بَعْدُ ثُبُوتَهَا» استقامتها عليه «السُّوء» العذاب في الدنيا «بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أي بصدودكم عن الوفاء بالعهد، أو بصدكم غيركم عنه؛ لأنه يستن بكم «وَلَكُرْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في الآخرة.

«وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» أي ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً يسيراً من الدنيا، بأن تنقضوه لأجله. والمناسبة: أن قريشاً كانوا يعدون بوسائل الإغراء ضعاف المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد أن يكافئهم «إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» أي إن ما عند الله من النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب في الآخرة هو خير لكم مما يعدونكم من عطاء في الدنيا «إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» إن كنتم من أهل العلم والتمييز، وتعلمون ذلك، فلا تنقضوا. والخلاصة: إن هذه الآية تحذير من نقض أيمان مخصوصة، وهي

نقض عهد رسول الله على الإيمان به، واتباع شرائعه، طمعاً في خيرات الدنيا ومغرياتها.

﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا وأمتعتها ﴿يَنْفَدُ﴾ يَفْنَى أو يَنْقُضِي ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ دائم لا ينفد ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهود وأذى الكفار ومشاق التكليف ﴿أَجْرَهُمْ﴾ ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بجزاء أحسن من أعمالهم، وقال السيوطي: أحسن بمعنى حسن هنا.

سبب النزول:

نزول الآية (٩١):

﴿وَأَوْفُوا﴾: أخرج ابن جرير عن بُرَيْدَةَ قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن مَزِيدَةَ بن جابر أن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم يبايع على الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الآية، فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان في المسلمين قلة، وفي المشركين كثرة.

نزول الآية (٩٢):

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص: كانت سعيدة الأسدية حمقاء، تجمع الشعر والليف، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

للمناسبة:

بعد أن أفاض الله تعالى في وعد المتقين ووعد الكافرين، وأكد الترغيب والترهيب، أتبعه بأوامر جامعة لأمهات الفضائل، وأصول الأخلاق

الاجتماعية، وأنواع التكاليف المفروضة والنوافل، وهي العدل والإحسان والوفاء بالعهد.

أما آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فهي - كما قال ابن مسعود - أجمع آية في القرآن للخير والشر، وسأذكر الحديث كله. وقال عنها قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به، ويستحسنوه، إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذاقمها. ولهذا جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وأبو نعيم والحاكم والبيهقي عن سهل بن سعد: «إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها».

وقال الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه، قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه، وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدب رجلاً، فأتيا النبي ﷺ فقالا له: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله.

قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية. قالوا: ردّد علينا هذا القول، فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم، فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاكى النسب، وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهم أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامئها - مساوئها -، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذناً^(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٥٨٢/٢ وما بعدها.

وقد ورد في نزولها حديث حسن طويل رواه الإمام أحمد، مفاده أنها كانت سبياً في إسلام عثمان بن مظعون، وموجزه: أن عثمان بن مظعون كان جليس النبي ﷺ وقتاً، فقال له عثمان: ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة، قال: وما رأيتني فعلت؟ قال: شَخَصَ بصرَكَ إلى السماء، ثم وضعته على يمينك، فتحرّفت عني إليه، وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: أو فطنت لذلك؟ أتاني رسول الله أنفأ، وأنت جالس، قال: فماذا قال لك؟ قال لي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ. ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أعظم آية في كتاب الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥]. وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢٥/٣-٢]. وأشد آية في كتاب الله رجاء: ﴿قُلْ يَكْفِإِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

وعن عكرمة: أن النبي ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية، فقال له: يا ابن أخي، أعذ علي، فأعادها عليه، فقال له الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه: أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله، والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من

طاعة الله تعالى إلا جمعه وأمر به، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه.

التفسير والبيان:

هذه الآيات دعائم الحياة الإسلامية وركائز المجتمع الإسلامي، فالآية الأولى يأمر الله فيها عباده بالعدل والإنصاف بصفة مطلقة في كل شيء، في التعامل، والقضاء والحكم، وشؤون الدِّين والدُّنيا، وسلوك الإنسان مع نفسه ومع غيره، بل وفي الاعتقاد، فلا يعبد بحقٍّ وعدلٍ غير الله الخالق الرَّازق النافع، والآلهة المزعومة من أصنام وأوثان وكواكب وملائكة وأنبياء وأولياء وزعماء لا تستحق شيئاً من العبادة والتقدیس، قال ابن عباس في آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صِف لي العدل، فقلت: بَخ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسامهم، ولا تضربنَّ لغضبك سوطاً واحداً، فتكون من العادين.

ويندب الله تعالى إلى الإحسان، والإحسان في العبادة: هو كما في حديث عمر في الصحيحين: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والإحسان في الجزاء العقاب بالمثل واستيفاء الحق في القتل والجرح عن طريق القصاص (المعاملة بالمثل). والإحسان في وفاء الحق أو الدين: أداؤه من غير مماطلة، أو مع الزيادة غير المشروطة المتبرع بها.

وأفضل الإحسان وأعلاه الإحسان إلى المسيء، فقد أمر النبي ﷺ به: «وأحسن إلى من أساء إليك تكن مسلماً». وقال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.

وروى البخاري في تاريخه أن علي بن أبي طالب مرَّ يقوم يتحدثون، فقال: فيم أنتم؟ فقالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عزَّ وجلَّ ذاك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فالعدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل، فما بقي بعد هذا؟

وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع: هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

ويأمر الله في هذه الآية بليتاء ذي القربى أي بصلة الأرحام والأقارب، بالزيارة والمودة والعطاء والتصدق عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦/١٧]، وقد خصَّه بالذكر مع أنه داخل في الإحسان للاهتمام به والعناية بشأنه.

وبعد أن أمر تعالى بثلاثة نهى عن ثلاثة فقال: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾، والفحشاء: الشيء المحرم كالزنى والبهرة وشرب المسكر وأخذ أموال الناس بالباطل.

والمنكر: ما قبحه الشرع والعقل، وظهر من الفواحش من فاعلها، كالقتل والضرب بغير حق، وازدراء الناس وغمطهم حقوقهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣/٧].

والبغي: ظلم الناس والاعتداء عليهم؛ جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أبي بكر: «ما من ذنب أجد أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم».

والخلاصة: العدل: أداء الواجب، والإحسان: الزيادة فيه، والفحشاء والمنكر والبغي: تجاوز حدود الشرع والعقل.

﴿يُعْظَمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، لتعظوا وتذكروا وتعملوا بما فيه مرضاة الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه الترجي والتمني، فإن ذلك محال على الله تعالى، فوجب أن يكون معناه: أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تتذكروا طاعته، وهو يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل.

وبعد أن ذكر الله تعالى كل المأمورات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الإجمال، خصص بعضها بالذكر، فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي ووفوا بالعهود والمواثيق، وحافظوا على الأيمان المؤكدة، وعهد الله: كل ما يجب الوفاء به، من تطبيق أحكام الإسلام، وكل عهد يلتزمه الإنسان باختياره، والوعد من العهد، كما قال ابن عباس.

ثم أكد الله تعالى ضرورة الوفاء بالعهد بقوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا أَلَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي واحذروا نقض العهود وأيمان البيعة على الإسلام بعد توثيقها باسم الله. وأكد ووكّد لغتان فصيحتان. والمراد بالأيمان هنا: هي الداخلة في العهود والمواثيق، أي أيمان العهد أو الأحلاف المعقودة، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع. روى أحمد ومسلم عن جبير بن مُطْعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأبما حلف كان في الجاهلية، فإنه لا يزيد الإسلام إلا شدة» يعني في نصرة الحق والقيام به، والمعنى: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وهذا مثل حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق فقال: اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه ونسبه، فتعاقدوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه، حتى تُردَّ عليه مظلّمته.

فَسَمَت قَرِيشَ ذَلِكَ الْخَلْفَ حَلْفَ الْفُضُولِ، أَيِ حَلْفِ الْفُضَائِلِ. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أَيِ شَهِيدًا.

ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ رَقِيبًا عَلَى الْعَهْدِ لِتَأْكِيدِ احْتِرَامِهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أَيِ إِنَّهُ مَطْلَعٌ وَمَرَاقِبُ كُلِّ مَا تَفْعَلُونَهُ فِي الْعَهْدِ، مِنَ الْبِرِّ بِهَا أَوْ النِّقْضِ لَهَا، وَمَحْصِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَمَجَازِيكُمْ عَلَى أَفْعَالِكُمْ، ثَوَابًا وَرِضًا فِي حَالِ الْبِرِّ وَالْوَفَاءِ، وَعِقَابًا وَسَخَطًا فِي حَالِ النِّقْضِ وَالْعَبْثِ وَالْإِخْلَالِ بِأَحْكَامِ الْمَعَاهِدَةِ. وَهَذَا وَعْدٌ لِلطَّائِعِ، وَوَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لِلْمُخَالَفِ الَّذِي يَنْقُضُ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ.

ثُمَّ أَثْبَدَ اللَّهُ تَعَالَى حَرَمَةَ الْعَهْدِ مَرَّةً ثَالِثَةً فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ﴾ أَيِ وَلَا تَكُونُوا فِي نَقْضِ الْعَهْدِ وَالْمَوَاقِيقِ كَالَّذِي نَقَضَتْ غَرْهَا بَعْدَ إِبْرَامِهِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسُّدِّيُّ: هَذِهِ امْرَأَةٌ خَرَقَاءُ كَانَتْ بِمَكَّةَ، كُلَّمَا غَزَلَتْ شَيْئًا نَقَضَتْهُ بَعْدَ إِبْرَامِهِ. وَاسْمُهَا: رَيْطَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مَرْة. أَوْ هُوَ مِثْلُ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، فَمَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ كَانَ كَمَنْ نَقَضَ الْغَزْلَ بَعْدَ فْتَلِهِ وَإِبْرَامِهِ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ الْعُقْلَاءِ، وَإِنَّمَا فِي زِمَرَةِ الْحَمَقِيِّ. وَالْأَنْكَاثُ: الْأَنْقَاضُ.

﴿لَتَنَحِذُرَنَّكُمْ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أَيِ تَجْعَلُونَ أَيْمَانَكُمْ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ خَدِيعَةً وَمَكْرًا وَتَغْرِيرًا بِالطَّرْفِ الْآخِرِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ جَمَاعَةٌ أَقْوَى وَأَكْثَرُ عَدَدًا وَعُدَّةً مِنْ جَمَاعَةٍ أُخْرَى، بَلْ عَلَيْكُمْ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالْحِفَازُ عَلَيْهَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ مَعْنَاهُ أَنْكُمْ تَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ، لِيُطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَمَكَنَّكُمْ الْغَدْرُ بِهِمْ، غَدَرْتُمْ، فَهِيَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، لِيَنْبَهَ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، أَيِ إِذَا نَهَاكُمْ عَنِ الْغَدْرِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، فَلَا أَنْ يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأُولَى. وَأَرَى: أَكْثَرَ. وَالْمَقْصُودُ: التَّنْهِي عَنْ الْعُودِ إِلَى الْكُفْرِ بِسَبَبِ كَثَرَةِ الْكُفَّارِ وَكَثَرَةِ أُمُوهَا.

ومن أمثلة الوفاء بالعهد: أن معاوية كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى، وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم، وهم غارون - غافلون - لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبْسَةَ: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل، فلا يُجَلِّنْ عقدة حتى يُمضي أمدُها» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش.

﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ يَدَهُ﴾ أي إنما يعاملكم معاملة المختبر، بأمره إياكم بالوفاء بالعهد، لينظر أتغترون بالكثرة والقلّة أم تراعون العهد؟!

﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾ أي وليبين لكم ربكم يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه، من أمر الإيمان والكفر، والوفاء بالعهد والتقص، فيجازي كل عامل بعمله من خير أو شرّ، وهذا إنذار وتحذير من مخالفة ملّة الإسلام، التي من أهم أحكامها وجوب الوفاء بالعهد.

والله قادر على جمعهم على الإيمان وعلى الوفاء بالعهد، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ولو شاء الله لجعل الناس على ملّة واحدة أو دين واحد، بمقتضى الفطرة والغريزة، فتصبحون كالملائكة مخلوقين على منهج الطاعة والانقياد لأمر الله تعالى، فلا اختلاف ولا تباعض ولا شحناء، وإنما وفاق بينكم.

ولكن حكمة الله اقتضت خلقكم متفاوتين في الكسب، كسب الإيمان والتزام الأحكام، مختارين الاعتقاد والعمل، فيضلّ من يشاء ممن سبق في علمه أنه سيختار الضلال، ويهدي من يشاء ممن علم في الأزل أنه سيفعل الخير ويختار الإيمان.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ عَنْآ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة سؤال حساب وجزاء، لا سؤال استفهام، عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها خيراً أو شراً.

ونظير الآية كثير في القرآن، مثل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩/١٠] ، ومثل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩] .

وبعد أن حذر الله تعالى في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق، حذر في قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، وهي أيمان البيعة للنبي ﷺ على الإسلام.

والمعنى: يحذر الله تعالى عباده وينهاهم عن اتِّخاذ الأيمان دَخَلًا، أي خديعةً ومكرًا، تغرون بها الناس، لثلا تزل قدم في الضلال بعد ثبوتها على الاستقامة والإيمان. وهذا مثل لمن كان على الاستقامة، فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى، بأيمان حادثة مشتملة على الصِّدْق عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده، ثم غدر به، لم يعد يثق بالدين، فانصدَّ بسبب الغدر عن الدخول في الإسلام.

﴿وَتَذُقُوا السَّوْءَ﴾ أي وتذوقوا العذاب السيِّء الشديد وهو القتل والأسر في الدنيا، بسبب صدِّكم عن سبيل الله؛ لأن الدخول في الدين، ثم الخروج منه، مشجع للآخرين بالبعد عن الإسلام.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولكم عقاب شديد في الآخرة، جزاء المخالفة والانضمام لفئة الأشقياء الضالين.

أي إنكم إن نقضتم العهد وقعتم في مفاسد ثلاثة:

أ - البعد عن منهج الاستقامة والتأي عن طريق الهدى، بعد الثبات فيهما.

ب - تحمُّل سوء العذاب في الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال وهجر الأوطان.

٣ - العقاب في الآخرة جزاء الإعراض عن جادة الحق والإعراض عن أهله.

ثم حذر الله تعالى من نقض العهد بالمعاوضات فقال: ﴿تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تعاضوا عن الأيمان المحلوفة بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة.

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لو خیرت للإنسان الدنيا بمذافيرها، لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به، وهو خير أيضاً من ذلك العرض القليل في الدنيا.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة.

ووجه الخيرية: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْءُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي إن متاع الدنيا أو نعيمها ينتضي ويفرغ ويزول، وإن طال الأمد، وما عند الله من ثواب في الجنة باقي خالد لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول.

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي والله لنجازي ونثيب الصابرين الذين صبروا على أذى المشركين وأحكام الإسلام التي تتضمن الوفاء بالعهود، بأحسن أعمالهم ونتجاوز عن سيئها، وهو ثواب عظيم، ووعد حسن بمغفرة السيئات.

فقه الحياة أو الأحكام:

حدّدت هذه الآيات دعائم المجتمع المسلم في الحياة الخاصة والعامة، للفرد والجماعة والدولة.

فأمّرت الآية بأوامر ثلاثة، ونهت عن نواهي ثلاثة، تعتبر محاسن الأخلاق.

أما الأوامر: فهي التزام العدل، والإنصاف بأداء الواجبات والفرائض، وفعل الإحسان وهو الزيادة والتفضل، أو النافلة المستحبة فوق الفرض والواجب، وإيتاء ذي القربى أي صلة الأقارب والأرحام. وإنما خصّ ذا القربى؛ لأن حقوقهم أوكد، وصلتهم أوجب.

قال ابن عطية: العدل: هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق. والإحسان: هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أنّ حدّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان.

وقسم ابن العربي العدل ثلاثة أقسام: عدل مع الله، وعدل مع النفس، وعدل مع الناس، فقال:

العدل بين العبد وبين ربّه: إثبات حقّه تعالى على حظّ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزّواجر والامتنال للأوامر.

وأما العدل بينه وبين نفسه: فمنعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وعزوب الأطماع عن الاتّباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى.

وأما العدل بينه وبين الخلق: فبذل التّضحية، وترك الخيانة فيما قلّ وكثُر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه؛ ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، لا في سرّ ولا في علن، والصّبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى.

وأما التّواهي الثلاثة: فهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. والفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل كالزّنى والغيبة. والمنكر: ما أنكره

الشرع بالتهني عنه، وهو يعمّ جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها، وأخطرها الشرك. والبغي: هو تجاوز الحد، كالكبر والظلم والحقد والتعدي. وخصّ بالذكر، بالرغم من دخوله تحت المنكر، اهتماماً به؛ لشدة ضرره. ومن معاني الحديث: «لا ذنب أسرع عقوبةً من بغي» «الباغي مصروع»، وقد وعد الله من بُغي عليه بالنصر، وفي بعض الكتب المنزلة: لو بَغَى جِبِلٌّ عَلَى جِبِلٍّ لَجَعَلَ الْبَاغِي مِنْهُمَا ذَكَاً.

وتضمّنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والآية الثانية خصصت بالذكر الأمر بالوفاء بالعهد، لخطورة العهود والمواثيق. وعهد الله: لفظ عام يشمل جميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة في أمر موافق للديانة.

وأكدت الآية حرمة العهود والمواثيق بعدة مؤكّدات: أولها التهي عن نقضها حتى تنتهي مدتها، بعد تشديدها وتغليظها، وإشهاد الله عليها. وإنما قال تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للتفرقة بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين.

ثم مثل لنقضها بصورة المرأة الحمقاء التي تنقض غزلها أنقاضاً بعد إبرامه وفنله، ثم شتّع على الناقضين بالتخاذ الأيمان خديعةً ومكراً وغشاً وتغريباً، ثم قبح البواعث والأهداف من الغدر ونقض العهد تأييداً لقوة قبيلة كثيرة قوية، وتحللاً من عهد القبيلة الضعيفة القليلة العدد والعُدَد، فقال تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى، أو أكثر أموالاً، فتتنقضون أيمانكم، إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين.

ثم نبّه الله تعالى أن العهود ابتلاء واختبار، وأن الله تعالى سيبيّن الحقائق يوم القيامة في الاختلاف من البعث وغيره.

ثم ذكر تعالى أنه قادر على جعل الناس على ملة واحدة هي ملة الإيمان، والاجتماع على الوفاء بالعهود.

ولكنه تعالى يوفق بهدايته من يشاء فضلاً منه عليهم، ويضلّ من يشاء بخذلانه إياهم لاختيارهم سبيل الضلال، عدلاً منه فيهم، وسيسأل الجميع عن أفعالهم.

ثم بالغ تعالى في التّهي عن عقد الأيمان والعهود المنطوية على الخديعة والفساد، فتزلّ قدم بعد ثبوتها، أي عن الإيمان بعد المعرفة بالله، وهذا استعارة لمستقيم الحال، الذي لا يوفي بالعهد، فيقع في شرّ عظيم.

ثم توعدّ تعالى المخادعين في الأيمان والعهود بعذاب في الدّنيا، وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد الشديد فيمن نقض عهد رسول الله ﷺ؛ فإن من عاهد، ثم نقض عهده، خرج عن الإيمان، وذاق السّوء في الدّنيا: وهو ما يحلّ بهم من المكروه.

ثم حذّر الله تعالى من المتاجرة بالأيمان والعهود، فهي عن الرّشاي وأخذ الأموال على نقض العهد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْعُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تنقضوا عهودكم لعرّض قليل من الدّنيا، وإنما كان قليلاً وإن كثّر؛ لأنه مما يزول، فهو إذن قليل.

ثم بيّن تعالى الفرق بين حال الدّنيا وحال الآخرة، بأن كل ما في الدّنيا ينفد ويتحوّل، وما في الآخرة وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته لا يزول، لمن وقيّ بالعهد، وثبت على العقد.

وختم ما ذكر بأن الله سبحانه يجزي الصابرين على الإسلام والطاعات ومنها الوفاء بالعهد، وعن المعاصي، أجرهم على الطاعات، ويتجاوز عن السيئات، وهذا هو المراد من الجزاء على أحسن أعمالهم.

كل هذه الأوامر والتواهي والمؤكدات والوعود والمواعيد والتعهدات والجزاءات من أجل الحفاظ على المعاهدات والعهود والمواثيق، وعدم الإخلال بأحكامها وشروطها ومشتملاتها.

أجمع آية للرجال والنساء في الترغيب بالعمل الصالح

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

الإعراب:

قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ لأن ﴿مَنْ﴾ يصلح للواحد والجمع، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى.

المفردات اللغوية:

﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ﴾ يبين النوعين دفعاً للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيد في قبول العمل؛ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما يتوقع عليها تخفيف العقاب. ﴿حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا: يعيش عيشاً طيباً لا قلق فيه ولا ضجر، فهو إن كان موسراً لم يصرفه الحرص والطمع عن واجبات الدين، وإن كان معسراً طيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة والرزق الحلال. وقيل: ذلك في الآخرة وهي حياة الجنة. ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة.

المناسبة:

هذه الآية ترغيب للرجل والمرأة في أداء الطاعات والفرائض الدينية، فبعد أن رغب الله تعالى المؤمنين في القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ الَّذِي صَبَرُوا﴾ بأن يجزيهم على أحسن

أعمالهم التي تشمل المباحات والمندوبات والواجبات، ويشيهم على ما عدا المباحات، رغب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام.

التفسير والبيان:

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، فمن عمل صالح الأعمال، من ذكر أو أنثى، وهي الأعمال المطابقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فأدى الفرائض، وكان قلبه مؤمناً بالله ورسوله، فله حياة طيبة في الدنيا، وجزاء بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة: تشمل وجوه الراحة المختلفة، وفسرها ابن عباس وجماعة بالرزق الحلال الطيب، أو السعادة، أو العمل بالطاعة والانصراف بها، أو القناعة، والصحيح - كما قال ابن كثير -: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ.

وروى الترمذي والنسائي عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى للإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به».

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يُعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم قنني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية بوضوح أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان. أما إفادته تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان.

والحياة الطيبة ذكر فيها خمسة أقوال أصحها أنها تشمل كل مناحي السعادة في الدنيا من الصحة والرزق الحلال الطيب، والطمأنينة النفسية وراحة البال، والتوفيق إلى الطاعات، فإنها تؤدي إلى رضوان الله تعالى.

ما يتعلق بالقرآن

الاستعانة والنسخ وعربية القرآن

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلَّفُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ١٠٣ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ١٠٥﴾

القراءات:

﴿قَرَأَتْ﴾:

وقرأ السوسي، وحزرة وفقاً (قرات).

﴿الْقُرْآنَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحزة وقفاً: (القران).

﴿بِمَا يُرْسَلُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (بما يُرْسَل).

﴿الْقُدُسِ﴾:

وقرأ ابن كثير (القدس).

﴿يُلْحِدُونَ﴾:

١- (يُلْحِدُونَ) من «لحد» الثلاثي، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يُلْحِدُونَ) من «ألحد» ولحد، وألحد: بمعنى، وهي قراءة الباقيين.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (لا يهديهم).

الإعراب:

﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ هاء (سلطانه) تعود على الشيطان، وهاء ﴿بِهِ﴾ لله تعالى، وهو مما جاء في التنزيل من ضميرين مختلفين، مثل ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [معد: ٢٥/٤٧] أي سول الشيطان، وأملى الله تعالى، كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨/٣] وقيل: هاء ﴿بِهِ﴾ تعود على الشيطان أيضاً.

﴿وَهَدَىٰ وَيُشْرِكُ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفان على محل ﴿لِيُثْبِتَ﴾ أي تثبيتاً وهداية وبشارة، فهما مفعولان لأجله.

البلاغة:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ مجاز مرسل من إطلاق المسبب على السبب، أي إذا أردت قراءة القرآن.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي﴾ جملة اعتراضية لبيان حكمة النسخ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب، وذكر اسم الله للمهابة.

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ استعار اللسان للغة والكلام، والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة مثل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤] .

﴿أَعْجَبِي﴾ و﴿عَكِرِي﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي أردت قراءته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي أُلجأ إلى الله لحمايتي من وساوس الشيطان في القراءة، وذلك في كل ركعة للمصلي؛ لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً. ﴿سُلْطَنٌ﴾ تسلط وقوة واستيلاء. ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ بطاعته، يقال: توليته: أطعته، وتوليت عنه: أعرضت. ﴿هُم بِهِ﴾ بالله. ﴿بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ بنسخها أو رفعها وإنزال غيرها، لمصلحة العباد. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي قال الكفار للنبي ﷺ: إنما أنت كذاب، تقوله من عندك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وحكمة النسخ وتمييز الخطأ من الصواب. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ قل لهم يا محمد: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل، وسمي بذلك؛ لأنه ينزل بالقدس أي بما يطهر النفوس. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بنزل، أي نزله ملتبساً بالحكمة المقتضية له. ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على الإيمان بأنه كلامه، وإنهم إذا سمعوا النسخ، وتدبروا ما فيه من رعاية

الصّلاح والحكمة، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم. ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لحكمه، وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم.

﴿وَلَقَدْ﴾ للتحقيق. ﴿يُعَلِّمُهُ﴾ القرآن. ﴿بَشَرٌ﴾ هو جبر الرومي، غلام عامر بن الحضرمي النصراني، كان قد قرأ التوراة والإنجيل، وكان حداداً، وكان النبي ﷺ يدخل عليه، ويجلس إليه إذا آذاه أهل مكة. ﴿لِسَانٌ﴾ لغة وكلام. ﴿الَّذِي يُنْجِذُونَكَ إِلَيْهِ﴾ يميلون إليه، ويشيرون أنه يعلمه. ﴿أَعْجَبِيَّ﴾ في لسانه عجمة، سواء من العجم أو من العرب، وهو الذي لا يفصح عن مراده. ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، فكيف يعلمه أعجمي. والجملтан مستأنفتان لإبطال طعنهم. ﴿لَا يَهْدِيهِمْ﴾ لا يخلق الإيمان في قلوبهم، وهذا عام مخصوص فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى.

﴿أَلَيْسَ﴾ مؤلم في الآخرة. ﴿يَقْتَرِي﴾ يخلق. ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِثَابِتِ اللَّهِ﴾ القرآن بقولهم: هذا من قول البشر؛ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا، أو إلى قريش. ﴿هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله والظعن فيها بهذه المزاعم أعظم الكذب، أو الكاذبون في قولهم: إنما أنت مفتر، إنما يعلمه بشر، والتأكيد بال تكرار ردّ لقولهم المذكور.

سبب النزول:

نزل الآية (١١):

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا﴾ نزلت حين قال المشركون: إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مُفْتَرٍ يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها.

نَزُولُ الْآيَةِ (١٠٣):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الْآيَةُ: أخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان: أحدهما يقال له: يسار، والآخر جبر، وكانا صقليين، فكانا يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بهما، فيستمع قراءتهما، فقالوا: إنما يتعلم منهما، فنزلت.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أنه يجزي المؤمنين بأحسن أعمالهم، أرشد إلى العمل الذي تخلص به أعمالهم من وساوس الشيطان. ثم ذكر بعض وساوسه إلى منكري نبوة محمد ﷺ بإلقاء الشبهات ومنها شبهتان:

الأولى - شبهة النسخ: وهو التبديل، أي رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية: رفعها بآية أخرى غيرها، وهو نسخها بآية سواها.

والثانية - شبهة كون القرآن من تعليم نصراني لا من الله، وكان الردّ مفحماً موضعاً بطلان هذه الشبهة: وهو أن القرآن كلام عربي مبين، وهذا المعلم المزعوم أعجمي، فكيف يُعَلِّمُ كلاماً عربياً فصيحاً؟!

التفسير والبيان:

يأمر الله عباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، فيقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، أي الجأ إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم الملعون المطرود من رحمة الله، حتى لا تلتبس عليك القراءة، ولتتدبر معاني القرآن. والآية متصلة بما سبق: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وخطاب النبي ﷺ خطاب لأُمَّته، بل هي أولى؛ لأنه معصوم من وساوس الشيطان وإغوائه.

وظاهر الآية جعل الاستعاذة عقب القراءة، ولكنها قبل القراءة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢/٦] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣/٣٣] وقوله: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَكِدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المائدة: ١٢/٥٨] أي إذا أردتم ذلك. ثم إن سبب الاستعاذة وهو دفع وسوسة الشيطان يقتضي تقديم الاستعاذة قبل القراءة.

والاستعاذة أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والأمر بها أمر ندب بإجماع العلماء، كما حكى ابن جرير وغيره من الأئمة. وعن الثوري وعطاء: أنها واجبة في الصلاة أو غيرها، عملاً بظاهر الآية؛ إذ الأمر للوجوب، لكن الوجوب في رأي الجمهور مصروف عنه إلى الندب؛ لأنه ﷺ لم يعلمها الأعرابي، ولأنه كان يتركها أحياناً.

والاستعاذة في رأي الحنفية وجماعة مطلوبة فقط في أول الصلاة؛ لأنها عمل واحد، مفتتح بقراءة، فتكون في ابتدائها. وفي رأي الشافعية وجماعة: تتكرر في كل ركعة؛ لأنها قد رتبت على القراءة، وكل ركعة فيها قراءة، فتبدأ الركعة بالاستعاذة.

﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَنٌ﴾ أي إن الشيطان أي جنسه ليس له قوة ولا تسلط على المصدقين بلقاء الله، ويفوضون أمورهم إليه. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ﴾ أي إنما تسلطه بالغواية والإضلال على الذين أطاعوه واتخذوه ولياً ناصراً لهم من دون الله، والذين أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان وإغوائه لهم مشركين بربههم.

ثم ذكر تعالى شبهتين من شبهات منكري النبوة بتأثير وسوسة الشيطان.

للمشبهة الأولى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ أي إذا رفعنا آية وجعلنا مكانها آية أخرى لحكمة وهدف، والله أعلم بما ينزله من القرآن، ورأوا تغيير الأحكام ناسخها بمسوخها، عيروا رسول الله ﷺ، وقالوا له: إنما أنت مفتر، أي كذاب، متقول على الله، تأمر بشيء ثم تنهى عنه، بل أكثرهم لا يعلمون ما في التغيير من حكمة ومصلحة للناس، ومراعاة لظروف التغير والتطور، وأخذ بمبدأ التدرج في تنزيل الأحكام، فليس محمد بمفتر، وإنما يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦/٢].

فرد الله عليهم شبهتهم الواهية أمراً رسوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي قل لهم يا محمد: نزلته، أي القرآن المتلو عليكم جبريل عليه السلام، وقد أضيف أي جبريل إلى القدس وهو الطهر من المآثم، نزلته من ربك بالحق، أي مقترناً بالصدق والعدل والحكمة، وأن النسخ من جملة الحق.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ليلوهم بالنسخ، فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتطمئن له قلوبهم، فإذا قالوا: هو الحق من ربنا، حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب.

واستعمال كلمة ﴿نَزَّلَهُ﴾ الدالة على أن التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح، فيه إشارة - كما قال الزمخشري - إلى أن التبديل من باب المصالح، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي إن القرآن بما فيه من نسخ نزل تثبيتاً لهم، وإرشاداً وهادياً، وبشارة بالجنة للمسلمين الذين أسلموا وجوههم لله، وأطاعوه، وانقادوا لحكمه وأمره، وآمنوا بالله ورسوله.

وهذا يدل على أن المسلمين إذا رأوا النسخ، رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم، وثبت الدين في نفوسهم، وتيقنوا من حكمة الله، وهدوا إلى الحق من الضلال والزيغ، وبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار. وأما المشركون فهم على الضد من هذه الصفات.

والشبهة الثانية:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ أي ونحن نعلم تمام العلم ما يقوله المشركون من الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فهم يقولون جهلاً: إنما يعلمه هذا القرآن بشر آدمي، وليس وحياً من الله، ويشيرون إلى رجل أعجمي اللسان، لا يعرف العربية، غلام لبعض القرشيين، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه، ويكلمه بعض الشيء.

واسمه جبر، وقيل: بلعام، وقيل: يعيش، عبد لبني الحضرمي، وكان غلاماً للفاكه بن المغيرة أو لعامر بن الحضرمي أو لعتبة بن ربيعة^(١)، وكان نصرانياً فأسلم، فإذا سمع المشركون بعض القصص القرآني، قالوا: إنما يعلمه جبر، وهو أعجمي.

فردّ الله عليهم افتراءهم وكذبهم بنحو يدعو إلى العجب، فقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِذُونَ﴾ أي لسان الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي لا عربي، والقرآن كلام عربي واضح مبين لكل شيء فصيح يدرك بسرعة، بل أفصح ما يكون من العربية، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي لا يحسن التعبير العربي؟! لا يعقل أن يتعلم هذا النبي كلاماً من هذا النوع من مثل هذا الرجل الأعجمي.

(١) قال القرطبي: والكل محتمل، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة.

ثم كشف الله زيفهم وتوعدهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن الذين لا يصدقون بالآيات المنزلة على رسوله ﷺ، ولم يكن لهم قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، لا يهديهم ولا يوفقهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله، لفقد استعدادهم لذلك واقترافهم السيئات، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجه. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي وأولئك المشركون من قريش هم الكاذبون المفترون، لا أنت يا محمد.

وهذا تصريح بوصفهم بالكذب الذين عرفوا به عند الناس، أما الرسول محمد ﷺ فكان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً و يقيناً، معروفاً بالصدق في قومه، حتى لقبوه بالأمين محمد.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات الرسول ﷺ أجابه بأنه صدوق، وكان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

أ - الاستعاذة من الشيطان الرجيم مطلوبة على سبيل التدب عند الشروع في قراءة القرآن، في الصلاة وغيرها، حتى لا يعرض الشيطان بوسوسته للقارئ، فيصده عن تدبر القرآن والعمل بما فيه.

وللشيطان وسوسة في القلب، حتى في حق الأنبياء، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ﴾ [الحج: ٢٢]

٢ - ليس للشيطان مجال سلطان وقوة بالإغواء والكفر على المؤمنين المصدقين بالله ورسوله؛ لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم حين قال إبليس: ﴿لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَأَنسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] .

لكن قال القرطبي: إن هذا عام يدخله التخصيص، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربك^(١)؟.

٣ - النسخ واقع في القرآن لحكمة هي مراعاة المصالح والحوادث وتطور الأوضاع البشرية. والنسخ: رفع الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ أو متأخر عنه.

وقد نزل جبريل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه، من كلام ربه لتثبيت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات، ولجعلله هادياً ومرشداً ومبشراً للمسلمين بجنات النعيم، فلا يصح للمشركين الاعتراض على النسخ.

وقد ذكرت في تفسير سورة البقرة أن مذهب أبي مسلم الأصفهاني: أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة. وقال عن هذه الآية: إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة، مثل أنه حوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، قال المشركون: أنت مفتر في هذا التبديل، فالآية هي الرسالة أو بعضها.

وقال سائر المفسرين: النسخ واقع في هذه الشريعة، بأدلة واقعية في القرآن والسنة، سبق إيرادها.

(١) تفسير القرطبي: ١٧٦/١٠

وقال الشافعي رحمه الله: القرآن لا ينسخ بالسنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ وهذا يقتضي أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى. وردّ عليه بأن هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى، ولا دلالة فيها على أنه تعالى لا يبدل آية إلا بآية، وأيضاً فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة، كما ينزل بالآية، وأيضاً فالسنة قد تكون مثبتة للآية.

٤ - القرآن بلسان عربي مبين، فكيف يصح للمشركين الزعم بأن محمداً الرسول ﷺ يتعلمه من حداد أعجمي مقيم في مكة؟ مع أن الإنس والجن عجزوا أن يعارضوا منه سورة واحدة فأكثر.

٥ - لا يوفق الله للإيمان هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالقرآن، لإصرارهم على الكفر وعنادهم، وإعراضهم عن هدي الرسول ﷺ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

٦ - قد صرحت الآية: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ بوصف المشركين بالكذب والافتراء جواباً لوصفهم النبي ﷺ بالافتراء. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب، أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم.

المرتدون عن الإسلام والمهاجرون بعدما فتنوا

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

القراءات:

﴿فَتَنُوا﴾:

وقرأ ابن عامر (فتنوا).

الإعراب:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ «مَنْ» بدل مرفوع من (الكاذبين) في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أو مبتدأ أو شرطية، والخبر أو الجواب: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وأحسن الوجوه أن «مَنْ» مبتدأ محذوف الخبر: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ استثناء متصل؛ لأن الكفر يعم القول والنية كالإيمان.

﴿مَنْ شَرَحَ﴾: من: مبتدأ مرفوع، وخبره: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

﴿صَدْرًا﴾ مفعول «شَرَحَ» أي ولكن من شرح بالكفر صدره؛ وحذف الضمير لأنه لا يشكل بصدر غيره، فهو نكرة يراد بها المعرفة.

﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ﴾ ﴿إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَنُورٌ﴾ خبر ﴿إِنَّكَ﴾ الأولى دل عليه خبر ﴿إِنَّكَ﴾ الثانية.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ﴾ على الافتراء، أو على النطق بكلمة الكفر فتلفظ به ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ لم تتغير عقيدته، وثبت على ماكان عليه، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب.

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ له، أي فتحه ووسعه، والمعنى: اعتقده وطابت له نفسه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ هذا وعيد شديد؛ إذ لا أعظم من جرمه، والغضب: أشد من اللعن الذي هو الطرد من رحمة الله ﴿ذَلِكَ﴾ الوعيد لهم ﴿يَأْتَهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ اختاروها أو آثروها وقدموها.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد، وصاروا إلى النار المؤبدة عليهم.

﴿هَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ عذبوا أو اختبروا بالعذاب، وتلفظوا بالكفر، كعمار رضي الله عنه. ومن قرأ: ﴿فَتَنُوا﴾ معناه كفروا، أو فتنوا الناس عن الإيمان، كالحضرمي أكره مولاه جبراً، حتى ارتد، ثم أسلما وهاجرا ﴿ثُمَّ جَهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق ﴿إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر ﴿لَعَنُورٌ﴾ لهم لما فعلوا قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، منعم عليهم، مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ اذكر، وهو يوم القيامة ﴿تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ تحتاج وتجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها، لا يهملها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي. والنفس الأولى: الجثة والبدن، والنفس الثانية: عينها وذاتها ﴿وَتُؤْتَى﴾

كُلُّ نَفْسٍ تَعْطَى جِزَاءً مَّا عَمِلَتْ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون أجورهم شيئاً.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠٦):

﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة، أخذ المشركون بلالاً، وخبّاباً، وعمار بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم نقيّة، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ، حدّثه فقال: كيف كان قلبك حين قلت؛ أكان منشرحاً بالذي قلت؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش بالطريق ففتنهم، فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية.

روايات أخرى:

في آية ﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ﴾: أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل: «أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر، فلم يتركوه حتى سبّ النبي ﷺ، وذكر آهتهم بخير، فلما أتى رسول الله، قال له: ما وراءك؟ قال شرّ ما تركتُ، نلتُ منك، وذكرت آهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعدّ، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾».

وروي: «أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسميّة على الارتداد فأبوا، فربطوا سمية بين بعيرين، ووجئت بحربة في موضع عفتها، وقالوا: إنما أسلمت

من أجل الرجال، فقتلوها وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقليل: يارسول الله، إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأق عمار رسول الله ﷺ، وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: مالك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت.

نزول الآية (١١٠):

﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ﴾: أخرج ابن سعد في الطبقات عن عمر بن الحكم قال: كان عمار بن ياسر يعذب، حتى لا يدري ما يقول، وكان صهيب يعذب، حتى لا يدري ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب، حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر بن فُهَيْرَة وقوم من المسلمين، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن عياشاً رضي الله عنه (وكان أخا أبي جهل من الرضاعة) وأبا جندل بن سهيل، وسَلَمَة بن هشام، وعبد الله بن سَلَمَة الثقفي، فتنهم المشركون، وعذبوهم، فأعطوهم بعض ما أرادوا لِيَسْلَمُوا من شرهم، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا، وجاهدوا، فنزلت فيهم هذه الآية.

للمناسبة:

بعد أن عَظَّم الله تعالى تهديد الكافرين الذين تقولوا الأقاويل على النبي ﷺ، فوصفوه بأنه مفتر، وأن ما جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله، أردف ذلك بيان من يكفر بلسانه لا بقلبه بسبب الخوف والإكراه، ومن يكفر بلسانه وقلبه معاً. ثم ذكر بعده حال من هاجر بعدما فتن، وهم المستضعفون في مكة.

التفسير والبيان:

من كفر بوجود الله وتوحيده بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، فعليه غضب من الله ولعنته، وله عذاب شديد في الآخرة، لعلمه بالإيمان، ثم عدوله عنه، ولأنه استحب الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدم على الردة، ولم يهد الله قلبه، ولم يثبت على الدين الحق، فطبع على قلبه، فهو من الغافلين عما يراد، ومن الذين لا يعقلون شيئاً ينفعهم، وقد ختم على سمعه وبصره، فهو لا ينتفع بها، ولا أغنت عنه شيئاً.

ثم استثنى الله تعالى ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه من أكره فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ أي إذا أكره بسبب الضرب والأذى، وقلبه يأبى ما ينطق به في الظاهر، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه، كما فعل عمار بن ياسر حينما عذبه مشركو مكة. وأصل الاطمئنان: سكون بعد انزعاج، والمراد هنا السكون والثبات على الإيمان، ومعنى قوله: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ أي فتحه ووسعه لقبول الكفر.

ثم ذكر الله تعالى سبب سخطه على المرتد، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا﴾ أي ذلك الجزاء والغضب من الله والعذاب العظيم من أجل أنهم أثروا الدنيا على الآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي وأن الله لا يوفق المصِّرِّين على الكفر، الذين أمعنوا في إنكار توحيد الله ونبوة محمد ﷺ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ﴾ أولئك الذين ارتدوا أو كفروا بعد إيمانهم هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فلا يؤمنون ولا يسمعون كلام الله ولا يبصرون البراهين والأدلة إِبْصَارَ تبصر، وأولئك هم الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومتنهاها.

﴿لَا جَرْمَ أَنَّهُمْ﴾ أي حقاً أو لابد أنهم هم المالكون في الآخرة، الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

هؤلاء المرتدون الخاسرون حَكَمَ الله عليهم بستة أحكام هي:

- ١ - أنهم استوجبوا غضب الله.
 - ٢ - أنهم استحقوا العذاب الأليم.
 - ٣ - أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.
 - ٤ - أنه تعالى حرّمهم من الهداية للطريق القويم.
 - ٥ - أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.
 - ٦ - أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.
- ثم ذكر الله تعالى حكم المستضعفين في مكة، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم في مكة بعدما حاول المشركون فتنهم عن دينهم، وجاهدوا المشركين بعدئذ في المارك، وصبروا على جهادهم، بالعون والنصر والتأييد والمغفرة والستر لذنوبهم، والرحمة بهم، فلا يعاقبهم بعد توبتهم وصدق إسلامهم.

فهؤلاء صنف آخر من المؤمنين كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم، فوافقهم على الفتنة والنطق بالكفر ظاهراً، ثم إنه أمكنهم الخلاص بالهجرة إلى المدينة، تاركين بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا على الأذى، فأخبر تعالى أنه من بعدها أي من بعد تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة، لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب برحيم أو بإضمار فعل: اذكر،

أي إنه غفور رحيم بهم يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته، لا يهمه شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عن: ٣٧/٨٠].

ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها، كفولهم: ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨/٧]، ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣/٦] ونحو ذلك.

﴿وَنُؤَقِّ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي وتعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على جزاء الشر، ولا يظلمون فقيراً، أي شيئاً حقيراً أو صغيراً.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على الأحكام التالية:

أ - جزاء المرتدين يوم القيامة هو ستة أوصاف ذكرناها. وأما جزاؤهم في الدنيا فهو القتل، لحديث ابن عباس عند الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): «من بدل دينه فاقتلوه».

٢ - الترخيص للمستكره بالنطق بالكفر ظاهراً مع اطمئنان القلب بالإيمان، فقد أمر النبي ﷺ عماراً أن يعود إلى مجارة المشركين في القول إن عادوا إلى إكراهه، لكن عدم المجارة أفضل.

أ - قال العلماء: إن الأمر في الحديث للإباحة، والصارف له عن الوجوب إليها: ما روي عن خُيَّب بن عدي لما أراد أهل مكة أن يقتلوه أنه لم يعطهم التقية، بل صبر حتى قتل، فكان عند النبي ﷺ خيراً من عمار في إعطائه التقية. ثم إن في الصبر على المكروه إعزازاً للدين والإسلام وغيظاً للمشركين، فهو بمنزلة من قاتل المشركين حتى قتل، فتأثير الإكراه حينئذ إنما

هو إسقاط المأثم فقط، كما قال ﷺ فيما رواه الطبراني عن ثوبان، وهو صحيح: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فألحق المكره بالخطي والناسي، وفي رواية أخرى لابن ماجه عن أبي ذر: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان.. إلخ».

وكذلك بلال الحبشي أبي على المشركين المجارة في القول، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم، وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيط لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه.

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيْلِمَةُ الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

ورواية القصة هي: «أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضاً، فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهيناً له»^(١).

والخلاصة: أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر، فاختار القتل، أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة.

ب - لما سمح الله عز وجل بالكفر به - وهو أصل الشريعة - عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا أكره الإنسان عليها لم يؤاخذ بما قال أو فعل، ولم يترتب عليه حكم.

(١) الكشف: ٢/٢١٩، تفسير ابن كثير: ٢/٥٨٨، تفسير القرطبي: ١٠/١٨٨ وما بعدها.

ج - قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل: أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي، غير محمد بن الحسن، فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلح عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلماً. وهذا قول يردده الكتاب والسنة، فإنه مخالف لهذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾.

د - اختلف الفقهاء في طلاق المكره وعتاقه ونكاحه، فذهب الحنفية إلى أن الطلاق ونحوه يلزمه؛ لأن الطلاق يعتمد الاختيار، والإكراه ينفي الرضا ويحقق الاختيار.

وغير الحنفية ذهبوا إلى عدم لزومه، استدلالاً بالحديث المتقدم: «رفع عن أمي» وحمله الحنفية على رفع الحكم الأخروي وهو الإثم.

هـ - وأما بيع المكره والمضطر فله حالتان:

الأولى - أن يبيع ماله في حق وجب عليه: فذلك نافذ لازم لا رجوع فيه؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى صاحبه من غير المبيع، فلما لم يفعل ذلك، كان بيعه اختياراً منه، فلزمه.

الثانية - بيع المكره ظلماً أو قهراً: فهو بيع غير لازم، وهو أولى بمتاعه، يأخذه بلا ثمن، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم؛ فإن تلف المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك، على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه.

و - للإكراه مراتب:

الأولى - أن يجب الفعل المكره عليه، مثل الإكراه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة، هنا يجب الأكل؛ لأن صون الروح عن الهلاك واجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

الثانية - أن يصير ذلك الفعل مباحاً لا واجباً، كالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر، يباح ولا يجب.

الثالثة - ألا يجب ولا يباح بل يحرم، كالإكراه على قتل إنسان أو قطع عضو آخر، يبقى الفعل على الحرمة الأصلية. أما القصاص فيسقط في رأي، ويجب في رأي آخر^(١).

قال القرطبي: أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمة مجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحمل له أن يُقْدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة^(٢).

والخلاصة: ثلاثة أمور لا تباح بحال هي الكفر والقتل والزنى. ويرخص في إجراء كلمة الكفر على اللسان فقط دون استباحة ذلك.

ز - هل يجد الزاني مكرهاً؟ فيه رأيان: قال بعضهم: عليه الحد؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره، وقال الأكثرون: لا حد عليه، وهو الصحيح. وإذا استكرهت المرأة على الزنى، فلا حد عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ وقوله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣/٢٤] يريد الفتيات. والعلماء متفقون على أنه لا حد على امرأة مستكرهة.

ح - هل يجب الصداق (المهر) للمستكرهة؟ قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور: لها صداق مثلها. وقال الحنفية والثوري وأصحاب مالك: إذا أقيم الحد على الذي زنى بها، بطل الصداق. قال ابن المنذر: القول الأول صحيح.

(١) تفسير الرازي: ١٢٢/٢٠

(٢) تفسير القرطبي: ١٨٣/١٠

ط - إذا أكره إنسان على إسلام (تسليم) أهله (زوجته) لما لم يحلّ، أسلمها فيما ذكر القرطبي، ولم يقتل نفسه دونها، ولا احتمل أذية في تخليصها. وإن أمكنه الدفاع عن عرضه وجب ذلك.

ي - يمين المكره غير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء؛ لأن نيته مخالفة لقوله. وقال الحنفية: إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث؛ لأن المكره له أن يورّي في يمينه كلها، فلما لم يورّ، فقد قصد إلى اليمين.

ك - إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال، كأصحاب المكس (الجمارك) وظلمة السعاة وأهل الاعتداء، فقال مالك: لا تقيّة له في ذلك، وإنما يدرأ المرء يمينه عن بدنه، لا ماله. وقال ابن الماجشون: لا يحنث، وإن درأ عن ماله، ولم يخف على بدنه.

ل - قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر، فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعارض، فإن في المعارض لمدوحة عن الكذب، ومتى لم يكن كذلك، كان كافراً؛ لأن المعارض لا سلطان للإكراه عليها، مثل أن يقول: أكفر باللاهي، بزيادة الياء، وكافر بالنبي بالتشديد، أي المكان المرتفع من الأرض، أو بالنبي أي الخبر.

م - حد الإكراه: عند مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء هو الوعيد المخوف، والسجن، والضرب، والإخافة، والإيثاق، والقيّد ونحو ذلك. ونقل عن الحنفية أنهم لم يجعلوا السجن والقيّد إكراهاً على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه لا يخاف منهما التلف، وجعلوهما إكراهاً في إقرار الشخص: لفلان عندي ألف درهم.

ن - المرتدون استوجبوا غضب الله وعذابه؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وحرّموا من هداية الله، وطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وجعلوا من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

٤ - كتب الله المغفرة والرحمة للذين هاجروا من بعد ما فتنوا أي قبلوا فتنة مشركي مكة، ثم جاهدوا مع المؤمنين، وصبروا على الجهاد، وهؤلاء هم المستضعفون، مثل عمار بن ياسر، وجبر مولى الحضرمي الذي أكرهه سيده، فكفر، ثم أسلم مولاه، وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا، ومثل المذكورين في سبب النزول: عياش وأبي جندل وسلمة بن هشام وعبد الله بن سلمة، ومثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتد ولحق بالمشركين، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان، فأجاره النبي ﷺ، ثم صار والياً على مصر. وقد ذكرت قصة عمار، وأشير للمعذيين المستضعفين بإيجاز.

قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخبّاب، وضمّهيب، وبلال، وعمار، وسمية.

أما الرسول فحماء أبو طالب، وأما أبو بكر فحماء قومه، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد، ثم أجلسوا في الشمس، فبلغ منهم الجهد بحر الشمس والحديد، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم، ويشتم سمية، ثم طعنها بحربة في ملمس العفة.

عاقبة كفران النعم في الدنيا

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَافَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الإعراب:

﴿قَرْيَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ الجملة حال.

البلاغة:

﴿قَرِيَّةٌ كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ المراد أهلها على سبيل المجاز المرسل، لأجل أنها مكان الأمن وظرف له، والظروف توصف بما حل فيها.

﴿فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعارة مكنية في آذاقها، حذف منها المشبه به، شبه ذلك اللباس لكرهته بالطعام المر، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإذاقة، على طريق الاستعارة المكنية، أي إنه استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه، نظراً إلى المستعار له.

المفردات اللغوية:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي وجعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة، فكفروا، فأنزل الله بهم النعمة، أو لمكة ﴿قَرِيَّةٌ﴾ هي مكة، والمراد أهلها، وقال الرازي: والأقرب أنها غير مكة؛ لأنها ضربت مثلاً لمكة، وهو غير مكة. ﴿ءَامِنَةً﴾ من الغارات، لا تهاج. ﴿مُطَمِّئَةً﴾ لا يحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف. ﴿رَزَقُهَا﴾ قوتها. ﴿رَعْدًا﴾ واسعاً. ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي بنعمه، جمع نعمة، كدرع وأدرع، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس، وكفرانها بتكذيب النبي ﷺ. ﴿فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ فحططوا سبع سنين. ﴿وَالْخَوْفِ﴾ بتهديدهم بسرايا النبي ﷺ. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بصنعهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ محمد ﷺ. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الجوع والخوف. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ حال التباسهم بالظلم.

المغاسبة:

بعد أن هدد الله تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة، هددهم أيضاً بأفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف.

التفسير والبيان:

ذكر الله صفة قرية للعبرة، كانت بأهلها آمنة من العدو، مطمئنة لا يزعجها خوف، يأتيها رزقها الوافر رغداً أي هنيئاً سهلاً واسعاً من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، أي جحدوا بها، فعثمهم الله بالجوع والخوف، وبدلوا بأمنهم خوفاً، وبغناهم جوعاً وفقراً، وبسرورهم ألماً وحزناً، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته، بسبب أفعالهم المنكرة.

وجاءهم رسول من جنسهم، فكذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول إليهم، مبلغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه ويشكروه على النعمة، وتمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذبوا بعذاب الاستئصال الشامل، حال كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسل، متلبسين بالظلم: وهو الكفر والمعاصي، وما ظلمهم الله أبداً.

والمثل: قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة، سواء كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن موجوداً، وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً، ويحتمل أن تكون قرية معينة، وهذه القرية إما مكة أو غيرها، وأكثر المفسرين على أنها مكة وأهلها، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، فجحدت بآلاء الله، وأعظمها بعثة محمد ﷺ، فأذاقها الله شدة الجوع والخوف، بعد الرفاه والأمن، وأبوا إلا معاندة الرسول ﷺ، فدعا عليهم بقوله: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء وابتلوا بالقحط، فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة

والعظام المحرقة، والعلَّهز: وهو وير البعير المخلوط بدمه إذا نحره. ثم قتل رؤسائهم في بدر.

وقال الرازي: والأقرب أنها غير مكة؛ لأنها ضربت مثلاً لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة. أي إن هذا المثل عبرة لكل قرية، وعلى التخصيص مكة إنذاراً من مثل عاقبتها، وهي مثل لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نعمته.

وقوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن، وقوله: ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحة بسبب طيب الهواء والمناخ، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إشارة إلى الكفاية^(١). وبعد أن وصفت القرية بهذه الصفات الثلاثة قال: ﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ والأنعم جمع نعمة، وهو جمع قلة، أي أنها كفرت بأنواع قليلة من النعم، فعذبها الله. والمقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان كفران النعم القليلة موجباً العذاب، فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب.

وهذه الصفات، وإن وصفت بها القرية، إلا أن المراد في الحقيقة أهلها، لذا قال في آخر الآية: ﴿يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وسماه الله لباس الجوع والخوف؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى وجوب الإيمان بالله وبالرسل، وإلى عبادة الله وحده، وشكره على نعمه وآلائه الكثيرة، وإلى أن العذاب الإلهي لا حق بكل من كفر بالله وعصاه، وجحد نعمة الله عليه.

(١) قال بعضهم ميئاً أهمية هذه العناصر الثلاثة للحياة:

ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

وهذا إنذار ووعيد لأهل كل قرية اتصفوا بالظلم أي بالكفر والمعاصي؛ إذ لا ظلم أشد من ظلم الكفر والمعصية، في حق الله تعالى.

والعذاب أو العقاب من جنس العمل، فإن أهل هذه القرية لما بطروا بالنعمة، بدلوا بنقيضها، وهو محققها وسلبها، ووقعوا في شدة الجوع بعد الشبع، وفي الخوف والهلع بعد الأمن والاطمئنان، وفي انعدام موارد العيش بعد الكفاية.

الحلال الطيب والحرام الخبيث من المأكولات

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٤٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴿١٤٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ ﴿١٤٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٤٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿نِعْمَتٌ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقر بالتاء.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾:

قري:

١- (فمن اضطر) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمة.

٢- (فمن اضطر) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾: ما مع الفعل بعدها: في تأويل المصدر. ﴿الْكَذِبَ﴾ مفعول ﴿تَصِفُ﴾. ومن قرأه بالجذر كان بدلاً مجروراً من (ما) أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

البلاغة:

﴿حَلَلٌ﴾ ﴿حَرَامٌ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَكُلُوا﴾ أيها المؤمنون، أمرهم تعالى بأكل ما أحل الله لهم، وشكر ما أنعم عليهم، بعدما زجرهم عن الكفر، وهددهم عليه.

﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي لوصف ألسنتكم، والمراد: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول من غير دليل، فمن قال: له وجه يصف الجمال، وعين تصف السحر، أراد أنه جميل، وأن عينه فتانة، وهنا جعل الكذب كأنه حقيقة مجعولة، وكذبهم يشرح تلك الحقيقة.. ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه. ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ أي لهم متاع في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود. ﴿مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في آية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾

بتحريم ذلك. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب المعاصي الموجبة لذلك. ﴿الْشُّوَاءَ﴾ الشرك. ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم. ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ الجهالة أو التوبة. ﴿لَعَفُورٌ﴾ لهم. ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

للمناسبة:

بعد أن هدد الله تعالى الكفار على كفران النعم، وزجرهم عن الكفر بضرب المثل، أمر المؤمنين بأكل ما أحل الله لهم، وشكر ما أنعم عليهم، والمعنى: أنكم لما آمتم وتركتم الكفر، فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة، واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم ونحوهما، ثم أوضح لهم أن التحليل والتحريم ليسا بالهوى والشهوة ومحض العقل، وإنما لا بد من دليل أو نص شرعي، وأن ما حُرِّم على اليهود هو ما ذكر سابقاً في سورة الأنعام، وأن من يعمل السوء (وهو كل ما لا ينبغي من الكفر والمعاصي) بجهالة أي بطيش وعدم تدبر العواقب (وكل من عمل السوء، فإنما يفعله بالجهالة) ثم يتوب بعدئذ، فإن الله يغفر له معصيته ويرحمه.

التفسير والبيان:

هذا انتقال من الإنذار والتخويف إلى الاطمئنان، وتهذبة الخواطر، وتطبيب النفوس المؤمنة، والإذن بمتع الحياة الحلال، لا الخبيثة الحرام كالميتة والدم، فكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الحلال الطيب، واشكروه على ذلك، فإنه المنعم المتفضل الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، إن كنتم تعبدونه حقاً، فتطيعونه فيما أمر، وتنتهون عما نهى، والمراد بالجملة الأخيرة التحريض على العبادة والاستمرار عليها.

والحلال أكثر بكثير من الحرام، ولكنه على وفق ما أذن الله به، لا على النحو الذي كان عليه عرب الجاهلية من تحريم ما أحل الله، لذا ناسب ذلك

بيان المحرمات القليلة أمام الحلال الكثير الواسع، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي إنما حرم عليكم ريكم محرّمات أربعة فقط؛ لأن لفظة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، وهي أكل الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما ذبح على النصب للأصنام، وهو داخل تحت قوله: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ذبح على غير اسم الله، جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس: «ملعون من ذبح لغير الله» فلا تحرموا شيئاً مما أحله الله لكم.

وقد ذكرت هذه الأنواع الأربعة في سور ثلاث سابقة هي سورة البقرة المدنية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣/٢] وسورة المائدة المدنية أيضاً: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣/٥] وسورة الأنعام المكية كهذه السورة: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥/٦]. وأما المذكور في سورة المائدة من المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكي (ذبح حياً) فهو داخل في الميتة.

ثم استثنى تعالى حالة الضرورة فقال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أي فمن دعت الضرورة وألجأته، واحتاج من غير بغى ولا عدوان إلى تناول شيء من هذه المحرمات، لمجاعة غلب على ظنه الهلاك فيها، غير باغ على مضطر آخر، بأن ينفرد بتناوله، فيهلك الآخر، ولا عاد أي متجاوز ما يسد الرمق والجوع أي قدر الضرورة، مما يدل على تحريم الشبع وهو مذهب الأكثرين، فإن الله غفور ستار لذنبه أو هفوته، لا يؤاخذ على ذلك، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك. وفي هذا تيسير وتوسعة على هذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر.

ثم نهى الله تعالى عن سلوك سبيل المشركين بالتحليل والتحريم بآرائهم، وما ابتدعوه شرعاً في جاهليتهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، وتحليل الميتة والدم وغيرهما، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

الْكُذِبَ» أي ولا تحللوا وتحرموا بالرأي والهوى والجهالة، دون اتباع شرع الله، ولجورد وصف ألسنتكم الكذب دون دليل. وهذه مبالغة في تأكيد حصر المحرمات في الأربع السابقة.

﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي لتصير عاقبة أمركم إسناد التحليل والتحريم إلى الله كذباً، من غير إنزال شيء فيه، فإن من حلل أو حرم شيئاً برأيه دون دليل أو وحي من الله، كان من الكاذبين على الله تعالى.

فيدخل في هذا النهي كل من حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وهواه، وكل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي.

ثم تواعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ، مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾. أي إن الذين يخلقون الكذب على الله، لا يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فلهم متاع قليل زائل وعرض زائل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم جداً، كما قال: ﴿تُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤/٣١] .

والآية في الأصل خطاب للكفار الذين حرموا البهائم والسواحب، وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة.

وبعد بيان الحلال والحرام والمباح للضرورة لهذه الأمة، ذكر تعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل نسخها، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ أي وقد حرمنا على اليهود ما أخبرناك به أيها الرسول في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦] فلا يصح لكم أيها العرب التحريم والتحليل من عند أنفسكم، ولا تقليد اليهود فيما حرمنا عليهم، فلم نحرّم عليهم إلا ما ذكر.

وسبب التحريم هو: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ» أي وما كان التحريم بظلم منا، ولكن كان بسبب ظلم ارتكبهوه، فإنهم ظلموا أنفسهم بعضيان ربهم ومعاينة رسلهم، وتجاوز حدودهم، فاستحقوا ذلك، وعوقبوا بما حرمناه عليهم، كما قال تعالى: «فِيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طِبْيَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» [النساء: ١٦٠/٤]. وهو صريح في أن التحريم كان بسبب الظلم والبغي، عقوبة وتشديداً.

ثم أبان الله تعالى إمكان قبول التوبة تكملاً وامتناناً على العصاة والمفترين على الله، والمتهكين حرماته، فقال: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ» أي إن الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة، فإن ربك غفور ستار رحيم بالذين افتروا عليه بالتحليل والتحريم، وعملوا السوء: وهو كل ما لا ينبغي من الكفر والمعاصي، بسبب الجهالة؛ لأن كل من عمل السوء، فإنما يفعله بالجهالة، فلا يرضى أحد بالكفر مع العلم بكونه كفراً، ولا تصدر المعصية عنه إلا إذا غلبت الشهوة على العقل والعلم.

لكن المغفرة والرحمة مرتبطان بالتوبة والإنابة، والندم على ما فعلوا، وإصلاح الأعمال على وفق مراد الله ورسوله، فمن تاب من بعد ذلك، أي من بعد تلك السيئة أو الجهلة، وأصلح عمله، فأمن بالله ورسوله وأطاع الله ورسوله، فإن الله يغفر ذنبه، ويرحمه في الآخرة والدنيا.

وقد أعاد قوله: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» على سبيل التأكيد، ثم قال «لَغُفُورٌ رَحِيمٌ» أي لذلك السوء الذي صدر عنهم بسبب الجهالة.

وهذا يدل على أن ارتكاب الذنب يكون غالباً بسبب غلبة الشهوة على ميزان العقل والعلم، أو بسبب جهالة الشاب وطيشه. ويدل أيضاً على أن من أقدم على الكفر والمعاصي ولو دهن طويلاً، ثم تاب وأمن وعمل صالحاً، فإن الله يقبل توبته، ويخلصه من العذاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ - إباحة الحلال الطيب الذي لا ضرر فيه، وتحريم الخبيث الضار الذي يؤدي إلى الأذى والشر، وذلك بحق يقتضي شكر النعمة.

٢ - المحرمات الأساسية في الشريعة أربعة: هي الميتة والدم ولحم الخنزير، والمذبح لغير الله من الأصنام وغيرها.

٣ - يباح للضرورة التي يترتب على مخالفتها غلبة الظن بالوقوع في الهلاك تناول شيء من الأطعمة المحرمة المذكورة آنفاً.

٤ - تحذير المؤمنين من التشبه بالكفار في تحليل الحرام وتحريم الحلال، دون دليل أو برهان من المشرع الحقيقي وهو الله، فذلك افتراء على الله الكذب، والمفترون لا يفلحون في الدنيا والآخرة. فممتاعهم في الدنيا متاع قليل، ونعيمها يزول عن قريب، ولهم استمتاع بمتاع قليل، ثم يردون إلى عذاب أليم.

٥ - التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يخبر الله تعالى بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول المجتهد فيه: إني أكره كذا، وهكذا كان يفعل مالك وأحمد وغيرهما من أهل الفتوى من السلف الصالح. فإذا قوي دليل التحريم فلا بأس بالقول بأنه حرام، كتحرим الربا في غير الأصناف الستة الواردة في تحريم الربا بنوعيه: ربا الفضل وربا النسيئة.

٦ - الأنعام والحَرْث (الزروع والثمار) حلال لهذه الأمة، فأما اليهود فحُرمت عليهم منها أشياء، وما ظلمهم الله بتحريم ما حرم عليهم، ولكن ظلموا أنفسهم، فحرم عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

٧ - اقتضت رحمة الله وفضله وكرمه أن يقبل توبة عباده الذين يعملون السوء من الكفر والمعاصي، ثم يتوبون بعد فعلها، ويصلحون أعمالهم، فيغفر الله لهم.

إبراهيم عليه السلام

واتباع ملته وتعظيم اليهود السبت

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ ﴿١٣١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ۚ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ ﴿١٣٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ ﴿١٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿صِرَاطٍ﴾:

وقرأ قبل (سراط).

الإعراب:

﴿حَنِيفًا﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿اتَّبِعِ﴾ ولا يحسن أن يكون حالاً من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ لأنه مضاف إليه.

البلاغة:

﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي كان رجلاً جامعاً للخير، كالأمة والجماعة؛ لانصافه بأوصاف كثيرة.

﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ التفات عن الغيبة إلى التكلم، زيادة في تعظيم أمره.

المفردات اللغوية:

﴿أُمَّةٌ﴾ إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير، والأصل في الأمة: الجماعة الكثيرة، وسمي إبراهيم بذلك؛ لكمالته واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة في أشخاص كثيرة، كما قال أبو نواس مادحاً الرشيد:
وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
ولأنه عليه السلام كان وحده مؤمناً، وكان سائر الناس كفاراً.

﴿فَإِنَّا﴾ مطيعاً لله قائماً بأمره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الدين الباطل إلى الدين الحق القيم. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا، فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟ ﴿أَحْبَبَهُ﴾ اصطفاها للنبوة. ﴿وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله. ﴿وَأَتَيْنَهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة. ﴿حَسَنَةً﴾ هي الثناء الحسن وعبة أهل الأديان جميعاً له. ﴿لِمَنِ الصَّلَاحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العُلا، من أهل الجنة، كما سأله بقوله: ﴿وَالْحَقِّقِ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، و﴿ثُمَّ﴾: إما لتعظيمه والتنبيه على أن أجل ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول ﷺ ملته، أو لتراخي أيامه. ﴿أَنِ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أن اتبع دين إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه بالرفق، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى، والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين. وكرر رداً على زعم اليهود والنصارى أنهم كانوا على دينه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ فرض تعظيمه، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه. ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود، أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة، فقالوا: لا نريده، وإنما نريد يوم السبت؛ لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السماوات والأرض، فشدد الله عليهم، وألزمهم السبت. وقيل: معناه إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة، وحرموه أخرى، واحتالوا له الحيل. وذكر ذلك هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَخْكُهُمْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق من الذين أبوا تعظيم السبت والمعظمين له بما يستحقه، من إثابة الطائع، وتعذيب العاصي بانتهاك حرمة.

للمناسبة:

بعد أن أبطل الله تعالى مذاهب المشركين من إثبات الشركاء لله، والظعن في نبوة الأنبياء والرسول عليهم السلام، وتحليل أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أباحها الله، وكانوا مفتخرين بمجدهم إبراهيم عليه السلام، مقرين بحسن طريقته ووجوب الاقتداء به، بعد إبطال ذلك كله، ختم تعالى هذه السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين، وقدوة الأصوليين، ليتأسوا به إن كانوا صادقين في اتباع ملته، ولحمل المشركين على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك، والاقتداء به لاتصافه بصفات تسع.

وبعد وصف إبراهيم بهذه الصفات العالية، أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباع ملة إبراهيم - ملة التوحيد.

وبما أن محمداً ﷺ اختار يوم الجمعة، فذلك يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان قد اختار في شرعه يوم الجمعة، وهذا يستدعي السؤال: لم اختار اليهود يوم السبت؟ فأجاب الله تعالى بأن تعظيم السبت واتخاذها للعبادة لم يكن

من شرع إبراهيم ولا دينه، وإنما كان مفروضاً على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم موسى عليه السلام في شأن تعظيمه، حيث أمرهم بالجمعة، فاختلفوا السبت، فاختلفهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم، وليس اختلافهم في أن منهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك، وهذا هو ما صححه الرازي^(١).

التفسير والبيان:

مدح الله تعالى إبراهيم إمام الخفاء، ووالد الأنبياء، وبرثته من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فيقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾.

أي إنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بتسع صفات هي:

أ - إنه كان أمة، أي كان وحده أمة من الأمم، لكماله في صفات الخير والمعنى: أنه الإمام الذي يقتدى به.

٢ - كونه قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً لله قائماً بأمره.

٣ - كونه حنيفاً، أي مائلاً عن الشرك والباطل قصداً إلى التوحيد.

٤ - إنه ما كان من المشركين، بل كان من الموحدين في الصغر والكبر، فهو الذي قال للملك زمانه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِبُ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨/٢] وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦/٦] ثم كسر الأصنام حتى ألغوه في النار.

ونظير الآية قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧) [آل عمران: ٦٧/٣].

(١) تفسير الرازي: ١٣٧/٢٠

٥ - شاكراً لأنعم الله عليه، والأنعم وإن كان جمع قلة إلا أن المراد به أنه كان شاكراً لجميع نعم الله إن كانت قليلة، فبالأولى الكثيرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٥٣/٣٧] أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وهذا تعريض بكل من جحد بأنعم الله مثل قريش وغيرهم.

٦ - إنه اجتباؤه ربه، أي اختاره واصطفاه للنبوة، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١/٢١].

٧ - إنه هداه إلى صراط مستقيم، أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق، والتنفير عن الدين الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣/٦].

٨ - وآتاه الله في الدنيا حسنة، أي إن الله حبيه إلى جميع الخلق، فكل أهل الأديان يُقرُّون به، سواء المسلمون واليهود والنصارى، أما كفار قريش وسائر العرب، فلا فخر لهم إلا به، وهذا إجابة لدعائه إذ قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤/٢٦].

٩ - وإنه في الآخرة لمن الصالحين أي في زمريهم، تحقيقاً لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣/٢٦] وكونه مع الصالحين لا ينفي أن يكون من أعلى مقامات الصالحين؛ لقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣/٦].

وبعد تعداد هذه الصفات العالية لإبراهيم عليه السلام، أمر الله نبيه باتباعه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وبناء على كماله وصحة توحيده وطريقته، أوحينا إليك أيها الرسول أن اتبع ملة إبراهيم الحنيف المائل عن كل الأديان والشرك والباطل إلى دين التوحيد، وما كان مشركاً، وذكر ذلك لزيادة التأكيد، وهو يدل على أن اتباع ملة إبراهيم إنما هو في الأصول أي الدعوة إلى التوحيد وفضائل الأخلاق والأعمال. أما الفروع فقد تختلف؛

لقله تعالى: ﴿لِكَلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨/٥] وذلك حسب تطور الأزمنة واكتمال العقل والنضج الإنساني، ومراعاة أحوال الأمم والشعوب. وذكر ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يدل على تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، والدلالة على أن أشرف كرامة وأجل نعمة لإبراهيم الخليل اتباع الرسول ﷺ ملته.

ومتابعة إبراهيم تقتضي كونه اختار يوم الجمعة للعبادة، كما اختاره النبي محمد ﷺ؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليفة وامت النعمة فيه على عباده، أما تعظيم السبت عند اليهود فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقد اختاروه لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات التي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة.

أي إنما جعل تعظيم السبت مفروضاً على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم موسى في شأن تعظيمه، حيث أمرهم بالجمعة فاختلفوا السبت، فكان اختلافهم في السبت اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم، أي لأجله، وليس اختلافهم فيه في أن منهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك، كما صحح الرازي^(١).

وقال الزمخشري: المعنى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على اليهود المختلفين فيه، وهو أنهم أحلوا الصيد فيه تارة، وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة، بعد أن حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. والمقصود هو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره، والخالعين ربة طاعته، فالله يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلّين تارة، ومحرمين أخرى^(٢).

(١) تفسير الرازي: ١٣٧/٢٠

(٢) تفسير الكشاف: ٢٢١/٢

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وإن الله ليفصل بين الفريقين فيما اختلفوا فيه، ويجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب.

والظاهر لدي هو التأويل الأول، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾: اتبعوه وتركوا الجمعة. والمراد بقوله: ﴿اُخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يوم الجمعة، اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى.

وظل اليهود متمسكين بتعظيم السبت حتى بعث الله عيسى بن مريم فيقال: إنه حوَّاهم إلى يوم الأحد. ويقال: إنه ظل معظماً السبت، ولكن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، كما تحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - إن وصف إبراهيم عليه السلام بتسع صفات عالية وشريفة، يقتضي الاقتداء به، والقصد من ذلك دعوة مشركي العرب إلى ملة إبراهيم الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع الإلهية؛ إذ كان إبراهيم أباهم الذي يفتخرون به، ويعترفون بحسن طريقته، ويقررون بوجوب الاقتداء به، وهو باني البيت الذي به عزهم.

٢ - أمر النبي ﷺ باتِّباع ملة إبراهيم في عقائد الشرع وأصوله من الدعوة إلى توحيد الله والتحلي بفضائل الأخلاق، لا اتباعه في الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمْعًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ﴾ [المائدة: ٤٨/٥].

٣ - الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول؛ لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء عليهم السلام، وقد أمر بالاعتداء بهم، فقال: ﴿فِيهِدْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠/٦] وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

٤ - لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه تعظيم السبت، وإنما كان السبت

تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال، وترك التبسط في المعاش، بسبب اختلافهم فيه.

هـ - إن الله تعالى لم يعين يوماً للتفرغ فيه للعبادة، وإنما أمر بتعظيم يوم في الأسبوع، فعينت اليهود السبت؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق، وعينت النصراني يوم الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق، فألزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعين الله لهذه الأمة يوم الجمعة، من غير تفويض إلى اجتهادهم، فضلاً منه ونعمة، فكانت خير الأمم أمة محمد ﷺ. ثبت في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون، السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

ولفظ مسلم عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم يوم القيامة».

٦ - إن المقصود من آية السبت أن النبي ﷺ أمر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف فيه، فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود.

أسس الدعوة إلى الدين وجعل العقاب بالمثل والصبر على المصاب

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿ضَيْقٍ﴾ :

وقرأ ابن كثير (ضَيْقٍ).

الإعراب:

﴿فِي ضَيْقٍ﴾ قرئ بفتح الضاد وكسرهما، والضَّيْقُ بالفتح: المصدر، والضَّيْقُ بالكسر: الاسم.

المفردات اللغوية:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ادع يا محمد الناس إلى دين الله ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيج للشبهة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ المواعظ والعبر النافعة والقول الرقيق. قال البيضاوي: والأولى - أي الحكمة - لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية - أي الموعظة - لدعوة عوامهم ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار أيسر الوجوه وأقوم الأدلة وأشهر المقدمات،

فإن ذلك أنفع في تسكين ثورتهم وتبيين شغبهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما، فليس إليك، بل الله عالم بالضالين والمهتدين، وهو المجازي لهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني، وليس له أن يجاوزه، وفيه أيضاً الحث على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجه الأكيد بقوله: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ لهو، أي الصبر خير كله من الانتقام.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي واصبر يا محمد وما صبرك إلا بتوفيق الله، وتثبيتته، وهذا تصريح بالأمر به لرسول الله ﷺ؛ لأنه أولى الناس به، لزيادة علمه بالله، ووثوقه عليه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين إن لم يؤمنوا، لحرصك على إيمانهم، أو على المؤمنين وما فعل بهم يوم أحد ﴿وَلَا تَلُكْ فِي صَبَقِ مِمَّا بَمَكُرُون﴾ لا تك في ضيق صدر من مكرهم، أي لا تهتم بمكرهم، فأنا ناصرك عليهم ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم من طاعة وصبر، بالعون والنصر، والولاية والفضل.

سبب النزول:

نزول الآية (١٣٦):

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والبخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة، حين استشهد، وقد مُثل به فقال: لأمثلنَّ بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل، والنبي ﷺ واقف، بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة، فكف رسول الله ﷺ، وأمسك عما أراد.

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان أحد

أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، ومنهم حمزة، فمُثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَتَرَبَّيْنًا عليهم، فلما كان فتح مكة، أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية. قال السيوطي: وظاهر هذا تأخير نزولها - أي السورة - إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة، ثم ثانياً بأحد، وثالثاً يوم الفتح، تذكيراً من الله لعباده.

والخلاصة: إن هذه الآية مدنية في رأي جمهور المفسرين، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير.

فضيلة هذه الآيات:

قيل لهرم بن حبان حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى محمداً ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، بين الشيء الذي أمره بمتابعته، وهو دعوة الناس إلى الدين بإحدى طرق ثلاث: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن. والدعوة إلى دين الله وشرعه تكون بتلطف، وهو أن يسمع المدعو الحكمة: وهو الكلام الصواب القريب، الواقع من النفس أجمل موقع.

فالآية متصلة بما قبلها اتصالاً حسناً، لتدرج الآيات من الذي يُدعى ويُوعظ، إلى الذي يُجادل، إلى الذي يُجَازى على فعله.

ثم أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف، وجعل القصاص بالمثل، ثم صرح تعالى بالأمر بالصبر على المشاق والمصائب، والصبر بتوفيق الله ومعاونته، هو مفتاح الفرج.

التفسير والبيان:

الدعوة إلى دين الله وتوحيده أو الإعلام بها أمر ضروري للعلم بها، لذا كانت هي المهمة الأساسية للرسول عليهم السلام، فأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو الناس إلى الله بالحكمة قائلًا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي ادع أيها الرسول الناس إلى شريعة ربك، وهي الإسلام بالحكمة، أي بالقول المحكم، والموعظة الحسنة، أي بالعبر والزواجر التي تؤثر بها في قلوبهم، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وخصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، ومن احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، واصفح عمن أساء في القول، وترفق بهم في الخطاب، وقابل السوء بالحسن، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت، وسب الخصم أو الأذى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦/٢٩].

فهذا أمر للنبي ﷺ بلين الجانب ولطف الخطاب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤/٢٠] فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي قد علم الله الشقي منهم والسعيد، ومن حاد عن منهج الحق، ومن اهتدى إليه، وهو مجازيهم على ضلالهم واهتدائهم حين لقاء ربهم، فله الجزاء، لا إليك يا محمد ولا إلى غيرك، وليس عليك هداهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦] وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢/٢]. والآية مشتملة على وعد ووعيد.

ومن رفق النبي ﷺ في الدعوة ما رواه أبو أمامة: أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، أتأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: قربه إذن، فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ: أتجبه لأمك؟ قال: لا، جعلني الله فداك. قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتجبه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتجبه لأختك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه منه.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى بالرفق في الدعوة والخطاب، أمر بالعدل والإنصاف في العقاب، والمماثلة في استيفاء الحق؛ إذ قد تكون الدعوة سبباً في إغاطة الآخرين، وإقدامهم على القتل أو الضرب أو الشتم، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾.

أي وإن عاقبتم المسيء أيها المؤمنون، فعاقبوه بمثل جرمه، بلا زيادة ولا تجاوز للحدود. وإن أخذ رجل منكم شيئاً، فخذوا مثله، فإن الزيادة ظلم، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به.

وقوله: ﴿عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إنما سماه الله عقاباً على سبيل المشاكلة؛ لأن أصل العقاب المجازاة على الفعل، فالفعل في ابتداء الأمر ليس عقاباً.

ثم دعا تعالى إلى الترفع عن العقاب والتسامي عن المقابلة والجزاء بالمثل، فقال: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

أي ولئن صبرتم عن المقابلة بالمثل، وتجاوزتم عن الإساءة، وصفحتهم، واحتسبتم الثواب والأجر على ما نالكم من ظلم، فالله يتولى عقابه، والصبر خير للصابرين من الانتقام؛ لأن انتقام الله أشد. فقوله ﴿لَهُوَ﴾ يعود الضمير

إلى المصدر في قوله: «صَبْرْتُمْ». والمراد بالمصدر: إما الجنس أي جنس الصبر خير، وإما صبركم، أي لصبركم خير لكم، فوضَعَ «لِلصَّابِرِينَ» موضع لكم ثناء عليهم.

ثم أمر الله نبيه صراحة بالصبر بصفة عامة بعد أن ذكر حسن عاقبته، فقال: «وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» أي واصبر على ما أصابك من أذى في سبيل الدعوة، وما صبرك إلا بعون الله وحسن توفيقه ومشيبته، أي لما كان الصبر شاقاً، ذكر ما يعين عليه، فالجأ إلى الله في طلب الصبر، والتشيت في الأمر.

وقوله: «وَأَصْبِرْ» تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة. وهو تسلية للنبي ﷺ عما ناله من أذى قومه، وتشيت له.

«وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» أي ولا تجزع على إعراض المشركين وكل من خالفك، فإن الله قدر ذلك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فترك الحزن مما يستعان به على الصبر.

«وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ» أي لا تكن في غم وضيق صدر من مكروهم وتديبرهم الكيد لك، وإجهاد أنفسهم في عداوتك، وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك، كما قال تعالى: «فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ» [الأعراف: ٢/٧] وقال: «فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلِكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١١﴾» [هود: ١٢/١١].

«إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا» أي إن الله مع المتقين الذين تركوا محارمه، المجتنبين معاصيه بالنصر والمعونة والتأييد، ومع المحسنين أعمالهم برعاية الفرائض، والتزام الطاعة، وأداء الحقوق. والصبر: من التقوى والإحسان. فقوله: «الَّذِينَ اتَّقَوْا» أي تركوا محارمه، وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» أي فعلوا الطاعات.

وهذه معية خاصة، يراد بها الإعانة والتأييد والهداية، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢/٨] وقوله لموسى وهرون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ ءَاسَمْعُ وَارَى﴾ [طه: ٤٦/٢٠] وقول النبي ﷺ للصديق، وهما في الغار: ﴿لَا تَخْزَنَ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠/٩].

وهناك معية عامة بالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤/٥٧] وقوله: ﴿وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧/٥٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

أ - على من يدعو الناس إلى دين الله اتباع إحدى هذه الطرق الثلاث: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن.

وعلى الداعية أيضاً أن يكون شجاعاً في الحق، فلا يهن، صارماً في الصدق، فلا يضعف، مخلصاً متفانياً في مبدته، فلا يبيعه بزخارف الدنيا وزينتها، ولا يتطلع إلى ما في أيدي الناس. وأن يصبر في دعوته؛ جاءت قریش إلى أبي طالب عم النبي ﷺ، وعرضوا عليه أن يأخذ محمد ﷺ ما شاء من مال، ويترك ما يدعو إليه، فذكر أبو طالب للنبي ﷺ ذلك، فبكى وقال:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه».

٢ - لا يتعلق حصول الهداية بالداعية، فهو تعالى أعلم بالضالين، وأعلم بالمهتدين.

٣ - العقاب يكون بالمثل دون زيادة، فالمظلوم منهي عن استيفاء الزيادة من الظالم.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في أخذ مال، ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانتة في القدر الذي ظلمه، فقالت فرقة: له ذلك، محتجين بهذه الآية وعموم لفظها: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ».

وقال مالك وجماعة معه: لا يجوز له ذلك؛ لقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الدار قطني - «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخْنَ مِنْ خَانَكَ». ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني، بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخْنَ مِنْ خَانَكَ».

٤ - دلت آية: «بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» على جواز التماثل في القصاص، فمن قُتل بمحديدة قُتل بها، ومن قُتل بجحر قُتل به، ولا يتعدى قدر الواجب.

٥ - سَمَّى الله تعالى الأذى في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك من طريق المشاكلة، ليستوي اللفظان، وتتجانس دياجة القول، فالأول مجاز والثاني حقيقة.

هذا بعكس قوله: «وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ» [آل عمران: ٥٤/٣] وقوله: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» [البقرة: ١٥/٢] فإن الفعل الثاني أي من الله هو المجاز هنا، والأول هو الحقيقة، كما قال ابن عطية.

٦ - التحلي بالصبر فضيلة أمر الله بها. قال ابن زيد عن آية: «وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»: هي منسوخة بآية القتال. ولكن جمهور الناس على أنها مُحْكَمَة، أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عوقبوا به من المثلثة.

٥ - إن الله نصير المتقين الذين تركوا الفواحش والمعاصي ومؤيدهم ومعينهم، وهو أيضاً نصير المحسنين الذين فعلوا الطاعات.

تم هذا الجزء الرابع عشر والله الحمد

فهرس المجلد السابع

فهرس الجزء الثالث عشر

الموضوع	الصفحة
تتمة الفصل الثامن من قصة يوسف	
٢- النفس الأمارة بالسوء	٥
الفصل التاسع من قصة يوسف - يوسف في رئاسة الحكم ووزارة المالية	٨
الفصل العاشر من قصة يوسف - أولاد يعقوب يشترون القمح من أخيههم يوسف ومطالبته إياهم بإحضار أخيههم	١٤
الفصل الحادي عشر من قصة يوسف - مفاوضة إخوة يوسف أباهم لإرسال أخيههم بنيامين معهم في المرة القادمة	١٩
الفصل الثاني عشر من قصة يوسف - وصية يعقوب لأولاده بالدخول إلى مصر من أبواب متفرقة	٢٥
الفصل الثالث عشر من قصة يوسف - معرفة يوسف أخاه بنيامين واتخاذ التدابير لإبقائه لديه	٣٠
الفصل الرابع عشر من قصة يوسف - نقاش حاد بين أولاد يعقوب وبين يوسف وبين أبيهم حول السرقة المزعومة	٤١
الفصل الخامس عشر من قصة يوسف - تعرّف أولاد يعقوب على يوسف في المرة الثالثة واعترافهم بخطتهم وعفوه عنهم	٥٧
الفصل السادس عشر من قصة يوسف - إخبار يعقوب بريح يوسف وتأنيده ببشارة البشير	٦٧

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع عشر من قصة يوسف - لقاء أسرة يعقوب عليه السلام في مصر	٧٣
الفصل الثامن عشر من قصة يوسف - دعاء جامع يتضمن تحدث يوسف بنعم الله عليه وطلبه من ربه حسن الخاتمة	٨٠
الفصل التاسع عشر من قصة يوسف - إثبات نبوة محمد ﷺ	٨٣
الإخبار عن المغيبات والإعراض عن التأمل في الآيات ودعوة النبي إلى التوحيد	٨٣
الفصل العشرون من قصة يوسف - العبرة من القصص القرآني	٩٣
سورة الرعد	١٠٤
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	١٠٤
ما اشتملت عليه السورة	١٠٥
القرآن حق	١٠٧
بعض مظاهر قدرة الله في السموات والأرض	١١٠
إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب ومطالبتهم بإنزال آية مادية على النبي ﷺ	١٢٠
بعض مظاهر علم الله المحيط بكل شيء	١٢٩
مظاهر ألوهية الله وربوبيته وقدرته	١٣٩
وحدانية الله ومثل المؤمن والمشرک تجاه الوحدانية	١٤٩
مثل الحق والباطل ومآل السعداء والأشقياء	١٥٥

الموضوع	الصفحة
أوصاف أولي الألباب السعداء وجزاؤهم	١٦٣
صفات الأشقياء وجزاءهم	١٧١
الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله لمن آمن به	١٧٤
محمد صاحب الرسالة والرسول وبيان عظمة القرآن وقدره الله الشاملة	١٨١
صفة الجنة وموقف أهل الكتاب من نبوة النبي ﷺ وشبهات المشركين حولها	١٩٢
مهمة الرسول تبليغ الشريعة والله شاهد له ومحاسب وحاكم بين العباد ومحبط مكر الكفار	٢٠٥
سورة إبراهيم	٢١٣
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٢١٣
ما اشتملت عليه هذه السورة	٢١٤
الغاية من إنزال القرآن وذم الكافرين وكون الرسول بلسان قومه	٢١٦
مهمة الرسول موسى عليه السلام ونصائحه لقومه	٢٢٤
بعض أخبار الرسل السابقين مع أمهم	٢٣١
تهديد الكفار لرسولهم بالطرد أو الردة والوحي بأن العاقبة للأنبياء	٢٤٠
دليل وحدانية الله ووجوده وقدرته على معاد الأبدان	٢٤٩
الحوار بين الأشقياء يوم العذاب والمناظرة بين الشيطان وأتباعه وظفر السعداء بالجنة	٢٥٢

الموضوع	الصفحة
مثال الكلمة الطيبة من السعداء ومثال الكلمة الخبيثة من الأشقياء	٢٥٩
كفران النعمة واتخاذ الأنداد وتهديد الكافرين بالتمتع بنعيم الدنيا وأمر المؤمنين بإقامة الصلاة والإنفاق	٢٦٧
أدلة وجود الله والتوحيد في الكون والأنفس	٢٧٣
دعاء إبراهيم عليه السلام مستقبل البيت الحرام	٢٧٩
ما يدل على وجود القيامة وأوصافها أو تأخير عذاب القيامة وأحوال المعذنين وتبدل السموات والأرض	٢٩٠

* * *

فهرس الجزء الرابع عشر

الموضوع	الصفحة
سورة الحجر	٣٠٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٣٠٧
ما اشتملت عليه السورة	٣٠٨
وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة	٣١٠
بعض مقالات المشركين في النبي ﷺ والرد القاطع عليها	٣١٦
بعض مظاهر قدرة الله تعالى - خلق السموات والأرض وإرسال الرياح لواقع والإحياء والإماتة والعلم الشامل والحشر	٣٢٣
بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإبلاء إبليس وعداؤه البشر	٣٣٣
جزاء المتقين يوم القيامة	٣٤٢
المغفرة والعذاب	٣٤٧
قصة ضيف إبراهيم وإخيارهم بإهلاك قوم لوط	٣٥١
قصة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحجر (نمود)	٣٦٦
أفضال الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ	٣٧٤

الموضوع	الصفحة
سورة النحل	٣٨٧
تسميتها وارتباطها بالسورة التي قبلها	٣٨٧
ما اشتملت عليه السورة	٣٨٨
إثبات البعث والوحي	٣٩٠
أدلة وجود الله ووحدانيته	٣٩٥
أدلة أخرى لإثبات الألوهية والوحدانية	٤٠٥
خواص الألوهية - الخلق وعلم السر والعلم والحياة الأبدية	٤١٣
صفات المستكبرين - إنكار المشركين الوحي المنزل والنبوة وجزاؤهم	٤٢٠
صفات المتقين - إيمان المتقين بالوحي المنزل وجزاؤهم	٤٢٩
تهديد المشركين على تماديهم في الباطل	٤٣٥
احتجاج الكفار بالقدر وإنكارهم البعث وتشابه مهمة الرسل	٤٣٨
جزاء المهاجرين، وبشرية الرسل ومهمة النبي ﷺ في بيان القرآن وتهديد الكافرين	٤٤٩
مناقشة عقائد المشركين وأعمالهم القبيحة	٤٦٣
عادة الأمم في تكذيب الرسل ومهمة النبي ﷺ في بيان القرآن وجعله هدى ورحمة	٤٧٧

الموضوع	الصفحة
من دلائل القدرة الإلهية والتوحيد ومظاهر النعم على الناس	٤٨٠
بعض عجائب أحوال الناس الدالة على قدرة الله وتوحيده	٤٩٢
مثالان للأصنام والأوثان	٥٠٠
علم الله الغيب وخلقه الإنسان والطير	٥٠٦
بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الإلهي	٥١٢
وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة	٥٢٠
بعث الشاهد عليهم وعلى المؤمنين وعدم تخفيف العذاب ومضاعفته	٥٢٠
عليهم وتكذيب المعبودات لهم	
أجمع آية في القرآن للخير والشر والوفاء بالعهد والهداية والإضلال	٥٢٩
أجمع آية للرجال والنساء في الترغيب بالعمل الصالح	٥٤٧
ما يتعلق بالقرآن - الاستعاذة والنسخ وعربية القرآن	٥٤٩
المرتدون عن الإسلام والمهاجرون بعدما فتنوا	٥٦٠
أحكام المستكره ومراتب الإكراه	٥٦٨
عاقبة كفران النعم في الدنيا	٥٧١
الحلال الطيب والحرام الخبيث من المأكولات	٥٧٥
إبراهيم عليه السلام واتباع ملته وتعظيم اليهود السبت	٥٨٢

الصفحة

الموضوع

٥٩٠ أسس الدعوة إلى الدين وجعل العقاب بالمثل والصبر على المصاب

٥٩٩ فهرس الجزء الثالث عشر والجزء الرابع عشر

* * *